تاريخ البشرية

المجلد السادس . القرن العشرون

التطور العلمي والثقافي

الجزء الثاني

٢

صورة الذات وتطلعات شعوب العالم

إعداد : اللجنة الدولية باشراف منظمة اليونسكو

الترجمة والمراجعة

عثمان نوية . د. راشد البراوي . محمد علي أبو درة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٢

تاريخ البشرية

المجلد السادس . القرن العشرون

التطور العلمي والثقافي

الجزء الثاني

٢

صورة الذات وتطلعات شعوب العالم

إعداد : اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو

الترجمة والمراجعة

عثمان نوية . د. راشد البراوي . محمد علي أبو درة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٢

مقدمة

من العوامل التى ساعدت على تشكيل التطور الثقـافى للجنس البشرى فى القرن العشرين ، ما كان يجيش فى نفوس الأمم والجماعات من أمان وجهت ماتبذل من جهود كى تجعل واقع حياتها متسقا مع مثلها العليا • ففى جو التغيير المستمر حرك الاحساس بامكانات جديدة الناس ليحلموا ويعملوا • وكانت البواعث نحو تحقيق الذات بشكل أو آخـر ، جزءا من دينامية هذه السنوات •

وتتفحص الفصول الثلاثة التالية بعضا من الصور الذاتية الرئيسية التى على ضوئها تصورت نفسها وعبرت عن أمانيها المشتركة ، تلك الدول القومية والمجموعات الأخرى التى يساورها احساس بذاتية مشتركة • وهذه الفصول لا تتعلق بالقوى الاقتصادية أو عوامل القوة التى تؤثر فى مجرى الأحداث التاريخية أو التغييرات التى طرأت على الأنظمة* ، بل انها تعنى بنظرات مجموعات من الناس وبالطريقة التى ساعدت بها هذه النظرات على تركيز الجهود الواعية المبـذولة من جانب الأفراد والمجموعات • وصحة هذه الصور الذاتية والأمانى لا تبحث وفقا لأيـة معايير مستقلة ، الا من حيث ما تشتمل عليه من بعض دلالات على علاقتها بالتيارات العريضة مثل القومية ، فكل من هذه الافكار تبحث حسب مصطلحاتها الخاصة بها على أساس الافتراض بأن فهم التطورات الثقافية لأية فترة يتطلب تقديرا للكيفية التى بدأ بها الناس فى نظر أنفسهم •

(x) انظر الفصول ١ ـ ٥ ، ٢١ ـ ٢٣ •

وفى عصر القومية هذا شكلت الأمانى الجماعية وجرى التعبير عنها بمصطلحات قومية • وتجسدت فى سياســـات الدول الداخلية ، وفى علاقاتها الخارجية الأفكار التى اعتنقهـــا أهل كل دولة قوميـــة عن مصيرهم الجماعى • وكانت هذه الصياغات القومية سياسية وثقافية فى آن واحد • ففى عالم دخل القرن العشرين ـ وقد سيطرت عليه أوربا من الناحية السياسية فضلا عن الثقافية ـ لم تكن الدوافع على التعبير الثقافى والاعتراف بالثقافات حقيقية بدرجة أقل من الدوافع نحو تحقيق الأهداف السياسية • كان تأكيد الاستقلال والتفرد الثقافيين قوة دافعة للشعوب المستعمرة الساعية وراء الاستقلال السياسى ، ولغيرها التى كان استقلالها السياسى مضمونا ، ولكن كان تعبيرها الثقافى مختلفـــا أو محجوبا عن الانظار • وكانت الدوافع على الاتجاه الثقـــافى فى داخل البلاد مرتبطة بتغييرات فى مركز المجموعات السلالية أو الاجتماعية • ففى عـــدد من الأقاليم واجهت المجتمعات ذات الثقافات المتعددة مشكلة الطريقة التى تحقق بها حلا ثقافيا وسطا فى الصراع بين القومية التى ازدادت حدة والدوافع من أجل الاستقلال الثقافى •

ان أية محاولة لعرض ماترسمه الشعوب من صور لنفسها ، وعرض الأمانى التى وجهت سياساتها العامة ، تواجه صعوبة أن كل أمة كانت متفردة ، وأن أمانى الأمم لم تكن جامدة ، وأنه ما من اتجاه واحد كان يسرى فى جميع القطاعات والطبقات والمهن والعناصر السلالية والنظرات الشخصـــية ، حتى فى الدول التى تسودها المركزية الشـــديدة أو الدكتاتورية • وفى هذا الفصل والفصل الذى يليه سوف يكون فى الامكان معالجة السمات الكبرى فقط لأمانى الامم والشعوب التى أسهمت فى التطور الثقافى للبشر خلال هذه السنوات •

ففى كل حالة كانت الصورة الذاتية القومية التى سبقت ملاحظتها هى صورة العنصر الغالب الذى وفر الزعامة القادرة على التعبير • وحتى يتسنى تجنب قائمة لانهاية لها تضم أكثر من ثمانين شعبا ، جمعت البلاد على أساس معالم مشتركة معينة • لكن ينبغى أن نذكر أن الأساس الذى وقع عليه الاختيار ليس الا واحدا من ألوان التجميع التى كان يمكن عملها ، وأن نظرة العنصر الغالب فى دولة ، كثيرا ما كانت تشاركه اياه العناصر غير المتسلطة فى أماكن أخرى ، وأن الصراعات والانقسامات فى الرأى داخل الشعوب لم تكن أقل أهمية من الفوارق بين الدول القومية•

وفوق هذا ، ففى داخل كل مجتمع كان الافراد الذين ينتمون الى فئات فى مركز سيىء ، يسعون وراء فرصة المشاركة كأعضـــاء كاملين

بالمجتمعات التى هم جزء منها · وأهم من هذا كله أن العمال الذين كان عملهم يؤخذ على أنه سلعة ، راحوا يسعون من أجل قوة المساومة ، وفى سبيل وضعهم فى المجتمع بوصفهم بشرا ، وكان الفلاحون يحنون الى أرضهم ، وجاهدت النساء لتحقيق قدر أكبر من المساواة مع الرجال ، وناضلت الأقليات العنصرية أو الطوائف الخاضعة للتفرقة من أجل حق المواطنة الكاملة · وعمدت مثل هذه المجموعات الى التنظيم وبذلت شتى الجهود لكى تحصل لنفسها على نفس القدر من الحرية والاحترام ، الذى توفر لأولئك الذين كانوا ينعمون بمركز ممتاز فى مجتمعاتهم ·

ان الناس سواء كشعوب أو كمجموعات حضارية أو كأفراد يسعون الى المواطنة فى أسمى مراتبهـا بذلوا فى القرن العشرين جهـودا واعية لاحداث التغيرات الاجتماعية التى تمكنهـم من بلوغ أمانيهم وتحقيـق الصور التى رسموها لأنفسهم ، على أسس أبرزوا فيها آمالهم · ١ ، ٢

الفصل التاسع

الصور الذاتية للشعوب وأمانيها

وفرت الدولة القومية بالقرن العشرين ، بما تطالب به من ولاء سام وجماعى المصطلحات التى وصف بها أعضاؤها نظرتهم ورغباتهم ، وذلك الى حد كان نادرا فى العصور السابقة ·

وكانت عملية صوغ الأهداف القومية فضلا عن طبيعـة الصياغة ، تتفاوت من دول دكتاتورية قائمة على المركزية ، الى دول ذات بنيان أقل مركزية يوفر مسالك أكثر ، يمكن أن تعكس النظرة الشعبية · ولكن كان فى كل مكان ثمة درجة ما من التفاعل المتبادل بين الناس والدولة ، حتى حيث وجد عنصر صغير يفرض ارادته على الأغلبية ، ويدعم هـــذه الارادة بوسائل دكتاتورية ·

وكان العنصر الأعم فى أمانى الشعوب القومية هو الاندفـاع نحو تحقيق المساواة بين الشعـوب أو بين أوضاع القـوميات المختلفة · فاذ تفككت الامبراطوريات الكبرى بعد الحرب العـالمية الأولى وأصبحت شعوب المستعمرات بعد الحرب العالمية الثانية أمما بما لها من حق فى ذلك رأت الدول ، كبيرها وصغيرها ، أنفسها وحدات مستقلة تقف من الناحية القانونية على قدم المساواة مع غيرها · فالأمم التى تجاوز عددها الثمانين والتى تكونت منها الأمم المتحدة فى أواخر الخمسينات ، كانت تشترك فى الاحساس بذاتيتها كأمم ، وفى الافتراض بأن صوتها سوف يسمع مهما كان ضعيفا ، وأن تكاملها مهما كان مزعزعا ينبغى احترامه·

وبرغم أن الدول الكبرى سيطرت على الأمم المتحدة ، كما سيطرت من قبل على عصبة الأمم ، وعلى العالم قبل الحرب العالمية الأولى ، فقد كانت تتحرك بين عدد من دول أخرى تمتعت ، على الأقل بالتعبير الفنى ، بمركز أعضاء بأسرة الامم ، أعضاء مسئولين على قدم المساواة (٣) ٠

وكانت فكرة المساواة بين الامم تنطوى فى جوهرها على مفهومين : هما تقرير المصير وتحقيق الذات ٠ وكان أولهما فى جوهره فكرة سياسية مستمدة من مذاهب الليبرالية والديموقراطية ، ومن النظرة الى الانسان على أنه كائن عاقل قادر على تقرير مصيره وله الحق فى هذا ٠ وهذا المفهوم، بالشكل الذى ورثه القرن العشرون ، لم يطبق خارج النطاق السياسى ٠ وعلاوة على هذا كان بصفة جزئية على الاقل ، مفهوما سلبيا ينطوى أصلا على معنى التحرر من التدخل الخارجى ، ويؤكد الاستقلال الوطنى والسيادة ٠

وأما تحقيق الذات بالنسبة الى الشعوب فقد كان مفهوما أوسع ، لم يتضمن الاستقلال عن الحكم أو التسلط الاجنبى فحسب ، ولكنه كان يتضمن الاتجاه الثقافى الايجابى لشعب ما ، وتطور هذا الشعب طبقا لنظم القيم التى يعتنقها ٠ فيمكن أن يعنى أشياء مختلفة جدا حسب الصورة التى ترسمها كل أمة لنفسها ٠ فبالنسبة الى الدول الديموقراطية الليبرالية التى التزمت تاريخيا بتقرير المصير بمعناه السياسى المحدود ، كان معناه توسيع نطاق المفهوم بحيث يضم الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عن السياسة من الحياة ٠ وكان معناه بالنسبة الى الذين رأوا التاريخ العالمى فى ضوء المصطلحات الماركسية ، ربط الشعب بتلك العملية التاريخية ، وهى عملية المادية الديالكتية ، ومع جهد شامل موحد لبناء مجتمع اشتراكى ٠ وأصبح فى أيدى القوميين الرومانسيين من أمثال موسولينى مجهودا يبذل لاعادة خلق عظمة ماض بعيد ، ويمكن بالنسبة الى أمثال هتلر وزعماء جنوب أفريقية من الأفريكانر * ممن رأوا أن عنصرهم قد وكلت اليه رسالة ، أن يعنى دافعا الى التسلط على شعوب أقل منهم فى داخل الدولة وخارجها ٠ أما بالنسبة الى الذين التزموا بديانة جعلت الحياة الدينية والسياسية جماعية فقد يعنى — كما فى باكستان — جهدا من أجل تحديد دولة على أسس دينية ، أو كما فى اسرائيل ، خلق وطن قومى لأعضاء عقيدة دينية ، وبالنسبة الى بلاد

---

* الأوروبيون الذين ولدوا فى جنوب أفريقية ، وخاصة من نسل الهولنديين — (البوير) ، الترجمة

غير أوربية فى أيام التوسع الأوربى ، مثل اليابان أو أفغانستان فقد يعنى اقتباس الطرق الأوربية أو العزلة عن التأثير الأوربى ، على النحو الذى يهيىء قوة المقاومة ، وبالنسبة الى شعوب أفريقية الآخذة فى الخروج من القبلية والتسلط الاوربى ، فانه يمكن أن يعنى تحسسا لمصطلحات على أساسها تشق طريقها الى العالم الحديث • ولكن أيا كان الشكل ، فيمكن تلخيص الباعث على تحقيق الذات فى الجواب البسيط الذى رد به رئيس الوزراء نهرو على التساؤل عما اعتبره اتجاهات عظيمة فى القرن العشرين: « أظن أن الناس يريدون أن يكونوا أنفسهم » * •

(١) الديموقراطية الليبرالية

الصورة التى رسمتها أوربا الغربية لنفسها

رأت بلاد أوربا الغربية أنها حملت التقليد الليبرالى العظيم الذى تلقته من الاغريق عن طريق عصر النهضة ، وافترضت أنها تحتل مركز الصدارة فى تطور المجتمع البشرى • وكان التقليد الليبرالى قد هيأ الوسط الثقافى الذى امتدت فيه جذور العلم والتكنولوجيا ، ونمت فيه وازدهرت حضارة صناعية دينامية • ان أوربا الغربية ومن كانوا يمثلون امتداد الثقافة الأوربية الغربية الى بلاد أخرى ، هؤلاء جميعا افترضوا أن قيم مجتمعهم وأن نظم الديموقراطية الليبرالية تلائم هذا التطور ، وأن تلك القيم يمكن اقتباسها وتطبيقها بصورة مثمرة فى جميع أرجاء العالم•

وكان العرف أو التقليد الليبرالى بأوربا الغربية فى جوهره نتاج سلسلة من الأحداث التاريخية : هزيمة طبقة الفرسان الفرنسيين فى القرن الرابع عشر على أيدى أهل المدن الفلمنكية ، وموت دوق برجنديا على أيدى السويسريين فى القرن الخامس عشر ، وحروب استقلال هولندا فى القرن السادس عشر ، وهى حروب كانت فى الوقت نفسه ثورة اجتماعية واقتصادية ، والثورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الانجليزية فى القرن السابع عشر ، والثورتان الفرنسية والأمريكية فى القرن الثامن عشر • وكانت الجذور الفكرية الرئيسية كامنة فى عصر النهضة ، وفى الثورة العلمية بالقرن السابع عشر ، وفى حركة الاستنارة

(*) « I think that people want to be themselves ».

ـ مقابلة بتاريخ ١٢ يناير ١٩٥٦ •

فى القرن الثامن عشر • وبالمصطلحات الاقتصادية كانت تقوم على تحطيم الاقطاع وقيام التجارة والصناعة ، الى جانب نشوء الطبقات الوسطى التى كانت ثمار هذه التطورات وأدواتها •

كانت الليبرالية الأوربية متأصلة فى تلك الفكرة عن الطبيعة البشرية ، والتى كانت جزءا من الفكر الأوربى منذ عصر النهضة ، وخاصة منذ فترة الاستنارة ـ وهى أن الانسان عقلانى مسئول ، قادر على السيطرة على شئونه • فى هذه الفكرة تكون أكمل تنمية للفرد هى هدف المجتمع ، وهى أيضا وسيلة تحقيق ذلك الهدف ومقياس النجاح • فالمبادرة والنشاط من جانب الفرد وعملية الاستقصاء الحر ، تعود كلها بالنفع على الجميع • لقد أوتى الفرد حقوقا جوهرية وكامنة فيه يجب حمايتها واحترامها • وهذه الحقوق جرى تعريفها تاريخيا بمصطلحات الحرية : حرية التمتع بالحياة ، الحرية والملكية فيما عدا ما يقيد منها وفقا لاحكام القانون ، حرية الاجتماع ، وحرية الفكر والقول والدين • وكان ينظر الى تاريخ البشر على ضوء مصطلحات تدل على تحرير الروح البشرية المتدرج من الجهل والخرافة والتسلط ، وعلى انغمار الفرد فى المجموع •

وقد جرى تصور « أوربا » وفق هذه الخطوط ، « أوربا » مقتنعة من الناحية النظرية بمساواة الانسان ، بينما كانت تحتفظ من الناحية العملية بحقها وواجبها فى حكم وارشاد أجزاء العالم « الأقل تقدما » ، أوربا التى قسمت أفريقية وبسطت سلطانها على معظم آسيا • وكان هذا المثل الأعلى الرفيع عن عالم يتقدم وتقوده أوربا ـ انعكاسا لوعى الحضارة الأوربية بذاتها • فمنذ عصر الامبراطورية الرومانية وانتشار المسيحية ، رأت أوربا نفسها وكأنها حارسة أو حامية تراث روما واليونان ومصر والشرق الأدنى ، وأنها تعتنق الدين الوحيد الصحيح • هذه الصورة التى رسمتها أوربا لنفسها باعتبارها حاملة الثقافة العالمية • وتلك فكرة شاركها فيها وربما عن طريق العقل الباطن ، حتى أولئك الذين كانوا يقاومون الاستعمار ، تقول : ان هذه الصورة وفقت فى الذهن الأوربى بين مبادىء الليبرالية وممارسة الامبريالية •

ان العبارات المأثورة عن الحقوق والحريات ، والتى عبرت عن مبادىء ليبرالية أساسية ، تضمنها قانون الحقوق البريطانى ، واعلان الاستقلال الأمريكى ، وقانون الحقوق بالدستور الأمريكى ، والاعلان الفرنسى عن حقوق الانسان والمواطن • واذ أعاد الرئيس وودرو ويلسون تقرير هذه المبادىء على أنها أهداف الحرب التى توخاها الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، فانها لم تتغير من حيث الجوهر وتمتعت بسمعة عالية عند النصر،

وتجسدت فى النظم السياسية بالدول التى قامت فى أوربـــا الشرقية وبجمهورية ويمار الألمانية ٠

وعندما أعاد أحد رؤساء الولايات المتحدة صوغ أهداف الديموقراطية الليبرالية المتحالفة فى الحرب ، كانت الصياغة قد تغيرت ٠ فقد تضمنت « الحريات الانسانية الجوهرية الأربع ، التى عددها الرئيس فرانكلين روزفلت ، حرية جديدة هى « التحرر من العوز » ٠ هذه الصياغة بما تنطوى عليه من معنى اتخاذ تدابير اقتصادية نيابة عن جميع الناس ، كانت هى التى أخذت بها الدول الجديدة التى برزت بعد الحرب العالمية الثانية حين رفع النصر من جديد من شأن الديموقراطية الليبرالية ٠ وتلك كانت التعبيرات التى أعلن فيها ميثاق الامم المتحدة غرضها وهو « تنمية التقدم الاجتماعى ومستويات أفضل للحياة مع قدر أكبـر من الحرية » ، وعرف الاعلان العالمى لحقوق الانسان الصادر عن الامم المتحدة، حقوق « جميع البشر » ٠

وغالبا ماكانت الصياغة الأحدث عهدا للديموقراطية الليبرالية بعيدة عن أن تكون واضحة ، ذلك أنه لم يكن من السهل التـــوفيق بين أسس المذهب الفردى وحقائق التنظيم الاقتصادى وتوفير خدمات الرفاهية ٠ولكن مهما كانت مفاهيم الديموقراطيات الليبرالية غير دقيقة وأساليبهـا غير مؤكدة ، فقد احتفظت بايمانها بالقدرة البشرية وامكانات الانسان القائمة على العقل برغم الدليل على عدم عقلانيته ، وسعت الى تقوية هذه القدرات حتى تمكنه من أن يؤدى وظائفه بصـورة أكمل وأقرب الى العقل وأكثر انسانية (٤ و ٥) ٠

وبرغم أن أوربا الغربية كانت تشترك بطرق كثيرة فى حضـــارة مشتركة ، فقد كانت تقسمها تقسيما حادا ، الحدود الفاصلة بين دول قومية حافظت كل منها على شكل الثقافة الأوربية الخاص بها ٠ وخلال القرن العشرين كانت المصالح المتصارعة للدول القومية الأوروبية والتى انتشرت فى جميع أرجاء العالم ، بدرجة من الحدة أدت الى حربين عالميتين مدمرتين ٠ ورأت كل أمة أوربية نفسها أمة فريدة ، وأبرزت الصورة التى رسمتها لنفسها لا على ضوء ما تضعه من تأكيد خاص فى داخل التقليد الليبرالى ، ولكن بالمصطلحات التى تدل على إرتباطها بتاريخها الماضى ٠ ان العناصر التى تكونت منها المبادىء الليبرالية ٠ النظم القانونية والبرلمانية البريطانية ، المذهب العقلى ومذهب المساواة الفرنسيان ، والاقتصـــاد البورجوازى الذى غالبا ما دعمه علم الأخلاق البروتستنتى ـ هذه العناصر كان لها وزن مختلف فى الأماكن المختلفة ٠ ففى بعض البلاد استمرت

على مر السنين صورتان أو حتى أكثر للذات ، ووجدت التعبير عنها خلال هذه الفترة فى تحولات السياسة أو تسلط صورة للذات على الأخرى ٠

وبالنسبة الى البريطانيين وضعت الليبرالية الديموقراطية كل ثقلها لتؤكد على العمليات البرلمانية والقانون العام وعدم التدخل فى الحيــاة اليومية العادية ٠ وبرغم بنيان اجتماعى أرستقراطى ودور استعمارى متسلط ، كانت المبادىء الليبرالية متغلغلة جدا فى أعمــاق النظرة البريطانية ، فطبقا للصورة التى رسموها لأنفسهم كانوا حملة هــذه المبادىء الى أجزاء أخرى من العالم امتد اليها نفوذهم ٠ وبهذه النظرة حملوا النظم القانونية والسياسية التى تشتمل عليهــا الديموقراطية الليبرالية الى المناطق الخاضعة لحكمهم ، وعندما أصبح واضحا أنهم لم يعودوا قادرين على ابقاء هذه المناطق خاضعة لهم حاولوا أن يساعدوها على أن تصبح دولا ديموقراطية ليبرالية ٠ وفى الداخل تحرك المجتمع البريطانى صوب مثله الأعلى الديموقراطى بخطى تزداد سرعة ، متخــذا شكل دولة رفاهية ، ولم يجد صعوبة فى ادماج الكثير من مبــادىء الاشتراكية الديموقراطية فى أنظمته ووجهة نظره الليبرالية الاساسية٠

وعلى نقيض ذلك كانت المكونات الرئيسية لليبرالية فى فرنســا هى المذهب العقلى الذى ظهر فى عنصر الاستنارة ، والاعتقاد فى المساواة بين البشر بغض النظر عن الجنس أو المركز ، بدلا من أية طائفة من النظم السياسية ٠ ان التغييرات المتعاقبة فى الأشكال الدستورية والضعف والاضطراب فى داخل النظــام البرلمانى ، كل ذلك لم يلغ الاتجــاه الليبرالى المتغلغل فى أساس المجتمع الفرنسى ٠ وفى الوقت نفسه رأت فرنسا نفسها وريثة شارلمان ولويس الرابع عشر ونابليون ٠ وكان يعبر عن احساسها بالقوة مصطلح « المجد » ، مجد أمة عظيمة ، بدلا من أن يعبر عنه السلطان ، وان افترضت بصورة أكمل بكثير مما افترضت بريطانيا ، أنها سوف تفرض طابع ثقافتها على الشعوب الخاضعة لها ٠ فكانت الصورة التى رسمتها فرنسا لنفسها صورة عقلية وثقافية دائما، أكثر منها سياسية ، ونظرت الى « رسالة التمدين » التى اضطلعت بهــا على ضوء « العقلانية » و « الانسانية » اللتين تميزت بهما الفكرة الفرنسية عن الحياة ٠

وكان الألمان ، بل وبأوضح مما فعل الفرنسيون ، يرون أنفسهم فى صورتين متميزتين ومتعارضتين ، كلاهما ثمرة جهد واع لخلق صورة ذاتية لهم فمن جهة رأى الألمان أنفسهم على أنهم das Volk von Dichter und Denker ـ أى شعب الشعراء والمفكرين ، ومن جهة أخرى على أنهم

أى الشعب السيد das Herrenvolk • ونشأت كلتا الصورتين الذاتيتين فى القرن الثامن عشر ، وكانتا الى حد ما ، رد فعل للاحساس بالخيبة • فالطبقة الوسطى الالمانية ، وكانت مبعدة عن لعب أى دور سياسى فى الصرح الاقطاعى الذى كان يتسلط عليه امراء من نحو مائة ولاية صغيرة ، كما تسلطت عليه الملكية البروسية ، هذه الطبقة انصرفت الى الادب والفلسفة وأنتجت ألمانيا التى أخرجت ليسنج ، وجيته ، وشيلر ، وهاين ، وكانت، وهيجل وغيرهم من « الشعراء والمفكرين » العظام فى تلك الفترة • وفى هذه الأثناء نشأت صورة « الشعب السيد » من الفشل الذى باء به الأمراء ، وبخاصة آل هوهنزلرن البروسيين الذين لم تتحقق رغبتهم فى أن يلعبوا دورا بارزاً فى السياسة الأوربية ، الا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ثم ضاعت هذه الصورة من جديد فى كارثة ١٩١٨ التى أثاروها هم أنفسهم ، لتدب فيها الحياة ثانية خلال فترة الريخ الثالث* القصيرة ، تبددت مرة أخرى عندما انهار الريخ الثالث•

وفى البلاد التى هى أصغر بأوربا الغربية ، والتى كانت الديموقراطية اليبرالية فيها متأصلة الجذور قوية ، كانت الليبرالية تستند الى قاعدة تاريخية يمثلها الفلاحون من ملاك الأرض والمشروعات الرأسمالية ، وأوجدت عنصرا قويا من عناصر الرفاهية فى هذه السنوات كذلك رأى كل من هذه البلاد نفسه حامل ثقافة أوربية مشتركة ، وفى نفس الوقت نظر الى نفسه فى ضوء تاريخه الفريد ونوعية حياته •

وبعد الحرب العالمية الثانية أدت سلسلة من الدوافع الى فكرة قارة أوربية متحدة ، لا بالمعنى التقليدى عن ثقافة أوربية مشتركة ، ولكن كقوة اقتصادية تدافع عن نفسها فى وجه قوة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى الجديدة • ولم تشمل الخطوات التى اتخذت فى المراحل المبدئية سوى جزء من منطقة غرب أوربا ، ولقد كشفت عن القوة الملحة للمصالح القومية ، بل ووقفت أكثر المقترحات شمولا عند الخط الذى فصل عن أوربا الغربية تلك الأجزاء من أوربا الوسطى والشرقية التى كانت قد أصبحت جزءا من النظام الشيوعى •

وفى خارج أوربا الغربية شكل التقليد الليبرالى جزءا هاما ، بدرجة أو بأخرى ، من الصورة الذاتية ، وذلك فى مناطق أربع : فى المجتمعات التى خلقتها فيما وراء البحار الهجرة من أوربا الغربية ــ الولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندا ، وفى جمهوريات أمريكا الجنوبية والوسطى

* فترة الحكم النازى فى ألمانيا ١٩٣٣ ــ ١٩٤٥ •

التى ظفرت باستقلالها عن أسبانيا والبرتغال فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ؛ وفى دول شرق أوربا التى تشكلت بعد الحرب العالمية الاولى ، وفى الدول الجديدة التى ظهرت الى عالم الوجود نتيجة انحلال الامبراطوريات الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية ٠

والفرض القائل بأن الديموقراطية الليبرالية حددت طابع الحياة القومية ، تجلى بأكمل صورة فى بلاد أمريكا الشمالية وفى استراليا، فى هذه المجتمعات الجديدة التى سبق أن أوجدها قوم بحثوا عن أوطان جديدة فى سعيهم وراء شكل آخر من الحرية أو فرص الحياة ٠ ولم تكن ثمة بقايا مجتمع اقطاعى سابق عليها ، أو سلطان ملكى أو غيره ، أو عقيدة دينية ، أو نظام اجتماعى جامد ، يمكن أن يقدم بديلا عن فكرة المجتمع الليبرالى والدولة الليبرالية ٠ وكانت المبادىء الليبرالية متغلغلة بصورة كاملة وشاملة فى هذه المجتمعات ، بحيث أصبحت فى الحقيقة وفى ذاتها ، نوعا من العقيدة الصحيحة ٠ وثمة قيم اجتماعية وسياسية كان يمكن وجودها ، ولكنها افتقرت الى الواقعية أو بدت وكأنها انحرافات أكثر منها بديلات جادة ٠ ولقد اعتمدت كندا على هذه المبادىء لتدعم اتحادا عمليا ناجحا بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالانجليزية من أهلها ، ولتحقق تماسك مجموعات سكانية صغيرة تفصل بينها مسافات كبيرة خالية ، ولتنظم علاقاتها مع جارة تزيد عنها حجما عشر مرات عبر حد طوله ٣٩٠٠ ميل ، ولا يحرسه أحد ٠ وكانت استراليا ونيوزيلندا أول بلاد منحت النساء حق التصويت ٠ وبرغم أن تعبيرات من قبيل الشعار الذى أطلق فى الحرب العالمية الاولى عن «جعل العالم حرما آمنا للديموقراطية » أو مثل اصطلاح «العالم الحر» الذى يطبق على بلاد غير شيوعية ، قد تبدو ـ أى التعبيرات ـ جوفاء فى نظر بلاد أخرى ، الا أنها كانت تحمل بالنسبة الى أهل الولايات المتحدة معنى يدل على الواقعية ٠ وربما اتخذت واستوعبت تعديلات براجماتية (عملية) فى الأنظمة والأساليب ، ولكن ظلت الصورة الأساسية على ماهى عليه ٠

وبمرور الأعوام أصبحت بعض المعانى القديمة التى تدل عليها مصطلحات الليبرالية والديموقراطية أقل وضوحا أكثر فأكثر ، وخاصة بالنسبة الى سكان الحضر المتزايدين عددا فى هذه البلاد ٠ ففى الولايات المتحدة عبر القلق عن نفسه ، بعد كلتا الحربين العالميتين ، فى موجات هيستيرية من الشك كانت موجهة فى الظاهر ضد من يرفضون المبادىء الليبرالية ، ولكنها موجات كانت تعبر فى الواقع عن اتجاهات نزاعة الى التسلط ؛ بل وهاجمت أحيانا من كانوا يدافعون عن المثل الليبرالية ويمثلونها ٠ واختلطت النتيجة بسبب ما أظهر الفاشيون والشيوعيون فى

البلاد الأخرى من استعداد لاستغلال الحريات والحقوق الديموقراطية الليبرالية لا لغرض سوى القضاء على هذه الحريات والحقوق بمجرد استيلائهم على السلطة(٦) . وفضلا عن هذا ففى العالم المنقسم على نفسه فى منتصف القرن ، بدأ حتى اخضاع السلطة العسكرية للسلطة المدنية يبدو أقل أهمية من الأمن القومى . ولكن مهما كانت الأشكال الآخذة فى الظهور والتطور قلقة ، ومهما كانت الصورة غير واضحة ، وكان النقد الذاتى قويا ؛ فان شعوب هذه البلاد لم يروا أنفسهم الا على ضوء مصطلحات الليبرالية الأساسية التى هيأت دائما الشكل الخارجى والدافع الباطنى لمجتمعاتهم .

وكانت دول أمريكا الجنوبية والوسطى قد ورثت أنظمتها واتجاهاتها عن أسبانيا والبرتغال ، حيث لم تكن قط مبادىء « قانون الحقوق » الانجليزى والثورة التجارية وعصر الاستنارة ، جزءا لا يتجزأ من الثقافة فيهما . وفى الوقت الذى حصلت فيه هذه المناطق الأسبانية على استقلالها ، كانت كل منها قد اتخذت من الناحية الرسمية مبادىء الديموقراطية الليبرالية ، وجعلت من دستور الولايات المتحدة النموذج الذى احتذته فى اعداد دساتيرها ، وانتهى الأمر بالبرازيل ، التى كانت قبلا من ممتلكات البرتغال الى انتهاج النهج ذاته . ظلت الديمقراطية الليبرلية بالنسبة الى جميع هذه البلدان مثلا أعلى مقررا ، وبعضها ، مثل أورجواى ، جعلتها العنصر السائد فى الصورة التى رسمتها لنفسها ، واستخدمتها المكسيك مرشدا عمليا (براجماتيا) ، كى تحقق على مر السنين ثمار ثورة سياسية واجتماعية ، ورجعت بلاد أخرى بصورة متكررة الى المبادىء الديمقراطية بعد فترات كانت اليد العليا فيها لقيم التسلط والأبوية ، تلك القيم التى كانت متأصلة فى التقاليد الأيبيرية التى تمثل الصفوة ، وبعض البلاد لم تكن قد وجدت بعد ، فى منتصف القرن الوسائل التى تجعل من الديمقراطية الليبرالية واقعا أساسيا ماديا فى مجتمعاتها .

وبالنسبة الى دول أوربا الشرقية التى قامت بعد الحرب العالمية الأولى كانت المبادىء الليبرالية أحد مكونات أو عناصر الصورة التى رسمتها لنفسها . فقد كان تقليد جان هس * حيا بالنسبة للتشيك ، وتقليد كوسيوسكو * حيا للبولنديين ، وتقليد كشوث * للهنغاريين . ولكن

(*) Jan Hus ١٣٦٩ ـ ١٤١٥ مصلح دينى شهيد ، من بوهيميا .

(*) Thaddeus Kosewisko ١٧٤٦ ـ ١٨١٧ ، بطل وقائد وسياسى بولندى اشترك فى الحرب الأهلية الأمريكية .

(*) Louis Kossuth ١٨٠٢ ـ ١٨٩٤ ـ أحد الوطنيين ورجال الدولة فى هنغاريا

بعض التقاليد الأخرى المرتبطة بالمجتمعات الاقطاعية التى كانت لا تزال قائمة ، كانت تشكل عناصر أقوى فى القومية التى برزت ، واستلهمتها فى سنوات الأزمة ، الزعامة فى كل من الدول الجديدة ، فيما عدا تشيكوسلوفاكيا · وفى عهد توماس مازاريك وادوارد بنيس ، فان ذلك البلد ـ تشيكوسلوفاكيا ـ وهو أكثر بلاد الاقليم تقدما من الناحية الصناعية ، ربط نفسه بتقليد أوربا الغربية الديموقراطى الليبرالى ، الى أن أخضعه النازى ، شأنه فى ذلك شأن جيرانه · وعندما عادت جميع هذه الدول الى الظهور بعد الحرب العالمية الثانية ، سرعان ما انتقلت قيادتها الى أيدى الشيوعيين ، وعلى أساس الاشتراكية الثورية ، بدلا من الديموقراطية الليبرالية ـ قلبوا الأنظمة المرتبطة بالاقطاع والكنيسة وأنواع البنيان الاجتماعى والسلطة ، مما كان مسيطرا فى أجزاء كثيرة من المنطقة ·

وكان مفهوم الدولة القومية الزمنية التى تسودها المساواة فى المواطنة والحقوق المدنية ، فكرة جديدة فى جوهرها فى الدول الجديدة التىظهرت الى عالم الوجود بعد الحرب العالمية الثانية · فلمتكن المبادىء الديموقراطية الليبرالية بالنسبة الى معظم الدول الجديدة ، جزءا لا يتجزأ من القومية الجديدة ، حتى وان عبر عنها الدستور الأول فى كل من هذه الدول · ومالت التقاليد الآسيوية الى تحديد هوية الشعوب على ضوء الجماعة الدينية التى ينتمون اليها ، أو الى الاعتماد على الحكم الدكتاتورى ، وقدمت الشيوعية بديلا واضحا عن الليبرالية ، وخاصة بعد أن استولى النظام الشيوعى على الحكم فى الصين ، وشرع فى برنامج قوى للتنمية · وفى ظل هذه الظروف نظرت الهند الى نفسها ، كما نظر اليها الغير ، على أنها الاختبار الأكبر لما اذا كان فى الامكان تحقيق الديموقراطية الليبرالية كمثل قومى أعلى فى آسيا وأفريقية · ذلك أنه فى الهند وحدها كانت الديموقراطية الليبرالية جزءا أساسيا من الصورة الذاتية التى رسمتها لنفسها ، أو على الأقل الصورة التى رسمتها الزعامة والعناصر المتعلمة ، ولم تكن مجرد شكل لدولة جرى اقتباسه حديثا ، ويكاد لا يرتبط بما تصوروه عن أنفسهم(٧) ·

٢ ـ الشيوعية ، الماركسية ـ اللينينية(٨)

أن الاتحاد السوفييتى والدول التى قامت بها حكومات شيوعية فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية ، اعتبرت نفسها نتائج أدوات أسفرت عنها العملية التاريخية الديالكتية التى وضعها كارل ماركس

وفردريش انجلز ، وطورها لينين وأحكمها ، لتغطى ظروفا جديدة ، وهى العملية التى كانت تقود البشر حتما وبصورة لا يمكن مقـــاومتها ، نحو الاشتراكية ثم نحو الشيوعية فى نهاية الأمر • وقد اعتبر هؤلاء أنفسهم ورثة تقاليد الماضى الثقافية العظيمة ، ومبدعى يـــوم جديد فى التاريخ البشرى ، يوم يرون فيه الانسان ــ وقد قهر الطبيعة ــ وتحرر من ربقة العوز حيث كانت الطبيعة تشد عليه قبضتها • وفى ضـــوء هذه النظرة يعتبر كل التاريخ السابق على تحقيق الشيوعية هو « التاريخ السابق » على تحرير الانسان •

وطبقا لمفهوم العملية التاريخية ، كما أوضحه ماركس ، تكون عملية الانتاج هى العامل الذى يحدد تطور المجتمع البشرى • فالقوى الكامنة فى الانتاج الصناعى يجب أن تعمل فى النهاية على قيـام المجتمع اللاطبقى ، لأن الرأسمالية تولد فى داخلها وسائل القضاء عليها ، وفى النهاية تؤدى تناقضاتها الباطنية الى التغيير الثورى • ومن ثم تكون البروليتاريا هى أداة الثورة وبانية المجتمع اللاطبقى، بمجرد القضاء على الطبقات المستغلة•

وكان ماركس يفترض أن تحدث الثورة فى البلاد التى وصلت الى مرحلة متقدمة من الرأسمالية ، وأن المجتمع الاشـتراكى ســـوف يعقب الرأسمالى باعتباره مرحلة فى التطور التاريخى تأتى فيما بعد • وتوقع أن تخرج زعامة الثورة العالمية من البلاد الصناعية المتقدمة ــ ألمانيا وبريطانيا• وكان يرى أن الرابطة المشتركة بين عمال العـالم أشد وثاقا والزاما من الوحدة التى تربط العمال بالطبقات المستغلة فى داخل أية أمة بعينها •

لكن فى ضوء الظروف القائمة فى مســتهل القرن العشرين ، حين كانت البلاد الرأسمالية الكبرى تنعم بارتفـاع الانتـــاجية وبالأرباح من المستعمرات ، وكان العـــمال فى هذه البـــلاد ينظمون أنفسهم من أجل المشاركة الى حد ما فى العائدات الناجمة من هذه المصـادر بدلا من قلب الأنظمة التى يعيشون فى ظلها ، نقول فى ضـــوء هذه الظروف مد لينين نطاق التحليل الماركسى ليواجه امكانية قيام الثورة فى البلاد المتأخرة من الناحية الصناعية • فان من رأى لينين أن الرأسمالية حافظت فى الداخل على نفسها فى مراحلها المتقدمة وجلبت رخاء نسبيا الى عمالها عن طريق استغلال الاقتصـــاديات الأضعف منهـــا فى الخـــارج ، اما فى داخل الامبراطوريات الاستعمارية أو فى المناطق الأخرى الأقل نموا • وهى اذ فعلت هذا حركت قوتين : عداء الشـعوب المســتعمرة التى هى أضعف صناعيا ضد مستغليها ، والصراع بين الامبرياليين الرأسماليين من أجل الأسواق ومصادر المواد الخام • واعتقد لينين أن هذه الصراعات سوف

تؤدى حتما الى حروب تضعف الاقتصاديات الرأسمالية ، وتمهد الطريق الى سقوطها النهائى ٠

وخطط لينين أيضا أداة يمكن أن تمهد السبيل الى الثورة فى حالة عدم وجود بروليتاريا ثورية أو عدم نضوجها ، وهذه الأداة هى الحزب الذى يدار من المركز ، أى طليعة الطبقة العاملة ، والذى يصوغ ارادة البروليتاريا ويبعث فيها النشاط ، كما يبعث النشاط أيضا فى الفلاحين٠ فبينما ركز ماركس وهو يفكر فى ثورة فى مرحلة متقدمة من التطور الصناعى – على البروليتاريا الصناعية ، أدخل لينين الفلاحين فى مفهومه عن الطاقة الثورية بالبلاد التى كانوا يشكلون فيها أغلبية السكان الساحقة ٠

وأثبتت ثورة أكتوبر الناجحة صحة الصيغة التى رسمها لينين للقيادة الثورية التى يتولاها حزب منتقى يقوم على التنظيم المركزى ، وأظهرت امكانية تجنيد تأييد الفلاحين للعمل الثورى الذى تضطلع به البروليتاريا الحضرية تحت قيادة الحزب ٠ وأكدت الحقيقة القائلة بأن الثورة يمكن أن تبدأ فى بلد متأخر نسبيا ، برغم أن لينين ورفاقه كانوا يأملون ويتوقعون أن تقع الثورة أثر ذلك فى البلاد المتقدمة وأن هذه البلاد سوف تزود الاتحاد السوفييتى خلال فترة ضعفه الاقتصادى ، بدرع تحميه ضد الدول الرأسمالية ، وبالتكنولوجيا المتقدمة للتنمية الصناعية فيه ٠

ولما أخفقت الثورة الألمانية العقيمة عام ١٩١٨ ، أصبح ظاهرا أن الثورة لن تمتد آنذاك الى البلاد الصناعية ، وأن الاتحاد السوفييتى سوف يقف وحيدا فى عالم رأسمالى ٠ وبرغم اعتقاد قادة الاتحاد السوفييتى فى أن تناقضات الرأسمالية الاحتكارية سوف تؤدى فى النهاية الى صراع ذاتى مدمر بين الاقتصاديات الرأسمالية يقضى عليها ، فان هؤلاء القادة واجهوا الموقف العاجل الذى وجد فيه الاتحاد السوفييتى بوصفه التجسيد الوحيد لعملية التغيير الثورى التاريخية نحو مجتمع لاطبقى ، واضطروا الى انتهاج استراتيجية « الاشتراكية فى بلد واحد » ٠

وفى هذا الموقف اضطلعت الدولة بدور أكثر ايجابية بكثير مما تصورته الفكرة الماركسية الأصلية ، حيث كان ماركس يعتبر الدولة أداة الظلم الطبقى فى المجتمع البورجوازى ، وتوقع أن «تذوى وتذبل» ، بمجرد انتهاء الظلم الطبقى وتحقيق مجتمع اشتراكى ٠ هذا المفهوم ظل جزءا من الصورة النهائية التى تبدو فيها المرحلة الأخيرة من المجتمع ، فى أعقاب الثورة العالمية النهائية ٠ ولكن طالما وقف الاتحاد السوفييتى وحيدا ، أو

كانت المجتمعات الشيوعية قائمة فى عالم منقسم على نفسه ، كانت الدولة أداة ضرورية لادارة المجتمع وتوجيه استراتيجية التنمية الداخلية والسياسة الخارجية ٠

وخلال السنوات الأربعين الاولى من وجود الاتحاد السوفييتى ، كانت هذه هى الصورة الذاتية الأساسية التى شكل قادته السياسية طبقا لها، ووجهوا نظرة الناس والدوافع المحركة لهم ٠ ولم تحدث التغييرات التكتيكية فى السياسات الداخلية والخارجية ، ولا الضرورات القاسية التى فرضتها الحرب ، تبديلا فى الأساسيات ٠ وفى هذه الصورة الذاتية كان الاتحاد السوفييتى وأهله جميعا يبنون مجتمعا اشتراكيا منافسا للعالم الرأسمالى ٠ وطالما كان هذا المجتمع أضعف من مجتمع الرأسمالية ، اعتقد انه موضع التهديد من جانب ما حسب أنه حاجة الرأسمالية الى محاولة لمنع نجاح قيام مجتمع اشتراكى ٠ ومن ثم يجب على الاتحاد السوفييتى أن يعطى الأولوية للصناعة الثقيلة والتقدم العلمى باعتبارهما الأساس الذى يقوم عليه تحقيق مستوى من الانتاجية يعادل أو يفوق مستوى أكثر الاقتصاديات الرأسمالية تقدما ٠

وفى سبيل الاندفاع نحو تحقيق هذه الصورة الذاتية ركزت جميع الموارد المتاحة على الأهداف المشتركة ٠ ورأى ستالين أن الدولة أداة رئيسية لتنظيم المجتمع ، والابقاء على الوحدة ، وتوفير التضحيات اللازمة، وفض الصراعات أو القضاء عليها ، وأقام جهازها للادارة والبوليس والدعاية والرقابة على العملية الاقتصادية ٠

وخصص جهاز التعليم والتدريب بأكمله لتخريج شُعب مهيأ من الناحيتين العلمية والفنية لادارة اقتصاد متقدم من الناحية الفنية ، وعلى درجة عالية من الانتاجية ، شعب موجه لمهمة بناء مجتمع اشتراكى ٠ وكان ينظر الى الانسان على أنه كائن عقلانى مملوء بقدرات يتعين تحقيقها بالنسبة الى المجتمع ٠ وجندت موارد الفنون وأجهزة الاتصال الجماهيرى لابراز الواقع فى ضوء المثل الأعلى الاشتراكى ، على أساس الافتراض بأنه اذا فكر الناس فى ضوء الهدف فانهم سوف يعملون تحت قيادة الحزب الشيوعى بطرق تساعد على تحقيق هذا الهدف ٠

كانت الفلسفة الماركسية ــ اللينينية فلسفة عمل ، يراد بها تغيير العالم لا تفسيره فحسب ٠ وبرغم انها اعتبرت اتجاه العملية التاريخية أمرا محتوما ، فقد طالبت بعمل واع تتولاه الطبقة أو المجموعة الثورية ٠ ويستطيع أن ينحاز الى العملية التاريخية ويعجل بها أولئك الذين هم على

بينة منها ٠٠ ومن ثم كان من المناسب أن يصور المجتمع الاشتراكى باستمرار على النحو الذى ينبغى أن يكون عليه ، أو مع التشديد على مظاهره البناءة ، حتى لا تشيع التناقضات أو النقائص الحالية الاضطراب فى معنى الاتجاه ، وتعرقل العمل ٠ وبالمثل كان يراد أن ينظر الى المجتمع الرأسمالى فى ضوء التناقضات المؤدية الى سقوطه حتى تبرز هذه التناقضات وتتكشف ٠ وهذه الطريقة فى النظر الى الحاضر على ضوء المستقبل المرغوب فيه ، أطلق عليها اصطلاح «الواقعية الاشتراكية» ٠

وهكذا علم الحزب الشيوعى الشعب الروسى أن ينظر الى البناء الناجح للمجتمع الاشتراكى على أنه مرحلة أساسية فى العملية التاريخية، وهى الثورة العالمية التى استهلت فى أكتوبر من عام ١٩١٧ ٠ وحتى يتسنى تنفيذ الاصلاحات الاقتصادية العديدة كان من الضرورى أولا تقرير ضرورات اقتصادية وثقافية معينة عن طريق الوصول الى مستوى مناسب من الصناعة والزراعة ٠ ومذ كانت أدوات ووسائل الانتاج الرئيسية فى أيدى الدولة البروليتارية بحيث تمكنها من التدخل الفعال فى حياة البلد الاقتصادية ، فقد أمكن توفير فرص مواتية للتعجيل بتحديد هذه الضرورات بدرجة أكثر ملاءمة مما هو مستطاع فى ظل النظام الرأسمالى ٠ وكان ينظر الى تجربة الاتحاد السوفييتى التاريخية على أنها تبين أن فى امكان الدولة البروليتارية أن توجه أنشطة الشعب العامل والمثقفين من الشعب العامل فى مهمة الخلق السريع الفعال والضرورى لمجتمع صناعى متقدم ٠

وبعد أربعين عاما من الحكم الشيوعى ، رأى الشعب السوفييتى نفسه ، وكأنه يبدأ مهمة بناء الأسس التى يقام عليها مجتمع شيوعى ٠ لقد ضمنت انجازات الاتحاد السوفييتى الاقتصادية والسياسية الهائلة فى مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة ــ انتصار الاشتراكية الكامل والقاطع فى ذلك البلد ، بمعنى أن الاتحاد السوفييتى أحس أن ثمة ضمانا كاملا ضد امكانية عودة الرأسمالية بالقوة ٠ وكانت المهمة الجديدة هى خلق ظروف للحياة ، مادية وثقافية فى آن واحد ، تشجع رغبة الشعب العامل فى كافة البلاد فى أن يعيد صنع الحياة على أساس مبادىء شيوعية جديدة ٠ ودعا الاتحاد السوفييتى البلاد الرأسمالية الى التنافس فى بلوغ مستوى عيش أعلى للشعب العامل ، وفى تقرير أكثر الظروف ملاءمة للتنمية المنسقة الشاملة لجميع قواها وقدراتها ، واثقا من أنه سوف يفوز فى جلبة هذا التنافس ؛ اذ اعتقد أن نظامه الاقتصادى أكثر النظامين تقدمية بكثير ٠

ومن ثم رأى الاتحاد السوفييتى أن الأحداث العالمية منذ سنة ١٩١٧ وما بعدها تؤكد الفكرة الماركسية ـ اللينينية عن التــاريخ · لقد أظهر نجاح ثورة أكتوبر أن فترة الانتقال من الرأسـمالية الى الاشتراكية قد حلت بالفعل ويجب تحقيقها عن طريق الثورة لا التطور · وأكد انتصار الثورة فى روسيا المتخلفة ما تنبأ به لينين بشأن الثـورة فى البلاد ذات الاقتصاديات الضعيفة · لقد رأى فى قوة الاقتصاديات الرأسمالية ونموها استقرارا مؤقتا اقتصر أمره على أنه جعل تناقضـات الرأسـمالية أقل ظهورا ، بينما نظر الى الحروب العالمية وتحرر شعوب المستعمرات على أنها أدلة واضحة على مفهـوم لينين بشأن اتجـاه الامبريالية الرأسمالية نحو الانحلال · وبدا أن نجاح الثورات فى أوربا الشرقية والصين بعد الحرب العالمية الثانية يدل على أن قيام الشعب العــامل فى بلاد يتزايد عددها باطراد ، وتحت قيادة الحزب الشيوعى ، باحداث التغيير فى بلاده فيصبح جزءا من الثورة ـ ليس الا مسألة وقت فحسب ·

وموجز القول أنه رغم جميع منعرجات التـاريخ وتقلبـاته ، رأى الشعب السوفييتى أن العملية الرئيسية ، كما رسم معـالمها ماركس ـ عملية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية على نطـاق عالمى ـ تتقدم باطراد وتشكل الاتجاه الغـالب فى العصر الحـديث · وأيا كان تنـوع الأشكال التى قد يتخذها الانتقال ، فان الأصـول متـماثلة تقتفى أثر النظرية التى أحكم صوغها ماركس وانجلز ولينين · وكان شعب الاتحاد السوفييتى متأكدا من أن المسـتقبل هو للنظام الذى كان يجرى ارساء أسسه فى الاتحاد السوفييتى والديموقراطيات الشعبية ·

واذ لم يعد الاتحاد السوفييتى الدولة الشـيوعية الوحيدة ، واذ اقترب من هدفه بصدد الانتاجية العالية ، وأظهر جرأة واقداما فى الميادين العلمية ؛ فانه رأى نفسه يتحرك الى مركز جديد كزعيم للقطاع الشيوعى من العالم ، وهو القطاع الذى توسع ويسير فى طريق التوسع · وتمشيا مع ما تنبأ به لينين من أن ثورة الشعوب فى الشرق سوف تكون حاسمة فى النضال العالمى من أجل الشيوعية ، رأى الاتحـاد السوفييتى نفسه يحث شعوب العالم المتخلفة على اختيار الطريق الشـيوعى والسير فى اتجاه مجرى التاريخ ·

ورسمت البلاد الشيوعية خارج الاتحاد السوفييتى ، لنفسها الصورة الماركسية ـ اللينينية ، من حيث الجوهر · فرفضت يوغوسلافيا مبـدأ المركزية الديموقراطية الذى نادى به لينين ، ونظرت الى البروليتاريا على

أنها تؤدى دورها الثورى عن طريق مجالس العمال وغيرها من الأجهزة التى تدار وفقا لقواعد اللامركزية • بل وهيأ ماوتسى تونج للفلاحين دورا فى الاتيان بالشيوعية الى الصين ، أهم مما تصور لينين فى مفهومه عن الفلاحين بوصفهم يساندونجهود العمال الصناعيين • ولكن أينما هيأت الماركسية ـ اللينينية الأساس الذى تقوم عليه الصورة الذاتية ، اعتقد الناس أنهم ، فى بناء مجتمع اشتراكى ، ينفذون قوانين التطور التاريخى التى لا يمكن قلبها ولا نقضها •

٣ ـ مذهب التسلط المضاد لليبرالية

فى الدول التىكان فيها تقليد التسلط قويا، ولمتحل الديموقراطية الليبرالية محل بقايا الاقطاع بشكل فعال قــط ، عادت نزعة التسلط المضادة لليبرالية تؤكد نفسها من جديد ، وزادت حدة فى شكلها المتطرف، وأصبحت نظاما مطلقا تستند الى حزب واحد •

فخلال السنوات التى أصبحت فيهـا الديموقراطية الليبرالية جزءا من الفــكر والعمــل بأوربا الشــمالية والغربية وأمريكا الشــمالية واستراليشيا ، استمرت الملكيات فى ألمــانيا والنمسا والمجر والروسيا تهيىء نمطا بديلا احتفظ بالكثير من قوته • وحتى بعد ســقوط الملكيات نفسها ، فان النظام الذى كانت تمثله والاتجاهات التى كان يستند اليها، هيأت الأســاس لاستئناف النزعة التسلطية عنـدما بدت الديموقراطية الليبرالية عاجزة عن مواجهة أزمات التضخم والكساد والهزيمة • ففى أسبانيا وايطاليا واليونان استمرت النزعة التسلطية المرتبطة بالقصــور الذاتى الاقتصادى والاجتماعى ، مستترة وراء واجهة برلمانية • ان المفهوم الذى ينظر الى الانسان على أنه نشيط ومسئول ، ويوجه نفسه بدلا من أن يوجهــه الآخرون ، وهــو ماكان أساسيا بالنســبة الى الديموقراطية الليبرالية ، هذا المفهوم لم يكن قط موضع القبول الواسع فى المجتمعات التى جرت على تقاليد التسلط ، وخاصة حيث كانت الاتجاهات السائدة تشكلها الفكرة القديمة العهد التى اعتنقتها الكنيسة الكاثوليكية ـ عن ضعف الانسان والتسلسل الهرمى للسلطة التى تتولى توجيهه •

وفى نمط الملكيات التى ورثها القرن العشرون ، كان الحاكم المتسلط يزاول سلطان الدولة عن طريق بيروقراطية مستمدة من الطبقة الحاكمة ، بمساعدة العسكرية التى يختار ضباطها من صفوف الطبقة ذاتها • وفى أواخر القرن التاسع عشر أضيف جهاز برلمانى ما ، باعتباره شيئا ملحقا

بدلا من أن يكون هيئـــة تسن القوانين ، ولهـــا الســـلطة على الحاكم والبيروقراطية والجيش • وكان نمو القومية قد هيأ قوة عاطفية أيديولوجية دعمت سلطان الدولة •

وبانتشار الأفكار الليبرالية والاشتراكية استسلم الحكم التسلطى التقليدى لأشكال جديدة ، ولكنــه استســلم على نحو يحـافظ فيه على السلطان الأساسى • واستخدم حكام أوربا الوسطى والشرقية والجنوبية قوة الدولة لمساعدة البنيان الاجتماعى والسياسى لنظام الحكم القديم ، ولكن روح القومية تطلبت أن يشارك مجموع السكان ، وليس الطبقة الحـــاكمة فحسب ــ فى المنافع التى توفرها الدولة • وكان بسمرك قد أوضح الطريق بفضل مزيج من القومية والتشريع الاجتماعى زادا من عدد المستفيدين من الدولة ودعما أساس قوتها ، دون أن يقوض بشكل جدى تسلط الطبقة الحاكمة أو سلطان الحاكم ومركز البيروقراطية والجيش • وفى هذه العملية لم يكن ثمة اضعاف لقوة الدولة ازاء الفرد ، بل الأرجح أنه كان فيها دعم لها •

وعندما تحطم بنيان السلطة القديم فى هذه المجتمعات لم يحدث انتقال فعال الى السيادة الشعبية • فقبل أن يشرع قادة الدول التى قامت فى أعقاب انحلال ملكيات آل هبسبرج وهوهنزلون ، فى ايجاد بنيـــان ديموقراطى لممارسة السلطة ، أجبرتهم ضغوط جديدة على تسليم السلطة الى رجال دكتاتوريين زعموا أنهم يعملون لمصلحة الشعب • ففى جميع أرجاء أوربا الجنوبية والوسـطى والشرقية بدت الأنظمة البرلمـانية عاجزة عن معالجة المشكلات الملحة التى تتطلب حـلا قويا حازما من جانب الدولة ، وسرعان ماراح سحر الزعامة فى رجال من أمثال موسولينى ، بلسودسكى هورتى ، ميتاكســـاس ، دى ريفـــيرا أو هتلر ــ يبعث عادات النزعة التسلطية •

ولقيت نزعة التسلط ، كمبدأ ايجابى لتنظيم الدولة صـــياغة فى القرن العشرين ، عنــدما تولى موسولينى زمام السلطة فى ايطـاليا عام ١٩٢٢ • وكان الرمز الذى اختاره موسولينى هو الشـــارات fasces التى كان الرومان يحملونها رمزا للسلطة ولتوحيد جميع العنـــاصر فى الدولة • من هنا أخذ اسم الفاشية ثم أطلق Fascism لا على نظام ايطاليا التسلطى فحسب ، ولكن على الأنماط المشابهة فى جميع أنحاء العالم •

وكان جوهر الدولة الفاشية هو السلطة غير المحدودة • وعلى حد

تعبير موسولينى : « ان برنامجنا بسيط ، اننا نرغب فى أن نحكم ايطاليا، انهم يطالبوننا ببرامج ، هناك الكثير جدا منها الآن · ولكن ما يفتقر اليه خلاص ايطاليا هو الرجال وقوة الارادة ، وليس البرامج » ·

ورفضت الفاشية بصفة تامة وقاطعة مبادىء الليبرالية والديموقراطية باعتبارها مبادىء حمقاء غير ذات أثر فعال · فاستبدلت بمفهوم المساواة نظاما دائما مفيدا هرميا ؛ واستبدلت بحقوق الفرد وحرياته حقوق الدولة وهى كيان صوفى يخضع له الفرد ؛ وأحلت محل المفهوم الذى يرى أن القادة يجب أن يكونوا ممثلى الشعب المنتخبين ومسئولين أمامهم ، أحلت المفهوم المضاد وهو أن الناس مسئولون أمام رؤسائهم ممن يعينون بدورهم من قبل من هم فوقهم · وطبقا لما تصوره موسولينى يجب أن يتغلغل النظام والطاعة العسكرية فى الحياة المدنية ؛ لأنه مجد الحرب بوصفها أسمى وظيفة للدولة ، ورفع مكانة النشاط العسكرى باعتباره أسمى واجب للانسان ، وفضيلته الأساسية · وغلفت أهداف الدولة بمصطلحات العظمة القومية · وفى حالة ايطاليا أثار موسولينى حلم بعث الامبراطورية الرومانية من جديد ·

وكانت الضرورات التى فرضها المجتمع الفاشى هى ضرورات العمل، ووصمت النظم البرلمانية وغيرها مما تنطوى عليه الليبرالية ، بأنها لاتؤدى الا الى تردد الارادة · فالزعيم وحده هو القادر على اتخاذ القرارات السريعة والجريئة التى تدعو اليها « دينامية » الموقف الواقعى « التى لاتلين » · والطاعة فى غير ماتحفظ هى وحدها التى يمكن أن تترجم قرارات الزعيم الى عمل فعال ·

وكانت الفاشية ، كمذهب للسلطة ، تتضمن أنه لايمكن وجود مراكز بديلة للسلطة ولا أسس بديلة يمكن بمقتضاها مناقشة سلطة الزعيم أو تحديها · ولما كان الزعيم يدرك بالبداهة ماهو أفضل للأمة ، لهذا فهو فوق مستوى النقد ، حتى ولو كانت الرفاهية القومية هى الاعتبار الذى له الغلبة من الناحية النظرية · وكان المذهب ينطوى على نظام الحزب الواحد ، وتجنيد جميع أدوات التعليم والدعاية : المدارس ، الصحافة ، الراديو ـ ، والقضاء على الجمعيات المستقلة ؛ سواء أكانت نقابات عمال أم مجموعات أخرى ، واخضاع كل طراز من التنظيم للتوجيه النهائى من قبل الدولة · وكان يستند الى فكرة عن الطبيعة البشرية تنكر المفهوم الذى يرى فى الانسان كائنا متعقلا قادرا على توجيه مصيره ، وأكد الفكرة التى تقول بأن الانسان ضعيف غير مسئول ، يحتاج الى الارشاد

والتوجيه من قبل من يفوقونه عزما ومعرفة وشجاعة وحكمة ٠

لقد انتشر احياء نزعة التسلط ورفض الليبرالية المباشر ، من حيث المبدأ ومن حيث التطبيق العملى ، خلال العشرينات والثلاثينات فى جميع أرجاء أوربا الشرقية والجنوبية ، وكانت له أصداؤه فى تقوية اتجاهات التسلط فى أجزاء أخرى من العالم ، وخاصة فى أجزاء من أمريكا اللاتينية وفى اليابان ٠ ان الدكتاتوريات التى اضطلعت بالسلطة فى واحدة أثر أخرى ٠ من الدول التى خلفت امبراطورية النمسا والمجر ، وفى اليونان وأسبانيا ، تفاوتت من حيث درجة التزامها بالمعانى الكاملة التى تنطوى عليها الفاشية ، كما صاغها موسولينى ، ولكنها اشتركت جميعا فى مفهوم عن دولة القوة التى ترأسها سلطة لا تنازع ، أخضعت أو قضت على الحقوق الفردية ، والاحزاب السياسية والأنظمة البرلمانية باعتبارها لاتتفق مع أمن الدولة ، وكلها ربطت نظام التسلط بالقومية ٠

وبصفة عامة ، احتفظت الدكتاتوريات بالطبقات الحاكمة من ملاك الأراضى ورجال الصناعة ودعمتها ، ولقيت المساندة الفعالة من جانب هذه المجموعات التى راودها آنذاك الأمل فى الاحتفاظ بمركزها وقوتها ٠ وتفاوتت فى مدى الاعتماد على النظام العسكرى ، ولكنها جميعا جاءت الى الحكم ، وقد رأسها عسكريون أو رجال اتخذوا لأنفسهم مظهرا عسكريا، واتخذ أتباعهم المباشرون زخارف ورموزا عسكرية : قمصان سوداء أو خضراء ، وشكلا من التحية الفاشية ٠ وأخذت كل منها الاتجاهات والرموز التى كانت جزءا من التقليد القومى ، وكلها استلهمت رؤى عن عظمة تاريخية وجعلت منها صورة للمستقبل لتصف الأمانى القومية التى طلب الى الناس أن يقدموا التضحيات من أجلها ٠

واختلفت الدول التسلطية أيضا فى العلاقة بين السلطتين الدينية والزمنية ٠ ففى أسبانيا والنمسا انضمت القوى الكنسية الى الزمنية ؛ كل منها تدعم الاخرى٠ وحيث فعلت ذلك، فانمبدأ النقابية corporatism أى مبدأ الهيئات النقابية التى لها قدر من حق سن القوانين ، ومن السلطة التنفيذية على أعضائها على غرار نقابات الطوائف فى العصور الوسطى — هذا المبدأ لقى تأييدا من المرسوم البابوى الصادر فى عام ١٩٣١ ٠ ولقى موسولينى فى أول الأمر التأييد من جانب رجالالدين الى جانب تأييد الملك والعناصر المحافظة الأخرى ، ولكن عندما حاول اخضاع التعليم كله لسيطرته ، تحدت الكنيسة سلطته ٠

وفى كل من البلاد التى أخذت بالنظم التسلطية خلال هذه السنوات

ربطت الكنيسة نفسها فى أول الأمر بنظام الحكم أو وصلت الى اتفاق معه ولكنها كانت مصدرا محتملا للشقاق والتحدى للاتجاه الى الدكتاتورية ؛ ذلك أن السلطة الكنسية مستمدة من مصدر بديل خارق للطبيعة ، لا من الفكرة الغامضة عن الدولة ولا من ارادة الزعيم • فحيث نفذت الدولة ادماج جميع المؤسسات فى صرح واحد تحت سلطة الزعيم ، كما حدث فى ألمانيا النازية ، أصبحت الكنيسة خصما للنظام •

وهكذا أضفت الدول الفاشية شكلا جديدا وأشد قوة على الأفكار التقليدية عن الطبيعة البشرية ، وعن المجتمع المرتب ترتيبا هرميا ، وعن السلطة ، وعن مركز النشاط العسكرى والفضائل العسكرية • وكانت تجرى فى أساليبها على أنماط الاخضـــاع الدينية فضـــلا عن الزمنية • وقدمت الجاذبية التى يتمتع بها الزعيم ، مبعوث العناية الآلهية ، الذى يجسد فى شخصه الصورة القومية ورؤيا العظمة القومية لترفع معنويات الناس الذين اختلط الأمر عليهم أو أحسوا بخيبة الأمل ، بسبب أحداث سنوات مابين الحربين ، ولم يكونوا ملتزمين بالمبادىء الليبرالية التى كانت قد بدت بديهية بالنسبة لمن حاولوا أن يجعلوا منها الأساس الذى تقوم عليه الحياة القومية •

ولقيت التسلطية فى شـــكلها الفاشى الهزيمة فى الحرب العالمية الثانية ، كما سبق أن انهار النظام الملكى فى الحرب العالمية الأولى ، وأعيدت الأنظمة الديموقراطية الليبرالية فى ايطاليا والنمسا وألمانيا • وخضعت دول شرق أوربا لنظم حكم شيوعية • ولم يبق نظام التسلط على قيد البقاء الا فى شبه جزيرة أيبيريا ، ولفترة من الوقت فى عدد من جمهوريات أمريكا اللاتينية • ولكن برغم أن صورة الدولة المتسلطة فقدت قبضتها ، فقد بقيت مشكلة ذلك القدر من السلطة الذى يتطلبه جعل دولة حديثة ذات أثر فعال ، وكيف يمكن لمن تعودوا الخضوع للسلطة أن ينموا درجة من الاستقلال والمسئولية تتطلبها الظروف الحديثة • وبقيت امكانية بعث نظام التسلط حيثما كان تقليد السلطة قويا أو حينما يحتمل أن تخفق الديموقراطية الليبرالية فى مواجهة مشكلات العصر الحديث •

(٤) التفوق العنصرى

(أ) ألمانيا النازية :

بينما نشأت فى ايطاليا الصيغة الفاشية للدولة المتسلطة ، فان ألمانيا الهتلرية هى التى حملت الفكرة الى أبعد مدى لها ، ولم تقدم أقصى

عنصر فى المحور الفاشى فحسب ، ولكنها كذلك فرضت صورتها على بلاد أخرى ذات نظم من الحكم التسلطى •

وكان المظهر المميز لألمانيا النازية ، والذى وضعها فى أول الأمر بمعزل عن البلاد التسلطية الصرفة ، هو عقيدتها العنصرية ؛ فان نزعة التسلط ، والفاشية ، ومبدأ الزعامة ، أصبحت كلها عنصرية فى يدى أدولف هتلر ، وكان الدافع الى خلق ألمانيا الكبرى دافعا الى اخضاع الشعوب « التى هى أقل » شأنا بالقارة الأوربية ، وبخاصة السلاف (الصقالية) ، « للشعب السيد » (Herrenwolk) ، وليس اخضاع اليهود فحسب •

وعلى غرار موسولينى ، وجد هتلر تربة خصيبة لتنمية حركته الاشتراكية الوطنية فى الاضطراب وزوال الأوهام اللذين جاءا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى • ففى ألمانيا المهزومة والمحتلة ، التى قوض بينانها التضخم المتزايد ، اكتنف الجهد الذى بذلته جمهورية ويمار لغرس الديموقراطية الليبرالية محل ملكية آل هوهنزلرن المقهورة ، بصعاب هائلة • وهيأت اتجاهات كثيرة موروثة عن القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أساسا لتقبل المبادىء الفاشية والافكار العنصرية •

كانت عادات التسلط متغلغلة فى المجتمع الألمانى ، وكان من الممكن ادراك طابع التسلسل الهرمى فى أساليب الحديث وأنماط التعليم والحرف • فالتقليد الرومانسى الالمانى الذى وجد التعبير عنه خلال القرن التاسع عشر فى النظرية السياسية والفلسفة والأدب والفنون ، شجع فكرة وجود « صفوة » حاكمة ، ورفع من شأن الزعيم البطولى • وفى هذا التقليد كانت الثقافة الألمانية مزودة بصفات خاصة من العاطفة والأصالة الدينامية ، على خلاف النزعة الفكرية « المصطنعة » فى أوربا الغربية ، وكان هذا التقليد فى أشكاله المتطرفة معاديا للعقل والفكر •

وما من مكان آخر فى العالم ، ربما باستثناء اليابان ، كان فيه التقليد العسكرى أقوى وكانت الفضائل العسكرية موضع تقدير أكبر منه فى بروسيا ، وأعلن الكتاب السياسيون الممتازون ، بصورة متكررة، أن القوة هى الحق • وما من مكان آخر كانت فيه قبضة القومية الرومانسية أقوى • وكانت الدولة الألمانية التى حققت التوحيد فى عام ١٨٧١ تصور على أنها شىء أكثر من بنيان سياسى ، فكانت تتجسد فيها وحدة الشعب **Volk** الصوفية • وبصفتها هذه كانت رسالتها هى حمل الثقافة الألمانية ، وارتفعت أصوات غير قليلة تطالب بتوحيد كل من هم

من أصل ألمانى فى « جامعة ألمانية » كبيرة ، حيثما يكونون ، بل وطالبت أصوات أكثر « بالمجال الحيوى Lebensraum للشعب الألمانى القوى الآخذ فى التوسع ٠

لقد لقى مذهب تفوق الشعب النوردى تأييدا من جهات كثيرة ، وليس فى ألمانيا وحدها خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فسبق لريتشارد واجنر أن مجد أبطال العالم القديم من أشباه الالهة ، ممن كان يجرى تصورهم على أنهم الطراز الحقيقى للألمـــان والتجسيد الحقيقى للروح الألمانية ٠ وكان لأصحاب النظريات العنصرية ، مثل الفرنسى الكونت دى جوبينو ، هـ٠س٠ تشمبرلن الانجليزى زوج ابنة واجنر أتباع متحمسون ٠ وأثارت أفكار مشابهة اهتماما شعبيا ، حتى فى الولايات المتحدة ، حيث أثرت فى قوانين الهجرة التى صدرت فى العشرينات ٠ واعتقد الكثير من الناس أن « الشعب السيد » الألمانى مقدر له أن يحكم ٠

وارتبط مفهوم التفوق النوردى والنقاء العنصرى بالعداء للسامية ٠ ففى نظر واجنر والمجادل الالمانى يوجين كارل دورنج وكثيرين غيرهما، بدا اليهود يمثلون فى أشخاصهم نقيض الصفات التى كانت موضـــع التقدير والاعزاز بوصفها سجايا « ألمانية » ٠ وقرنت العناصر المحافظة والأرستقراطية والرومانسية والوطنية ، اليهود بالاشتراكية الماركسية ــ كان ماركس نفسه يهوديا ٠ قرنتهم بالدولية والحضرية والرأسمالية كنقيض لحب الوطن ، وبالمذهب العقلى كنقيض « للدم والأرض » ٠

وهكذا أتاحت التقاليد والتجارب الألمانية مكونات الاشـــتراكية الوطنية ، وذلك عندما هيأت الهزيمة أولا وهيأ بعدها التضخم ثم الكساد الاقتصادى أخيرا الفرصة لشخص ما يربط بينهـــا ليخلق حركة توفر المسالك التى يمكن أن يصب فيها شعب مملوء بالكبرياء والتحدى ما يشعر به من خيبة وكراهية ، ويسعى من خلالها وراء الكرامة واحترام الذات٠

وأضفى هتلر على هـــذا الموقف قوة رهيبة لاتنثنى ، قوة بعثت الحرارة فى الشعب الألمانى ودفعته الى العمل ٠ وكانت البؤرة التى ركز عليها هى ما استشعره من عداء عنيف للسامية ٠ فبرغم مابدا من أن اليهـود كانوا قـد اندمجوا فى المجتمع الألمـــانى ، وأن الأحياء اليهودية المحصورة المقيدة والمذابح المتكررة التى استمرت فى أوربا الشرقية ، لم تعد منذ وقت طويل جزءا من نمط الحياة اليهودية فى ألمانيا ، فان

تيارا تحتيا من العداء للسامية أثبت أنه قوى للغاية ، عندما ربط هتلر بين اليهود وجميع الشرور التى هاجمها · لقد سبق أن رأى العداء للسامية يعمل عمله فى فيينا خلال سنوات نضاله قبل الحرب العالمية الاولى ، حيث ربط قادة الاحزاب المتطرفة الحملات العنيفة والبذيئة على اليهود بالدعوات المعادية للرأسمالية والدعوات الى الجامعة الالمانية · ففى كتابه « كفاحى » (١٩٢٤) سجل هتلر رأيه وهو « انه لجزء من عبقرية أى زعيم عظيم أن يجعل حتى أشد الخصوم فرقة ، يظهرون كما لو كانوا ينتمون الى فئة واحدة فقط » ، وكان اليهود هم الفئة التى ركز عليها كل ما يشعر به هو وأتباعه من الكراهية ·

واذ فعل هذا أثار الشعب الالمانى ليشاركه اعتقاده الشديد بأن اليهود كانوا فى الحقيقة الصورة التى يتجسد فيها الشر ـ سـواء كرأسماليين يهود ، أو دوليين يهود ، أو نقابيين يهود ، أو مفكرين يهود ـ وقاد الشعب ليحقر أولا ثم ليقضى بعد ذلك على جميع من يجرى فى عروقهم دم يهودى · وفى الوقت المناسب ، نجد أن فكرته التى تعتبر اليهود فئة أقل من البشر لا تصلح الا لغرفة الغاز ، لم تفرض فقط على المناطق التى اجتاحها النازى قبل الحرب العالمية الثانية وفى أثنائها ، بل جلبت الموت الى الاغلبية الضخمة من اليهود الاوربيين · لقد امتدت الى الحركات الفاشية التى لم يكن بها فى الأصل مضمون عنصرى ، لتقلب السياسة الفاشية الايطالية على المجموعة اليهودية الصغيرة المندمجة فى سكان ايطاليا ، ولتجعل العداء للسامية من علامات الفاشية فى كل مكان بالعالم ·

كان هتلر يعبر بشكل خاص عن نظرة الطبقة الوسطى الدنيا التى خرج منها وأحاسيس الخيبة عندها ، وهى طبقة أحست أنها موضع الاحتقار ممن يعلونها ، وموضع التهديد ممن هم دونها · فقبل الحـرب العالمية الأولى كانت البورجوازية العليا والأرستقراطية من ملاك الأرض تتقاسمان زعامة الحياة السياسية والاقتصادية ، والحياة العسـكرية والاجتماعية ، وتشغلان الصفوف العليا فى الخـدمة المدنية · ووجدت الصفوف الدنيا من البيروقراطية وصغار التجار والحرفيين أن مركزهم آخذ فى التدهور كلما أصبحت البروليتاريا الصناعية منظمة وكلما ارتفع صوتها وضغطت من أجل حقوق العمال · وأصابهم التضخم الذى أعقب الحرب بقوة مدمرة بوجه خاص · وكانت الاشتراكية الوطنية موجهة ضد كل من البورجوازية العليا ونقابات العمال الماركسية « اليهودية » ·

ونبذت في موقفها المعادى للفكر الطبقات المثقفة وأهابت بالرومانسية التى كانت بمثل تلك القوة فى العقول الألمانية (٩) ٠

وفى تمجيد المثل الاعلى العسكرى فى دولة ألمانيا المنزوعة السلاح، أتاح هتلر منفذا لواحد من أعمق الأحاسيس بالخيبة والفشل ٠ وفضلا عن ذلك قدم هذا المنهل من الرضاء الذاتى واحترام النفس ، للبسطاء ممن لم يكن لهم امتياز التمتع به فى ظل النظام العسكرى البروسى الذى كانت فئات الضباط فى ظله تجند بصورة تكاد تكون شاملة ، من الطبقات العليا المكونة من الأعيان أصحاب الارض وأصحاب المهن ٠ وأمكن أن تتمتع فرق العاصفة ذات القمصان السمراء وفرق القمصان السوداء « المنتقاة » التى أنشأها ، بالاحساس بالتشابه مع الطائفة العسكرية وسلطة القوة العسكرية ، بينما تعتمد مكانتها فى الوقت نفسه اعتمادا كليا على هتلر الذى أصبح آنذاك لاغنى عنه بالنسبة اليها كزعيم ورمز٠

واذ بدأ هتلر يمثل عددا من الأمانى المختلفة ، فانه حظى بالتأييد من نواح كثيرة ٠ فسانده الجيش النظامى بسبب تأكيده العسكرى وعزمه على اعادة تسليح الريخ الالمانى ٠ وسانده رجال الصناعة بوصفه درعا تحميهم من التنظيم النقابى والفكر الماركسى ٠ وأيدت العناصر المحافظة والرجعية هجومه على المبادىء الليبرالية والأساليب انبرلمانيه التى قامت عليها جمهورية ويمار ٠ ورأى فيه دفاعا ضد الشيوعية كثيرون ممن أحسوا بالتهديد من جراء وجود روسيا البلشفية الى الشرق ، والذين تذكروا ما حاوله الشيوعيون الالمان عام ١٩١٨ من الاستيلاء على السلطة عندما سقطت من أيدى القيصر ٠ وحتى الذين عارضوا أساليبه والكثير من أفكاره ، رحبوا بتأكيده على القومية الألمانية من جديد ، وبانكاره معاهدة فرساى ، وحلمه عن « ألمانيا عظمى » ، وتجديده المطالب المتعلقة بالمجال الحيوى ٠ فكانت كل جماعة تظن أنه يتحدث باسمها ، ولم تعتقد أى منها أن ستكون لديه الرغبة ثم فى النهاية القوة ، لاخضاع مصالحها جميعا ـ الجيش النظامى ، الصناعة ، الطبقات الاجتماعية ـ المستقرة لنظامه وارادته ٠

ان جاذبية هتلر ، وقدرته على أن يحيط نفسه برجال نفذوا مختلف جوانب برنامجه ، يرجع بعض السبب فيهما الى أنه طرح جانبا جميع قواعد المجتمع المستقر ، وأطلق العنان لخياله وخيال رفقائه ٠ ففى ميدان اثر آخر ، رسم أعوانه بحماس لايقيده شىء خطوط النظام الجديد الذى سيدوم ألف سنة ، كما قال هو ٠

خطط الفرد روزنبرج التوسع الخارجي للرايخ بمصطلحات جيوبوليتيكية * ، ليستولى على سهول الروسيا والشرق الاوسط ، وليجعل الالمان فيما وراء البحار يدينون بالولاء « للدم » الذى يجرى فى عروقهم أكثر مما يدينون به للدولة التى كانوا من مواطنيها : أدوات لاستراتيجية عالمية للتسلط • وبالمثل كانت الدعاية بالنسبة الى جوزيف جوبلز ميدانا مفتوحا • ولم يكن هتلر بأى حال من الأحوال ، مخترع الدعاية ، كانت جميع البلاد المتحاربة قد أحسنت تطويرها خلال الحرب واستعملت بمهارة ووعى للاعلان فى البلاد الرأسمالية ، واستعملت فى الاتحاد السوفييتى كأحد الأساليب أو الخطط لبناء مجتمع اشتراكى • ولكن شرحه الجرىء لأسلوب « الكذبة الكبيرة » أتاح لوزير دعايته مجالا كاملا لتدمير القدرة على الرد الناقد ولاستخدام كل قوة وسائل الاعلام الجماهيرية لانتاج الفعل المرغوب فيه • وتركت لهينريخ هيملر حرية تطوير البوليس السرى ــ الجستابو ــ وتوجيهه فى أساليب وحشية لا يتصورها أحد ولا تقيدها الاجراءات القانونية أو حقوق المواطنين • وكان فى امكان جونيوس شترايخر أن يسير الى أبعد الحدود فى الحط من شأن اليهود والقضاء عليهم • واستطاع الأطباء أن يجروا التجارب على البشر فى معسكرات الاعتقال بمثل ما يجرونها على الجرذان فى المعمل • وعهد الى الاقتصاديين بالمهمة الشاقة وهى ادارة اقتصاد دكتاتورى • وأطلقت يد المحامين فى وضع معايير واجراءات لتنفيذ مفهوم عدالة الاشتراكية الوطنية المقرر ، وهو ــ « الحق هو كل مايفيد الأمة الالمانية ، والخطأ هو كل مايسيء اليها » • وطلب الى رجال التربية أن يخططوا تعليما جديدا يدرب العواطف وينمى الاخلاق والاتجاهات التى تجعل الناس أتباعا مخلصين ملتزمين فى الدولة النازية •

وبهذا هيأت الاشتراكية القومية للزعيم ورفاقه تحديا للخيال وفرصة العمل • وزودت الشعب الالمانى بالاحساس بأن له رسالة • وكان الاساس مزعزعا ، اذ فى مجتمع ينبثق فيه كل شيء من الزعيم يكمن الخطر الماثل دائما والممثل فى التآمر وممارسة السلطة على أساس من الهوى والنزوات • وهرب الكثيرون من الارهاب أو اختاروا المنفى وفرصة العيش كبشر أحرار ذوى عقول تنقد ، بدلا من أن يصبحوا جزءا من نظام يمجد « التفكير بالدم » • وبقى آخرون تغمرهم الأحداث وتشيع

(*) Geopolitics : دراسة علاقة السياسة بالجغرافيا ، وهى نظرية النازى فى التوسع الجغرافى السياسى العدوانى ، للحصول على مجال أكبر للحياة ، وفرض النفوذ الالمانى على العالم • (الترجمة) •

التعاسة فى نفوسهم · أما بالنسبة الى الذين شاركوا الى حد ما فى الاحساس بالمغامرة الذى وفرته الاشتراكية الوطنية ، فان أخطارها بدت ثمنا قليلا يؤدى لقاء التحرر من ذل الهزيمة ، ومما ولده الكساد من حيرة وجوع ·

وترتب على الفشل فى الحرب العالمية الثانية أن انتهت الاشتراكية الوطنية بصفتها هذه ، فقد مات زعيمها وافتضحت مذاهبها · وسارت الأمة الألمانية وقد شطرتها دول الاحتلال فى ختام الحرب ، فى طريقين مختلفين : ديموقراطية ليبرالية فى الغرب ودولة شيوعية فى الشرق ، وكلا القطاعين يبذل جهودا قوية ، ولكنها ليست ناجحة تماما ، ليتطهر من أفكار النازية ورجالها (١٠) ·

لكن برغم تحطيم النازية ، فانها أظهرت بعض القوى الكامنة فى المجتمع ، والتى يمكن اطلاق سراحها ، وقد يتمكن زعيم آخر من استغلالها فى وقت أو مكان آخر ، اذا أصبحت الظروف مواتية · ومثل هذا الموقف وجد بالفعل ، وان يكن الشكل مختلفا جدا ، فى اتحاد جنوب أفريقية ·

(ب) جنوب أفريقية (١١)

فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية وقف اتحاد جنوب أفريقية ضد التيار العالمى الذى كان ينادى بالمساواة فى المركز والمكانة للشعوب التى كانت من قبل خاضعة لغيرها ومغلوبة على أمرها واذ رفض اتحاد جنوب أفريقية المبادىء المعلنة فى الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، فانه اتخذ موقفا ثابتا فى تأييد فكرة وجود جنس سيد دائم ، واتخذ خطوات حاسمة لترجمة موقفه الى البنيان النظامى لمجتمعه · وعبر عن اتجاهه وسياسته الحزب الوطنى الافريقانى الذى اعتلى السلطة فى عام ١٩٤٨ ، باطلاق مصطلح « التفرقة العنصرية » apartheid

كان الموقف فى جنوب أفريقية فريدا : أمة من نحو اثنى عشر مليونا ونصف المليون فى منتصف القرن العشرين ، منهم مليونان ونصف المليون أوربيون* · وكان الأوربيون مقسمين بنسبة ٣ : ٢ بين الناطقين بالافريقانية (بلغة البوير) من سلالة الهولنديين الذين استوطنوا فى الأصل الساحل الجنوبى فى القرن السابع عشر ، وبين الأوربيين الانجليز

(*) البحث التالى يتعلق بالصورة الذاتية للأقلية الأوربية المسيطرة وأمانيها، لا الأغلبية الافريقية · بالنسبة الى الاخيرة انظر فيما بعد : ص ٩٧ ، « القومية الآخذة فى الظهور :افريقية » ·

أو الناطقين بالانجليزية الذين جاءوا تجارا فى أول الأمر ، ثم سادة بعد أن أصبح رأس الرجاء الصالح جزءا من الامبراطورية البريطانية خلال حروب نابليون ، ثم كمشتغلين بالتعدين والصـــناعة بعد عام ١٨٧٠ لاستغلال الثروات الاسطورية من مناجم الماس والذهب (١٢) ٠

وكان ثمانية ملايين ونصف المليون من غـــير الاوربيين أفريقيين وطنيين من قبائل البانتو سبق أن ارتحلوا جنوبا الى المنطقة الواقعـــة شمال السلسلة الساحلية ، فى نفس الوقت الذى كان يصل اليها فيه المستوطنون البيض « الافريكانر » فى هجرتهم من الجنوب ٠ وكانوا فى أول الأمر يتقاتلون فيما بينهم ، ثم مع المستوطنين الاوربيين على الارض الفضاء ، وأخيرا استقروا فى القرن التاسع عشر بين الاوربيين ، وفى مناطق قبلية تعرف باسم « المعازل الوطنية » ، ومنها خرجوا باعداد متزايدة كعمال زراعيين ، ثم لممارسة المهن الشاقة والحقيرة فى المناجم والمدن (١٣) ٠ وكان مليون من « الملونين » يقيمون أصلا فى مقاطعـــة الرأس ، من دم مختلط ، ومعظمهم يمتد نسبهم الى المستوطنين الأوائل والعبيد من سكان الملايو أو البوشمن والهوتنتوت الذين كانوا يستوطنون المنطقة فى الوقت الذى حدث فيه التوطن الاوربى الاصلى ، وكان عدد قليل منهم ثمرة الامتزاج فى أزمنة قريبة العهد ٠ وكان نحو نصف مليون هندى ، أغلبهم فى ناتال ، من سلالة عمال التعاقد الذين جىء بهم بين عامى ١٨٦٠ ، ١٩١١ للعمل بمزارع قصب السكر فى تلك المقاطعة ، ومن سلالة تجار جاءوا فى أعقابهم ٠

وهكذا فى اتحاد جنوب أفريقية فى القرن العشرين واجـــه عنصر أوربى منقسم على نفسه وصغير ، مجموعة سكانية كبيرة من الافريقيين الوطنيين ، ومن غيرهم ممن ليسوا بأوربيين ٠ وكانت ثمة فجوة ثقافية واسعة تفصل بين الاوربيين والافريقيين ، وكانوا فى صراع مستمر حول امتلاك الارض ، وأقام الاوربيون نظاما اقتصاديا واجتماعيا مبنيا على استغلال العمل الرخيص وعلى علاقة السيد والخادم بين العنصرين ٠

ان مبدأ التفرقة العنصرية الذى لجأ اليه الوطنيون « الأفريكانر » لمواجهة المشكلات الضخمة فى مجتمع كهذا ، كان له جانبان : التفوق الدائم للأوربى داخل مجتمع أوربى لا يدخل فيه الأفريقى الا للاسهام بعمله وكدحه ، وعزلة الأفريقى المادية والاجتماعية والثقافية عن الأوربى ، والتطور الثقافى للمجتمع الأفريقى على أساس تقاليده ومهاراته ، لاتقاليد ومهارات المجتمع الأوربى ٠ غير أنه فى الوقت الذى أعلن فيه هذا المبدأ كان عدد يقدر بمليونى أفريقى قد أصبحوا من سكان المدن بصورة دائمة ،

وتكشفت أمام عدد أكبر من هؤلاء أساليب الأوربيين الصناعية وطريقة حياتهم • وكان العدد الذى حصل على تعليم غربى صغيرا للغاية ، فأقل من نصف الأطفال الأفريقيين كانوا يلتحقون بالمدارس ، ومن هؤلاء لم يتم الصفوف الابتدائية الا ٥٪ فقط ، ولم يصل الى مستوى الالتحاق بالجامعة سوى حفنة تعد على أصابع اليد الواحدة • ولكن أجيـــالا عدة من جهود الارساليات الدينية ، وازدياد الانفاق من المال العام على تعليم الأفريقيين منذ انشاء اتحاد جنوب أفريقية فى عام ١٩١٠ ، كل أولئك كان قد خلق مجموعة سكانية قطعت صلتها بقبائلها ، وراحت تشترك فى القيم الأوربية وتتطلع الى طريقة الحياة التى نعم بها الأوربيون • (١٤)

كان أبرز مظهر من مظاهر التفرقة العنصرية هو الشدة التى طبقت بها السياسة • وتلك الشدة كانت وليدة العقلية الأفريقانية ، المتغلغلة فى أعماق الشعب الأفريقانى • وكانت انعكاسا لصورة للذات تكونت فى القرن السابع عشر ، واحتفظت بقوتها حتى الأزمنة الحديثة الى حد أن الذين اعتنقوها كانوا على استعداد لمواجهة التيارات الكبرى من التطورات العالمية ، فى تصميم عنيف على الابقاء عليها •

لقد عاش الأفريكانر من أهل جنـــوب أفريقية فى عزلة منذ زمن الاستيطان ، واحتفظوا فى عزلتهم بنظرة القرن السابع عشر الكلفنية التى جاءوا بها معهم • وكانت هذه مذهبا عنيفا وضع على من « اختارهم » الرب مسئولية العيش وفقا لما يفهمونه من تعاليمه ، وأن يجعلوها تسود فى صفوف غير المختارين • وكان هذا مذهبا يحمل فى طياته الاستقامة الصـــارمة ، وهو المذهب الذى تحكم فى جنيف فى أيـــام كلفن • لقد شاركت المستعمرات فى أمريكا الشمالية فى تراث مشابه ، ولكن خفف من غلوائه هناك مزيج بين مستوطنين ذوى عقائد أرق ، وخففت من شدته حياة فى بيئة أقل عداء مكنت الكثيرين من الهروب من الحظيرة ، وجاءت امدادات مستمرة من أوربا بفيض من الأفكار المتطورة ، الى أن لقيت حركة الاستنارة بالقرن الثامن عشر فى أمريكا الشمالية أرضا خصبة لها •

ولكن فى جنوب أفريقية زادت كل تجربة فى أعقاب أخرى من صلابة الاتجاهات الدينية والثقافية التى اتســـمت بهـــا كلفنية القرن السابع عشر • واذ تسلح الأفريكانر بالتصميم القوى وبالاحساس بانهم شعب الله المختار الذى ينفذ ارادته ، فانهم ناضلوا فى ســـــبيل زراعة السهل الساحلى ، والظهير الداخلى الأشد صعوبة ، ثم المرج الجاف والخالى من السكان • وهاجروا بصورة جماعية نحو الشمال فى أوائل القرن التاسع عشر ليحافظوا على نقاء مذاهبهم ، وللهروب من تسلط البريطانيين

الذين ألقت مقدرات الحروب الاوربية برأس الرجاء الصالح فى أيديهم ، وكونوا وراء الحاجز الجبلى جمهوريتى دولة أورنج الحرة وترنسفال • وفى توسعهم قابلوا شعوب البانتو النازحة نحو الجنوب ، وبدا كأنما عمل الرب لا يزال يتمثل جزء منه فى القتال معها حول الفلوات غير المملوكة لأحد ، وفى مقاومة غاراتها وحملها على العمل فى رعى الماشية وزراعة الحقول •

وكانوا لا يزالون يواصلون أسلوب حياتهم القائم على مخافة الله ، عندما فجر الاضراب الذى وقع عام ١٨٧٠ فى منـاجم الماس بكمبرلى ، واكتشاف الذهب فى الترنسـفال عام ١٨٨٤ الثـورة الصـناعية فى وسطهم • وهذا فتح الأبواب أمام فيضان المهاجرين الأوربيين uitlanders وأدخل التنافر والاضطراب اللذين تتصف بهما حياة الحضر الى المجتمع الريفى الذى أقامه الأفريكانر ، وجاء بالامبريالية الاقتصادية البريطانية فى أقسى صورها • وأخيرا بلغ التغلغل الاقتصادى والالتجاء الى القوة العسكرية الذروة فى حرب البوير خلال السنوات ١٨٩٩ - ١٩٠٢ بين البريطانيين وجمهوريتى البوير : الترنسفال ودولة أورانج الحرة •

ومن مستهل القرن العشرين عمل الاحساس بالوحدة والسخط على الهزيمة على تعميق واشاعة المرارة فى العقلية الأفريقانية التى لم تفقد أبدا نفسية القرن السابع عشر الكلفنية • وبرغم أن الزعامة البويريـة قبلت قانون الاتحاد فى عام ١٩١٠ بما تضمن من فكرة المشـاركة مع رفاقهم من أهل جنوب أفريقية الذين ينحدرون من أصل بريطانى ، والأمل فى تحقيق مصيرهم فى داخل الامبراطورية البريطانية ، فقد زاد الاحساس بالعزلة حدة • وبعد عامين من الاتحاد كون أحد الزعماء وهو الجنرال هرتزوج ، الحزب الوطنى على أساس أن المشـاركة الحقة لن تكون فى حيز الامكان الا اذا تسـاوى الأفريكانر مع البريطانيين ، من الناحيتين الاقتصادية والثقافية • وتطلع نحو مستقبل يمزج بين تيارين منفصلين ، البريطانى والأفريكانر ، بدلا من الاندماج الفورى لشعب واحد فى جنـوب أفريقية ، كمـا اقترح الحزب الذى يقـوده الجنرال جان سمطس • وقاد هرتزوج حركة ناجحة لمقاومة سياسة الجلنزة واحلال الافريقانية محل الهولندية بوصفها اللغة الرسمية الثانية • ولم يتخـل الوطنيون الأفريكانر أبدا بزعامة الدكتور د • ف • مالان فيما بعد ، عن الأمل فى استعادة الاستقلال الذى خسروه ، وفى اقامة دولة أفريقانية فى جنوب أفريقية •

ورأى الوطنيون الأفريكانر أنفسهم كأنهم يشغلون مكانا خاصا فى

العالم • وكان أهل جنوب أفريقية البريطانيون فى نظرهم أعضاء مجتمع منتشر على نطـاق عالمى من الناطقين بالانجليزيـة ، لهم وطن ثقافى هو بريطانيا وأخوة فى استراليا ونيوزيلندا وكندا والولايات المتحدة ، فاذا فقدوا هويتهم ظلت ثقافتهم باقية على قيد الحياة • ولكن الأفريكانر شعب منفصل • لم يعودوا هولنديين : لا فى اللغة لأن طريقتهم فى الحديث أصبحت متميزة ، ولا فى النسب لأن هذه الصلة انقطعت منذ أكثر من مائة سنة ، بل ولا فى الاحساس بالهوية ، اذ لم يأت لدعمهم سوى العدد القليل من المهاجرين من هولندة فى السنوات الثلاثمائة منذ الاستيطان الأصلى • وكانوا هم وحدهم مليـونا ونصف المليـون اختارهم الرب ، ويقيمون فى صورة غير مستقرة فى طرف قارة شاسعة ملأى بالسود ، يواجههم عنصر بريطانى عـدوانى اقتصـاديا ، وقوى ثقافيـا ومدعوم سياسيا ، ويملك الثقة بالنفس التى يتصف بها الامبرياليون والمقاولون والمنتصرون ، برغم أن الأفريكانر يفوقونه عددا بنسبة ٣ الى ٢ •

كان الوطنيون مصممين على أن يظل الأفريكانز على قيد البقاء كشعب• وكان الهدف المعلن كما عبرت عنه جمعيتهم السرية Afrikaner Broederbond التى تكونت فى عام ١٩١٨ : الغاء المركز المنحط القليل الشـأن الذى يشغله الأفريكانر وتشـغله لغتهم ، العزل الدقيق لجميع من هم غير اوربيين ، وضع حد لاستغلال « الأجانب » لجنوب أفريقية وأهلها ، فرض الطـابع الأفريقانى على الحيـاة العـامة والتعليم بالمعنى الوطنى المسيحى• وحسب قول سكرتيرها العام « ولدت Afrikaner Broederbond من ايمان عميق بأن الشـعب الأفريقانى غرسته يد الرب فى هذا البلد ومقدر له أن يظل كأمة لها طابعها الخاص بها ورسالتها * » •

وفى العقود المضطربة بعد قيام الاتحاد نجحت زعامة جان سمطس وجان هوفماير وغيرهما فى ابقاء التوترات محصورة داخل الحدود • وبرغم المعارضة الشديدة التى لا تلين ، انضم اتحـاد جنوب أفريقية الى بريطانيـا فى كلتا الحربين العالميتين •• وفى الكسـاد الذى وقع فى الثلاثينات انضـمت الأحـزاب الكبرى معا ، وأخضعت الاختـلافات فى السياسة فيما يتعلق بانعزالية الجماعات •• أخضعتها للحاجة الملحة الى معالجة التطورات الاقتصادية ، وان عادت الأحزاب فانفرط عقدها عندما نشـبت الحرب العالمية الثـانية • وبالتدريج أصبح الانقسـام الاقتصـادى بين الأفريكانر الريفيين المشـتغلين بالزراعة والبريطانيين

Quoted in G.H. Galpin, ed., The African Way of Life (New York, (*) 1953), p. 138.

والمهاجرين الأوربيين الصناعيين من أهل المدن ، أصبح مطموسا ، اذ تعلم الأفريكانر المهارات الصناعية وحصلوا على وظائف فى المدن · وأتاح نظام تعليمى مشترك – وان طبق بصورة منفصلة بلغتين أجنبيتين – ، مضمونا مشتركا وحافظ على مستوى مشترك ·

ولكن التيار الأفريقانى من القومية والعزلة استمر مكونا من الانفصال الثقافى عن البريطانيين ومن الانفصال العنصرى عن الأفريقيين ، وانطوى لسنوات كثيرة على الحلم الذى مازال حيا بشأن الاستقلال السياسى · وتضاءلت الآمال السياسية فى عودة جمهوريات البوير عندما أصبحت جوهانسبرج فى الترنسفال مركزا حديثا يموج بالحركة ، لا بالنسبة الى الذهب الذى تعزو اليه مولدها ، ولكن بالنسبة الى المجتمع الصناعى الآخذ فى النمو والذى اشتمل عليه اقتصاد جنوب أفريقية المتوسع · ولكن على المستوى الثقافى حقق الأفريكانر مكاسب مستمرة عندما أصبحت الأفريقانية لغة التعليم فى المدارس لأطفالهم وبدأ يظهر أدب أفريقانى · وفيما يتعلق بمشكلة جنوب أفريقية رقم واحد وهى العلاقات بين الأوربى والأفريقى ، بدا موقفهم الذى لا حول عنه من ناحية العزلة ، يهيىء فى نظر أعداد متزايدة من الناس جوابا جذابا على مشكلة مخربة لم يرأى شخص آخر سبيلا لحلها ·

كانت دساتير الجمهوريات البويرية قد احتفظت بحق التصويت وجميع الحقوق السياسية الأخرى للأوربيين ، وقررت بشكل قاطع أن السكان الوطنيين لن يكون لهم دور – الآن أو فى المستقبل – فى الكنيسة أو الدولة · وخططت الحدود بين المعازل الوطنية والمناطق الأوربية ، ومنعت كلا من الفريقين من تملك الأرض فى داخل اقليم الآخر · وكان العمال الأفريقيون فى المناطق الأوربية يعاملون كمقيمين مؤقتين بقصد العمل ، دون أن يكون لهم وضع المواطنة أو أى من حقوقها · وامتد الحظر ليشمل الهنود الذين حرم عليهم دخول دولة أورنج الحرة أو الاستحواذ على أرض فى الترنسفال · وفى عزلتهم عن الأفريقيين والآسيويين كان الأفريكانر مصممين على الاحتفاظ بنقائهم العنصرى · وساعدت التقاليد البيوريتانية الصارمة على الابقاء على الفصل بين الأعراق العنصرية ·

ومن جهة أخرى ، ففى مستعمرة الرأس حيث كان خمس السكان تقريبا فى وقت الاتحاد من الأوربيين ، وخمس من الملونين ، وثلاثة أخماس من الوطنيين ، ساد نمط أكثر تساهلا ، فكان جميع الذين يمكن أن تتوافر فيهم مؤهلات الاقامة والملكية والتعليم مقيدين فى جداول الانتخاب ، بغض النظر عن العنصر ، وان كان الأوربيون هم وحدهم

الصالحين لتولى المناصب العامة • وطبقا لشروط الاتحاد احتفظت كل مقاطعة بنظام الانتخاب الذى كان فيها آنذاك ، ودعم الحقوق التى تنعم بها الملونون والوطنيون فى مقاطعة الرأس نص فى قانون الاتحاد يقضى بعدم تعديلها الا بأغلبية الثلثين من أعضاء ممثلى العناصر الثلاثة فى مجلسى الهيئة التشريعية •

غير أن الناطقين بالانجليزية من أهل جنوب أفريقية أخذوا تفوقهم على الأفريقيين من أبناء البلد على أنه قضية مسلم بها ، ومن هذه الناحية لم يكونوا أقل من الأفريكانر • كانوا كمجموعة ، يتصرفون على أساس افتراض مجتمع أوربى ممتاز يرتكز على قاعدة عمالية أفريقية • وأصرت النقابات المكونة من العمال البيض على تنظيمات للتلمذة الحرفية وغيرها من التدابير لاستبعاد جميع العمال من غير الأوربيين من جميع الحرف التى تتطلب مهارات ، وبهذا يحمون من المنافسة الأفريقية • مستويات أجورهم المبنية على ندرة العمل فى اقتصاد يسير فى طريق التوسع ، وفى ناتال كانت ظروف التفرقة المفروضة على العمال الهنود من الشدة ، بحيث أدت بمهاتما غاندى الى ابتداع تكنيكات الاحتجاج التى استخدمها بنجاح بعد عودته الى الهند فى عام ١٩١٤ • ولكن أهل جنوب أفريقية البريطانيين شعروا باحساس مريح من التفوق العنصرى ازاء الأفريقيين والتفوق الثقافى ازاء الأفريكانر الذين لم يكن فى امكانهم أن يفخروا بانجاب أمثال شكسبير أو نيوتن أو آدم سميث ، كانوا يفتقرون الى الشدة والاحساس « بالاختيار » اللذين مكنا الأفريكانر من أن يجعلوا التفرقة العنصرية جزءا من العقيدة •

كان هناك أفراد من مجموعتى البريطانيين والأفريكانر لم يستطيعوا تقبل الغرض المتعلق بتفوق دائم على أغلبية سكان جنوب أفريقية • وكان أمثال هؤلاء الأفراد قليلين فى صفوف الأفريكانر ، وكان عددهم طيبا فى صفوف البريطانيين • وحاول أعضاء من رجال الكنيسة الأنجليكانية تطبيق مفهوم الأخوة المسيحية ، وتشبثت كنائس الاصلاح الهولندية التى ينتمى اليها الأفريكانر بمذهب « الصفوة » وجعلته مساويا للتفرقة بينهم وبين الأفريقيين ، وان خالفهم فى هذا بعض رجال الدين بصفتهم الفردية • وحاول رجال الارساليات الدينية ، والعاملون فى حقل الرفاهية والمعلمون أن يعدوا أفريقيين فرديين للمشاركة فى مستويات أعلى فى مجتمع جنوب أفريقية ، وتعاونوا مع المجموعة الصغيرة التى حصلت على تدريب فى جهودها من أجل الحصول على حقوق أوسع •

وعلى مر السنين راح موقف الأفريكانر يتغلب بصورة متزايدة على سياسات مقاطعة الرأس الأقل اتجاها نحو التقييد • وأخفق الجهد الذى

بذله الجنرال هرتزوج فى سنة ١٩٢٦ لاستبعاد الوطنيين من جـداول الانتخاب فى مقاطعة الرأس بسبب الافتقار الى أغلبية الثلثين المطلوبة ، ولكن هذا الجهد نجح بعد ذلك بعشر سنوات بسبب التأييد من جانب الزعيم المعتدل وهو الجنرال سمطس • وفى ذلك الوقت اتحد حزبا الزعيمين ، وكونا حزبا متحدا بأن تقبل هرتزوج موقف سمطس بالنسبة الى ادماج البريطانيين والأفريكانر باعتبارهم ســـكان جنوب أفريقية ، وتقبل سمطس موقف هرتزوج بشأن الاستبعاد التدريجى للمجموعات الســكانية غير الأوربية بدلا من ادماجهـا • وبالتدريج فقد البريطانيون النفوذ فى داخل المؤسسات الســياســية التى ابتدعوها ، وعندما اعتلى الحزب الوطنى الأفريقى السلطة فى عام ١٩٤٨ ، وجدوا أنفسهم يشغلون المكان الثانى فى دولة يسيطر عليها المتطرفون من الأفريكانر •

وكانت وطأة انتصار القومية الأفريقانية وسياسة التفرقة العنصرية شديدة على الملون والهندى ، فضلا عن الأفريقى من أهل البلاد • وكان الملونون ، الذين تركزوا بصفة رئيسية فى مقاطعة الرأس ، جزءا من المجتمع الأوربى من الناحية الثقافية ، اذ لم تفصل بين الفريقين روابط قبلية أو أساليب أجنبية • فمن ناحية اللغة والدين والقيم الثقافية ــ أى من ناحية كل شىء باســـتثناء اللون ــ لم يكن من الممكن تمييزهم عن الأوربيين ممن كان الملونون يعيشون بين ظهرانيهم • واذ اشتدت وطأة مبدأ التفرقة العنصرية وجد الملونون أنفسهم مسوقين لأن يصبحوا جماعة منفصلة • وأخيرا استبعدوا من جداول الانتخاب ، بعد أن اعتبرت المحكمة العليا أن الجهود المتواصلة من أجل تحقيق هذا الأمر غير دستورية •

واعتبر الهنــود غرباء ولا يمــكن اندماجهم • وبرغم أنهــم جميعا باستثناء عدد قليل منهم ، من مواليد جنوب أفريقية ، وغالبا من أبوين ، بل ومن جدين من أهل جنوب أفريقية ، الا أن السياسة المعلنة للتفرقة العنصرية كانت تهدف الى « ترحيلهم الى وطنهم الأصلى » • ولكنهم هم الذين وضعوا الأساس لعرض كل مسألة سياسية جنوب أفريقية العنصرية أمام الأمم المتحدة ، اذ ناضلت حكومة دلهى عن قضيتهم ، وأصرت بصورة متكررة على أن المشكلة مشكلة دولية ، وليست مسألة خاصة بالسياسة الداخلية فحسب ، كما تمسك اتحاد جنوب أفريقية •

هكذا كان جنــوب أفريقية فى الخمســينات هو التعبير عن قومية الأفريكانر • ان ما سبق أن كان اندفاعا من أجل فصل جمهوريتى البوير عن مستعمرة الرأس أصبح الآن سيطرة الشـــعب كله وتوجيهه نحـــو العقلية الأفريقانية • ولم يكن مبدأ التفرقة العنصرية مجرد تدبير لاخضاع

الأغلبية الأفريقية الدائم للعنصر الأوربى • بل كان الوسـيلة التى انعزل بها الأفريكانر ، وعرفوا أنفسهم كشعب وسعوا الى حماية هويتهم وبقائهم (١٥) •

وعملت الأحداث العالمية فى وقت معا ، على ما فيه صالح المتطرفين القوميين وفوضت القاعدة التى يسـتندون اليها • فمقام الامبراطورية البريطانية الآخذ فى الاضمحلال وظهور قوى جديدة من الحكم الاستعمارى جعل التسلط البريطانى فى جنوب أفريقية يبدو أقل حتمية • وأسهمت ألمانيا النازية بالمصـطلحات والنـظم لتأكيد التفوق العنصرى وتطبيق الوسائل الدكتاتورية • وكان القوميون يعجبون بها صراحة ، واقتبسوا بعض مصطلحاتها ، وعارضوا اشتراك جنوب أفريقية فى الحرب ، وعبروا عن عطفهم على القضية النازية • ودعم ازدياد حـدة القومية فى جميع أنحاء العـالم العـاطفة القومية والتعبير المتطرف عنها • كان الزعيمان المعتدلان : سمطس وهرتزوج قد اسـتنكرا البرودربند (الجمعيـة السرية) ومنع سمطس أعضاءها من الخدمة المدنية • وفى الوقت الذى وصل فيه الحزب القومى الى السلطة كان الكثيرون من قادته أعضـاء فيها •

ولكن بينما ألهبت القومية الصـاعدة فى أرجاء العـالم التعبير عن القومية الأفريقانية ، فانها هددتها ، لأن الأفريقيين الوطنيين لم يكونوا فى حصانة من نداءاتها الجذابة • فاستقلال السودان فى ١٩٥٥ وغـانة فى ١٩٥٧ حول الأمنية الغامضة فى صدور مختلف الشعوب الأفريقية الى مطالب ملموسة وجداول زمنية للاستقلال • غير أن القومية الأفريقية فى داخل اتحاد جنوب أفريقية لم تتخذ شكل الانفصالية أو احياء الثقافات القبلية ، اذ كان ينظر الى التحركات فى هذه الاتجاهات بعين الريبة على أنها تدابير يراد بها انكار مزايا الحضارة الحديثة على الأفريقيين • وبدلا من ذلك طالب الأفريقيـون من أهل جنـوب أفريقية بمكان فى المجتمع ، وبالحق فى تعلم المهارات التى تمكنهم من الدخـول الى معترك العصر الحديث • وأمثال هذه الأمانى ساندها الرأى العام العالمى كما تضمنها الاعلان العالمى لحقوق الانسان • وكانت الشيوعية الدولية على استعداد لاستغلال هذه الأمانى اذا ظلت عرضة للفشل •

وأثر مسار التصنيع فى سير التفرقة العنصرية بصورة مباشرة الى أكبر حد ، حيث عمل بشكل لا يلين على تعقيد تطبيقها وسلب معطياتها • فعندما جاءت الصناعة الى جنوب أفريقية لأول مرة ، أعرض عنهـا الأفريكانر ، برغم أن الاضرابات الرئيسية فى صناعة التعدين كانت فى

أقليمهم : الترنسفال • وكان رأس المال البريطانى وغيره من رأس المال الأوربى قد فتح المناجم ، وقام باستغلالها المهاجرون الأوربيون ، يعاونهم الأفريقيون الوطنيون فى الأعمال الشاقة التى لا تتطلب المهارات • فى أول الأمر كان الأفريقيون يأتون كعمال عابرين ، ثم يعودون الى مناطقهم القبلية عندما يجمعون من المال ما يكفى لسداد الضرائب المستحقة عليهم نقدا • وكانوا يعيشون فى معسكرات عمل ويحملون تذاكر مرور تسمح لهم بالمجىء والعودة • وبمرور الوقت أصبحت أعداد متزايدة من العمال الأفريقيين جزءا من قوة عمل دائمة • ولكن كانوا ما يزالون يعيشون فى معسكرات عمل تدعى مراكز اقامة كانت غير صالحة كوسيلة سكنى مؤقتة لعمال عابرين ، ولكنها كانت أكواخا قذرة مزعجة بالنسبة الى عمال دائمين وأسراتهم • وكانوا ما يزالون يحملون تذاكر مرور تسمح لهم بمزاولة أعمالهم برغم ما يعانون من شقاء •

وبعد الحرب العالمية الأولى بدأ أبناء الفلاحين الأفريكانر يتعلمون حرف المدن ، ويدخلون الصناعة • وعجل بالعملية توسع الصناعة السريع وازدياد النقص فى الأيدى العاملة خلال الحرب العالمية الثانية والسنوات التالية لها • ولم تعد صناعة جنوب أفريقية تحصل على التمويل من الخارج ، فرأس المال المحلى وبعضه من مصادر أفريكانية ساند التوسع • كذلك لم يكن فى امكانها الاعتماد على العمال الأجانب ، اذ اطردت الزيادة فى الأفريقيين الوطنيين الذين اجتذبتهم الصناعة ليشبعوا الحاجات الى الأيدى العاملة • ولكن ، وكما فى أجزاء أخرى من العالم ــ ازدادت حاجة العمال الصناعيين الى المهارات ، اذ تولت الآلات المهام الروتينية • الا أن القيود على الوظائف والتدريب لغير الأوربيين سدت الطريق •

ومن نواح كثيرة كان ثمة صراع مباشر ، بطرق شتى ، بين التوسع الصناعى والتفرقة العنصرية • فالتفرقة العنصرية تدعو الى الفصل ، والى رسم حدود بين الأوربيين والأفريقيين ، كما كان الحال فى الأيام التى فصلت فيها المعازل القبلية عن المزارع الأوربية ، ولكن الصناعة تطلبت ازديادا فى عدد العمال ، للعمل فى نفس المكان وليس فى عزلة • ودعت التفرقة العنصرية الى تقييد مستوى الأفريقى من المهارة ، ولكن الصناعة دعت الى مدى من الكفاية أوسع وأعلى • ودعت التفرقة العنصرية الى تشجيع تنمية الثقافات الأفريقية القبلية ، ولكن التعرض الحتمى للصناعة الحديثة ، ولما تتسم به الحياة الحضرية من خصائص يومية ، ولتغلغل الأفكار الذى لا يمكن لأى حاجز أن يمنعه أو يقف دونه ، كل

هذا ضمن استمرار عملية تحويل السكان القبليين الى مواطنين حديثين ٠ ولقد قال مؤرخ سابق من جنوب أفريقية فى عبارة واضحة واقعية : « ان كل واحد من سكان ساحل الذهب يدلى بصوت انتخابى حر ، وكل واحد من أبناء الكنغو يســـوق قاطرة ، ومن أوغنده أو تنجانيقا يزرع ويبيع القطن أو البن فى السوق العالمية ، بصورة مستقلة ، وكل عامل وطنى فى منجم نحاس بروديسيا الشمالية يضرب ضد شركته — ان كلا من هؤلاء يصبح بغير وعى وعلى البعد ناقدا لسياسات جنوب أفريقيـــة العنصرية ويخلق متناقضات وبديلات يمكن أن يلاحظها العالم أجمع ، ولا تستطيع داورية حدود أن تمنعها من الدخول فى عقول السكان الوطنيين فى جنوب أفريقية * » ٠

وربما كان أخطر سؤال هو ما اذا كانت كلفنية القرن السابع عشر ستستمر فى أن تعطى الأجيال المولودة بالمدن والمدربة صناعيا ، الحدة والثقة المعنوية اللتين يتطلبهما شــعب مصمم على الاحتفاظ بالســيطرة المستمرة على الجماهير القلقة الناشئة التى تفوق الأولين عددا بأغلبية ساحقة ، فى وجه ثــورة عالمية النطاق فى العــلاقات العنصرية بالقرن العشرين وبالأمم الحديثة العهد بالاستقلال فى القارة الأفريقية ٠

(٥) الدول ذات الأصل الدينى أو النظرة الدينية (١٦)

بينما كانت الدوافع الكبرى بالقرن العشرين تتجه نحو شكل زمنى ما من الوعى القومى ، ظهرت الى عالم الوجود دولتان وحدتهما الأساسية دينية وتعريفهما الأساسى دينى هما اسرائيل وباكستان ٠ كانت الأولى الحلم المقيم الذى راود شعبا مشتتا لم يفقد أبدا احســـاس الارتباط « بأرض وطن » له ٠ وكانت الثانية نتاج الجماعية الآسيوية ، وظهرت الى الوجود فى أزمة التحرير ٠ وكلا الدينين اليهودى والاســـلامى هيأ أساسا تقوم عليه نواح كثيرة من الحياة الزمنية ، اذ وفرا نظمـــا للقانون وقررا قيم الحياة اليومية وعلاقاتها ٠ وكانت كل من اسرائيل وباكستان تصبو الى خلق دولة قوميـــة حديثة ، ديموقراطية وفعالة من النـــاحية الاقتصادية ، واعتبرت أصلها الدينى وهويتها متفقتين تماما مع هذا الهدف ٠

ولقد احتفظت بلاد أخرى معينة باتجاه دينى تقليدى الى منتصف القرن العشرين ، وخاصة بلاد مثل العربية السعودية واليمن وأفغانستان،

(*) C.W. de Kiewiet, The Anatomy of South African Misery (London, 1956), p. 80.

التى بقيت معزولة الى حد كبير وخالية نسبيا من تأثير الغرب · وفى غيرها كانت الحركات القومية ضد السيطرة الغربية مرتبطة باعادة تأكيد هويتها الدينية ، وخاصة فى صفوف الشعوب الاسلامية ، وفى مناطق بوذية مثل بورما وسيلان ·

(أ) اسرائيل :

ظل الشعب اليهودى المشتت فى أراض كثيرة ، ولما يقرب من ألفى سنة ، يقيم فى كل اجتماع للعبادة فى الكنيس صلاة من أجل رفاهية فلسطين ، الأرض المقدسة ، وعودة وجود الرب فى بيت المقدس · وعبر قرون من الاضطهاد ، حين تحول كل مكان بدا أنه يمكن أن يكون ملجأ ومستقرا لهم ، الى مكان للتعذيب والطرد والموت ، فان حلم العودة الى الوطن اليهودى ظل دائما كشعاع من الأمل · وخلال التاريخ اليهودى كله شق عدد قليل من أناس مخلصين ، من جميع بلاد المنفى ، طريقهم الى فلسطين ·

وفى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وفى السنوات السابقة على نشوب الحرب العالمية الأولى ، عندما كان فيضان كبير من اليهود يتدفق خارج أوربا الشرقية التى طغت عليها المذابح ضد اليهود ، زاد العدد القليل المتجه الى فلسطين ، ومدت المنظمات الصهيونية بأوربا وأمريكا يد المساعدة لمن شقوا طريقهم اليها · وعندما قرر تصريح بلفور لعام ١٩١٧ أن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومى يهودى ، وأغلق باب الهجرة الحرة الى الولايات المتحدة فى عام ١٩٢١ ، أصبحت فلسطين مكانا رئيسيا يولى المهاجرون من أوربا الشرقية وجوههم شطره · وأتاحت فى الثلاثينات ملجأ من الهلاك على أيدى النازى · وفى عام ١٩٤٧ قسمت فلسطين بناء على توصية الأمم المتحدة ، وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ خرجت اسرائيل كدولة مستقلة ·

وهكذا كمنت خلفية « العودة الى اسرائيل » فى التاريخ المستمر للشعب اليهودى ، وكان تحويلها الى واقع دولة يهودية متكاملة نتاج ظروف عالمية فى القرن العشرين ، وجهود الشعب اليهودى فى هذه السنوات ·

فى مستهل القرن العشرين كان ثلثا اليهود بالعالم يعيشون فى جنوب وجنوب شرق أوربا ، وخاصة فى الاقليم الذى كان بولندا من قبل ، وكان الباقون يعيشون فى أوربا الغربية والوسطى حيث سبق

أن سمح لهم بالتدريج بالدخول اليها ، وأساسا بعد صلح وستفاليا فى عام ١٦٤٨ ، وفى البلاد الاسلامية بشمال أفريقية وغرب آسـيا حيث أقاموا عندما طردوا من أسبانيا والبرتغال بعد عام ١٤٩٢ ، وفى الولايات المتحدة حيث كانت أعدادهم تزداد بسرعة بفعل سيل المهاجرين العظيم الذى تدفق عليها من أوربا الشرقية منذ ثمانينات القرن التاسع عشر ٠

وكان يهود أوربا الغربية خارج شـبه جزيرة أيبيريا ، يتمتعون عموما بحقوق مدنية وسياسـية كاملة ؛ اذ راحت البـلاد ، الواحد تلو الآخر ، خلال القرن التاسع عشر ، تلغى المؤهلات الدينية التى حالت دون مشاركتهم السياسـية ، وفتحب أبواب المدارس والجامعات ، وأزالت القيود المفروضة على مزاولة المهن ٠ غير أن الأمن الذى حققوه قبل ذلك بوقت قريب ، هزه بعد ١٨٨٠ نمو العداء للسامية بصورة تنذر بالخطر ، وخاصة فى ألمانيا والنمسـا ، وهو عداء موجه نحو اليهود باعتبارهم « جنسا » وليس ضد دينهم كما كان الحال فى الفترات السابقة ٠

وكانت الظروف فى أوربا الشرقية أقل ملاءمة بكثـير ٠ فالقيود على تملك الأرض ، وتحديد مناطق الاقامة ، والفقر المدقع ، وضغط تزايد السكان ، وكثرة وقوع المذابح ، كل هذا حرك نحـو الغرب هجرة جاءت بمهاجرين فقراء الى الجاليات اليهودية فى أوربا الغربية ، التى كانت تعيش فى أحوال طيبة ، كما حرك تيار الهجرة الدافق الى الولايات المتحدة فارتفع معدل الهجرة اليهودية من متوسط قدره ٥٤٠٠ فى السـنة بين عامى ١٨٤٠ ، ١٨٨٠ الى ٣٨٫٢٠٠ سـنويا من ١٨٨٠ الى ١٩٠٠ ، والى ١١٤٫٥٠٠ سنويا من ١٩٠١ الى ١٩١٤ ٠ وسمحت الولايات المتحدة وكندا بحرية دخول المهاجرين ، ومنحهم حقوقا مدنية وسياسية كاملة ٠

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر جرى تنظيم يهود أوربا الغربية وأمريكا ليساعدوا أخوانهم من يهود الشرق ، وليتدخلوا حيثما ظهر أن حرية اليهود وأوضاعهم مهددة ٠ وشكلت منظمات مثل التحالف الاسرائيلى العالمى الذى قام فى فرنسا عام ١٨٦٠ وأمثـاله من الهيئات فى انجلترا والولايات المتحدة وألمانيا، لتقديم المعونة التعليمية والخيرية بالخارج٠ وكان تقديم المساندة للاستيطان اليهودى فى فلسطين أحد الأشكال التى اتخذتها مثل هذه المعونة ، واستجاب الأفراد البارزون فى أوربا وأمريكا الى النداءات الموجهة من المجموعات القاطنة فى الأحياء اليهودية في جيتو أوربا الشرقية الذين نجحوا فى التنظيم من أجل التوطن ٠

لكن لم تصبح الصهيونية حركة نشيطة الا فى مستهل القرن . فبرغم أن الجاليات اليهودية المحافظة فى أمريكا أيدت العودة الى اسرائيل من حيث المبدأ ، ونقل المهاجرون معهم حركاتهم المعروفة باسم « محبو صهيون » و « الباحثون عن صهيون » ، فقد كان نشر كتاب تيودور هرتزل فى عام ١٨٩٦ بعنوان « الدولة اليهودية » Der Judenstaat هو الذى عجل بالصهيونية كحركة عالمية يهودية نشيطة .

وخلال العقود الأولى من القرن العشرين واصلت أحداث كثيرة تكوين احساس بقومية يهودية ، وأسهمت فى نمو الصهيونية . فقضية دريفوس فى فرنسا ، التى تضمنت المحاكمة بتهمة التجسس لأول ضابط جيش يهودى يعين فى هيئة أركان الحرب الفرنسية ، وادانته وسجنه ، واعادة المحاكمة والعفو والتبرئة النهائية ، كل ذلك كشف عن مشاعر عنيفة من العداء للسامية ، كما قسم فرنسا واسترعى اهتمام العالم لمدة عشر سنوات . وفى ألمانيا والنمسا استمرت جماعات سياسية شديدة العداء للسامية تفوز بالمقاعد فى الهيئات التشريعية المركزية والمحلية ، وراجت فى صفوف عامة الشعب صحف معادية للسامية عداء عنيفا .

ان القومية النامية للشعوب التى كان الكثيرون من اليهود يعيشون بين ظهرانيها ، هددت مركز الأقليات . فالأقليات التى سبق أن عاشت عيشة رغدة داخل الامبراطورية العثمانية وجدت مركزها مزعزعا عندما أصبحت تركيا دولة ذات اتجاه قومى ، وكانت القومية المتطرفة بالدول الجديدة فى أوربا الشرقية بعد الحرب العالمية الأولى نذير سوء للأقليات اليهودية فيها . وفى محاولة من أجل حماية الجاليات اليهودية داخل الدول الجديدة ظهر ممثلو المنظمات اليهودية الأوربية والأمريكية أمام مؤتمر الصلح فى فرساى من أجل وضع اتفاقيات خاصة بالأقليات ، يراد بها أن تضمن حقوق أمثال هذه الأقليات وفى الوقت نفسه حول تصريح بلفور لعام ١٩١٧ حلم الدولة اليهودية الى أمل ايجابى .

ولما أغلقت الولايات المتحدة بابها فى وجه الهجرة الطليقة عندما أصدرت قوانين ١٩٢١ و ١٩٢٤ لتقييدها ، أوقف سيل الهجرة اليهودية بشدة . فلما اقتربت العشرينات من نهايتها كان اليهود يفدون على الولايات المتحدة بمعدل بلغ خمس مثيله فقط عندما استؤنفت الهجرة بعد الحرب . وبرغم ازدياد أعداد الذين قصدوا الى بلاد أمريكا الجنوبية ، هبطت الهجرة اليهودية فى هذه السنوات بنسبة ٦٠ فى المائة ، من ٤٢٦ر٩٣٠ فى ١٩٢١ ـ ١٩٢٥ الى ١٧٢ر٩٠٨ فى ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ .

وبدأ « الوطن اليهودى » يبدو أكثر من مركز للدين والثقافة اليهوديين ويتخذ طابع مأوى آمن • وعندما ضرب الارهاب النازى ضربته وأستأصل عددا يقدر بستة ملايين من يهود أوربا البالغ عددهم ثمانية ملايين ، كانت فلسطين هى التى استقبلت أكبر عدد من الناجين من النازية •

وبرغم نمو قوة الحركة الصهيونية فى أوربا وأمريكا ، كان التأييد من جانب الجاليات اليهودية أبعد من أن يكون اجماعيا ، واختلف الذين يساندون الحركة اختلافا أساسيا فى نوع « الوطن » الذى تصوروه • كان يهود أوربا وأمريكا منقسمين وفق خطوط ايديولوجية واجتماعية معقدة • وأيد الصهيونية بحماس نفر من أشد المتمسكين بالدين وبالعقيدة الصحيحة ، وأبقى الجناح على المتمسك بالعقيدة الصحيحة على جانب خاص من الحركة الصهيونية لاسرائيل باعتبارها مركزا دينيا يمكن أن تطبق فيه تعاليم اليهودية الصحيحة تطبيقا كاملا • غير أن فرع اليهودية فى الولايات ذاته والذى دعا نفسه « الاصـــلاح » اتخذ فى عام ١٨٦٩ موقفا معاديا للصهيونية فى حزم ، ولم يتراجع عنه حتى عام ١٩٣٥ • وكان الكثيرون ممن هم أكثر اتجـــاها الى العلمانية وأكثر استهتارا أو عدم مبـــالاة ، لا يستشعرون القليل من التعلق العاطفى بأرض اسرائيل المقدسة ، ومن المحتمل أن يكونوا من المعادين للصهيونية • الا أنه كان هناك صهيونيون سياسيون بارزون فى صفوف غير المتدينين ، نظروا الى الوطن اليهودى من ناحية قومية أكثر منها دينية •

كذلك أثرت الخلافات بين اليهود حول مسألة الاستيعاب فى موقفهم من الصهيونية ، فسعى دعاة الاستيعاب وراء ادماج اليهود فى الثقافة العامة بالبلد الذى يقيمون فيه ، مع الاحتفاظ بعقيدتهم الدينية المميزة لهم ، وبممارســة الأنشطة الجماعية داخل اطار مجتمع ديموقراطى متعـدد الأديان ، ولكن يتخذون أماكنهم كمواطنين فرديين يرتبطون مع الغير على أساس الحرفة أو المصلحة ، والاقامة أو المسئولية فى المجتمع الكلى • ولكن ناهض هذه الفكرة أولئك الذين آمنوا بأن التراث اليهودى أثمن من أن يطرح جانبا ، وأن الحياة اليهودية المتشددة هى وحدها التى توفر الوسط الملائم لازدهارها ، وأن على اليهـــود أن يحتفظوا بذاتية منفصلة بوصفهم جالية • وكان دعاة الاندماج من المعارضين بوجه عام للصهيونية • ولكن قيام هتلر ، وفرض قوانين نورمبرج والقوانين المشابهة فى ايطاليا الفاشية والتى استبعدت من امتيازات المواطنة ما بدا أنها أتم المجموعات السكانية اليهودية اندماجا فى المجتمع ، وأخيرا حملة الابادة ، كل هذا زلزل الأرض تحت أقدام دعاة الادماج وحول الكثيرين منهم الى الصهيونية •

وثمة خط ثالث من الانقسام داخل الجاليات اليهودية ، كان بين مجموعات العمال ذوى النزعة الاشتراكية القوية وبين العناصر المحافظة من الناحية الاقتصادية ، فقد اجتذبت الاشتراكية الماركسية أنصارا أقوياء من صفوف اليهود فى كل من ألمانيا والروسيا، وجاء كلا الفريقين باهتماماته واتجاهاته الى الولايات المتحدة • كانت الصهيونية الدينية تلقى القليل من الاستجابة من جانب هذه العناصر اللامبالية والمعادية للدين ، ولكن كان فى صفوف مجموعات العمال كثيرون تطلعوا الى وطن يهودى كمكان يبنون فيه دولة اشتراكية •

هــذه المفاهيم المختلفة عن « أرض اسرائيل »، لدى الجـاليات اليهودية ، انعكست على المدارس التى أقيمت للمستوطنين فى فلسطين والتى تساندها الأجنحة الممثلة لكل منها بالمنظمات الصهيونية العالمية • كانت المدارس التى تساندها المنظمة الصهيونية العامة زمنية فى جوهرها، وهيأت مكانا للتوراة والأدب الحاخامى فى المنهج ، ولكنها لم تكن تقدم تعليما دينيا رسميا • وكانت المدارس التى يساندهـا جناح مزراتشى المتمسك بالعقيدة ذات اتجاه دينى ، فخصصت وقتا كبيرا للأدب الحاخامى والتوراة • وأنشأ الصهيونيون العماليون واليساريون مدارس غير دينية مع توكيد على المهن ، لم يتضمن بالفعل أى أدب حاخامى فى المنهج •

ولكن أجمع كل من يساندون اسرائيل على مظهر واحد هو دورها كمركز للمعرفة وهو أمر حيوى بالنسبة الى حياة المجتمع اليهودى • ولم تصبح الجامعة العبرية التى أرسى أساسها فى القدس عام ١٩١٨ وقبلت الطلاب النظاميين لأول مرة فى عام ١٩٢٤ ، مركزا لا للدراسات اليهودية فحسب ، ولكن أيضا للميادين العامة من المعرفة • وأصبح المعهد العبرى للتكنولوجيا الذى أسس عام ١٩١٢ بحيفا المدرسة الرئيسية للهندسة فى الشرق الأوسط * •

وبينمـا العوامل الكامنة وراء خلق دولة اسرائيل والتى حددت طابعها وسياستها ، كانت متغلغلة فى أعماق التاريخ اليهودى والتجربة اليهودية ، فان شكلها صنعه أولئك الذين وقفوا حياتهم وجهودهم المباشرة على المغامرة • فمنذ أواخر القرن التاسع عشر راحت جماعات المستوطنين الذين شقوا طريقهم الى فلسطين تضطلع بالمهمة الصعبة ، وهى اعادة بناء

(*) لعل الكاتب نسى مدرسة « المهندسخانة » التى أسست فى مصر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر •

اقتصـــاد زراعى فى صحراء عاتية · ففى عام ١٨٨٥ كان فى فلسطين ٢٣٫٠٠٠ يهودى يعيش معظمهم فى مدن أربع ، وفى عام ١٩٤٧ أصبح العدد ٦٤٣٫٠٠٠ يعيشون فى ٣٣٠ من المجتمعات والمستعمرات اليهودية منها ٣٠٢ زراعية · وهؤلاء يمثلون نحوا من ٢٧٪ من سكان فلسطين ، كانوا ينتجون نحو ٥٠٪ من الموالح بالمنطقة ، و ٨٩٪ من العلف ، ومقادير كبيرة من الخضر ونسبة صغيرة من الحبوب ؛ وكانوا مسئولين عن ٨٥٪ تقريبا من صناعة البلد وتجارته (*) ·

وجاء المستوطنون من أماكن مختلفة كثيرة : هنغاريا ، الروسيا ، بولندا ، لتوانيا ، رومانيا ، بلغاريا ـ يساعدهم المال من جالياتهم ومن بلاد أخرى : ألمانيا ، فرنسا ، بريطانيا ، الولايات المتحدة ، تركيا ·وتدخل قادة بارزون من بلاد كثيرة : محامون ، أساتذة ، أعضاء برلمان ، سفراء ـ لدى الحكومة التركية نيابة عن المستوطنين اليهود · وأسهم كل نوع من المجموعات اليهودية بالعون المالى : منظمات خيرية ومنظمات المعونة المتبادلة ، جماعات الشباب جمعيات الأخوة ، هيئات سرية وثورية ·

وهكذا كان الاستيطان اليهودى فى فلسطين وليد التعاون والتعبير من جانب قطاع مستعرض واسع جدا من اليهودية العالمية ، واكتسب طابعه من الشعب اليهودى كله ، بدلا من أية واحدة من الواجهات الكثيرة للحياة اليهودية والفكر اليهودى · وكل موجة جديدة من المهاجرين مكونة من أناس أحسوا أنهم يقصدون الى « دارهم » ، الى الأرض التى كانت لهم معرفة وثيقة بها ، كانت تدعم أولئك الذين سبقوها · وبرغم التنوع الهائل فى الخلفية وفى وجهة النظر ، التوترات الكامنة فى العـلاقات بين الجماعات ، والفجوة بين الحلم والواقع ، فان القوم الذين صـــنعوا أمة اندمجوا وتكاملوا عن طريق النضال من أجل مثل أعلى تاريخى مشترك ، والاخلاص له (*) ·

وكانت المستعمرات المتباينة توحد بينها لغة مشتركة هى العبرية، التى تحولت من لغة توراة وصلاة الى لغة حية للاستعمال اليومى ، لغـة

---

* هذه أرقام مبالغ فيها كثيرا ، ولا بد أنها احصاءات عهد الانتداب المعروف بتعنته فى ممالأة اسرائيل ·

* لا بد من أن نذكر هنا الدور الفعال الذى لعبته الامبريالية العالمية ، وخاصة من جانب بريطانيا والولايات المتحدة ، فى خلق « اسرائيل » لخدمة المصالح الاستعمارية فى الشرق الأوسط ·

المدرسة والثقافة والعلم والتعليم وحياة الناس العامة ٠ وكانت المستعمرات الأولى تفصلها الواحدة عن الأخرى اللغة والفوارق الثقافية ، واحتفظت كل منها بالصلات التى تربطها بالأماكن التى جاء المستوطنون منها ٠ كانت العبرية المستخدمة فى الحديث فريدة بالنسبة الى فلسطين ، ولكنها كانت التراث المشترك للجميع ٠ ولقيت القبول النهائى فى عام ١٩١٢ عندما نجح تلاميذ ومدرسو المعهد العبرى للتكنولوجيا الحديث النشأة ، والذى تساعده الجالية الفلسطينية ، فى جعل العبرية لغة التدريس ، برغم المعارضة من جانب الكثيرين من مؤسسى المعهد ممن كانوا يرغبون فى أن يكون التدريس بالألمانية ٠

وعندما أصبحت اسرائيل دولة مستقلة فتحت أبوابها أمام اليهود من جميع البلاد ، وان صعب استيعابهم بسرعة ٠ فطبقا لقانون العودة أعطى كل يهودى الحق فى الاقامة فى اسرائيل ٠ وخلال السنوات الأربع الأولى تجاوز عدد المهاجرين وقدره ٦٨٨٫٠٠٠ مجموع سكان البلد فى وقت الاستقلال ٠ وفى السنوات الخمس التالية وصل نحو ١٥٠٫٠٠٠ مستوطن آخرين ٠ وبرغم أن البعض استمر يفد من أوربا الشرقية كلما تمكنوا من الهرب من تلك البلاد ، حيث ظل مركزهم غير مستقر ، فان أكثر من نصف المجموع الكلى بما فيهم الشطر الأكبر من المهاجرين الذين جاءوا بعد ذلك — كانوا من البلاد العربية بأفريقية وغرب آسيا ، حيث سبق أن عاش اليهود قرونا فى أماكن محصورة داخل المجتمعات العربية ، معزولين الى حد كبير عن الثقافة المحيطة بهم ، وعن يهود أوربا وأمريكا ٠ وهيأ ادماج تلك المجموعات السكانية فى ثقافة مشتركة مشكلة جديدة تتعلق بالاندماج ، واجهت الدولة اليهودية الفتية ٠

واتخذت اسرائيل فى بداية أمرها شـــكل دولة قومية ديموقراطية حديثة يستطيع كل يهودى فيها أن يصبح مواطنا عن طريق الهجرة اليها ، وتمتع فيها المواطنون المسلمون والمسيحيون الموجودون كأفراد أو جماعات بحقوق مماثلة لحقوق اليهود ، وباستثناء المسائل الخاصة بقانون الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق ، كانت أنظمتها علمانية ٠ فبالنسبة الى هذا القانون احتفظت بمحاكم دينية منفصلة لليهود والمسلمين والمسيحيين ، وهى المحاكم التى ورثتها عن الامبراطورية العثمانية والانتداب البريطانى ٠ وجرى تسهيل ممارسة شعائر الدين اليهودى مثلا بجعل يوم السبت يوم العطلة الأسبوعية ، وبمراعاة قوانين التغذية اليهودية فى القوات المسلحة ، ولكن المؤسسات الدينية اليهودية وغير اليهودية كانت تتلقى المعونة المالية من الأموال العامة ٠ لقد حققت اسرائيل غرضها كدولة يهودية ، وذلك

بحكم وجودها كوطن للشعب اليهودى أكثر منها بحكم أنظمتها وأساليبها اليهودية (*) ٠

ولقد تم الاستيطان اليهودى بفلسطين وانشاء الدولة اليهودية بها فى وجه معارضة قوية ٠ فحتى الحرب العالمية الأولى حاولت الادارة التركية منع الدخول الى اسرائيل ، مدعية الاستعداد للسماح بدخول اليهود الى أى جزء آخر من الممتلكات التركية ، ولكنها تقاوم ما اعتبرته احساس المستوطنين اليهود بالعودة الى الوطن « أرض المعاد » ٠ وبرغم تصريح بلفور انتهجت الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب على فلسطين ، سياسة مضطربة تتأرجح بين السماح بالهجرة وتقييدها ، فى وجه الضغوط المتعارضة من جانب السكان العرب واليهود ٠ ورفضت البلاد العربية المجاورة انشاء اسرائيل ، ولم تظهر الدولة الى عالم الوجود الا بعد حرب مع جيرانها (١٧) ٠

وبالنسبة الى الدول العربية المجاورة كانت اسرائيل ، باقتصادها الحديث ونظرتها الغربية ، رأس جسر للغرب ، ومعتدية على أرض عربية ، وظاهرة مؤقتة يجب القضاء عليها ٠ وسواء بالصيحة المدوية التى انبثقت مع ثورة ١٩٥٢ ، فى مصر ، أو باللغة العلمية التى استنتج بها أستاذ بالجامعة الأمريكية فى بيروت أن المصير الوحيد أمام اسرائيل هو المصير الذى حل بالمملكة اللاتينية فى بيت المقدس ، أو بأغنية فتيات المرشدات فى قرية مصرية « اخرجى يا اسرائيل الشريرة فلن تتملكى فلسطيننا العزيزة » ، فقد كان القصد واحدا ٠ يجب ألا تعيش دولة اسرائيل ٠

وبالنسبة الى يهود العالم ، أياكان اتجاههم السابق ازاء الصهيونية، كانت اسرائيل واقعا مشجعا ، وأكثر من هذا كانت تحقيقا لحلم قديم لا يحيد عنه حتى غير المتدينين ، ورددە المتدينون فى صلواتهم دوما ٠

وبالنسبة الى أهل اسرائيل كانت رسالتهم هى أن تظل على قيد البقاء ، ليس فقط من أجل المحافظة على النفس أو الاحساس بالوطنية ازاء البلد الذى صنعوه ، ولكن لأنهم كانوا يعتقدون انهم أدوات قدر تاريخى ، وأنهم حفظة « العهد » المقدس ، ووسائل تحقيق الدعاء المتكرر عبر السنين فى كل كنيس بأن يعود « وجود الرب » من جديد الى أرض اسرائيل ٠

(*) الواقع ان المسلمين والمسيحيين فى دولة اسرائيل لايتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة مثل اليهود ٠ هذا بالاضافة الى سوء المعاملة وعدم اتاحة الفرصة أمامهم فى الأعمال العامة وغيرها ٠

(ب) باكستان :

برغم أن باكستان لم تظهر الى عالم الوجود الا بعد سبعة عشر عاما من أول اقتراح بانشاء دولة اسلامية فى شبه القارة الهندية ، فان جذورها تضرب فى أعماق التاريخ . كان المسلمون منذ قدومهم الى شبه القارة مجموعة سكانية فريدة من بين الغزاة الذين تعاقبوا ، وذلك من ناحية مقاومة عملية امتصاصهم فى المجتمع الهندوكى . فالمسلمون الذين يؤمنون بالمساواة والوحدانية وبنشر الاسلام لن يلتئموا مع الثقافة الهندوكية القائمة على الانقسام الى طوائف متميزة ، وتعدد الآلهة والتسامح . وبرغم الكثير من التداخل والتفاعل بين المسلمين والهندوس عبر القرون ، لم يندمج المجتمعان أبدا . واتسعت الهوة بين المجتمعين فى عصر الأباطرة المغول ، وخاصة بعد حكم ألامجير Alamgir المتطهر الصارم الذى حاول استعادة نقاء الاسلام فى أواخر القرن السابع عشر .

ومنذ بداية النفوذ والحكم البريطانى فى الهند هبط مركز المسلمين ، وارتفع مركز الهندوس . واذ كان البريطانيون يعتبرون المسلمين العقبة الرئيسية فى وجه توسيع سلطانهم ، اتخذوا فى بداية حكمهم السياسة التى غالبا ما استخدمها الفاتحون ، والقائمة على محاباة العنصر غير المتسلط ، وشجعوا الهندوس عن عمد . وفضلا عن هذا فان الطابع التجارى للتوغل البريطانى جعل من الطبقة الهندية المكونة من الصيارفة التجار حلفاء للعملية ومستفيدين منها ، بينما المسلمون ممن كانوا يشتغلون أساسا بالزراعة فى البنغال ، ويمارسون الادارة والحرف الصغيرة الشأن ، عانوا من الناحية الاقتصادية . وخلال جيل هبط السكان المسلمون من مستوى العنصر المتسلط الى مستوى أقلية عاجزة .

وعندما أدخل البريطانيون فى عام ١٨٣٣ نظاما من التعليم الغربى باللغة الانجليزية للتدريب على وظائف الخدمة المدنية ، استغل الهندوس الفرصة بينما وقف المسلمون بمنأى عنها . وفى الوقت الذى نشبت فيه ثورة ١٨٥٧ كان الهندوس قد أصبحوا مندمجين فى الادارة البريطانية ، وبرغم اشتراك كل من الهندوس والمسلمين فى الثورة كانت التدابير التأديبية والعقوبات الصارمة التى اتخذها البريطانيون موجهة أصلا ضد المسلمين .

ان البعث الهندوكى الذى عظمت قوته خلال القرن التاسع عشر زاد من حدة احساس المسلمين بأنهم مبعدون ، وأن حقوقهم مهضومة ، وهذا

البعث غذاه الأدب الديني السنسكريتي الهندوكي ، وتاريخ الهند قبل مجيء المسلمين ، وجعل من اعادة يقظة الهند مولدا جديدا في جوهره للهندوكية . واذ تسلط الهندوس وجد المسلمون أنفسهم في مركز اجتماعي لا يطاق ، فبضياع السلطان السياسي المسلم ، وفي وجه النظام الطائفي الهندي الذي يستبعدهم ، أحسوا أنه ينظر اليهم باعتبارهم عنصرا أجنبيا غريبا في المجتمع . (١٨)

على ضوء هذه الخلفية نجد أن البعث الاسلامي الذي أدى الى خلق دولة اسلامية سار في الطريق الوحيد الذي بدا مفتوحا أمامه ، وهو أن يعيد بناء الجماعة المسلمة باعتبارها كيانا متميزا داخل الاطار الحديث الذي أقامه الحكم البريطاني . واقتناعا بأن سياسة الابتعاد عن التعليم الغربي سوف تنقلب اذا نهضت الجماعة الاسلامية الهندية من حالة الانحطاط التي تردت فيها ، أسس السير أحمد خان في عام ١٨٧٥ الكلية التي أصبحت جامعة عليكر الاسلامية ، وبدأ تدريب قيادة جديدة للجماعة المسلمة الجديدة بالهند ، وما ان حل الوقت الذي كانت فيه بريطانيا على استعداد لأن تمد الحكم الذاتي على المستوى المحلي الى الشعب الهندي ، عن طريق اصلاحات مورلي ـ مينتو عام ١٩٠٩ ، حتى كان أعضاء الجماعة الاسلامية المنظمة على اقتناع بأنه ليس في وسعهم أن يأملوا في ممارسة العمل السياسي في وجه الأغلبية الهندوكية الا اذا كانوا هيئة منفصلةمن الناخبين . واذ حصل المسلمون على الاعتراف بمبدأ التصويت الطائفي ـ الهندوس للهندوس والمسلمون للمسلمين ـ عبروا عن المفهوم الذي يقول بأن شعب الهند يشكل في الواقع أمتين ، وهو المفهوم الذي تقبله البريطانيون . ومن هيئات الناخبين المنفصلة الى دولة اسلامية منفصلة ، كانت الخطوة قصيرة ومنطقية . لكن عندما اكتسبت الحركة القومية الهندية ضد البريطانيين قوة دافعة ، انحاز المسلون الى الهندوس في الحركة من أجل التحرير القومي . وبرغم أن أغلبية المؤتمر الوطني الهندي كانت من الهندوس ، فقد كان من بين أعضائه عدد من المسلمين البارزين منهم ، لفترة ، مولانا محمد علي ومحمد علي جناح الذي أصبح فيما بعد زعيم العصبة الاسلامية والروح المحركة في تحقيق التقسيم . وناشد مهاتما غاندي الهنود من جميع العقائد أن ينضموا الى حركة المقاومة السلبية . ولكن نفس شروط نداء غاندي كشفت عن الجذور الهندوكية العميقة التي خرج منها فكره وتعبيره ، وحتى المسلمون الذين انضموا الى الحركة لم يشعروا أنه يتكلم بصوتهم . ان معارضة المؤتمر الوطني الهندي لمبدأ المجتمع المتعدد الذي يتكون من هيئات انتخابية منفصلة

واصراره على مجتمع تكون الوحدة الأساسية فيه هى الفرد ، ظهر فى نظر المسلمين أنه يعنى ببساطة أن أصوات الأغلبية ستكون دائما ضدهم .

ومذ أصبح واضحا أن السلطة البريطانية سوف تسحب سريعا ، واذ انتشر غليان القومية الاسلامية فى جميع أرجاء العالم الاسلامى تشكل مفهوم الدولة الاسلامية . وقد أعلنه رسميا لأول مرة الشاعر والفيلسوف الدينى صاحب النفوذ الواسع محمد اقبال فى دورة العصبة الاسلامية لجميع الهند فى عام ١٩٣٠ ، ثم أطلق عليه ثلاثة طلاب من كمبردج بانجلترا اسما يوحى بالمنطقة التى تصوروها لمثل هذه الدولة، وأخيرا اصبح الهدف الذى تكافح من أجله الرابطه الاسلامية بزعامة جناح النشيطة .

وكانت الفكرة الأصلية هى أن تتكون الدولة الاسلامية من المقاطعات الشمالية الغربية التى يدل عليها اسم « باكستان » ، وهى بنجاب وافجانيا وكشمير والسند وبلوخستان . ولم يكن ثمة تصور كامل لعلاقتها بالأجزاء الأخرى من شبه القارة الهندية ، اذ لم يكن واضحا بالتأكيد ما اذا كانت السلطة البريطانية سوف تئول الى دولة هندية موحدة أو الى اتحاد فيدرالى أقل تماسكا . ولكن عندما قامت الحركات من أجل الاستقلال والتقسيم ، وتصاعد التوتر بين المسلمين والهندوس، زادت المطالبة بضم المنطقة الاسلامية الكثيفة السكان بالبنغال الشرقية ، فضلا عن المنطقة الشمالية الشرقية . وعندما جاء التقسيم ، وكشف العنف الضارى عن شدة العداوات الكامنة بين قوم عاشوا جيرانا طيلة قرون عدة ، تدفق ملايين الناس عبر الحدود ليشاركوا طواعية أو خوفا فى خلق الدولة الجديدة . الا أنه برغم أن الهند غير المقسمة كانت تضم مايقرب من ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مسلم ، لم يصبح سوى ثلثيهم جزءا من الدولة الاسلامية ، بينما بقى الثلث الآخر مواطنين فى دولة الهند العلمانية .

وكان القادة الذين خلقوا باكستان ، ووجهوا تشكيل الأمة الجديدة، من نتاج التعليم الغربى وحركة عليكره ، وليسوا نتاج التعصب الدينى . وكانوا قد استوعبوا الكثير من مفاهيم الغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكانوا ، مقتنعين أنها تتمشى مع مبادىء الاسلام الأساسية.

وفى السنوات العشر التالية للاستقلال تولوا اعداد البنيان لأمة اسلامية ، ديموقراطية حديثه ، سليمة من الناحية الاقتصادية . وكادت الصعاب العملية الهائلة التى واجهت البلد ، أن تطغى على الجهد المبذول

من أجل تعريف دولة اسلامية حديثة . وكان يتعين بناء حكومة باكستان من جديد بالفعل . وتركت باكستان ، الأعداد القليلة نسبيا فيها من المسلمين فى الخدمة المدنية القديمة ، أقل ذخيرة من الهند بمن توافر لديها من رجال الادارة ذوى الخبرة فى كافة المستويات . وألقت مشكلة امتصاص مايقرب من ثمانية ملايين لاجىء فى سكان مجموعهم ثمانون مليونا عبئا فادحا على المجتمع ، وزادت الاختلافات فى اللغة والأحوال الاقتصادية والولاءات المحلية من صعوبة توحيد منطقتين يفصل بينهما أكثر من ألف ميل ، وزاد تفكك العلاقات الاقتصادية العادية بفعل التقسيم ، من مشكلات صعبة قائمة تتصل بالتنمية الاقتصادية ، بينما تطلبت التوترات الدولية تكوين ومساندة مؤسسة عسكرية . والى هذه وغيرها من المشكلات العملية أضيف اختلاف شديد حول مبلغ « الصبغة الاسلامية » التى ينبغى أن تكون عليها دولة اسلامية ، ومايعنيه ذلك . واستغرق وضع الدستور الأول تسع سنوات من النقاش ، وهو الدستور الذى حاول أن يجسد المبادىء التى قامت عليها باكستان .

وفى النضال الدستورى اتهم المتطرفون المسلمون من دعوها « المجموعة الحاكمة ذات الاتجاه الغربى » بالجهل بالشريعة ومبادىء الاسلام الصحيحة ، وأنها لاتستطيع أن تنظر « الا من خلال عدسات الفكر الغربى الملونة » ، وبأنها تريد انشاء دولة « ديموقراطية قومية » وليست اسلامية . وطالبوا بدولة عقائدية بدلا من دولة قومية ، وفيها تستمد السلطة من الله ، وليس من الشعب ، وبخلق مجتمع اسلامى تماما ، واحلال الشريعة الاسلامية محل القانون السائد ، وتطبيق كل أمر نص عليه القرآن والسنة . « والواقع ، أنه اذا اتخذ دستور علمانى غير مستوحى من الشرع بدلا من دستور اسلامى ، واذا تعين احلال قانون الاجراءات الجنائية البريطانى مكان الشريعة الاسلامية ، فماذا كان معنى كل هذا النضال من أجل وطن اسلامى منفصل ؟ » (*) .

ورفض المتطرفون مبادىء النظام البرلمانى الذى يتضمن وجود وزارة مسئولة أمام حزب الأغلبية . وكانوا يريدون استبعاد النساء من السياسة العملية والمناصب العامة وانشاء طبقتين من المواطنين ، المسلمين وغير المسلمين ، ووضع غير المسلمين فى الوضع التقليدى وهم «أهل الذمة أو الذميون » فى ظل الضمان بالحماية من جانب الدولة .

---

* Syed Abdul 'Aka Maudoodi : Islamic Law and Constitution, ed., by Khurshid Ahmad (Karachi, 1955), p. 17.

وأقر الدستور ، كما تم التصديق عليه فى عام ١٩٥٦ المبدأ القائل بأن السيادة لله وحده ، وأن تجرى ممارسة سلطات الحكم داخل الحدود التى رسمها القرآن والسنة • ولكنه نص فقط على أنه يجب على الدولة أن تحاول تسهيل ممارسة المسلمين للاسلام ، ولكنه لا يتطلب أو يفرض مثل هذه الممارسة ، ولم يحتفظ للمسلمين بغير مركز رئيس الجمهورية ، ولم يوجد تفرقة قانونية بين المواطنين المسلمين وغير المسلمين الا من حيث الزام الأولين بأداء ضريبة لمساندة المؤسسات الاسلامية ، ومنع التفرقة فى تولى الخدمات العامة ، بما فيها الدفاع ، وترك دون اتخاذ قرار مسألة ما اذا كان التصويت يجب أن يكون على أساس أنهم مواطنون مشتركون فى قائمة انتخابية واحدة ، أو فى قوائم منفصلة حسب الجماعات الدينية أو غيرها ، ونص على نظام برلمانى من الطراز البريطانى، واحتفظ بعدد من المقاعد للنساء ، ضمانا لاشتراكهن •

وأعلن الدستور أن « مبادىء الديموقراطية والحرية والمساواة ، والتسامح والعدل الاجتماعى كما عددها الاسلام ، يجب مراعاتها تماما » ، وضمن لجميع المواطنين قائمة من حقوق أساسية تتطابق بصورة وثيقة مع الحقوق المنصوص عليها فى الدساتير الديموقراطية الأخرى • وقررت النصوص الاسلامية « ألا يسن قانون لا يتفق مع القرآن الكريم والسنة » ، ودعت الى انشاء منظمة للبحث الاسلامى « للمساعدة فى اعادة بناء المجتمع الاسلامى على أساس اسلامى حقا » ، وانشاء لجنة تقدم التوصيات بصدد الطريقة التى يمكن بها جعل التشريع القائم والمستقبل متمشيا مع القرآن والسنة • ولا تستطيع النصوص « الاسلامية » أن تؤثر فى قوانين الأحوال الشخصية لغير المسلمين أو فى مركزهم كمواطنين ، أو فى الحقوق الأساسية ونصوص الدستور الأخرى •

وهكذا تشكلت دولة باكستان الاسلامية على أسس سعت الى ايجاد التكامل بين روح الاسلام وممارسته العملية وبين متطلبات العصر الحديث وأنظمة الديموقراطية البرلمانية • لكن لم يمض عامان فقط على الأخذ بالدستور حتى نحى جانبا لصالح الحكم العسكرى • وبدا للجنرال أيوب خان ولرئيس الجمهورية الذى سلمه السلطة أن المهام الملحة المتعلقة بالتنظيم والتنمية تتطلب قيادة أكثر حزما وأكثر ايجابية مما كان يوفر النظام البرلمانى • ولكنه أعلن عزمه على ارساء أساس تقوم عليه ديموقراطية فعالة بتنميتها أولا على المستوى المحلى ، وكانت

اصلاحاته تمليها الحاجات العملية لدولة حديثة الى ادارة قوية فعالة ، بدلا من أن تمليها مطالب المتطرفين المسلمين أو أيديولوجية الإسلام *

(ح) الاتجاه الدينى لدول أخرى :

وبرغم أن اسرائيل وباكستان فريدتان فى القرن العشرين من حيث أن الدين كان الأساس المنطقى لظهورها الى عالم الوجود كان الدين يغلب على النظرة والأنظمة فى بعض بلاد أخرى ، أكثر منه فى هاتين الدولتين . فقد ظلت الدول الاسلامية التقليدية ، وهى العربية السعودية واليمن وأفغانستان ذات اتجاه دينى أكبر بكثير من باكستان الجديدة بتاريخها فى الاتصال بالغرب ، وبما ورثته من المؤسسات الغربية الكثيرة . فكان حاكم العربية السعودية يجمع ، بوصفه عاهل المملكة بين دور سياسى ودور دينى ، بينما استمرت السلطة الاسلامية أى العلماء ، تقوم بدور مستشاريه السياسيين الرئيسيين . وفى اليمن ظل القانون والعرف فى اطار ما ينص عليه القانون الاسلامى التقليدى .

وفى بلاد أخرى بالعالم الاسلامى كان تأكيد الشخصية القومية ضد التسلط الغربى يسرى فيه احساس اسلامى قوى تفاعل مع هذه الحركات السياسية ، ومال الى مساندتها . وكان هذا واضحا فى تعبير العروبة فى كل من الدول العربية بالهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ، وبالمناطق الناطقة بالعربية فى شمال أفريقية . وغذى العروبة احساس بالعظمة التاريخية مبنى على قيام الاسلام وانتشاره ، وبذكرى أن الدول الغربية التى كانت الأمانى القومية العربية المعاصرة موجهة ضدها ، سبق أن امتشقت الحسام ضد الاسلام فى حروب صليبية دينية . وفى جميع أرجاء العالم تشابكت عوامل ثلاثة : القومية المحلية فى شكل تعلق بوحدة unit قومية مثل مصر والعراق أو المغرب ، العروبة معبرا عنها بالانتساب الى الشعوب المرتبطة بعضها ببعض من المغرب الى الخليج الفارسى ، والذين كانت تربط بينهم لغة مشتركة واحساس بالتاريخ ، ثم الوحدة الاسلامية التي كان القطاع العربى من العالم الاسلامى يشكل جوهرها الدينى والتاريخى واللغوى . وفى الجو المشحون فى القرن العشرين ، وخاصة فى ربعه الثانى ، مالت نواحى التشابه هذه والوحدات والصور الذاتية الى أن يدعم بعضها بعضا ،

---

* لا تتنافى الادارة القوية الفعالة مع « ايديولوجية » الاسلام ، أو مبادئه الصحيحة بحال من الأحوال .

وخاصة عند تعرضها للتهديد من الخارج ، والى أن تزيد من حدة الاحساس الدينى فضلا عن أن هذا الاحساس يزيدها قوة ٠

ونشأ موقف مواز نوعا فى مناطق بوذية معينة ، وفيها احتفظت التبت المعزولة جغرافيا وثقافيا ، ببنيانها واتجاهها الدينى الى منتصف القرن العشرين ، وحيث أعيد تأكيد المبادىء والسلطة البوذية فى الاندفاع نحو التحرير وفى نظرة الدول الجديدة فى بورما وسيلان ٠ غير أن الافتقار الى كتاب مقدس ومجموعة من القوانين يرسو اليها ، وبعض فوارق أساسية أخرى بين البوذية والاسلام ، جعل الدين فى هذه الدول البوذيةالحديثة عاملا يؤثر فى مزاج المجتمع أكثر منه قوة دافعة لتشكيل الأنظمة السياسية والاجتماعية ٠

(٦) الاستقلال الوطنى فى وجه التوسع الأوربى

ان الدول القلائل فى آسيا وأفريقية التى قاومت بنجاح التسلط الأوربى فى فترة التوسع الغربى ، حققت هذا النجاح بوسائل متنوعة : أفغانستان وأثيوبيا بطريق العزلة والمقاومة ، وتايلاند وايران بالمفاوضة ورمى دولة أوربية بأخرى ، واليابان باقتباس الأساليب الأوربية ومنافسة الدول الغربية بنفس أسسها ومعاييرها ٠ وفى كل حالة كان الاستقلال المستمر والسلامة القومية أهدافا رئيسية لونت النظرة التى كانت هذه البلاد تتخذها بخلاف ذلك ٠

كانت مملكة أثيوبيا المسيحية القبطية فى المرتفعات الجبلية فى شرق أفريقية خلال تاريخها الطويل المستمر – قليلة الاتصالات بأوربا ، ووقفت فى وجه انتشار الاسلام من المناطق المجاورة ٠ وفى تقسيم أفريقية كانت هى المنطقة الوحيدة بالقارة – باستثناء دولة أيبيريا التى خلقتها أمريكا – التى ظلت دون أن تطالب بها الدول الأوربية ٠ وانقطع وصولها الى البحر الأحمر بسبب الاحتلال الايطالى للشقة الساحلية التى كونت مستعمرة اريتريا ، ولكن عندما حاولت ايطاليا التحرك فى الداخل بالقوة منيت جيوشها بالهزيمة ٠ ومنذ معركة عدوة فى عام ١٨٩٦ ، التى صد فيها الأثيوبيون الايطاليين على أعقابهم ، صارت أثيوبيا رمزا للمقاومة الناجحة وأول علامة على أن غير الأوربيين يمكن أن يقفوا ضد العدوان الأوربى ٠ وبعد ذلك بأربعين سنة عادت فأصبحت رمزا عندما ناشد الامبراطور ، دون جدوى عصبة الأمم لتحميه ضد أطماع موسولينى الامبريالية ٠

وكان استقلال اثيوبيا استقلال العزلة الثقافية ، فضلا عن الطبيعة، واحتفظت طبقة رجال الدين التقليدية فيها باحتكار فعلى للتعليم والعلم . وكان الرعاة الأحباش فى الشرق ورجال القبائل من السودان فى الأقاليم الغربية قليلى الاتصال بمراكز الثقافة الكهنوتية والارستقراطية ، وكانت هذه بدورها قليلة الاتصال بالتيارات الثقافية فى العالم الخارجى . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية كان الذين غادروا البلاد للدراسه فى الخارج قلائل جدا . وكانت التجارة الخارجية فى أدنى الحدود . وجاء الاحتلال الايطالى فى السنوات ١٩٣٦ — ١٩٤١ الى البلاد بأول شبكة للطرق فيها وبالبدايات الأولى للصناعة .

وعلى غرار أثيوبيا ، أبقت افغانستان على استقلالها عن طريق النضال ، وبعزل نفسها بقدر الامكــــان عن المؤثرات الاوربية . فمنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر كان استقلالها مهددا من جانب بريطانيا التى سعت وراء السيطرة على المنطقة ، لكى تحمى الحد الشمالى الغربى للهند ، وهو الحد الذى تكرر عن طريقه دخول الغزاة الى شبه القارة الهندية فى الماضى . وجاءت جهود بريطانيــــا الى جانب الحركات المضـــــادة من جانب الروسيا ، بالحرب الى الأرض الأفغانية خلال القرن التاسع عشر ، وبتدمير الحصون والمدن ، ووجود القوات الاجنبية والتدخل فى الشئون الخارجية . واستمرت الجهود المبذولة من جانب الحكـــــام الأفغانيين للاحتفاظ بالسيطرة الكاملة أو لاستردادها ، حتى عام ١٩١٩ عندما اعترفت بريطانيا نهائيا باستقلال أفغانستان استقلالا تاما .

وخلال سنوات العزلة والنضال من أجل المحافظة على الاستقلال دخلت فى البلد مؤثرات جديدة تعمل على ادخال الروح العصرية . وكان ينظر الى الأفكار الخارجية والاستثمار الأجنبى بعين الريبة باعتبارهما ستارا يمكن أن تنفذ منه السيطرة الأجنبية . وقاوم الزعماء الدينيون المحافظون التغيير الاجتماعى . وحتى بعد عام ١٩١٩ كانت الروح العصرية موضع المقاومة ، واضطر الحاكم الى التخلى عن العرش فى عام ١٩٢٩ بسبب عدم شعبية اصلاحاته التعليمية وغيرها .

وفى السنوات التالية للحرب العـــــالمية الثانية كانت كل من أفغانستان وأثيوبيا شديدة الرغبة فى أن تدخل البـــلد مزايا الروح العصرية الحديثة ليفيد الشعب منها . وتعين على كلتيهما تنمية اقتصادها وخدماتها الأساسية مثل التعليم والصحة ، وأن تبدأ من الصفر بالفعل، مع وجود نقص حاد فى الموظفين المدربين ورأس المال. واضطلع هيلاسلاسى امبراطور اثيوبيا ببرنامج طموح للاصلاح فى الحكم والادارة ، والتعليم

والمالية ، والبنيان الاجتماعى ، والجيش ، والعلاقات بين الكنيسة والدولة • وبدأت أفغانستان برنامجا كبيرا لتنمية القوى الكهربائية المائية والرى والطيران وبناء الطرق والتعليم والخدمات الصحية • ولكن فى كلا لبلدين حاول القادة الذين يعملون فى سبيل التغيير أن يحققوا هذا فى داخل اطار مجتمعاتهم التقليدى • وكما عبر سفير أفغانستان ، وهو يخاطب الطلبة الافغانيين فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٨ ، فان قدرة القيادة المتعلمة على ادماج البرامج الجديدة فى الحياة القومية يحدد ما اذا كانت هذه التدابير « تشكل تقدما » أو انها مجرد فرص ثقافة أجنبية •

وعلى خلاف البلاد التى كان دفاعها مرتبطا بالعزلة ، حافظت تايلاند وايران على استقلالهما عن طريق المفاوضة بدلا من المقاومة المسلحة ، وباستغلال التنافس بين الدول الأوربية • فبالنسبة الى تايلاند كان موقعها بين الدول التى تسيطر عليها فرنسا فى الهند الصينية والاقليم الخاضع للسيطرة البريطانية الآخذة فى التوسع فى الملايو وبورما ، عاملا جعل كلتا هاتين الدولتين تساعدانها فى دورها كحاجز بين مصالحهما الاستعمارية • وبالمثل فرضت مصالح بريطانيا والروسيا فى ايران قيودا على النفوذ الذى تسمح أى منهما للاخرى بممارسته على ذلك البلد • وفى كلا البلدين كانت المؤثرات الغربية كبيرة ، وكانت عملية التجديد تسير فى طريقها قبل أن ينتشر الحافز على التطور القومى الى جميع البلاد بعد الحرب العالمية الثانية •

ومنذ الوقت الذى بدأ فيه ملوك التاى فتح أبوابهم للاتصالات الغربية فى منتصف القرن التاسع عشر ، رحبوا بالأفكار والمعرفة الغربية ، بينما دعموا وجددوا فى الوقت ذاته ثقافتهم البوذية التقليدية• فقد أدخل الملك شولالو نجكورن Chulalungkorn خلال حكمه الطويل (١٨٦٦ ـ ١٩١٠) المراسم الغربية فى البلاط ، وجدد النظام القانونى، والغى الرق ، وأصلح ادارة الدولة والبوليس والجيش ، وأرسل أبناءه الكثيرين و « طلاب الملك » الذين جرى انتقاؤهم على أساس المسابقة ، للدراسة فى بريطانيا والقارة الأوربية • وتابع خلفه التجديد وادخال الأساليب الغربية بل وبصورة أشد ، فى التعليم والرياضة والأدب والقانون ، وقاد سيام الى الاشتراك فى المنظمات الدولية • ولقد رفعت الرعاية الملكية ، ورفع المثل الذى ضربه الملوك ـ من قدر الاساليب الغربية التى تسربت آنذاك الى الشعب وسرت فيه • ولكن هؤلاء الملوك كانوا متحمسين بالمثل لتنمية العقيدة البوذية ، فشجعوا تنمية أو احياء الثقافة

السيامية ، وظل أسلوب الحياة التقليدى متبعا فى الريف ٠ وفى منتصف القرن العشرين ظلت تايلاند تبصر بنفسها فى عملية ابتداع مجتمع حديث بطريقتها هى ، وبأقل قدر من الضغط ، عن طريق الادماج التدريجى بين القديم والجديد ٠

وخلال القرن العشرين اتخذت ايران خطوات متعاقبة ، كى ترفع كلا من أحوالها الداخلية ومكانتها الخارجية من الحالة المنحطة ، ومما لم يكن ليزيد الا بالكاد عن الاستقلال الاسمى ، مما كانت البلاد قد تدهورت اليه ٠ وجاءت ثورة ١٩٠٦ بمؤسسات برلمانية ٠ وأعقبت انقلاب ١٩٢١ اصلاحات فى الحكم والتعليم والصحة العامة ، وفى القانون العام والخاص، ومركز النساء ، ومركز المحاكم الدينية (الشرعية) ، فضلا عن تطورات فى النقل والمواصلات والصناعة ٠ وجاء النفط الذى اكتشف بمقادير تجارية فى الخليج الفارسى عام ١٩٠٨ ــ بالثروة والمؤثرات الاقتصادية الأجنبية الى البلد ٠ وبعد الحرب العالمية الثانية أكدت ايران تصميمها على السيطرة على مواردها عندما أممت صناعة النفط وأرغمت المستثمرين الأجانب على قبول شروط لاستغلال النفط الفارسى وبيعه، حماية للمصلحة الوطنية ٠

كانت اليابان بالطبع البلد غير الأوربى الذى واجه تحدى التوسع الأوربى بأكبر قدر من القوة ٠ فمنذ الوقت الذى أجبرت فيه «امبراطورية الجزر » على فتح أبوابها أمام الاتصال الخارجى فى عام ١٨٥٣ ، راحت اليابان تتعلم من الغرب وتنافسه ٠ وفيما يزيد بقليل عن جيل انتقلت من جزيرة منعزلة ، منطوية على نفسها ، الى دولة ذات مركز قوى فى التجارة العالمية ، واكتسبت تفوقا عسكريا على جارتها الضخمة : الصين ، وكانت على استعداد لأن تتحدى بنجاح امبراطورية غربية ضخمة هى الروسيا ٠ وبعد ذلك ، حين أصبحت هى نفسها دولة غازية واستعمارية، اتخذت مظاهر الامبريالية الغربية ، وسارت فى نفس الطريق الذى شقه شعب جزرى مماثل ، وهم البريطانيون الذين كانوا قد اظهروا ، برغم أن عدد سكانهم أصغر ، امكان الاستيلاء على ممتلكات فى مختلف أرجاء العالم وحكمها ٠

وحققت اليابان هذا الانتقال أو التحول بفضل التمكن من التكنولوجيا الغربية ، وادخال التعليم الشامل وتجديد بنيانها الاقتصادى والسياسى وفق خطوط غربية ٠ ولكنها لم تسر فى طريق واحد مباشر ، اذ غالبا ما انطوت الأفكار الغربية على مفاهيم متباينة ٠ ان القوة النسبية لمختلف القادة اليابانيين ومراكز السلطة هى التى حددت تأثير الأفكار

الديموقراطية ضد القوة العسكرية ، وأفكار الرأسمالية أو بديلتها الماركسية ، والتفوق العنصرى أو المساواة والأخوة بين البشر ٠

وعلت كلمة القادة العسكريين بصورة متزايدة ووجهوا الاندفاع الذى بدأ كمحاولة من جانب اليابان للحاق بالشعوب الغربية ، الى اندفاع لبسط سلطان اليابان ٠ لقد عرفوا الأمانى القومية بمصطلحات امبراطورية أسيوية تحت السيطرة اليابانية توفر الخامات والأسواق لاقتصادها ، وتقلل من اعتمادها المستميت على التجارة الخارجية ، وتخفف من ضغط السكان فى جزرها المزدحمة ٠ وفسروا « أسطورة شنتو Shinto القديمة التى ذهبت الى أن الامبراطور كان مقدرا له أن يحكم عالم » الجزر اليابانية على أنها تبشر بحكمه على العالم أجمع ٠

وعندما أخفقت مقامرة الحرب العالمية الثانية ، لم يكن أمام اليابان المنهزمة هدف بديل تتحول أو تعود اليه ٠ كان اليابانيون فى أواسط القرن يسعون الى اعادة تحديد مكانهم فى عالم طرأ عليه تغيير جذرى فى نصف القرن ، منذ أن كان أمنية أن يصبحوا امبراطورية عسكرية ضخمة متمشية مع النمط الذى وضعته شعوب الغرب(*) ٠

(٧) القومية الآخذة فى الظهور فى أفريقية

كانت آخر الحركات القومية ظهورا هى حركات الشعوب الأفريقية الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى ٠ لقد بدأ دوى المشاعر القومية الأولية يسمع بعد الحرب العالمية الأولى ، بتكوين المؤتمر الوطنى لأفريقية الغربية البريطانية على أيدى الافريقيين ممن حصلوا على تعليم أوربى ، وانتشر هذا الدوى على نطاق أوسع خلال السنوات التالية ٠ ففى أفريقية الغربية نشر ناندى أزيكيوى Nandi Azikiwe من أهل نيجيريا وولاس جونسون Wallace Johnson من أبناء سيراليونى ، مقالات معادية للاستعمار ، اعتبرت محرضة على الفتنة ، وذلك فى صحيفة أزيكيوى « المورننج بوست الأفريقية » (١٩٣٦) ٠ وفى شرق أفريقية مثل جومو كنياتا أمام لجان ملكية ليعبر عن احتجاج قومه وهم « الكيكويو » Kikuyu على انتزاع أراضيهم لصالح المستوطنين البيض (١٩٢٨ ـ ٢٩ ، ١٩٣١ ـ ٣٢) ، وأعلن فى كتابه عن ثقافة قبيلته أن « الأفريقى ، بحكم الانظمة الثقافية والاجتماعية عبر القرون ، ملتزم بحرية ليس لدى أوربا

(*) انظر الفصل العاشر (ص ١٣٢) عن نهضة اليابان الثقافية وتكيفها ٠

سوى القليل من التصور عنهـــا ، وليس فى طبيعته أن يتقبل القنية والاسترقاق الى الأبد »(*) ٠

ولكن القومية الأفريقية لم تنتشر فى جميع أرجاء القارة ، وتتخذ أبعاد حركة كبيرة الا فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية ٠ ثم اندفعت فى خطوات سريعة ٠ وفى أول منطقة حققت فيها انتصارها الأول ، وهى مستعمرة ساحل الذهب فى أفريقيا الغربية البريطانية ، لم تمض سوى عشر سنوات بين عودة كوامى نكروما من دراساته فى الولايات المتحدة وبريطانيا ليقود النضال من أجل « الحرية الآن » وبين احتفاله بالاستقلال٠ وفى عام ١٩٥١ أودع السجن بتهمة محاولة الوقوف فى وجـــه الحكومة الاستعمارية وارغامها ، وبعد ذلك بست سنوات لقى الطلب الذى تقدم به لانضمام غانا الى الأمم المتحدة القبول على الفور ، حيث سارعت شعوب العالم الى الترحيب بدولة جديدة من أفريقية الاستوائية ٠

كانت القومية الافريقية فى جوهرها معادية للاستعمار ٠ فسواء كان القادة والمجموعات الوطنية يصبون الى اقامة دولة حديثة تسودها الرفاهية ، وسواء أعادوا توكيد قيم الثقافة الافريقية التقليدية ، أو كانوا فى أية لحظة يسعون الى الاستقلال التام والحكم الذاتى أو المساواة فى الحقوق السياسية ، فانهم كانوا جميعا يعارضون السيطرة الأجنبية، وجعلوا من الاستعمار هدفا يسددون اليه ضرباتهم ٠ ولم تكن أى من الحركات القومية تعكس وحدة وطنية تقليدية ، اذ كانت التقسيمـــات السياسية بالقارة الافريقية فى القرن العشرين من خلق الشعوب الأوربية التى قسمت الأرض ، دون اعتبار لمن يشغلونها ، فقسمت بعض القبائل وضمت غيرها الى أعدائها التقليديين ٠ ونشأت كل حركة بصـــــورة براجماتية (عملية) فى المنطقة الخاصة بها ، متأثرة بتيارات متعارضة ذات أصـــل أوربى أو محلى ٠ كانت الهوية الأعرض هى مع أفريقية والأخوة الأفريقيين ، ولكن ظلت الوحدة الافريقية « الجامعة الأفريقية » عنصرا غامضـــا ضئيلا نسبيا من مكونات القومية الأفريقية الى مابعد استقلال غانا ٠

كانت القومية الافريقية رد فعل ازاء العنصرية ، فضـــــلا عن الاستعمار ٠ فالتفاخر بالعنصر ، ذلك التفاخر الذى سرى كسريان النار فى الهشيم فى معظم الحركات ، كان ردا على التفرقة وما تنطوى عليه من خطة ، أرغم الافريقيون طويلا على الخضوع لها ٠

Jomo Kenyatta, facing Mt, Kenya (London, 1938), 1953 ed., p. 318. (*)

لقد رسم التأثير الأوربى على أفريقية الاطار الذى صيغت وطبعت فيه أمـــانى الشـــعوب الافريقية • كانت المنطقـــة بالنســـبة الى الدول الاستعمارية اقليما شاسعا يضم موارد طبيعية تستغل لأغراض التجارة والربح ومتطلبات الاقتصاديات الصناعية • أن المناخ الاستوائى والملاريا وذبابة تسى تسى ، كل أولئك جعل القارة الأفريقية أقل صلاحية للاستيطان الأوربى من قارات أمريكا واستراليا ، حيث سبق أن امتد مثل هذا الاستيطان • غير أن مناطق معينة كانت تجتذب المستوطنين ، وأشهرها مروج روديسيا الجنوبية ومرتفعات كينيا ، فضلا عن اتحاد جنوب أفريقية • وهناك أعد المستوطنون الأوربيون لأول مرة مجتمعات زراعية وراحوا ينظرون الى المنطقة على أنها ملك خاص لهم •

وفى كل مكان كانت علاقة الأوربى بالافريقى علاقة الثقـــافة « الأرقى » بالثقافة « الأدنى » ـ ممثلو مجتمع تكنولوجى على اتصال بشعوب قبلية منعزلة وأمية ، كان اهتمامهم بطريقتها فى الحياة اهتماما أنثروبولوجيا فقط • على أن « التفوق » الثقافى دعمته التفرقة العنصرية فى معظم المناطق بصورة لاهوادة فيها فى اتحاد جنوب أفريقية ، وفى المناطق البريطانية بوجه عام جدا ، وأقل من ذلك بكثير فى الممتلكـــات الفرنسية ، وكانت أقلها فى أفريقية البرتغالية ، حيث كان هناك قدر بالغ من التزاوج وكانت الفوارق الشديدة ثقافية أكثر منها عنصرية •

وحينما انتشر الاتصال الاوربى كان الأثر الناجم هو تقويض بنيان المجتمع الافريقى ونمط الحياة الأفريقية التقليدى • فمالت المحاصيل التجارية الى الحلول محل اقتصاد المجتمعات الأفريقية القائم على انتاج موارد العيش أو الاعتداء عليه ، وكثيرا ما قللت من المورد الغذائى المتاح • وسلخ تجنيد العمال الافريقيين للمناجم والمزارع الكبيرة الرجال بعيدا عن القرى القبلية • فقد أجبرتهم الضرائب التى كان يتعين أداؤها نقدا، على التماس العمل مقابل الحصول على أجور • وحطم الاستيلاء على الاراضى الأفريقية أسس الحياة القبلية • وفتحت السكك الحديدية والطرق سبل الاتصال والاحتكاك بين المناطق والجماعات • وأدخل نمو المراكز الحضريةحول نقاط الادارة والتعدين أو التجارة الأفريقيين الى وسط حضرى ، حيث كانت العلاقات والقيود التقليدية غير مطبقة الى حد كبير ، وتعين على الفرد أن يعمل فى ظل ظروف غريبة تتسم بالتنـــافس ، بعيدا عن الأسرة الموسعة وعلاقات الجماعة التى سبق أن حددت دوره وســـاندته فى الاضطلاع بمسئولياته • واذ تقدم القرن العشرون قل أكثر فأكثر عدد الشـــعوب الأفريقية التى ظلت دون أن يطرأ الاضطراب على حياتهـــا القبلية •

غير أن أفريقيين قلائل اجتثوا كلية من جذورهم القبلية • فالكثيرون ممن كانوا يشتغلون مقابل الاجور ، كانوا يعـودون كل سنة الى قراهم بمجرد أن يكسبوا المال الذى يحتاجون اليه ، وكان يشغل أماكنهم فى المناجم أو المزارع آخرون لفترة مؤقتة • وبقيت الزوجات والاطفـال فى المناطق الريفية ، أو كان الأطفال المولودون فى المدينة يرسلون الى أقاربهم لتربيتهم فى قراهم • ولكن العدد الباقى فى الوظائف الدائمة فى المدن كان يزداد باستمرار كلما توسعت المـدن • وبذلت بعض المشروعات جهودا خاصة لخلق ظروف يمـكن معها الاحتفـاظ بقوة عمل تتسم بالاستقرار ، وتدخل التعليم أو الظروف الشخصية أو العـائلية فى قطع الاتصالات القبلية وخلق سكان حضريين فقدوا النزعة القبلية •

لكن حتى الافريقيين الذين تخلصوا من الطابع القبلى ، نادرا ما اندمجوا بأية طريقة كاملة فى الثقافة الاوربية ، لأن ظروف التـأثير الأوربى لم تقدم بوجه عام للأفريقى صورة للحياة الأوربية يستطيع أن يقتبسها مكان صورته الخاصة به • ان الافريقى الذى أجبرته الضرائب التى فرضها عليه الرجل الأبيض على العمل فى منـاجم الرجل الأبيض والمطلوب منه أن يحمل جواز مرور وأن يراعى أمر حظر التجول ، المعرض لأن تقبض عليه شرطة البيض والمستبعد من سيارات ركوب الرجل الأبيض العامة ومناطق سكناه ومن وظائفه ، والذى تقدم له ديانة الرجل الأبيض مبادىء الأخوة ، ولكنه يحرم منها من الناحية العملية ، والذى يراه الرجل الأبيض « غـير أهل » للمسئولية ــ تقول ان هذا الافريقى كان فى مركز يعجب فيه بطيبات الرجل الأبيض ويشتهيها ، ولكن يصعب عليه أن يرى أو يقـدر أسس مجتمع هـذا الرجل الابيض • ويتخذها لنفسه • ان الاستثناءات البارزة مثل المسـيو فيلس هوفويه ــ بوانيى Felix Houphouet-Poigny (رئيس جمهورية ساحل العاج الآن) والذى كان وزيرا فى ثلاث وزارات فرنسية ، لم تعمـل الا على تأكيد الموقف العام •

وفى المجتمعات الحضرية ومراكز العمل ، عاش الافريقيون بوجه عام بعيدين عن الاوربيين فى جهات كان فيها الاسكان والتسهيلات الاخرى غالبا لايتفق مع مستويات الافريقى فى القرية أو مستويات الاوربى فى المدينة وفرض تصنيف الوظائف الى «أوربية» و «أفريقية» حدا للطموح • وحيث أتيحت للافريقيين فرصة مشـاهدة الاوربيين بين ظهرانيهم ، فان ما رأوه غالبا ما كان أبعد من أن يمثل أسلوب الحياة الذى كان ينتهجه نفس الناس داخل وسطهم الثقافى • كان بعض الاوربيين فى الحقيقة قد

اختاروا أفريقية هربا مما فرضته مجتمعاتهم من مستويات مسئوليات اجتماعية وسلوك ديموقراطى • وكانت الفجوة بين الحياة الاوربية والأفريقية أضيق ، وكان الحاجز أقل كمالا فى بعض المناطق منها فى غيرها • وبعد الحرب العالمية الثانية كان الاتجاه فى كل مكان ، باستثناء جنوب أفريقية ، هو اتاحة الفرص أمام الأفريقيين للوصول الى المزيد من التعليم وأسلوب الحياة ، العمل والحرف والمكانة والقيم التى كان الأوربيون ينعمون بها • (١٩)

وتفاوت تأثير السيطرة الأوربية تفاوتا بالغا طبقا للاختلافات فى كل من الظروف المحلية وسياسات الدول المحتلة وأساليبها • وأنتجت الظروف الجغرافية والموارد الطبيعية ألوانا مختلفة من التنمية الاقتصادية مثل تعدين النحاس ، وانشاء المزارع الكبيرة لزراعة السكر والقطن ، وزراعة الكاكاو فى المزارع الفردية ، وجمع زيت النخيل والعاج من الغابات • كذلك حددت هذه الظروف الجغرافية مسألة الاستيطان الأوربى وتلك مسألة حيوية • واختلفت القبائل الأفريقية فى نمط تنظيمها وأسلوب حياتها التقليدية ، ومن ثم تباينت فى الأساس اللازم لتلاؤمها وتكيفها • وكان للمجموعات السكانية الاسلامية الكبيرة فى بعض المناطق نظرتها وتنظيمها وسلوكها ، الذى تتميز به •

وأسفرت السياسات الاستعمارية المختلفة كل الاختلاف عن أنماط متميزة من التطور فى كل من المناطق التى تحكمها كل من الدول الأوربية •

فسياسة « الحكم غير المباشر » البريطانية تركت بنيان المجتمع الأفريقى سليما لم يمس ، وحولت الرؤساء المحليين الى وكلاء للادارة البريطانية • وساد القانون البريطانى فى المسائل المتصلة بالتجارة ، بصفة رئيسية • ووفرت البعثات التبشيرية التعليم والخدمات الصحية ، وكانت الحكومة تقدم اعانات أكملتها فيما بعد الخدمات الحكومية المباشرة• وكان يميز الأوربى عن الافريقى تفريق حاد فى الوضع والمهنة ومنطقة السكنى والامتيازات ، ولكن منح قدر بالغ من المسئولية والفرصة للعدد المتزايد من الافريقيين المتعلمين •

ومهما يكن من أمر فان السياسة البريطانية لم تكن متجانسة ، وهذا يمكن أن نلمسه بين أقاليم أفريقية الغربية وأوغندا ، حيث هيأ المناخ والأرض القليل من المغريات للمستوطنين الأوربيين ، وبين الأقاليم المعتدلة فى مرتفعات كينيا وروديسيا ، حيث جرى تشجيع استيطان البيض وأصبح على نطاق واسع • وحيث كان جميع السكان تقريبا

أفريقيين طبقت بريطانيا سياستها الاستعمارية المقررة بوجه عام وهى اعداد شعوب المستعمرات للحكم الذاتى عندما يكونون « على استعداد »، وان افترض حتى الحرب العالمية الثانية أن « استعداد » الشعوب الأفريقية لن يتم الا فى المستقبل البعيد ، وحتى فى عام ١٩٥٠ كان القادة الأفريقيون الذين يعملون من أجل الاستقلال يعتقلون ، ويزج بهم فى السجون • وبعد الحرب العالمية الثانية أعيد النظر بدقة فى الجدول الزمنى ، ونفذت بقوة برامج للتعليم والرفاهية والتنمية الاقتصادية ، وجرى التعجيل « بأفرقة » الخدمة المدنية ، وبذلت الادارة الاستعمارية كل جهد لمساعدة هذه الأقاليم على أن تصبح دولا أفريقية مستقلة •

ولكن فى المناطق التى كان فيها مستوطنون بيض ، أيدت بريطانيا المستوطنين وأتبعت ازاء السكان الافريقيين سياسة القمع • فبرغم تصريح وزارة المستعمرات فى عام ١٩٢٣ بأن مصلحة السكان الافريقيين يجب أن يكون لها الاعتبار الأول ، أتيحت أفضل الأراضى للتنمية الأوربية ، بينما حصر الأفريقيون فى « معازل » وفرضت عليهم القيود بالنسبة الى التنقل والتوظف واستخدام التسهيلات العامة والفرص التعليمية والمشاركة السياسية • وعندما لقيت هذه السياسة مقاومة عنيفة فى كينيا بعد الحرب العالمية الثانية ، متمثلة فى انفجارات ارهاب « ماو ماو » ، وبينما تحرك جنوب أفريقية ليدعم سياسته القائمة على التفرقة العنصرية ، وتحركت أفريقية الغربية نحو الاستقلال وقعت السياسة الاستعمارية بين ضغوط متعارضة ، فكان المستوطنون فى كينيا وروديسيا يسعون وراء استقلال مستعمراتهم عن بريطانيا ، وهدفهم الواضح هو الابقاء على سيادة الجماعة السكانية الأوربية الصغيرة على الأغلبية الأفريقية الضخمة ، وطالب الأفريقيون بالمساواة فى الحقوق السياسية • وكان على السياسة البريطانية فى هذه المناطق أن تقاوم ضد المستوطنين من أجل التسلط المستمر ، وضد الجهود الأفريقية لتحقيق سيطرة الأغلبية ، وأن تحاول خلق مجتمع « متعدد الأجناس » يكون فيه نوع من التوازن بين المجموعات العنصرية ، وأن تحتفظ بسلطان استعمارى الى أن يوضع نمط أو أسلوب يمنع المستوطنين البيض من محاولة انتهاج طريق جنوب أفريقية •

واتبعت السياسة الفرنسية فى مبدأ الأمر طريقا مختلفا عن طريق بريطانيا ، ولكنها تحركت فى اتجاه مشابه بعد الحرب العالمية الثانية • كانت فرنسا تنظر الى ممتلكاتها الأفريقية الكبيرة على أنها منطقة يجدر فرنستها أى جعلها فرنسية • فالتعليم الذى أدخلته كان يماثل التعليم

الذى يقدم فى فرنسا ـ تعلم الأطفال الافريقيون عن « شارلمان سلفنا العظيم » ـ وأصبح الافريقى « المدمج » مواطنا فرنسيا • وكانت المجتمعات الافريقية التى يتوفر فيها العدد الكافى من أمثال هؤلاء المواطنين ، تبعث بممثلين لها الى الجمعية الوطنية فيباريس • ولم ترسم هذه السياسة الفرنسية خطوطا عنصرية•وأنتجت مجموعة صغيرة من«الفرنسيين السود» ذوى الثقافة العالية ، تفصلهم هوة ثقافية واسعة عن جمهور السكان الذين لم يحصل معظمهم على تعليم أو تدريب ، حتى فى المهارات الفنية الاولية• ولم تتطلع السياسة نحو الحكم الذاتى الافريقى فى نهاية الأمر ، ولكنها كانت تتطلع الى ادماج المناطق الأفريقية فى « الاتحاد الفرنسى » • وفى عام ١٩٤٤ ذكر المؤتمر الاستعمارى الفرنسى المنعقد فى برازافيل ، فى قرار له ، أنه « يجب استبعاد الوصول الى الحكم الذاتى فى المستعمرات حتى فى المستقبل الأبعد » •

واستهل الدستور الفرنسى لعام ١٩٤٦ سياسة جديدة ، اذ قطع على فرنسا عهدا بأن تقود الشعوب التابعة لها نحو « حرية حكم أنفسها وادارة شئونها بطريقة ديموقراطية » وفى ظل هذه السياسة وسع نطاق التسهيلات للتعليم العام الى حد كبير ، ونص القانون التنظيمى لعام ١٩٥٦ على التصويت العام وعلى قدر من الحكم الذاتى • وبعد ذلك بعامين أعطيت الأقاليم الأفريقية حرية اختيار الانسحاب من الاتحاد الفرنسى ، وكانت غينيا أول من اختار الاستقلال •

وتركزت سياسة بلجيكا بالنسبة الى الكنغو على تنمية موارد المنطقة، بدلا من تركزها على التطوير السياسى لشعبها • وأصبح هذا الاقليم الشاسع الغنى بالموارد فى قلب أفريقية ، والذى أخضع أصلا للسيطرة الأوربية على يد جمعية خاصة برئاسة ملك البلجيكيين ـ أصبح ذا سمعة سيئة فى العقد الأول من القرن العشرين ، بسبب الطريقة التى اتبعت فى استغلاله • فقد حرم الأفريقيون من أرضهم ، وحرم عليهم مغادرة قراهم، وأرغموا على العمل فى ظل ظروف من العبودية الفعلية •

وعندما اضطلعت الحكومة البلجيكية بالولاية على الاقليم فى عام ١٩٠٨ ، نبذت هذه الأساليب ، وانتهجت سياسة أبوية ازاء أهل الكنغو ، أريد بها معاملتهم بطريقة انسانية وتحويلهم الى عمال أكفاء • وزود الكنغوليون بالتدريب الفنى ، واستخدموا فى الوظائف التى تتطلب المهارة والمسئولية فى المناجم والنقل والمواصلات • وهى الوظائف التى كان يحتفظ بها فى غير الكنغو للأوربيين • وكانت أحوال المعيشة للأفريقيين فى المناطق التى امتد اليها النفوذ الأوربى أرقى بوجه عام

من مثيلاتها فى المستعمرات المجاورة ، وان جرى الابقاء بشكل واضح على العزل العنصرى. ومدت الخدمات الصحية فى جميع أنحاء الاقليم ، وقدمت مراكز التنمية الريفية التدريب للنساء فى التغذية والاقتصاد المنزلى والتمريض ورعاية الطفل . غير أن النـــاس لم ينعموا بحقوق سياسية ، اذ كانت المنطقة تحكم مباشرة من بروكسل عن طريق ادارة ذات صبغة مركزية .

وفى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية تغيرت أيضا السياسة البلجيكية . وكما قال الحاكم العام ، وهو يخاطب المجلس الحكومى بالكونغو البلجيكى فى عام ١٩٥٥ : « لقد قررنا أن نستبدل فى المستقبل نظـــام الوصاية بالسيطرة الأبوية التى مارسناها حتى الآن » . لقـــد تخلت السياسة الجديدة من حيث المبدأ عن كل من التفرقة والادماج ، واتخذت مفهوم « المشاركة » مع حقوق وواجبات متبادلة بين البيض بالاضافة الى المتطورين évolués ـ الأفريقيين المندمجين ـ من جهة ، والسـكان عامـــة ، من جهة أخرى . وضيقت الفوارق فى الأجور بين الأفريقيين والأوربيين بادخال مستويات مشتركة ، وكيف بنيان الكومون البلجيكى بحيث يتمشى مع المجتمعات الحضرية والمناطق الريفية ، بغية الوصول الى الحكم الذاتى ، وقدم التدريب على الادارة لأبناء الرؤساء وغيرهم ممن أريد لهم أن يتولوا السلطة فى المناطق القبلية .

غير أن سياسة « المشاركة » وفقا لشروط بلجيكا ، كانت قصيرة الأمد . فحالما ووجهت بلجيكا فجأة بالعنف ومطالب الاستقلال فى عـام ١٩٥٩ ، استجابت بسرعة بعرض استقلال فورى تقريبا . وفى عام ١٩٦٠ سارت فى طريق الحكم الذاتى هذه المنطقة الشاسعة الغنية بالموارد والتى كان ينظر اليها على أسس اقتصادية بحتة أكثر منها سياسية ، برغم أن أهلها لم تسبق لهم خبرة سياسية ، ولم تكن هناك بالفعل قيـــادة مدربة على النهج الاوربى شبيهة « بالنخبة الممتازة » فى المناطق الفرنسية والبريطانية ، وهم الذين تعلموا فى جامعات البلاد الأم .

وظلت البرتغال ملتزمة بسياسة للادماج ، مصحوبة ـ فيما يتصل بالحقوق السياسية والعمل ـ بسياسة تقييد كانت أشد عسفا من النظام الدكتاتورى المطبق فى البرتغال نفسها . وكان القانون العام البرتغالى يفرق بين المواطنين المسئولين مسئولية كاملة والأشخاص من « ذوى الوضع الاستعمارى » ممن لم يخضعوا للقوانين البرتغالية ، والذين ـ وفقا للنصوص التى وردت فى لائحة المجموعات السكانية القبلية ـ « لم يعتبروا أهلا للوفاء بالالتزامات التى لم يكن فى امكانهم تصورها بشكل

معقول ، أو أنهم ليسوا على استعداد لتقبلها » • أما الأفراد «المندمجون» الذين أعلنوا عزمهم على الخضوع تماما للقانون المدنى والجنائى البرتغالى والذين توافرت فيهم المؤهلات المقررة من حيث اللغة والتعليم والمهنة والسن والخلق الطيب ، فكانوا يتمتعون بحق المواطنة البرتغالية ، دون تمييز عنصرى أو غيره • وعهد الى البعثات الكاثوليكية بالمسئولية الكاملة، وبمعاونة من الاعانات الحكومية عن ذلك القدر من التعليم الذى كان يقدم للسكان الأفريقيين •

وأدت التقارير المستمرة عن الاستخدام المنتظم المتواصل للسخرة الى جهود داخل الأمم المتحدة لمطالبة البرتغال برفع التقارير سنويا الى مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة ، على غرار ما كانت تفعل الدول الاستعمارية الأخرى ، عن ادارة المناطق التابعة لها • غير أن البرتغال أكدت أنه ، طبقا لقانون سن فى عام ١٩٥١ ، لم تكن هذه مناطق تابعة لها ، ولكنها مقاطعات كاملة من الدولة البرتغالية ، ورفضت الحكومة البرتغالية أن ترفع تقارير الى مجلس الوصاية ، أو أن تسمح لممثلى الأمم المتحدة بزيارة هذه المناطق •

وبالاضافة الى ممتلكات الدول الاستعمارية الاربع الكبرى ، وضعت الاقاليم الالمانية السابقة : تنجانيقا ، ورواندا أوروندى ، وتوجولاند ، والكمرون ، تحت انتداب بريطانيا وبلجيكا وفرنسا فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وأصبحت فى نهاية الحرب العالمية الثانية أقاليم خاضعة لوصاية الامم المتحدة ، تديرها نفس هذه الدول • وكان مجلس الوصاية يقوم بصفة دورية بتقييم تقدمها نحو الحكم الذاتى على ضوء : الخطوات التى اتخذت نحو ممارسة حق الانتخاب ، وازالة التفرقة العنصرية ، وتوسيع نطاق التعليم ، وحماية السكان الافريقيين بالنسبة الى حقوقهم فى أراضيهم ، وتدابير زيادة الامكانيات الاقتصادية ، وتوسيع قاعدة الاقتصاديات •

وفى داخل الاطار العريض للتسلط الاوربى والنمط المميز المطبق على كل منطقة استعمارية ، برزت مجموعة من القادة الافريقيين عبروا عن احساس متزايد « بالافريقية » • فبوصفهم أفريقيين متعلمين درسوا فى الخارج : فى لندن وباريس والولايات المتحدة أو الهند ، أصبحوا على بينة من الاتجاهات العالمية ، وكونوا رابطات تضم الطلبة الافريقيين • وعندما عادوا الى أوطانهم أنشأوا منظمات للتعبير عن مشكلات الأقاليم التى ينتمون اليها ، أو عن مشكلات أفريقية كلها • وكان القادة الافريقيون فى كل مكان يصبون الى التحرر من السيطرة الاجنبية ، ولكنهم اختلفوا فى أول الأمر حول عملية التنمية الأفريقية التى تصوروها •

وصيغت الأماني الأفريقية على أسس الحياة والقيم الغربية الحديثة، على يدي كوامي نكروما ، وهو يسير بغانا في الطريق الى الاستقلال • ان نكروما الذي تعلم في الولايات المتحدة وبريطانيا ، والذي وصف نفسه بأنه « مسيحي لاينتمي الى شيعة معينة ، وأنه اشتراكي ماركسي » ، والذي انفصل عن جذوره القبلية ورفض سلطة الرؤساء التقليدية باعتبارها « اقطاعية » ، وان كان قريبا جدا الى جماهير قومه وقادرا على أن يتحدث اليهم مباشرة ، نقول : ان نكروما هذا تصور بلده الجديد كدولة رفاهية حديثة تقوم على مبادىء الديموقراطية البرلمانية ، وعلى كيانها ، وعلى استخدام التكنولوجيا الحديثة • واعتنق نفس الفكرة قادة دولة نيجيريا المجاورة والأكثر سكانا • والحق أن الحركات القومية بالمنطقتين كانت ذات صلات وثيقة فيما بينها منذ العشرينات وما بعدها •

وقد عبر نكروما عن هذا الموقف في خطابه أمام الجمعية التشريعية في عام ١٩٥٣ عندما قدم اقتراحه بشأن الاستقلال • فبعد أن كرر تاريخ الاقليم منذ وقت امبراطورية غانا القديمة التي سقطت في أيدي المغاربة في القرن الحادي عشر ، أكد أنه « خلال تاريخنا الشاق لم نركع تحت أقدام الفاتحين » • وأعاد الى الذاكرة مقاومة شعب الأشانتي للبريطانيين ، وهي « أول مظهر لقومية ساحل الذهب » في اتحاد الفانتي عام ١٩٦٨ ، والمؤتمر الوطني لافريقيا الغربية البريطانية الذي خرج الى عالم الوجود في نهاية الحرب العالمية الاولى استجابة لشعار الحلفاء في وقت الحرب الذين أعلنوا أنهم يحاربون من أجل الحرية ، وتعاقب المنظمات بعد الحرب العالمية الثـانية ، والذي أدى الى تكوين حزب مؤتمر الشعب في عام ١٩٤٩ ببرنامجه عن « الحرية الآن » • وقال : ان قومه يعرفون « ان الحرية ليست شيئا يمكن أن يضفيه شعب على آخر كهبة ، بل انهم يطالبون بها باعتبارها ملكا لهم ، ولا يمكن أن يحبسها عنهم أحد » •

وقال : ان مهمة أية دولة أفريقية مستقلة هي خلق مجتمع جديد يستفيد من تكنولوجيا وأنظمة الغرب ، على ألا « يضحي في غير مبالاة ، وهو يسعى الى التقدم المادي» بقيم مجتمعه السابق على العصر التكنولوجي • « علينا أن نعمل بجد لنصوغ أنماطا جديدة ، وتقاليد اجتماعية جديدة، واتجاهات للحياة جديدة ، بحيث أننا بينما نسعى وراء التقدم المـادي والثقافي والاقتصادي لشعبنا ، ونرفع مستويات حيـاته ، لن نضحي بسعادته الأساسية »(*) •

Kwame Nkrumah, Ghana : Autobiography of Kwame Nkrumah (*) (London, 1957), chapter 17.

ومقابل الهدف الممثل فى قيام دولة حديثة تتجه نحو الغرب ، كان رد فعل التقليديين ضد الأساليب الأوربية • فقد أكد جومو كينياتا بأكبر قدر من الاثارة الفضائل العليا للثقافة القبلية (Facing, Kenya, 1938) وفى الخمسينات أضفى الارهابيون من جماعة ماو ماو فى كينيا على هذه النظرة شكلا مشوها وعنيفا •

كان جومو كينياتا الذى درس فى بريطانيا على يدى عالم الأجناس البشرية البريطانى الكبير برونيسلاف مالينوفسكى ، يرفض ما يبديه العلمـــــاء الأوربيون من تلطف ازاء المجتمعـــــات القبلية ، تقـــديم وصفه لثقافة قبيلته ، الكيكويو فى شرق أفريقية • فوصـــف الأسرة وأواصر القرابة ، والمجموعات المتقاربة فى العمر واحتفـالات التنصيب، والدين ، والسحر ، والحرب ، وبوجه خاص استخدام الارض كأنظمة حيوية ، وبهذا عرض حياة كريمة غنية لقومه • وهذه الحياة يحطمهـــا تقويض أى من أجزائها المتكاملة المترابطة • وقال : « ان كل هذه الجوانب المختلفة من الحياة هى التى تكون ثقافة اجتماعية • والثقافة التى يرثهـــا المرء هى التى تضفى عليه كرامته الانسانية ورخاءه المادى » (*) • وعبر عن المرارة والاحتقار ازاء من يحطمون تكامل هذه الثقافة بحجة « تمدين » الافريقيين وتزويدهم « بمزايا الأفكار التقدمية الأوربية » •

ان الشعور الذى عبر عنه جوموكينياتا شاطره فيه أفريقيون من ألوان شتى • فالحنين الى « الأيام القديمة الطيبة » لم يساور الرؤســـاء القبليين الأفريقيين ممن كان مركزهم وسلطانهم فى خطر ، فحسب ولكنه ساور أيضا الأفريقيين المتعلمين الذين حصلوا على تدريب غربى أو اعتنقوا المسيحية أو حققوا القدر اليسير من النجاح الاقتصادى فى عالم الرجل الأبيض • فمن احساسهم العميق بالفوضى والخيبة ، وبأن مجتمعهم قد تلف أو تحطم ، دون أن يتراءى للنظر أى بديل مناسب فى أى مكان ، حاولوا تجـديد القيم والاساليب التى كان التحامهم بالاوربيين قد علمهم أن يرفضوها ، بل غالبا أن يحتقروها •

وفى جميع أنحاء القارة اتخذت حركات الافريقيين شكل الاخـذ بالجديد أو العودة الى القديم ، أو مزيج من الاثنين • فقبل الحرب العالمية الثانية كان معظم الذين تلقوا تعليمـــا غربيا يتجهون اتجاها غربيـــا ، ويســـعون وراء التقدم فى أفريقية ، على أساس اقامة مجتمع على الطراز الغربى ، بينما كان يمثل النزعة التقليدية بعض الرؤساء الوراثيين ممن

(*) Kenyatta, « Facing Mt Kenya », op. cit., p. 317.

ظلوا فى كل مكان يحتفظون بقدر كبير جدا من المكانة والاحترام ، من جانب المتعلمين وغير المتعلمين على حد سواء .

وفى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية طرأ على الانقسام الواضح بين الاتجاهين الغربى والتقليدى بعض التعديل ، بفعل التقليديين الجدد من بعض أفراد الصفوة المتعلمة ، وبفعل ما اتسم به بعض الرؤساء القبليين من نزعة التجديد . ففى الكنغو البلجيكى بدأت بعض العناصر التى حصلت على تعليم غربى تسعى الى تقوية سلطة الرؤساء التقليديين وتزويدهم بالتدريب اللازم لمهامهم الموسعة والى اعادة توجيه الجمعيات الثقافية نحو الأدب الشعبى والتاريخ الافريقيين ، بدلا من الثقافة الأوربية أو بالاضافة اليها . وسعى بعض الرؤساء التقليديين بدورهم ، وخاصة من اعتنق المسيحية منهم — الى الاتجاه نحو الغرب . وانقلب بعض الطلاب المتعلمين والافريقيين من أبناء أفريقية الغربية والاستوائية الفرنسية — على النقيض من أسلافهم قبل الحرب العالمية الثانية — على السياسة الفرنسية الرامية الى ادماج الافريقيين فى الثقافة الأوربية ، وسعوا الى احياء الثقافة الأفريقية ، فمجدوا « الزنجية » وأثبتوا وجود عناصر مشتركة بين الافريقيين تهيىء للجامعة الافريقية » ، وأرادوا اعادة تفسير تاريخ أفريقية من وجهة نظر الشعب الأفريقى ، واستخدام المعرفة والفطنة اللتين زودهم بهما تدريبهم الغربى ، وتعرضهم للمؤثرات الغربية ، بغية ايجاد مثل أعلى أفريقى . وتصور البعض عملية مزج ثقافى من قبيل ماقدمته فرقة رقص أفريقية طافت بأوربا والولايات المتحدة فى الخمسينات ببرنامج جمع بين الرقصات والأغانى التقليدية ، والموسيقى الشعبية الراهنة وتمثيل أحداث من قبيل ادخال زوجة مولدة على طقوس القبيلة .

وزود قيام النقابات العمالية الافريقية الحركات القومية بقاعدة جماهيرية جديدة ، ففى المناطق البريطانية والفرنسية ، حيث كان التنظيم النقابى مسموحا به ، وان كان غالبا ما تعرض للمضايقة ، كون الافريقيون والبيض نقابات منفصلة ، واصطبغت النقابات الافريقية بصبغة قومية قوية . وكونت أجزاء كبيرة من الاحزاب السياسية الشعبية ، كما حدث فى غانا ، وأصبح قادتها فى أفريقية الغربية وكينيا وحزام النحاس بروديسيا شخصيات سياسية هامة . فقد كان توم مبويا Tom Moboya سكرتير اتحاد العمال فى كينيا — وهو من أفراد المجموعة الاولى من الافريقيين الذين انتخبوا للمجلس التشريعى بكينيا — هو الذى رأس المؤتمر الاول الذى ضم أفريقيين من مناطق لاتتمتع بالحكم الذاتى ، والذى انعقد فى أكرا عام ١٩٥٨ .

واذ تحركت الدول الافريقية نحو الاستقلال ، راح هدف « التنمية » الايجابى يكمل الهجمات على الاستعمار والعنصرية اللذين هيئا الدافع العاطفى الرئيسى .

وبعد استقلال غانا فى عام ١٩٥٧ أكتسبت الحركة القومية فى جميع أنحاء القارة قوة دفع كبيرة . ففى كل مكان جرى التعجيل بخطى التغيير ، واستبدل بالمقترحات المعتدلة مقترحات أخرى أشد حسما قبل أن تلقى الدراسة الكاملة أو قبل أن يكون فى الامكان تنفيذها ، وأصبح أى بديل عن الاستقلال لايلقى القبول . وكان المتوقع أن يرضى القانون التنظيمى مطالب أفريقية الفرنسية لعشر سنوات على الاقل ، ولكن لم يمض عامان حتى بدأ الخروج من الكومنولث الفرنسى ، ووضعت جداول زمنية حسبت بالشهور ، لاستقلال منطقة بعد أخرى ـ نيجيريا ، وأوغندا، وأقاليم توجولاند والصومال والكمرون الخاضعة لنظام الوصاية . وفى تنجانيقا الخاضعة لنظام الوصاية ، وحيث عارضت السلطة القائمة بالادارة فى عام ١٩٥٥ ، مجرد تحديد فترة تتراوح بين عشرين وخمس وعشرين سنة كهدف لتحقيق الحكم الذاتى ، فان لجنة عينت فى عام١٩٥٩ لاقتراح خطوات دستورية محدودة ، تجاوزت حدود التعليمات ، واقترحت انتخابات كاملة وحكما مسئولا فى ظرف شهور ، مقررة أنها تعلم أنها اذا التزمت نصوص مهمتها التى أعطيت لها فى وقت تعيينها ، فسوف يكون تقريرها عتيقا مبتذلا قبل أن يكون فى الامكان قراءته .

وبالنسبة الى المناطق التى كانت تضم مستوطنين من البيض ، كانت القومية التي ازدادت حدة وشدة تعنى تصاعد التوتر ورفضا من جانب الافريقيين للجهود المبذولة من أجل اقامة ما يقال له مجتمع «متعدد الأجناس» . واعتبر الزعماء الافريقيون المقترحات الخاصة بالتصويت المقيد المبنى على مؤهلات تعليمية ، وهو الذى يحد بشدة من عدد الافريقيين الذين لهم حق التصويت ، بينما يمنح هذا الحق للبيض اعتبروها مجرد حيلة لادامة الحكم الأبيض .. وكذلك كان الشأن بالنسبة الى قوائم التصويت المنفصلة للناخبين للبيض والآسيويين والأفريقيين والتمثيل حسب المجموعات العنصرية الذى يعطى الأفريقيين عددا من الممثلين يساوى أو يقل عن عدد ممثلى الأقلية الأوربية الصغيرة والمجموعة الأكبر نوعا من الآسيويين . ان « التعادل » العنصرى الذى اتخذ شكل تقسيم متساو للاعتمادات المخصصة للتعليم فى تنجانيقا بين المجموعات العنصرية الثلاث ـ ٢٥٫٠٠٠ أوربى ، ٧٠٫٠٠٠ آسيوى ، ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ أفريقى ـ هذا « التعادل » أقنع الزعماء الأفريقيين بأن القصد من « المجتمع المتعدد الأجناس » هو ابقاء الأفريقيين فى حالة خضوع دائم .

وأصروا على أن ثمة أساسا واحدا فقط يمكن أن يقوم عليه مجتمع « متعدد الأجناس » بالمعنى الصحيح ، وأن يقوم عليه نظام عملى للمشاركة من جانب غير الأفريقيين ألا وهو قبول مبادىء الديموقراطية : رجل واحد ، صوت واحد ـ والاعتراف بالحقيقة الأساسية ، وهى أن هذه بلاد أفريقية ٠

وخلال وقت قصير غزت القومية المناطق التى لم تكن الدول الاستعمارية فيها لتفكر فى امكانية منحها استقلالا فى المستقبل ٠ وجاء انفجار العنف القومى فى الكنغو البلجيكى عام ١٩٥٩ صدمة للذين كانوا يفترضون من قبل أن فى النظام البلجيكى دليلا ينهض ضد أمثال هذه التطورات المعادية للاستعمار ، وبعد عام كانت المشكلة هى ما اذا كان الوطنيون ينتظرون أربعة أشهر تجرى بعدها الانتخابات ، أم يصرون على الاستقلال فورا ٠ ودلت الاضطرابات فى أنجولا المجاورة على أن لهب القومية يمتد حتى الى « المقاطعات القبلية » من البرتغال ، والتى كان الاتصال بينها وبين العالم الخارجى مقيدا أشد ما يكون القيد ٠

أما فى اتحاد جنوب أفريقية فان الأفريقيين ـ الذين شاركوا على أوسع نطاق فى الحياة الصناعية الحضرية ، وفى الحياة الزراعية الحديثة برغم القهر والتفرقة ، والذين كانوا أكثر الشعوب الأفريقية اصطباغا بالطابع الأوربى ـ تطلعوا الى المساواة فى الوضع والمكانة داخل المجتمع المختلط الذى كانوا هم جزءا منه ٠ ولكن نجاح الحركات القومية فى الأماكن الأخرى بالقارة واشتداد سياسات التفرقة العنصرية فى الاتحاد ترتب عليها تصاعد التوتر والتهديد بصراع سافر ٠

واتخذت الحركات القومية الأفريقية نغمة وحدة أو « جامعة » أفريقية ٠ فكان من الأهداف المقررة فى دستور حزب مؤتمر الشعب الذى أنشأه نكروما ، منذ بدايته ، « تأييد المطالبة باتحاد يضم غرب أفريقية وبالوحدة الأفريقية ، عن طريق تشجيع وحدة العمل بين شعوب أفريقيا والشعوب التى من أصل أفريقى » ٠ ولم يضيع نكروما نفسه فرصة دون أن يدفع قدما برؤياه الخاصة بوحدة شعوب أفريقية ، فاستضاف أول اجتماع للدول الأفريقية المستقلة ، وأول مؤتمر للأقاليم الأفريقية غير المتمتعة بالحكم الذاتى ، وذلك فى عام ١٩٥٨ ٠ وفور أن أصبحت غينيا مستقلة أعلن رئيسا وزراء غينيا وغانا مشروعا لربط بلديهما ، ليكون نواة تدعى الدول الأفريقية الأخرى للانضمام اليها عندما تصبح مستقلة ٠

غير أن الشعوب الأفريقية واجهت الكثير من المشكلات والصعاب

فى تحقيق أمانيهـا • وكمـا عبر زعيم الحركة القوميـة فى تنجانيقا ، جوليوس ك • نيريرى فى عام ١٩٥٧ ، « لســنا نسعى وراء الحرية كى يظل قومنا فى وهدة الفقر والجهل ، أو يعودوا الى الهمجية البدائية» (*) • ولكن الحياة الاقتصادية الأفريقية كانت تعتمد اعتمادا يكاد أن يكون كليا على رأس المال والادارة الأوربيتين • فباستثناءات قليلة ، مثل زراعة البن فى تنجانيقا والكاكاو فى غانا وســاحل العاج ، كانت الزراعة التجارية يديرها الأوربيون ، كما كانوا يتولون التعدين والصـناعة والتجارة •

وبغير رأس المال والخبرة الادارية والمعرفة الفنية ، لم يكن الأفراد الأفريقيون ولا الحكومات الأفريقية فى مركز يسمح باســتغلال موارد القارة لمنفعة السكان الأفريقيين • وكان الاســتعمار الاقتصادى يهدد بالبقاء بعد ذهاب الاستعمار الســياسى • وفضــلا عن هذا ، وعلى ضوء الســلطة التقليدية وثروة رئيس القبيلة ، ومـع المثـال الذى ضربته المشروعـات الأوربية التى تســتخدم العمـال الأفريقيين ذوى الأجور المنخفضة ، فانه كان ثمة اغراء حقيقى لأولئك الأفريقيين ممن قد يكسبون بعض الثروة والقوة لدعم مراكزهم شخصيا على حساب جماهير الناس •

وعقدت المنافسات القبلية مسألة قيام دول تحكم نفسها بنفسها وصالحة للبقاء لأن العداوات القديمة لم تختف بين يوم وليلة ، ونادرا ما اتفقت الحدود القبلية مع التقسيمات السياســية التى خلقتها الدول الأوربية وورثها القوميون الأفريقيون • وكانت صعاب تطبيق المبـادىء الديموقراطية ضخمة ، وخاصة من جانب من كانت خبرتهم فى ادارتهـا قليلة • فنكروما الذى أظهر نفســه أســتاذا للمبـادىء الديموقراطية والأساليب البرلمانية خلال نضاله من أجل الاستقلال ، سرعان ما عمد الى تدابير القمع لكبح جماح المعارضـة التى اعتقد أنهــا تعرض دولته الجديدة للخطر •

ان المشكلة الأســاسية التى واجهتها جميع الدول الجديدة وهى العدد المحـدود من المؤهلين فنيا ومن المتعلمين ممن يقع على عاتقهم عبء التنمية ، هذه المشكلة لم تكن فى أى مكان بمثل حدتها فى أفريقية ، وان كان النقص فى بعض المناطق أشــد بكثير منه فى غيرها • وكان الموقف شديد الوضوح فى الأقاليم الفرنسية بعد تطبيق القانون التنظيمى الذى نص على الحكم الذاتى الجزئى للأقاليم ، بواسطة حكومات أفريقية محلية، وعلى أفرقة الخدمات المدنية بنسبة ٥٠٪ • وفى واحد أو آخر من الأقاليم

Letter to M. Springer, n.d. (*)

كان نفس الرجل يعمل عضوا فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى باريس، ورئيسا للوزراء فى المستعمرة أو عمدة للمدينة الرئيسية ، بينما لم يكد يكون فى الامكان البدء فى برنامج أفرقة الخدمات المدنية بسبب نقص الموظفين المتاحين لهذا الغرض .

كانت الموارد الغنية بالقارة مصادر محتملة للخلاص وللخطر معا . فكانت تهيىء أساسا للاقتصاديات الانتاجية ، قادرا على الأخذ بيد الأفريقيين ، ولكنها فى عالم به جوع الى الموارد كانت موضع « الطمع فيها من جانب الحكومات والمشروعات الأجنبية لأغراضها هى . وكانت الضغوط كبيرة لاستغلال رواسب النحاس واليورانيوم والبوكسيت (الألومنيوم) وخام الحديد وغير ذلك من المواد ، بخطى وبطريقة تمليها قوى ومصالح خارجية بدلا من أن تمليها السرعة التى يستطيع بها المجتمع الأفريقى أن يستفيد من موارد الثروة هذه . وعلاوة على هذا فثمة أجزاء فسيحة من القارة قليلة السكان هيأت امكانية استيطان ، لا فى المناطق التى تنعم بمناخ صحى كأنجولا فحسب ، ولكن فى الأقاليم التى تصبح صالحة للسكنى اذا تمت السيطرة على ذبابة تسى تسى ، وغيرها من حاملات الأمراض .

ولم يكن فى امكان الأفريقيين أن يأملوا فى أن يسمح لهم بتقرير مصيرهم بدون تدخل ، على نحو ما استطاعت أن تفعله الأمريكتان بعد استقلالهما . ففى لحظة ظهورهم كشعوب مستقلة وجدوا أنفسهم وسط عالم متصارع ، لم يعد فيه بعد الشقة ، يحقق العزلة أو الحماية ، وحيث لم يكن فى امكان درة ثمينة مثل هذه القارة الشاسعة أن تبقى خارج النضال العالمى من أجل القوة والنفوذ . وبرغم أنه لم يعد فى الامكان رسم أفريقية دون اعتبار لأهلها ، كما كان حالها فى القرن التاسع عشر ، الا أنها كانت هدف الضغوط الكثيرة التى توافرت للدول والجماعات القوية ، من الموارد والمهارات ماامكنهم من فرضها . وقد يردد الأفريقيون شعاراتهم مثل « كفوا الأيدى عن أفريقية » ، « سنحافظ على أفريقية الحرة » ، ولكن هذه كانت تشكل حماية هزيلة ضد جهود مصممة تبذل من أجل جرهم الى فلك واحدة أو أخرى من تكتلات القوة فى العالم .

وفى هذا النضال كان المتصارعون الرئيسيون هم العالمين الشيوعى وغير الشيوعى . ولكن جذبا جاء أيضا من ناحية الاسلام . كان هناك حزام من المسلمين يمتد من الشرق الى الغرب على امتداد حد الصحراء الكبرى ، ويتجه جنوبا نحو وادى النيجر ، بحيث يضم أكثر من نصف سكان الأقاليم الفرنسية ، ومعظم أهل نيجيريا الشمالية ، وكانت هناك

أيضا أعداد كبيرة من المسلمين فى الشرق ، لا فى السودان فحسب ، ولكن على الساحل ، وفى معظم المناطق كان الاسلام يميل الى الانتشار • وفى مخاطبة هذه الشعوب سعى راديو القاهرة الى ربط القومية الأفريقية بالاسلام والقومية العربية ، وحث الأفريقيين جنوبى الصحراء الكبرى على العمل يدا بيد مع الشعوب الاسلامية بشمال أفريقية • ان البعث الاسلامى فى هذه السنوات ، وزيادة السهولة التى يقوم بها الأفريقيون بالحج الى مكة جعل الاسلام عاملا ذا أهمية متزايدة فى تحديد اتجاه التطور الأفريقى •

وتحت تأثير النضال الطويل بين الفرنسيين والمسلمين فى الجزائر ، واستخدام الصحراء للتجارب الذرية ، فان الدول الاسلامية بشمال أفريقية والتى جرت تقاليدها على الاتجاه نحو الشمال والشرق ، انحازت الى الدول الأفريقية جنوبى الصحراء • فمن أقصى القارة العظيمة الى أقصاها ، بدأ القادة يتحدثون عن هوية أفريقية ، وشخصية أفريقية ومستقبل أفريقية ــ ليس مستقبل الدول فرادى فحسب ــ وعن مكان أفريقية فى العالم •

وفى أفضل الحالات كانت مهمة الأفريقى من ناحية تحقيق التكامل بين ثقافة أمية قبلية وثقافة تكنولوجية حديثة ، تشكل أصعب انتقال تعين أن يقوم به أى شعب • فهو فى أنسب الظروف يفرض شدائد على البنيان الاجتماعى ، كما يفرض مطالب ثقيلة على قدرات الناس الخلاقة واستقرارهم وقدرتهم على التكيف • لقد جاء الأفريقيون الى هذه المهمة باتجاهات وخبرة أقيمت فى وجه الحكم الاستعمارى والسيطرة العنصرية والاستغلال الاقتصادى • وفضلا عن ذلك ، ففى الجو الثقافى فى منتصف القرن العشرين ، لم يكونوا معرضين لصورة مقبولة واحدة من الثقافة التكنولوجية ، ولكنهم كانوا معرضين لصراعات أساسية وضروب كثيرة من القلق فى صفوف ممثليها •

والواقع أن الأفريقيين الساعين الى الدخول فى العالم الحديث ، واجهوا مشاق ثقيلة فى نضالهم من أجل تحقيق الذات والتنمية •

تعليقات على الفصل التاسع

(١) يعتبر الأستاذ راديم فوستكا (تشيكوسلوفاكيا) أن العرض الوارد فى هذا الفصل عن الصورة الذاتية والأمانى للأمم «يبين الفارق الجذرى القائم بين وجهة نظر المؤلفين ووجهة نظر النقاد الماركسيين ؟ ان نفس اصطلاح « الصورة الذاتية » لايمكن الا أن يثير اتجاها من الريبة ... هذا المفهوم على ما يبدو ، يهبط الى الفكرة العامة التى تقول بأن الأمم ككل تصوغ « أمانيها » ، و « أهدافها » وتنفذها على المستوى السياسى (عن طريق الدولة وفى داخلها) وعلى المستوى الثقافى . وهذا تأكيد غير علمى تماما ، واضطر المؤلفون أنفسهم الى التسليم بأنه فى صياغة الأهداف القومية ، هناك دائما « الى حد ما تفاعل متبادل بين الناس والدولة ، حتى حيث فرض عنصر صغير ارادته على الاغلبية ، وحافظ عليها بوسائل دكتاتورية » . كيف يكون فى الامكان أن نتبين أية صورة ذاتية لأمة فى حالة كهذه ؟ ...

ان تطور النوع البشرى فى القرن العشرين ينظر اليه فقط من زاوية الطبقة الحاكمة من البورجوازية أو قادتها ... وليس هناك أقل اشارة الى نضال الطبقة العاملة العظيم من أجل الديموقراطية، وليس ثمة ذكر لحقيقة أن آراء العمال بصدد هذه المشكلة كانت مختلفة بصورة لها مغزاها وأهميتها عن آراء البورجوازية . ان المؤلفين عمدوا الى الايجاز بالنسبة الى مسائل لها مثل هذه الأهمية ، ولم يذكروا الا أن الصورة الذاتية القومية كانت صورة العنصر المتسلط الذى وفر القيادة القادرة على التعبير ، ولاحظوا أن هناك أفكارا أخرى « تشترك فيها العناصر غير المتسلطة » ، وهكذا فالمفهوم المصطنع عن « تحقيق الذات القومية » أريد به فقط دعم أيديولوجية البورجوازية الحاكمة واعطاء فكرة خاطئة عن المجموع العام للأهداف والامانى القومية ... ان المفهوم مصطنع وغير حقيقى الى الحد الذى يتحطم عنده بطبيعة الحال مصطلح « الصورة الذاتية » ... ولو أن المؤلفين تقبلوا ، كمقدمة منطقية النظام الطبقى للدول والنظام الطبقى للسياسة والثقافة كما صاغته وحققته الطبقة الحاكمة ، لكانوا فى مركز يجعلهم يستبعدون التناقض ويقدمون حلا علميا للمشكلة . ومن الطبيعى أنه من المستحيل أن نطلب اليهم أو نتوقع منهم مثل هذا المدخل الى المسألة ، ولذلك فالواضح أن ما ترتب عليه من تفاوت الافكار لا يمكن تسويته أيا كانت التعليقات على النص المقدم من المؤلفين .

ونفس وجهة النظر هذه يؤيدها أ.ا. بوفين الذى يعتبر أن مثل الناس العليا لايمكن أن تجد تعبيرا حقيقيا فى الحياة الا حيث تكون وراءها قوة اشتراكية فعالة . هذه القوة فى مجتمع طبقى تمثلها طبقات ، وبعبارة أخرى تمثلها مجموعات كبيرة من الناس لها نفس العلاقة الواحدة بوسائل الانتاج ، ان المثل الاعلى المتجسد فى شكل

وجوهر حكومة هو دائما مثل أعلى طبقى ، أى تحقيق مصالح ومتطلبات الطبقة المتفوقة من الناحية الاقتصادية .

ويرى أ.أ. بوفين أيضا ان المؤلفين اغفلوا حقائق تعطى مؤشرا على الأمانى الاساسية لشعوب العالم فى القرن العشرين :

(أ) ان أكثر من ألف مليون من الناس فى ثلاثة وعشرين بلدا وضعوا حدا لاستغلال الانسان للانسان ، ويقومون ببناء مجتمع لا طبقى ، وهذه الاهداف نفسها مصدر الوحى للحركة العمالية والشيوعية الموجودة فى جميع بلاد الحضارة الراسمالية .

(ب) لقد قضى ملايين الناس بصفة قاطعة على الاستعمار . ففى الفترة منذ الحرب العالمية الثانية وحدها ظهر الى الوجود نحو أربعين دولة مستقلة فى آسيا وافريقية.

(جـ) أصبحت حركة أنصار السلام عاملا على أكبر قدر من الأهمية على المسرح المعاصر ، وقوة سياسية نشيطة فى جميع قارات الكرة الأرضية .

(٢) يلفت المحررون المؤلفون نظر القارىء الى لغة النص الدقيقة بما فيها البيان التالى :

« ما من اتجاه واحد سرى فى جميع القطاعات والطبقات والمهن والعناصر السلالية والنظرات الشخصية ، حتى فى الدول التى يسودها أكبر قدر من المركزية أو الدول الدكتاتورية .. وفى كل حالة كانت الصورة الذاتية التى لوحظت هى صورة العنصر المتسلط الذى وفر القيادة القادرة على التعبير .. غير أنه يجب أن نتذكر ان .. الانقسامات والصراعات فى الرأى داخل الشعوب لم تكن أقل أهمية من الاختلافات بين الدول القومية .. ان العمال الذين نظر الى عملهم على أنه سلعة كانوا يسعون الى قوة المساومة والمكانة باعتبارهم بشرا .. » .

(٣) فى رأى الاستاذ أ.ن أندرسون أن المؤلفين ـ المحررين يمكن انتقادهم بسبب جعلهم الصورة الذاتية متماثلة مع الدولة القومية . انهم ينقلون الى بقية العالم مثلا أعلى هو فى جوهره غربى من حيث نشأته وقبوله قبولا عاما . غير أن هناك حتى فى أوربا ، أقليات تفتقر الى كل أمل فى تحقيق الاستقلال فى دولة قومية ومع ذلك تنظر الى نفسها باعتبارها مجموعات قومية . ان مصطلح « الامة » يكاد حتى الآن لا ينطبق على شعوب آسيا وافريقية ، حيث الروابط القومية لم تطمس أو تقتلع ألوان الولاء الطائفى ، والدينى ، والقبلى أو غيرها . وبالنسبة الى هذه القارات لا تتضمن الوحدة السياسية معنى الوحدة الثقافية ، وتكمن المشكلة الكبرى التى تواجه دول العالم الجديدة فى الحاجة الى تنمية ثقافية مشتركة تضمن الوجود المستقل المستمر للدولة السياسية ، أو على الاقل تجعل فى امكان شعب ما أن يقرر ما ينبغى أن يكون عليه شكل حياته السياسية ونطاقها . وعلى أساس الأدلة الراهنة لا يمكن الافتراض بأن شعوب هذه القارات سوف تحذو حذو أوربا ، وتتخذ فى كل مكان الدولة القومية كمعيار . فهناك بديلات مثلا فى الصروح الاتحادية مثل تلك التى فى سويسرا والولايات المتحدة على مالاحظ الاستاذ لين م. كيس Lynn M. Case فى تعقيب على النص الذى أورده المؤلفون ، وثمة أنواع كثيرة من الاتفاق بين الوحدات السياسية المستقلة فى ظل الامم المتحدة تهيىء آمالا فى تنوع الصور الذاتية تنوعا أكبر مما ابتدعه الغرب حتى الآن .

(٤) ويلاحظ الاستاذ راديم فوستكا أن المؤلفين يتجاهلون حقيقة أن الديموقراطية

الليبرالية اتخذت شكلها فى البلاد الرأسمالية التقدمية فى القرن التاسع عشر ، أى فى فترة الرأسمالية قبل عصرها الاحتكارى . ومنذ ذلك الحين تعرضت ، ولا تزال تتعرض لتغيرات جوهرية فى اتجاه تقييد الديموقراطية الليبرالية (البورجوازية) الكلاسيكية . ونلقى الامثلة التى تدل على أمثال هذه التغييرات ، فى التشريع الامريكى (قانون تافت ـ هارتلى ، قانون ماكاران ـ سمث الخ) . ويعتبر المؤلفون الايمان بالاساس المعقول الذى تقوم عليه الطبيعة البشرية على أنه عنصر فقط من عناصر الفكرة الديموقراطية عن الحياة (« للعمل بطريقة أكمل وأكثر معقولية وأكثر انسانية ») . وهذا يرتى الى الانكار السافر لحقيقة أن أيديولوجية الدول الاشتراكية ونشاطها العملى يقومان أيضا على أساس هذا المبدأ .

انظر أيضا الملاحظة ٤ بالفصل ٤ .

(٥) لقد ذكر موقف المؤلفين بوضوح فى الفصل الثالث ، وقد نظر الشيوعيون أيضا الى الانسان على أنه كائن عاقل ، يمكن ، فى المدى البعيد من الناحية النظرية الاطمئنان الى حكمه ورأيه ، واعتبروا الدولة منتج الفعل العاقل ، وليست ككيان خفى » .

(٦) يلاحظ ف . م . بورلازكى أحد دارسى العلوم الفقهية أن تأكيد المؤلفين بأن الشيوعيين عندما يصلون الى السلطة يرفضون الحقوق والحريات الديموقراطية تأكيد مناقض للحقائق . فالديموقراطية الاشتراكية ليست فقط لا ترفض المبادىء والاشكال التى وضعتها الانواع السابقة لها من الديموقراطية ، ولكنها تستفيد منها الى أكبر حد . فالعدل الاجتماعى والحرية ، مساواة المواطنين أمام القانون ، حرية الضمير : التصويت العام ، نظام التمثيل ـ كل هذه المثل تكتسب قيمة خاصة فى ظل الاشتراكية وترجح بمضمون حقيقى . وهكذا فمبدأ الديموقراطية القديم ـ حكومة ليست للشعب فحسب ، ولكن بواسطة الشعب ـ يكتسب مغزى جديدا فى اطار النظام الاشتراكى . فالدولة تجعل هدفها أن تضمن أنه فى التحليل الأخير ينبغى أن يكون كل فرد قادرا على الاشتراك فى ادارة الشئون العامة ، وليس بالمشاركة فحسب فى انتخاب النواب واعطائهم التعليمات والاستماع الى تقاريرهم ، ولكن بصورة مباشرة أيضا فى الحياة اليومية .

وثمة مظهر لهذا هو الدور الجديد المخصص للمنظمات الاختيارية (النقابات العمالية ، منظمات الشباب وما الى ذلك) ، ونقل وظائف الدولة اليها بالتدريج .

وتزداد أهمية دور المنظمات العامة هذا من حيث ان حجمها زاد زيادة هائلة بحيث انها بالنسبة الى كافة المقاصد والاغراض تشمل السكان كلهم .

ان مشاركة العمال المباشرة فى حل مشكلات الدولة تتحقق من بين أشياء أخرى ، بوسائل مبتكرة مثل المناقشة المبدئية للقوانين وللخطط المعدة للاقتصاد الوطنى . مثال ذلك أن ما يتراوح بين أربعين وخمسين مليونا أى أكثر من نصف البالغين فى الاتحاد السوفييتى ، قد اشتركوا فى أمثال هذه المشاورات عن التخطيط الاقتصادى . وللحصول على مزيد من التفاصيل عن هذه النقطة أنظر : Rastsvet Sotsiasticheskoy Democratii بقلم ف . م . بورلازكى فى mirovoi kultary, 1961, No. 5

(٧) يعترض الاستاذان أ . جاتييه E. Gathier ، ج ماسون G. Masson على الدور الهزيل المنسوب الى المسيحية عند مناقشة الصورة

الذاتية لاوربا الغربية . وهما يقرران ان مناقشة المؤلفين للديموقراطية الليبرالية تتجاهل حقيقة أن الفكرة التى تقول بأن « الانسان عاقل ومسئول وقادر على السيطرة على شئونه » هى أيضا « جزء جوهرى من الرسالة المسيحية ، والرسالة الكاثوليكية بصفة خاصة ، وكثيرا جدا ما أكدها البابوات ، ودافع عنها الكاثوليك الاشتراكيون وخاصة فى القرن الذى نعيش فيه » . وعموما يعتقد هذان العالمان « أن صورة العقيدة المسيحية وصورة الكنيسة الكاثوليكية التى تبرز لا تتفق مع الواقع وتسىء الى الحساسية المسيحية » . وهما يعتقدان أنه لا ينبغى ربط الصورة الذاتية لاوربا الغربية بالديموقراطية الليبرالية ، ولكن بالتقليد المسيحى الاقدم عهدا والذى لا تزال تحمله الكنيسة الكاثوليكية .

يمكن توضيح تعليقات جاتييه وماسون بأن نقتبس مثلا « الشيوعية الملحدة » التى أصدرها البابا بيوس الحادى عشر (١٩٣٧) ، ومنه نقرأ :

١٦ – لو فسرنا هذا القبول الاعمى للشيوعية من جانب مثل هذه الالوف من العمال ، فيجب أن نذكر أن الطريق كان ممهدا له نتيجة الحرمان الدينى والمعنوى الذى أصاب العمال من جراء الاقتصاد الليبرالى .

٢٩ – ان المجتمع للانسان وليس العكس . ويجب ألا يفهم هذا بمعنى الفردية ذات الطابع الليبرالى التى تخضع المجتمع للاستغلال الانانى للفرد ، ولكن فقط بمعنى أنه عن طريق اتحاد عضوى مع المجتمع وبالتعاون المتبادل ، يكون بلوغ السعادة على الأرض فى متناول الجميع . وبمعنى أوسع من هذا فان المجتمع هو الذى يوفر الفرص لتنمية جميع الهبات الفردية والاجتماعية التى أنعم بها على الطبيعة البشرية . ولهذه الهبات الطبيعية قيمة تفوق المصالح المباشرة الفورية اذ أنها تعكس فى المجتمع الكمال الالهى الذى لن يكون حقيقيا ، لو كان الانسان يعيش وحده . ولكن فى التحليل الاخير ، وحتى فى هذه الوظيفة الاخيرة ، فالمجتمع صنع من أجل الانسان ، حتى يدرك هذا الانعكاس لكمال الله ويشير اليه فى الثناء على الخالق وفى عبادته . ان الانسان فقط ، أى الشخص البشرى ، وليس المجتمع بأية صورة ، هو الذى وهب عقلا وارادة حرة من الناحية المعنوية .

تقترح المؤلفات التالية لمعرفة وجهة النظر الليبرالية :

John Dewey, Liberalism and Social Action (New York, 1935).

R.M. Mc Iver, Democracy and the Economic Challenge (New York, 1952).

J. Roland Pennock, Liberal Democracy : Its Merits and Prospects (New York), 1950.

Karl G. Poper, The Open Society and its Enemies (Princeton, 1950).

Massimo Salvadori, Liberal Democracy (New York), 1957.

(B. Davidson : Report on South Africa, London and Capetown, 1952).

A. Luthuli, Freedom in the Apex, Johannesburg, 1956.

W. Alphaeus Hunton, Decision in Africa, New York, 1957.

(٨) يلاحظ الاستاذ راديم فوستكا أن قسم «الشيوعية الماركسية ــ اللينينية» يعطى فكرة مشوهة تماما عن تطوير لينين لتعاليم ماركس ، وعن الاسباب التى دعت الى هذا . ان المؤلفين يعتبرون أن لينين قدم فكرة امكانية الثورة فى المناطق المتأخرة من الناحية الصناعية «فى ضوء الظروف القائمة فى مستهل القرن العشرين ، عندما كانت البلاد الرأسمالية الكبرى تنعم بكل من الانتاجية الآخذة فى الارتفاع وبالارباح من المناطق المستعمرة ، وكان العمال فى تلك البلاد ينظمون أنفسهم ، كى يشاركوا الى حد ما فى العائدات من هذه المصادر بدلا من قلب نظم الحكم فيها» . هذا التأكيد منفصل بصورة مطلقة عن الواقع . فان ابتداء عصر الامبريالية المتميز بتطور متفاوت للغاية للرأسمالية ــ فى نهاية القرن التاسع عشر ــ ، جعل من الواضح أنه فى ظل تلك الظروف، لايمكن أن تنتصر الثورة الاشتراكية فى نفس الوقت الواحد فى جميع البلاد الرأسمالية، فباضفاء الطابع الملموس على مفهوم ماركس وجعله يتلاءم مع الظروف التاريخية المتغيرة، استنتج لينين زعيم الماركسيين الروس أن الثورة الاشتراكية يمكن أن تنتصر فى بلد واحد، يؤخذ على حدة . فالامبريالية بتطورها المتفاوت الى درجة عالية واستغلالها للبلاد الأقل نموا على أيدى البلاد الاكثر نموا . أى استغلال المستعمرات على أيدى ماليكها ، جاءت معها بشكل من الاعتماد المتبادل بين البلاد المنتمية الى نظام الامبريالية العالمى الذى نجحت فيه بعض البلاد الرأسمالية فى التقليل من تناقضاتها على حساب غيرها ، ودعمت بصفة مؤقتة مراكزها فى العالم . ولذلك استخلص لينين أنه فى هذه الفترة الجديدة قد تزداد تناقضات الرأسمالية خطورة تماما فى البلاد الرأسمالية المتأخرة التى على حسابها خففت البلاد الاكثر منها نمو ــ وبصفة مؤقتة ــ أو بعبارة أدق «كبحت جماح»من صراعاتها الاقتصادية والسياسية. وهذا يعنى أن ثمة كل الاحتمالات فى الافتراض بأن ثورة يمكن ويجب أن تبدأ فى بلد رأسمالى أشد تأخرا من الناحية الاقتصادية ، والذى ألقى على عاتقه منافسوه الأوفر حظا جزء من عبء تناقضاتهم ، وحيث كان مركز الرأسمالية تبعا لذلك أقل صلابة . هذه الافكار وجدت لها أشد تطوير انتظاما . فى نظرية لينين فى الامبريالية ، وفى نظريته فى الثورة البروليتارية فى عصر الامبريالية ، وهى النظريات التى أيدها انتصار ثورة أكتوبر فى روسيا فى عام ١٩١٧ .

لقد بين ك . ماركس ، وف. انجلز فى تزويدهما البروليتاريا بأعظم فلسفة علمية منطقا وتماسكا ــ أن الطريقة الوحيدة للوصول الى حل لمشكلة البروليتاريا التاريخية، خلق مجتمع شيوعى ، ــ تكمن فى اقامة دكتاتورية للبروليتاريا وزاد لينين من تطوير تعاليمهما بصدد دكتاتورية البروليتاريا . فبعد أن درس تجربة نضال الطبقة الثورية فى الروسيا استنتج أن أفضل شكل لديكتاتورية البروليتاريا ليس جمهورية ديموقراطية برلمانية ، ولكنه جمهورية من المجالس (السوفييتيات) . واكتشف السلطة السوفيتية « على أنها شكل سلطة الدولة الذى تتخذه دكتاتورية البروليتاريا ، وعرف دكتاتورية البروليتاريا بأنها شكل خاص من التحالف الطبقى بين البروليتاريا والجماهير المستغلة (موضع الاستغلال) من الطبقات غير البروليتارية ، فى ظل التوجيه من جانب الطبقة العاملة ، وأكد بوجه خاص حقيقة أن دكتاتورية البروليتاريا ومبدأها الاسمى كانا تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين . وكانت معالجته لمسألة الفلاحين ، والتى هى فى الواقع مسألة حلفاء الطبقة العاملة فى نضالها من أجل السلطة وانشاء مجتمع اشتراكى ، قد بدأت بالفعل فى عشية ثورة ١٩٠٥ ــ ١٩٠٧ . وكان موقف قادة «الدولية الثانية» الانتهازيين وغيرهم من أعداء الماركسية الثورية ازاء هذه المسألة يتسم باللامبالاة،

وزعموا أن الفلاحين لايمكن أن يكونوا حلفاء فى نضال الطبقة العاملة من أجل السلطة ، وفى كفاح لينين ضد أعداء البلشفية كشف عن الامكانيات الثورية المحتملة للفلاحين ،وعن الامكانية والحاجة الى تحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين فى نضالهما من أجل السلطة وانتصار الاشتراكية . ومن ثم فنظرا لان موضوع الفلاحين جزء من موضوع دكتاتورية البروليتارية العام ، فانه لهذا يمثل بصورة حيوية بارزة واحدة من المشكلات الهامة الحيوية التى تتضمنها اللينينية .

ويختلف عرض لينين للمسألة القومية اختلافا جذريا عن الطريقة التى عرضت بها المشكلة من جانب أحزاب الدولية الثانية الذين نظروا اليها خارج اطارها ، ونصلوها عن المشكلة الكبرى الخاصة بالسلطة والثورة البروليتارية واعتبرها هو جزءا من المسألة العامة المتعلقة بالثورة البروليتارية ودكتاتورية البروليتاريا ، ولقد ربطت اللينينية فى أول الامر المسألة القومية بمسألة المستعمرات ، وبذا حولتها من مشكلة خاصة بين الدول الى مشكلة دولية عامة ، أى الى مشكلة عالمية تنطوى على تحرير الشعوب المهضومة الحقوق فى البلاد التابعة وفى المستعمرات ، من نير الامبريالية .

(٩) يرى العلماء السوفييت أن النظام الفاشى ليس أيديولوجية البورجوازية الصغيرة ، ولكنه دكتاتورية رجعية ارهابية بشكل سافر ، تمارسها البورجوازية العليا الامبريالية . وهدفها أن تخنق تماما وكلية مقاومة الطبقة العاملة ، وجميع القوى التقدمية داخل البلد .

(١٠) يعترض يو . ب . أورياس دارس العلوم الفقهية على المقارنة التى يعقدها المؤلفون بين جمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديموقراطية على أساس النضال ضد الايديولوجية النازية .ففى جمهورية ألمانيا الديموقراطية لا يمكن أن يعيش النازى السابق ويعمل الا اذا تخلى تماما عن الايديولوجية النازية : ليست هناك صفوف أو مجموعات اجتماعية تهتم بالايديولوجية النازية . والموقف مختلف تماما فى جمهورية ألمانيا الاتحادية ، حيث المشاعر النازية والانتقامية قوية نوعا ـ الأمر الذى اعترف به حتى بعض ممثلى الحكومة الرسميين .

(١١) يلاحظ المرشح للعلوم الاقتصادية أى . ب . باستريبونا أن القسم المخصص لجمهورية جنوب أفريقية يتجاهل الدور الذى يلعبه فى الحياة الوطنية والافريقيون الذين يشكلون ٦٧٪ من السكان . فعن طريق كدهم خلقت ثروة البلد كلها . ومن رأى محرر صحفى بريطانى قضى وقتا طويلا فى دراسة مشكلات البلد ، أنه «لولا البانتو لاصبحت مزارع ومصانع جنوب أفريقية خرابا فى خمس دقائق» :

B. Davidson: Report on South Africa, London and Capetown, 1952.

أن المؤلفين لايذكرون شيئا عن نضال التحرير من جانب غير الاوربيين ، وخاصة الشعوب الافريقية .. انظر فى هذا الصدد

A. Luthuli, Freedom in the Apex, Johannesburg, 1956.
W. Alphaeus Hunton, Decision in Africa, New York, 1957.

وغير ذلك من المؤلفات .

والملاحظة التى يبديها المؤلفون فى بداية القسم ، والتى تنصح بالرجوع الى القومية الآخذة فى الظهور : « أفريقية » .. لا تهدم النقد الذى قدمناه منذ قليل ، وبالأخص

نظرا لانه ليس ثمة ذكر لنضال الافريقيين من اجل التحرير فى جمهورية جنوب إفريقية .

(١٢) يؤكد أ.ب. ياستريبوفا أن سياسة التفرقة العنصرية ليست شيئا جديدا بالكلية أو متميزا فى طبيعته عن السياسة التى طبقت على سكان البلد الاصليين فى كل من المستعمرتين السابقتين فى جنوب أفريقية (مستعمرة الرأس وناتال) وفى جمهوريتى البوير السابقتين (ترنسفال ودولة أورنج الحرة) التى آدمجت كمقاطعات فى اتحاد جنوب أفريقية فى عام ١٩١٠ . كذلك لاتختلف كثيرا عن السياسة التى اتبعتها حكومات جنوب أفريقية خلال وجودها بغض النظر عن الولاء الحزبى . فجميع أحزاب اتحاد (جمهورية فيما بعد) جنوب أفريقية وأيا كانت برامجها ، تكون جبهة متحدة فيما يتعلق بسياستها ازاء السكان غير الاوروبيين . نذكر على سبيل المثال مايلاحظه و.ك. هانكوك : «برغم أن السياسة ازاء الوطنيين هى المسألة السياسية الاساسية فى الاتحاد (أو ربما لانها كذلك) فهى لم تحدد الانقسامات الحزبية فى البرلمان والدوائر الانتخابية . فزعماء جميع الاحزاب بما فيها حزب العمال ، أعلنوا ولاءهم لمبادىء التفرقة العنصرية .

W.K. Hancock, Survey of British Commonwealth Affairs ; London, 1942, vol. II, Part II, pp. 12-13.

(١٣) يلفت أ . ب . ياستريبوفا النظر بوجه خاص الى حقيقة أنه فى اللحظة التى وصل فيها الاوربيون الى جنوب افريقية ، لم يكن البلد فضاء خاليا غير مسكون . وحتى الرحالة البرتغاليون الأول ومن بعدهم الهولنديون ، وجدوا هنا عددا كبيرا من السكان الافريقيين . كان أقدم سكان هذه المنطقة من البوشمن والهوتنتوت ثم قبائل البانتو بعد ذلك . وكان زحف البوير والانجليز شمالا مصحوبا بقتال وحشى مع الشعوب الافريقية ، لا من أجل « أرض خلاء » ولكن من أجل أرض يملكها الافريقيون . ولم تكن « المعازل الوطنية » نتيجة لعملية استيطان طبيعى من جانب القبائل الافريقية . لقد تحولت الى مستودعات طبيعية للقوة البشرية الرخيصة التى حصل منها الاوربيون على حاجتهم من العمال ، والتى يرسلون الاخيرين اليها عندما لا يعود عملهم مطلوبا ، ومن ثم أخضعت حياة الافريقيين كلها لقيود وتنظيمات لا عدد لها .

(١٤) يؤكد أ . ب . ياستريبوفا أن عملية القضاء على القبلية ليست نتيجة النشاط التعليمى الحسن النية من جانب مجموعات معينة من الاوربيين ، ولكنها النتيجة الموضوعية المترتبة على التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التى وقعت فى المجتمع الافريقى (نمو سكان الحضر ، عملية التمييز فى القرية الافريقية الخ) . انظر أيضا :

L.D. Yablochkov, On detribalization in South Africa of the Sahara in *Vestnik istorii mirovei kultury,* No. 3 (21), 1960.

(١٥) يعتبر أ . ب . باستريبوفا أنه من أكبر الخطأ أن توصف « التفرقة العنصرية » بأنها « وسيلة انفصل بها الافريكانز وعرفوا أنفسهم كشعب وسعوا الى حماية هويتهم وبقائهم » . ان الوطنيين الافريقيين الجنوبيين فى الجمهورية يعبرون عن مصالح الطبقات التى تمسك فى أيديها بأدوات القيادة فى حياة البلد الاقتصادية

والأساسية . فالتفرقة العنصرية موجهة فى المكان الاول ضد الافريقى من أبنـــاء البلد أى ضد ذلك الجزء من السكان ، المستغل والمحروم من حقوقه .

(١٦) يشير الاستاذ رزيق Kurayk الى أنه لا يلاحظ فى أى موضـــع من هـــذا القسم « الدول ذات النشـــأة أو النظرة الدينية » كيف يتعارض هذا الانشـــاء لدول على أساس دينى مع الافكار والاتجاهات الحديثة . فبرغم أن هـــذا الفصـــل يقصد وصف « الصورة الذاتية والامانى » للشـــعوب ـــ دون نظر الى ســـلامتها أو صحتها ـــ فهل يصـــح فى كتـــاب موضـــوعه القرن العشرون عدم ابداء رأى فى ظـــاهرة لاتتفق كثيرا مع اتجاهات هذا القرن الاساسية ؟ » .

(١٧) يبين ف . ب . لوزكى V.B. Louzky دارس العلوم التاريخية ، فى مؤلفاته أن أمنية اليهود فى انشاء دولتهم القومية ، استغلتها الدول الكبـــرى لما فيـــه خدمة مصالحها هى . وهكذا أيدت بريطانيا العظمى منذ اللحظة التى صـــدر فيهـــا تصريح بلفـــور (٢ نوفمبر ١٩١٧) الحـــركة الصـــهيونية حتى تضعف الحركة القومية العربية فى فلسطين التى حولت الى انتداب بريطانى فى عام ١٩١٨ .

(١٨) يلاحظ ل.ر. جـوردون ـــ بولونســكايا L.R. Gordon-Polonskaya دارس العلوم التاريخية ، أنه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر عانى المســـلمون فى الحقيقة من التدابير الفردية التى اتخذتها السلطات البريطانية فى الهند أكثـــر مما عاناه الهندوس . ومهما يكن من شىء فانه بعد تمرد ١٨٥٧ ـــ ١٨٥٩ الذى شن فيه الهندوس والمسلمون نضالا مشتركا لتحرير الهند ، بدأت السلطات الاستعمارية البريطانية ، وخاصة فى سبعينات القرن التاسع عشر ، توجه اهتمامها الرئيسى لجعل ما يقـــال له البعث الاســـلامى يقف ضـــد البعث الهندوكى ، وعلى تقوية الجـــالية الاســـلامية فى محاولة لتوجيه نشاطها الى مقاومة السيطرة الهندوكية التى كانت تزعم أنهـــا تهددها .

وفى هذا الصدد تعلق اهمية خاصة على كتاب نشره فى عام ١٨٧١ الســـير وليم هنتر الذى كان فى آن واحد موظفا رئيسيا فى الخدمة الاستعمارية البريطانية ومؤرخـــا (W.W. Hunter, On Indian (Musulmans, London, 1871) وفيه حلل سير التفاعلات البريطانية والاسلامية فى الهند ، واستنتج أنه كان من الضرورى بناء سند للسلطة الاستعمارية البريطانية فى داخل قيادة الجالية الاسلامية . ونفس الافـــكار عبر عنها موظف رئيسى آخر فى الهند خـــلال عهد الاستعمار ، وهـــو و. س. بلنت W.S. Blunt Ideas about India, London, 1885 . وفى عـــام ١٨٨٥ اتخذت السلطات الاستعمارية قرارا بمد نطـــاق اشتراك المسلمين فى الادارة الاستعمارية وفى الثمانينات حرض البريطانيون على سلسلة من مصادمات بين الهنـــدوس والمســـلمين فى جميع انحاء البلد ، بلغت الذروة فى ١٨٩٣ فى المذابح الهندوكية والاســـلامية الواسعة النطاق التى ذهبت ضـــحيتها أرواح كثيرة . ومن ذلك الوقت فصـــاعدا أصبحت اثارة المنازعات بين الهندوس والمسلمين عنصرا منتظما فى ترسانة السياسة البريطانية القائمـــة على قاعدة « فرق تسد » .

(١٩) يؤكد أى . ب . ياســـتربوفا ، دارس العلوم الفقهيـــة ، ان السبب الرئيسى وراء التغييرات الســـياسية فى افريقية بعد الحرب العالمية الثـــانية ، هو نمـــو الحملة الجماهيرية من جانب الشـــعوب الافريقية من أجـــل الاستقلال . وكان هـــذا

النضــال ، وليس موقف الاستعمــاريين العــام ـ هو حمــل الدول الاستعمارية اجراء التنازلات لحركات التحرير .» ففيما بين عامى ١٩٤٥ ، ١٩٥٩ عكست سلسلة من الاحداث المحلية فى جميع أنحاء افريقية الاضطراب من أجل الاستقلال ، كانت هنــاك اضرابات ومظاهرات وحركات احتجاج فى الكنغو البلجيكى ، نيجيريا ، مدغشــقر ، ساحل الذهب ، أوغندا ، جنوب افريقية ، نياسالاند ، روديسيا الشمالية الخ . قمعتها السلطات . وفى روديسيا الجنوبيــة حدث اضراب قام به العمــال الافريقيون المستخدمون فى بناء سد كاريبا . انظر أيضا :

Kwame Nkrumah, Autobiography (Edinburgh, 1957) ; Sekou Touré, L'action politique du parti démocratique de Guinee pour l'émancipation et l'unité africaine dans l'indépendance (Conakry), 1959.

وغير ذلك من المؤلفات .

الفصل العاشر

بواعث التكامل الثقافى والاعتراف بمختلف الثقافات

ان الصور الذاتية التى رسمتها الشعوب ، كل لنفسه ، والأمانى التى ساورتها ، لم تغلف فى أشكال سياسية فحسب ، ولكنها كانت تغلف أيضا فى مصطلحات عن أهداف للتطوير الثقافى ، عبرت عنها بصورة تفاوت وضوحها (١) ٠

(أ) بعث الثقافات القديمة

خلال القرن العشرين أعادت شعوب آسيا والشرق الأوسط تأكيد تقاليد ثقافاتها القديمة ، وربطتها بطريقة أو أخرى ، التيارات الثقافية فى العصر الحديث ٠ وتراوحت العملية من مجرد التعلق بالتقاليد الى حد الثورة ، وانطوت على كل من بعث الأرثوذكسية (العقيدة الصحيحة) واصلاح الدين ، وجاءت باحساس بالتاريخ ونهضة فى الفنون ٠ وأيا كان الشكل ، فانه كانت هناك يقظة من جديد وحيوية جديدة فى التعبير الثقافى بين جميع هذه الشعوب (٢) ٠

١ ــ الهند :

ان الصورة التى رسمتها الهند لنفسها ، وهى تناضل فى سبيل القومية والاستقلال ، تطورت خلال قرن من التفاعل مع الغرب ٠ وكانت

تتكون من اعادة لكشف ماض قومى عظيم ، واحســـاس بالوحدة حديث الصياغة ، وروح دينية مجددة ، وادخال الأفكار والنظم الليبرالية الغربية، والتزام بالاصلاح الاجتماعى • فمن بين الشعوب التى أخضعت للاستعمار الغربى ، كان الهنود وحدهم معرضين للفـــكر الليبرالى الغربى ، بأعداد وفيرة ، وعلى مدى فترة زمنية كانت كافية لتجعلهم يعتنقونه ويطبقونه على تقاليدهم ويدمجونه مع العناصر الاخرى فى فكرتهم عن الحياة• وبالاضافة الى هذا ، دعم النضال الطويل النشيط من أجل الاستقلال بزعامة مهاتما غاندى – كل هذه الاهداف والأساليب معا ، وأضفى على التجربة الهندية طابعا فريدا •

وكان الافتقار الى تقليد تاريخى هندى قـد حال لوقت طويل دون ظهور صورة للذات تمجد انجازات الشعب الهندى السياسية الماضية • ولكن احياء الدراسات السنسكريتية فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، والاعتراف بالانجاز الثقافى الهندى ساعد على خلق صورة عصر ذهبى ، كان العقل الهندوكى قد حقق خلاله تفوقا على بقية العالم • وكان «التفوق الهندوكى» هو الموضوع الرئيسى الذى يعـالجه كثيرون من الكتاب الذين أكدوا الصفات الروحية للحياة الهندية ، ومجدوا فلاسفتها وآدابها وفنها الكلاسيكى • ولكن ضعف الحياة الهندية الجارى واخضاع الهند السياسى أكدا بعد هذه النظرة عن الواقع (٣) •

وكانت النتيجة حركة كبيرة من أجل الاستقلال الوطنى ، والاصلاح الهندوكى ، والاصلاح الاجتماعى واحياء الحياة الثقافية التى سعت الى أن تجعل حقائق الحياة الهندية تتمشى بصورة أقرب مع صورة عظمتها • وما أن حل الربع الثانى من القرن العشرين حتى زال القلق والغموض ، ورأت الهند نفسها بوضوح كدولة حديثـــة ترتكز على تقليد غنى حيوى من الماضى •

وكانت اعادة اكتشاف الثقافة الهندية وتأكيدها واندماجها الفعال فى الأفكار المستمدة من الغرب – ثمرة التفاعل خلال القرن التاسع عشر بين الدراسة فى أوربا والادارة البريطـــانية وعمـل العلمـــاء الهنود . والشخصيات الدينية والزعماء العمليين •

وعندما استقرت السلطة البريطانية فى البنغـــال فى بداية القرن التـــاسع عشر ، تحرر المجتمع الهندوكى من سلطان الاسلام الذى تسلط عليها طيلة خمسمائة عام ، ولكنه وجد نفسه يواجه تحديا أساسيا من الحضارة والثقافة الانجليزيتين • كان الأثر الأول لذلك هو الدهشة فى وجه عالم جديد من الافكار ، وأشكال الفن والادب ، والطرق الجديدة فى

التفكير ، والمذاهب السياسية والاجتماعية الكبرى • وانتهى الأمر بشباب البنغال ـ الذين طغت عليهم الحضارة الاوربية وناشدتهم الرسائل التى أصدرتها الارساليات الدينية ، والتى كانت تزدرى الديانة الهندوكية ، الى الشك فى نفس الأسس التى قامت عليها حياتهم الاجتماعية والدينية•

وجاءت الاستجابة الايجابية لهذا الموقف على شكل حركات متتابعة من أجل اصـــلاح الهندوكية* • وهذه اتبعت مسالك عدة : من ذلك أن برامو ساماج Bramo Samaj أضفى طابعا هنديا على بعض عناصر من الدين المســيحى ومن فكر الغرب واتجـــاهه ؛ وأعاد راما كريشنا تأكيد الطبيعة الروحية الجوهرية للهندوكية ؛ وبينما أصر آريا ساماج على نقاء الهندوكية البدائية تقبل أسلحة وأساليب خصومها ـ الكتاب المقـدس ، وتنظيم الكنيسة، والتحول الفردى الى المسيحية ؛ وأضفت اللغة الانجليزية وحدة على حركة الاحيـــاء • وبنهاية القرن التـــاسع عشر اختفى تماما الاحساس بالنقص أو بانحطاط الشأن ، ذلك الاحساس الذى عانى منه الهندوس، فى مســتهل القرن • ففى الفترة التالية لم تتطور الهندوكية بايمان دبت فيه الحياة من جديد فحسب ، ولكنها تطورت كذلك باحساس بأن جميع المشكلات التى يثيرها المجتمع يمكن فضها فى داخل اطارها ، وكانت نظرة هندوكية هى مبعث الوحى للانتفاضة القومية التى تعرضت لها الهند فى القرن العشرين •

وفى صفوف المسلمين الهنـــود ، بعثت حركة مشابهة تدور حول جامعة عليكره الاسلامية حيوية جديدة ، ونظرة حديثة ، وبرغم أن الفكرة الاسلامية الغالبة أصبحت بمرور الوقت انفصالية ، وأدت فى النهاية الى التقسيم وخلق باكستان ، الا أنهـــا لعبت دورا خلال معظم الفترة ، فى تجديد الفكرة الهندية وصبغها بالروح العصرية ، وأسهمت بشـــكل مباشر فى الحركة القومية •

وخـــلال القرن التاســـع عشر راح الشـــعب الهندى يدرك أنه يملك تقليدا مشتركا وتاريخا مشتركا وتصورا مشتركا للحياة • وكانت وحدة الشعب الهندى ظاهرة لمدى طويل ، وانعكست فى المصطلحات المشتركة التى استخدمها الصينيون والفرس وغيرهم من الجيران بالنسبة الى جميع الهنود ، بغض النظر عن التقسيمات السياسية التى جاءوا منها ، ولكن لم يكن ثمة وجـــود لفـــكرة وحدة الهند كأمة • وكانت جميـــع المؤلفات

(*) انظر الفصل ٢٥ ، الدين ، ص ٨٨٥ ـ ٨٩٠ •

التاريخية قبل عام ١٨٠٠ فى شكل حوليات محلية ، أو أسفار دونها كتاب الحوليات المسلمون من وجهة نظر الأسرات الحاكمة ، وهم الرواة الذين كان التاريخ الهندى فى نظرهم يبدأ بالغزوات الاسلامية ٠

وخلقت سلسلة من الكشوف احساسا بالتاريخ الهندى ، بدأ بأن شبه العلماء الاوربيون فى نهاية القرن الثامن عشر الساندرو كوتس Sandro Cottus التى كتبها المؤرخون الاغريق بكتابات شاندرا جوبتا موريا ، الذى أسس أول امبراطورية هندية بعد أن غزا الاسكندر الأكبر البنجاب الشمالية الغربية ٠ وهذا هيأ نقطة مركزية لتأريخ الأحداث الأخرى ٠ وكانت الخطوة التالية فك رموز نقوش آسوكا Asuka فى عام ١٨٣٧ ، التى كشفت عن ملك عظيم حكم الجزء الأكبر من الهند سنوات كثيرة ، وكانت منشوراته تكشف عن حضارة عظيمة ، وادارة ذات كفاية ، وشكل من الحكم متقدم بكثير عن الشكل الذى كان قائما فى معظم البلاد ٠

وأوضح اكتشاف حكم مثل هذا الملك الذى أرسل البعوث الى ملوك آخرين أمكن التعرف عليهم ـ أنه كان هناك حقا تاريخ هندى ؛ وهيأ ما حدث بعد ذلك من نشر الكثير من الوثائق والنقوش ، أساسا للنظر بالتفصيل الى حياة الهند عبر العصور ٠ وكان من نتائج هذه الكشوف اعادة البوذية الى التقليد الهندى الذى كانت قد زالت منه عمليا بحلول القرن التاسع عشر ، كما زالت أيضا ذكرى شخصيات من أمثال آسوكا ٠ وكان الأثر الناجم من جميع هذه الدراسات اعطاء الهنود جميعا احساسا باستمرار تاريخهم ، وبتقليد غير منقطع و « بهندية » حياتهم ٠

وفضلا عن هذا فان الاكتشاف بأن الهند سبق أن بدلت حياة البلاد المجاورة ، جاء بمثابة الهام تقريبا ٠ فالوثائق التى ألقت ضوءا على «الهند الكبرى» ـ فونان ، تشامبا ، سيام ، اندونيسيا ، وآسيا الوسطى ـ أظهرت أن الهنود من جميع الأقاليم الكبرى بالبلد لعبوا دورا له شأنه فى توسيع نطاق الحضارة وخلق ثقافات وطنية ٠ وأخرجت الكشوف الأثرية فى أفغانستان وآسيا الوسطى ، الى النور حضارة وديناميه عظيمتين ، حيث لم تستخدم السنسكريتية للأغراض العلمية والثقافية فحسب ، ولكن فى شكل مبسط للمراسلات الشخصية كذلك ٠ ان الوعى بأن التأثير الهندى سبق أن امتد الى بلاد كثيرة ، وأن الهند كانت تمثل ، ان صح القول ، حضارة أصلية ، خلق فى الهنود فخرا كبيرا واحساسا بأهميتهم فى العالم ٠

كذلك أسهمت الدراسة فى أوربا فى خلق الاحساس بالجنسية الهندية عن طريق دراسة السنسكريتية • وكانت الدراسات السنسكريتية موجودة دائما فى الهند ، ولكنها مقصورة على طبقة صغيرة ، وحتى فى هذه الطبقة كانت ثمة كتب معينة تعتبر سرية ولا يمكن أن تصل اليها سوى طوائف Castes معينة • وكانت ترجمة الكتب المقدسة Vedas وهى الأوبانيشاد upanishad ، الباجاناداجيتا Bhagavad Gita, وغيرها من نصوص الفكر الهندوكى الاساسية الاخرى الى اللغات الاوربية، والدراسات التى أجريت عنها فى الجامعات الغربية ـ هى التى سمحت للطبقات الوسطى الهندية من جميع الطوائف بدراسة النصوص المقدسة • وكان هذا المد لنطاق التقاليد الثقافية التى كان محتفظا بها قبلا لمجموعات صغيرة ، هو الذى سمح للهنود بأن يكون لديهم الاحساس المشترك بانهم ورثة الثقافة الهندية •

وحدث التطور نفسه بالنسبة الى الفن الهندى • فحتى نهاية القرن التاسع عشر كان اتجاه الهنود المتعلمين يسيطر عليه ما عرفوه من الفن الاوربى • وبقى أمام الاوربيين أن يكتشفوا كهوف أجانتا Ajanta وغيرها من الكنوز الاخرى فى الغابات ، وأن يضفوا ـ بمساعدة العالم الأنجلو ـ تاميل ، آناندا كوماراساوامى ـ تقديرا جديدا للفن الهندى فى أوائل القرن العشرين •

وعندما أصبح الهنود يهتمون بتقليدهم الفنى اكتشفوا أن هناك وحدة للفن الهندى فى جميع أرجاء البلد ، وأن هذه انتشرت الى بلاد أخرى • ففى كشوف الألف بوذا فى تان هوانج فى قلب صحراء جوبى ، اكتشفت نقوش كانت متأثرة بشكل واضح بالفكر الهندى والنماذج الهندية ، وهو ما كان صحيحا فى آسيا الوسطى وأندونيسيا وكمبوديا وسيام • ولم تكن وحدة الفن الهندى اللافتة للنظر مقصورة على فترة معينة ؛ ففى جميع الحقب ظلت الأفكار الهندية على ما هى عليه ، تظهر من جديد أن فى الروح الهندية وحدة لا يمكن انكارها •

وهكذا ، وخلال أكثر من قرن ، فى هذه الهند التى كانت مقسمة من قبل الى ممالك كثيرة ، ولكن لم تكن بها سوى حضارة واحدة ، نما الشعور بأن جميع الهنود ينتمون الى أسرة واحدة ، ويمثلون تقليدا واحدا، وأن لديهم نفس التراث الفنى والأدبى ، وانهم برغم الصراعات الماضية يشكلون أمة واحدة •

وكان لنظام التعليم الذى أدخله توماس بابنجتون ماكولى فى عام

١٨٣٥ تأثير عميق فى ادماج الفكر الليبرالى الغربى فى الصورة الذاتية الهندية • وقبل ذلك التاريخ كان للهند نظام للتعليم ، أخرج علماء ومفكرين فى جميع الفترات • وفى البداية فكرت شركة الهند الشرقية فى تقديم الاعانات للمؤسسات الهندية القائمة ، واقامة غيرها وفقا لنفس الخطة ، ولكن هذا لقى المعارضة من جانب أشد هنود الفترة تقدمية ، من أمثال رام موهان روى (٤) •

كان ماكولى الذى جاء الى الهند كوزير للعدل ، يصر على أن يكون التعليم بالانجليزية ، وفى موضوعات يهتم بها الأوربيون • وتنبأ بحلول وقت سوف يتخلى فيه الهنود عن طرائقهم فى التفكير ويتقبلون ما اعتبره أعلى صورة للحياة ، أى ثقافة بريطانيا وحضارتها فى القرن التاسع عشر • وبرغم ان رام موهان روى لم يرد أن يحول الهنود الى انجليز ، فانه كان يرغب أيضا فى أن يكتسبوا طريقة حديثة فى معالجة المشكلات الاجتماعية والدينية ، وأن ينمو فيهم روح النقد ، مع تقدير للأفكار الجديدة السائدة آنذاك فى أوربا •

كانت المواد التى تدرس فى الكليات الهندية هى تاريخ انجلترا وأوربا وعلم السياسة والاقتصاد • وبعد ذلك جاء تدريس العلوم الطبيعية • ومهما قيل خلاف هذا بشأن هذه المواد ؛ فثمة حقيقة كانت ذات أهمية جوهرية : تلك هى أن اللغة الانجليزية كانت لغة الحرية والاستقلال • فمن ميلتون الى نهاية القرن التاسع عشر كان الشعراء العظام والمفكرون السياسيون والاجتماعيون يصرون جميعا على حرية الفكر والتعبير وحق الانسان فى الحرية ، وكانت لدراسة هذه النصوص عواقب لم يدركها البريطانيون فى اعتقادهم بدوام حكمهم •

كان هذا النظام مطبقا فى جميع أرجاء البلد لأكثر من قرن ، ولعب دورا أساسيا فى خلق حياة البلد الجديدة • وجاء بدينامية جديدة الى الفكر الهندى ، وبطريقة جديدة فى معالجة المشكلات من جميع الأنواع ؛ اذ بدأ الهنود يشكون فى صحة أنظمتهم على ضوء المبادىء والمذاهب التى درسوها فى المدارس والكليات • وأخرج فى الهند كلها طبقة متوسطة متعلمة ، لها نفس النظرة ، وتتكلم نفس اللغة ، وتفكر بطريقة متشابهة، وكونت العنصر الرئيسى فى الادارة والسياسة والصحافة والتعليم •

وثمة نتيجة كبيرة ثانية ترتبت على التعليم الجديد ، تلك هى التعبير عن نظرة انسانية جديدة فى اللغات الهندية • فبينما التدريس فى المستوى الجامعى مقصور على اللغة الانجليزية وحدها ، كان الكثير منه فى المدارس

الثانوية باللغات الهندية المختلفة ؛ وبذلك أصبح من الضرورى وضع كتب بكل من هذه اللغات ، تنقل الأفكار الجديدة • وحولت اللغـات الهندية التى كانت لها آنذاك تقاليدها الأدبية الغنية ، الى لغـات حديثة فعالة ، وراحت تعـكس ما كانت تتعرض له الهند الحـديثة من مشاعر وأفكار ومذاهب وعواطف • وفى ظـل تأثير تعليم مشـترك وتجربة جديدة ؛ استخدمت اللغات للتعبير عن نفس الأنواع من الفـكر ، واتخذت نفس الاشكال ، وخلقت حتى فى اختلافاتها ـ وحدة من التعبير الهندى •

وبابتداء القرن العشرين كانت ثمة نهضـة فى الأدب الهندى تسير قدما • وكان ثمة كتاب جدد آخذين فى الظهـور ، ممن تشبعوا تماما بالتقاليد والثقافة الاوربية ، ولكنهم اتجهوا أكثر فأكثر نحو عبقرية لغاتهم وتقاليدهم الثقافية • هذا التأليف كانت ترمز اليه شخصية رابندرانات تاغور العظيمة • فحتى الحرب العالمية الاولى كان الالهـام يأتى أصلا من أوربا الغربية ، ولكن بعد ثورة أكتوبر نشأ اهتـمام قوى ومتزايد بأدب الشيوعيين ومذاهبهم وأفكارهم الاجتماعية ، وكانت هذه المؤثرات الاضافية موضع الاحساس بها فى الادب ، وفى الفكر الانسانى النزعة • ولم تكن النزعة الانسانية الهندية بالقرن العشرين غريبة كلية ، ولاهندية بالصورة التقليدية ، ولكنها كانت نتاج الاثنتين معا •

ومن النتائج الجوهرية التى أسفرت عنهـا روح النقد التى جاء بها التعليم الجديد ، فصل ما هو دينى عما هو اجتماعى • فلأول مرة أدرك الناس أن الطائفية لم تكن نظاما دينيا ، وأن نظام المنبوذين لم يكن جزءا لا يتجزأ من الهندوكية ـ وأن جميع كبار الهنـدوس من بوذا الى مهاتما غاندى ، استنكروه فى الحقيقة • وكان فصل الجانب الاجتماعى البحث عن الجانب الدينى الحقيقى يمثل واحدا من أكثر التغييرات الأساسية التى جىء بها الى الهند ، والذى جعل فى الامكان وضع التشريعات عن جميع المسائل الاجتماعية : الزواج ، الميراث ، الطائفة ـ نظرا لأن هذه الأنظمة كانت قد فقدت حرمتها الدينية (٥) •

وفى نفس الوقت الذى أدخل فيه اللورد ماكولى نظاما حديثا للتعليم، أدخل قانون عقوبات يطبـق على الهند ، وتتجسد فيه مبـادىء الفقه البريطانى الأساسية ، بما فيها المبادىء التى تنص على أن الناس جميعا متساوون أمام القـانون ، وأنه ما من أحد يكون مذنبا الا بعد أن تعتبره كذلك محكمة مختصة ، وأن تكون الاجراءات علنية • وكان القانون الهندي لا يسلم أبدا بمبدأ المساواة ، سواء فى القانون الهندى ، حيث العقوبات

المختلفة تطبق على طوائف مختلفة ، أو القانون الاسلامى ، حيث شــــهادة الكافر لا تقبل أمام شهادة المؤمن ، وحيث كان مبدأ التفاوت فى الحقيقة جزءا من بنيـــان المجتمع الهنـــدى • والآن كان من أثر التطور الذى بدأ بادخال تشريع القانون أن ثبتت جذور مبدأ المســاواة بطريقة دائمة فى الروح الهندية • أما أن جميع الناس كانوا طيلة مايزيد على القرنمتساوين أمام القانون ، فتلك حقيقة سمحت للجمعية التأسيسية بالهند المستقلة أن تحرم « النبذ » ، وللبرلمان أن يجعل ممارسته جريمة •

وكانت الصورة الذاتية الهندية فى القرن العشرين مشربة بروح القومية التى كانت قد تطورت أيضـا خـــلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وتضمنت أهدافا سياسية فى أول الأمر ، ثم أهدافا اجتماعية، وأخيرا اقتصـــادية •

كانت انتفاضة ١٨٥٧ احتجاجا فقط على الحكم الاجنبى ، واقتصرت أفكار الأمراء الثائرين السياسية على اعادة النظم القديمة واعادة الفوضى السياسية الممثلة فى امارات لاعد لها فى ظـل امبراطور كان ألعوبة فى أيديها • وعلى نقيض ذلك ، فان المؤتمر الوطنى الهندى الذى أنشىء فى عام ١٨٨٥ ، أسسته مجموعة من رجال تعلموا وفق الأساليب الغربية ، وكانوا يتكلمون لغة التاريخ والسياسة الحــديثتين • كان هؤلاء أعضاء طبقة جديدة يســتشهدون بخطب مازينى ، ويقيمون حججهم على منطق بيرك Burke ويستمدون وحيهم من اعلان حقوق الانســان • ولم تكن الحركة الوطنية رابطة تضم المحرومين ، بل كان يوجهها محامون وصحفيون وأطباء ورجال صناعة كانوا ثمرة الاتصال بين الشرق والغرب •

لم يتصور قادة المؤتمر الأولون « هندا » حرة مستقلة ؛ اذ كانوا يظنون أن الحكم البريطانى المستمر أساسى للهند كى تتقدم • ورأوا أن التفـــكير على أسس أخرى ينطوى على صعاب أكثر ممـا ينبغى ، وقنعوا بمحاولة احداث تغييرات تمكنهم من المشاركة فى الحكم • ولكن بنهاية القرن تدخلت أفكار جديدة ، وراح جيل جديد يعتقد أنه ليس فى امكان بلد أن يتقدم بغير الاستقلال ، وأن النضال فى سبيل الاستقلال هو من الواجبات الاولى لأى شعب •

وفى مطلع القرن قدم بال جانجادهار تيلاك الى الحركة القومية مذهبا من الفعالية السياسية • كان يعتقد أن الامة ينبغى أن تستمد قوتها من تاريخها وتقاليدها ، وألا تسمح للفلسفة الحديثة والفكر الأجنبى أن ينحرفا بها • وكان يبرر دعوته الى العمل المباشر بتفسيره Bhagavad Gita

والذى فى ضوئه يمكن اعتبار الثورة شيئا صحيحا بقوة الدين نفسه ٠ ولكن برغم أن تيلاك بدأ يزود الحركة الوطنية بقاعدة جماهيرية بأن ربط بينها وبين الديانة التقليدية ، فانها لم تصبح حركة جماهيرية تماما الا بعد أن تولى مهاتما غاندى القيادة ٠

كان غاندى يعتقد ويعلن أن الحرية السياسية لا يمكن فصلها عن التحرير الاجتماعى(٦) ، وأصر على أنه ينبغى أن تقوم الهند بثورة اجتماعية قبل أن تبلغ الاستقلال السياسى ، واعتقد أن الحركة القومية الجديدة يجب أن ترتكز على الشعب كله لا على طبقة متعلمة فحسب ، وربط نفسه بالقطاع الفعال من المسلمين الذى تمثله حركة الخلافة ، ويمثله قادة من أمثال مولانا أبو الكلام أزاد ، وجعل الوحدة بين الهندوس والمسلمين شرطا من شروط التنمية القومية ، وأصر على العمل باعتباره طريق الخلاص ، وتشبث بمبدئه الأساسى ، وهو أن العمل السياسى ينبغى أن يتجنب كل عنف ، بل وكل عداء ازاء من كانت الهند تناضل ضدهم ٠

وأدخل غاندى فى الحركة الوطنية القومية الرأى بأن الانجاز الوطنى لا ينطوى على الاستقلال السياسى فحسب ، ولكنه ينطوى أيضا على تغييرات أساسية فى المجتمع نفسه ـ الغاء نظام المنبوذين ، تعديل الطوائف ، ومد نطاق الحقوق الى النساء ، دولة علمانية ٠ وأدمج هذه العناصر جميعا فى النضال الوطنى ، وراح يحث بقوة على مشاركة النساء فى حركة عدم التعاون التى دعا اليها ، وأجبر أتباعه على ممارسة الغزل بوصفه من مؤهلات العمل السياسى ، وشجع الزيجات بين الطوائف ، وجعل الغاء نظام المنبوذين من نقاط برنامجه الكبرى ٠ وأنمى الحركة فى القرى حاملا مذهب التكامل الاجتماعى الى جماهير الناس ومثيرا احساسا جديدا بالوحدة الوطنية ٠

ولو أن مهاتما غاندى استطاع تحقيق الاستقلال فى غضون خمس سنوات أو عشر ، لما أمكن تحقيق هدفه الاجتماعى ٠ ولكن طول النضال الذى بدأ فى عام ١٩٢٠ ، ولم ينته الا فى عام ١٩٤٧ ، غرس أفكاره ٠ لقد رحب البلد بأسره بالدافع الممثل فى ألوف من الناس تعودوا العمل الشاق والتضحية ، والدافع الممثل فى الاحساس بالوحدة الذى خلقته هذه الحركة الهائلة ، وشب جيل بأكمله داخل اطار نظام وطنى دقيق ٠ وكان النضال الطويل نفسه أداة للقضاء على عادات وأساليب كانت موضع القبول الأعمى فى الماضى ، ولتطبيق أفكار اجتماعية تعلق بها القادة على مستوى فكرى ٠ وبنهاية الفترة كانت نظرة جديدة قد خلقت فى صفوف

جماهير الناس ، وأصبحت الافكار التى لم يعتنقها الا المثقفون ، جزءا من النظرة الهندية عامة ٠

وقبل الثورة السوفييتية كان يجرى تصور القومية فى الهند على أسس سياسية ، من حيث العلاقة بالسلطة والقوة وادارة الدولة ٠ وكان التعديل الأساسى الذى جاءت به ثورة أكتوبر الى الهند هو الفكرة التى تذهب الى أن الدولة سوف تكون بحاجة الى التدخل فى المجال الاقتصادى، حتى يتسنى تجنب الانهيار الاقتصادى والخطر الذى يهدد مستقبلها ، ولعبت التجربة السوفييتية دورا هاما بالنسبة الى الهند ، اذ خلقت فى صفوف القادة اعتقادا بأنه يجب ربط أفكار التقدم السياسى المكتسبة من الاتصال بالغرب بمذهب فى التقدم الاقتصادى قائم على التخطيط على نطاق قومى ٠

وهكذا يمكن اعتبار الاتصال بين الشرق والغرب فى الهند عملية اخصاب زودت شعبا قديما جدا بحياة جديدة ، لتغيره وتخلق حضارة وديناميكية جديدتين مبنيتين على الماضى ولم تكن الهند أبدا لتتعصب ضد استعارة الأفكار من الخارج ٠ ففى كل فترة من التاريخ الهندى استعارت النزعة الانسانية الهندية من الغير وأعطتهم ، ولم تتردد أبدا فى تقبل ما ظنته يعمل على اثرائها ٠ فاذا كان الكتاب الهنود استعاروا قبلا من اللغة الفارسية أو تقاليد الشعر الفارسى ، واستعاروا فى الأزمنة الحديثة التكنيكات الاوربية ، وصاغوا أعمالهم فى شكل روايات وقصائد ومسرحيات ، فانهم لم يفقدوا بذلك طابعهم الهندى ٠ ولقد كان مما يدخل تماما فى تقليد التاريخ الهندى أن يستعيروا من الاتحاد السوفييتى فكرة التخطيط والمساواة الاقتصادية ، دون أن ينقلوا الى الهند فكرة دكتاتورية البروليتاريا أو القيود على الحرية الفردية ٠

ان ما كان فى الحضارة الهندية من قوة ومرونة فطريتين هو الذى سمح باقتباس أفكار آتية من الغرب وباستيعابها ٠ وكانت قوة وقيمة أفكار الغرب وأهدافه الاجتماعية ونظرته العلمية وتصوراته الاقتصادية ، هى التى لعبت دورا فى التمهيد لتغيير النظرة الهندية ٠

وفى هذا المزيج الذى شكل الصورة التى رسمتها الهند المستقلة لنفسها ، تفاوت ما كان لمكوناته المتعددة من معنى بالنسبة الى قطاعات المجتمع الهندى المختلفة ٠ فبالنسبة الى الأقلية المسلمة التى شكلت حوالى عشر سكان الهند المستقلة كان العنصر الليبرالى جوهر الصورة الذاتية الهندية الحديثة ٠ فالزعماء المسلمون الذين أنقوا بدلوهم مع « هند »

علمانية بدلا من باكستان اسلامية ، عبروا عن ثقتهم فى قوة الليبرالية داخل « التركيب » الهندى • وأكثر من هـــذا ، فقـــد ظنوا أن مبادىء الديموقراطية والوحدة الجوهرية ، وهى المبـــادىء التى استمدوها من تقليدهم الاسلامى ، وبارتباطها بالمبادىء الليبرالية التى تشربوها ، يمكن أن تقدم اسهاما ايجابيا فى تطور الهند الجديدة •

ورأت جميع العناصر فى الهند الأمة الجديدة وكأنها تخلق حضارة جديدة، ضاربة بجذورها العميقة فى ماضيها هى، ولكنها تجددت وتعدلت بفعل أفكار من الغرب ، وهو « تركيب » يجب أن تكون له قيمته بالنسبة الى العالم كله •

٢ ـ الصين :

فى مستهل القرن العشرين رأت الصين نفســها مستذلة عاجزة ، وكأنها تنين مقيد بالسلاسل • غير قادر الا على توجيه اللطمات فى سورة غضب غير ذات أثر ، الى الاجانب الذين كانوا يمدون نفوذهم أكثر فأكثر بقوة وعجرفة ــ فى داخل امبراطورية السماء • وفى منتصف القرن كان فى امكان قادتهـا أن يعلنوا أن « الصين الجديدة المشرقة تقـف كعملاق فى الشرق » •

ان يقظة الصين واعادة تأكيد مركزها التاريخى فى العالم سارا فى طريق مغاير تمـــاما للطريق الذى اختطته الهند • فمن جهة ، لم تفقد الصين أبدا احساسها بالذاتية كأمة وشـــعب واحتفظت بسجل متصل ومعرفة بتاريخها الطويل • ومن جهة أخرى كان اتصال الصين بالغرب ذا طابع مختلف • فلم تتغلغل المؤثرات الغربية أبدا فى بنيان ونظرة البلد بأسره ، بمثل ما توغلت فى الهند عن طريق نظـــامها المتجانس للتعليم والقانون الغربيين • وظلت الثقـــافة الغربية بمعزل عن التقليد الصينى ونادرا ما اتحدت معه • ولم تبعث الليبرالية الغربية حيوية جديدة فى الروح الصينية بمثل ما فعلت فى الهند ، ولاحفزت الى اعادة تأكيد تقليد أساسى تجرد مما أضيف اليه من عرف • وأكثر من هذا كله ، لم يكن أى تجـــديد اجتماعى قد بدأ فى اضـــفاء طابع عصرى على البنيان الأساسى للمجتمع الصينى ، الا بعد أن بنت القوى الشـــيوعية دعائمها على أمانى الفلاحين الثـورية ، وجاءت الى الشـــعب الصينى بنظام للحياة ، جديد بصورة جذرية •

كانت تجربة الصين مع الغرب خلال القرن التاسع عشر غير مواتية

الى أكبر حد لقيام تركيب بين الثقافتين الصينية والغربية • وعندما جعلت الجهود البريطانية فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر من أجل فرض تجارة الأفيون على الشعب الصينى ، نقول انه عندما جعلت هذه الجهود أنه من الضرورى أن تعدل الامبراطورية الصينية أسلوبها القديم فى معاملة بقية العالم على أنه دول تابعة أو متبربرون ، ناشد ممثل الامبراطور بريطانيا بمصطلحات المبادىء الاخلاقية • وكان الجواب ـ الهجوم المسلح، والنهب وفرض المعاهدات غير المتكافئة التى تمنح الأجانب مركزا ممتازا فوق الارض الصينية ـ هذا الجواب أقام نمط العلاقات التى استمرت طيلة مائة عام •

وعلى مر السنين استنتج الصينيون ، على كره منهم ، أنه من الضرورى تحصيل المعرفة الغربية ، ورسم أساليب الدفاع الغربية• لكنهم خلال القرن التاسع عشر ، لم يروا أن هذا يتضمن اتخاذ الاتجاهات الغربية ، وانما ينطوى على تطبيق التكنيكات الغربية على الأغراض الصينية ، وان وجد من ظنوا أن التفرقة بين « الجوهر » و « الوظيفة » تفرقة غير سليمة ، نظرا لأن الأساليب الغربية كانت فى الحقيقة أساس حكومتهم •

وعلى خلاف الهنود الذين اكتسبوا الاتجاهات الليبرالية الغربية قبل أن يكتسبوا الأساليب العلمية الغربية ، كان الاهتمام الصينى ينصب كلية تقريبا على النواحى الفنية ، فأربعة أخماس جميع المؤلفات التى ترجمت الى الصينية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت عن موضوعات علمية وفنية •

غير أن تحصيل المعرفة الغربية وتطبيقها من أجل « تقوية الذات » أصابهما الفتور ، لأن المجموعة الحاكمة من الاداريين العلماء الذين كان يجرى انتقاؤهم عن طريق الامتحانات الامبراطورية التى كانت مستخدمة طيلة ألفى عام ، كانوا عازفين عن السماح بمواد جديدة من المعرفة ، أو أن يشاركهم سلطتهم رجال تعلموا فى مؤسسات الارساليات أو فى الخارج • كذلك لم يكونوا على استعداد لاتخاذ صرح تنظيمى يسهل تنمية الصناعة الحديثة ، ونظروا الى التطورات الصناعية التى بدىء بها ، وعاملوها باعتبارها فى الأصل ، مصدرا للايراد الضريبى والعائدات •

وخلال القرن التاسع عشر استمر المجتمع الصينى يتكون من جمهور كبير من الفلاحين ، ومجموعة صغيرة من ملاك الارض الذين كان يخرج من صفوفهم الى حد كبير ، الاداريون العلماء • وكان النظام الامبراطورى

ضعيفا ، ولكن المتعلمين فى ظـــل سلطـــان الامبراطور كانوا لا يزالون يحتكرون الســـلطة والتنظيم لكن ــ وكما كان الحال فى الماضى ــ تجلى الاضـــطراب الشـعبى فى شكل ثورات قام بها الفلاحون ، وفى أنشطة الجمعيات السرية ٠ ففى منتصف القرن أشعلت ثورة تاى ــ بنج Tai-Ping بقيادة هونج ــ هو ــ شوان Hung-Hsu-Chuan الذى سبق أن استعار من الارساليات المسيحية فكرة المخلص أو المنقذ وأشعلت الفتن والقلاقل فى أجزاء كثيرة من البلاد ، وأقام لفترة حكومة منافسة ، الى أن أخمدت الثـــورة نهـــائيا ٠ وفى ختام القرن عادت ثورة البوكسر الموجهة ضد الاجانب ، فكشفت عن وجود قلق واسع الانتشار وعن القـاعدة المعرضة للخطر التى كانت تستند اليها السلطة المركزية ٠ وكان فى المنافسة من جانب اليـــابان والمثـــال الذى ضربته بطابعها العصرى ، ما بعث حركة للاصلاح، واجتذبت اليابان الكثيرين من الصينيين لتعلم الاساليب الجديدة٠

وأخفق أول جهد فى سبيل الاصـــلاح الاجتماعى ، وهو « الأيام المائة » عام ١٨٩٨ : اخفاقا مفجعا ٠ وتحت اصرار مجمـــوعة من العلماء بقيادة كانج ــ يو ــ واى Kang-Yu Wie ، أقنع الامبراطور باصدار سلسلة من المراسيم أريد بها تحريك عملية التجديد ، ولكن الامبراطورة الأرملة العجوز وأدت هذا التهديد للنظام القـديم فى مهـــده ، وشددت قبضتها على أعنة السلطة ، وجعلت مصير قادة حركة الاصلاح النفى أو الموت ٠ الا أن رؤيا يو ــ واى بشأن «صين» جديدة ، لم تمح ٠ وبرغم أنه عاش فى المنفى ، ومات مغمورا فى عام ١٩٢٧ ، فان تلاميذه أبقوا حيا مفهومه عن المراحل المتعاقبة التى يجب أن تتقدم عن طريقها الصين نحو « الكومنولث العظيم » الذى لن تكون فيه تفرقة بين رفيـــع أو وضيع ، وغنى أو فقير ، وعنصر أو نوع ، وفيه يشارك الجميع فى حق الملكية ، ونشر تلاميذه بعد موته مشروعه لقيام مجتمع تضطلع فيه الدولة بالمسئولية عن معيشة الجميع ورفاهيتهم ، وهو مشروع شـديد الشبه بالكوميونات التى أقامها النظام الشيوعى ٠

وفوق هذا كان ثمة تأثير فورى لناحيتين من نواحى حركة الاصلاح فقد ألغى النظام القديم الخاص بعقد امتحانات لشغل المناصب العامة ، وألغى معه الاحتكار الذى احتفظ به العلماء الكونفوشيوسيون زمنا طويلا فى قيادة الدولة ٠ وأدخل التعليم وفق خطوط حديثة بانشاء جامعة بكين، ثم بانشاء جامعات أخرى على الطراز الغربى بعد ذلك ٠ ومن هذه الجامعات ومن الطلاب الذين عادوا من الدراسة فى اليابان والولايات المتحدة وأوربا

الغربية ، وأخيرا من موسكو ، جاءت قيادة جديدة عملت بصورة فاشلة فى أول الأمر ، ثم بصورة حاسمة فيما بعد على بعث الحياة فى المجتمع الصينى ، وهيأت له اتجاها جديدا ٠

وبحلول عام ١٩١١ كان بنيان حكم أسرة المانشو Manchu من الضعف بحيث قلب فى ١٩١١ ـ ١٢ دون نضال تقريبا ٠ ولكن الجمهورية التى أقيمت على أنقاضه ، والتى كان صن ـ يات ـ سن أول رئيس لها، لم تستند الى أساس ثابت من الفهم والتأييد الشعبيين ٠ ان سنوات عجز الامبراطورية والتسلل الغربى كانت قد خلقت اضطرابا اجتماعيا كبيرا ، وكان التعليم الذى أتاحته الارساليات قد قوض دعائم البنيان الاجتماعى، وحط من قـدر القيم التقليدية دون أن يقدم بديلا فعـالا ، بينما كانت الارساليات نفسها ترتبط فى الأذهان بالامتيازات ٠ وغيرها ، مما كانت تتمتع بها المصالح الاقتصادية الغربية فوق الأرض الصينية ٠ وكان شعور المرارة فى الشعب ضد الغرب قويا ، قدر ما كان ضد المانشو ، وبرغم أن صن ـ يات ـ سن استمد وحيه من الغرب ، فانه لم يكن هناك فهم عام للمبادىء الدستورية الغربية التى يقام عليها بنيان جمهورى ٠

ونفذت الثورة من المركز ، وكان أثرها الرئيسى تحطيم ما تبقى من السلطة المركزية ، بينما ورثت الكثير من ضعف نظام الحـــكم القديم ٠ ولم يكن أمام سادة الحرب فى الأقاليم الا انتظار سقوط الامبراطور كى يضربوا ضربتهم لحسابهم ٠ وعندما سعت الحكومة الجديدة الى الحصول على قروض أجنبية لدعم مركزها ، طالبت الدول الكبرى الاجنبية بمزيد من الامتيازات لقاء ذلك ٠ وواجه النظام الجديد معارضة العسكريين الذين ضموا الى صفوفهم كثيرين من المديرين العلماء من رجال النظام القديم ٠ ولم تكن تستند الى سند جماهيرى ؛ اذ لم يتم اجتياز الفجوة بين الفلاحين والمثقفين ، وظلت قبضة ملاك الارض التقليدية على القرى ثابتة ٠

وعندما رأى صن ـ يات ـ سن نجاح ثورة أكتوبر فى الروسيا ، وحقيقة أن الدول الغربية الاخرى ، استمرت تستغل ضعف الصين بدلا من تأييد جهده الثورى ـ استنتج أن الشــعب الروسى هو خير صديق للصين ، وأن أساليبه فى الثورة والتنظيم فيها الكثير مما يجب تعلمه ٠ ولكى يسير قدما بثـــورته نظم حزب الكومنتانج الحزب القومى السياسى الصينى Kuomintang وقبل الشيوعيين كأعضاء ، وبعث بنائبه شيانج كاى شيك الى موسكو لدراسة أساليب الجيش الأحمر ، ورسم الخطوات التى سوف يعمل بها حزبه على تغيير الصين وفق مبــادئه الشعبية الثلاثة ـ

سان مين تشو : القومية ، أى بناء الصين كعضو حر ومستقل ، وعلى قدم المساواة في أسرة الامم ، الديموقراطية عن طريق عملية تدريجية تنطوى على هزيمة سادة الحرب ، والوصاية فى ظل حزب الكومنتانج ، وأخيرا حكومة دستورية منتخبة ، ومعيشة الشعب عن طريق «الارض للزارع» والتنمية الرأسمالية عن طريق الدولة .

ولكن بعد موت صن فيعام ١٩٢٥ طرد شيانج كاى شيك الشيوعيين من الكومنتانج ، وركز جهود حزبه أكثر فأكثر على التوحيد العسكرى للبلد . ولم يبذل جهدا لتوسيع نطاق النشاط الديموقراطى حتى يتسنى وضع حد « لوصاية » الحزب والوصول الى الهدف المقرر وهو الصبغة الدستورية . كذلك لم يبذل أى جهد ذيقيمة لتنفيذ الاصلاح الاقتصادى. وما ان حل الوقت الذى بدأ فيه الغزو اليابانى فى عام ١٩٣٧ حتى كان الكومنتانج قد فقد توجيهه السياسى ، وانتقلت المبادرة الثورية الى الحركة الشيوعية التى استثارت جهود الفلاحين ، وحركت اندفاعها جماهيريا نحو الاصلاح الاجتماعى (٧) .

وبموازاة التغييرات السياسية التى استهلها صن يات سن ، سارت حركة أدبية هى « المد الجديد » ، خرجت بقوة على تقاليد المجتمع الصينى. أن قائدها الرئيسى وهو تشن ـ تو ـ هسيو Chen-Tu-Hsiu عميد كلية الاداب فى بكين ، لم ير أرضا مشتركة تتلاقى فيها الأساليب الصينية والغربية ، ودعا الجيل الجديد فى الصين الى أن يختار «الاستقلال لا العبودية ، والتقدم لا المحافظة على القديم ، والعدوانية لا الجبن ، والنظرة المفتوحة على العالم لا القومية الضيقة ، والموقف العملى لا الشعائر ، والأسلوب العلمى لا التكهن » (*) ونبذ شباب المثقفين الذين اشتركوا فى هذه النهضة ، المبادىء الكونفوشيوسية التقليدية والمسيحية التى كان الكثيرون منهم قد أعتنقوها ؛ اذ اعتبروا كلا منهما تعلقا بخرافات .

انتشرت الحركة بسرعة وقوة كبيرتين فى صفوف المثقفين الأصغر سنا ، وحققت خطوة كبيرة أولى نحو اجتياز الهوة بين المثقفين والشعب بالاصرار على كتابة الكتب بلغة الحديث العادية Pai hwa ، وليس باللغة الادبية فحسب ، وهى اللغة التى لم يكن يتحدث بها أحد ، ولم يستطع أن يقرأها الا المتعلمون . وركزت اهتمام الكتاب الصينيين على

(*) « الشباب » سبتمبر ١٩١٥ .

الاحوال الفعلية السائدة فى الحياة الصينية المعاصرة وأوجدت مدرسة للكتابة الواقعية التى لم ينج منها أى نظام بالمجتمع الصينى ٠

وبقى هو شى Hu Shih ــ أغزر زعماء « المد الجديد » علما ــ مخلصا للمبادىء الليبرالية التى أوحت بالحركة الأصلية وألهبتها ٠ ولكن سرعان ما تحول الى اليسار عدد أكبر فأكبر من الكتاب ٠ وفى ١٩٢٠ أسس تشن تو ــ هسيو مع لى تا ــ تشاو (وهو أقدم ناشر للماركسية ــ اللينينية فى الصين) وغيرهما ، أسسوا الحزب الشيوعى ، كما أسست سلسلة من منظمات الكتاب اليساريين ٠ ولما اشتد ساعد الحركة الشيوعية ، لعب هؤلاء الكتاب دورا فعالا فى اضفاء الطابع الصينى على هذه الحركة ٠

وهكذا نشأت الحركة الشيوعية بالصين فى مجتمع لم يتم فيه اجتياز الهوة القديمة بين جماهير الشعب وملاك الأرض من جهة ، والصفوة المتعلمة من جهة أخرى ، والذى لم تتخذ فيه اجراءات اجتماعية جدية للتخفيف من البؤس والفقر ، برغم أن هذه الأحوال كانت معروفة مشهورة طالما صورها الكتاب ، وكانت أنظمة الكونفوشيوسية التى أقرت تلك الأحوال قد تعرضت للاحتقار تحت تأثير رجال الارساليات والليبراليين الصينيين ، ولكن لم يدمج فى الفكر الصينى أية طائفة بديلة من القيم ، وظل تقليد السلطة المركزية قويا ولكن مائة سنة من الضعف كانت قد جاءت بما يقرب من الانحلال ، ولكن لم تكن لتزول قط كراهيته وازدراؤه الأجنبى والاحساس العميق بعظمة الشعب الصينى الفريدة ٠

كان الانجاز الذى حققه الشيوعيون تحت قيادة ماوتسى تنج ، وبتأييد من كثير من المثقفين ، هو الوصول الى الفلاحين وتزويدهم بالوسائل التى يمكن بها أن يعرفوا أنهم جزء من الأمة ٠ ويربطوا أنفسهم بها ، ٠ فأينما ظهرت الجيوش الشيوعية نظمت القرى ، حتى وجد الغزاة اليابانيون فى المقاطعات الشمالية أنهم لايواجهون جيوشا فحسب ، وانما يواجهون شعبا يحمل السلاح ، ولم يستطع الكومنتانج بعد الحرب أن يقاوم ، بصورة فعالة القوات الشيوعية المستندة الى التأييد الشعبى الواسع ٠ وبمجرد استيلاء الشيوعيين على السلطة نبذوا الليبرالية الغربية التى ظلت دائما شيئا ناشزانابيا فى خضم الحياة الصينية ، باعتبارها تطفلا أجنبيا ، وزودوا الشعب الصينى بمصطلحات جديدة يعيد فيها تأكيد عظمته وبناءها ٠

وفى العقد الأول من وجود جمهورية الصين الشعبية تحركت بنشاط

جم وسرعة كبيرة نحو هدفها ـ وهو جعل الصين مرة أخرى واحدا من أعظم شعوب العالم ، ان لم يكن أعظمها • وحولت البيروقراطية الفاسدة التى ظلت طويلا تشكل بنيان الحكم فى الصين الى ادارة على درجة عالية من المركزية ، وقوضت سلطان سادة الحرب الذين يحتمل ظهورهم عن طريق تنظيم جيش الشعب ، ودفعت الشعب من أقصى البلاد الى أقصاها فى مهمة تحقيق « قفزة الى الأمام » كبيرة فى كل جبهة : فى الزراعة والصناعة ، فى الرى والتشييد ، فى التعليم والعلم ، فى النقل واستخدام الآلة ، فى الصحة وفى الثقافة الشعبية •

واذ وضعت خطة هذا الجهد ، استخدمت جميع موارد الشعب والبلد ، من أعظمها الى أقلها • ان التنظيم الصناعى الواسع النطاق والتكنولوجيا المتقدمة يجب أن يتساويا مع الغرب وان يتفوقا عليه ان أمكن ، ولكن كان من المتعين بذل جهود محلية لتكييف الحرف التقليدية ، وابتداع أشكال من الانتقال الى استخدام الآلة جزئيا ، ونظم مئات الألوف من العمال لبناء القنوات والسدود ، بينما أرسل الشباب الى الجبال للبحث عن الينابيع التى يمكن أن توفر الماء للرى المحلى • وفى بلد ظلت المجاعة فيه مزمنة عهداً طويلا ، على حين كان السكان فى ازدياد ، أدخلت أساليب جديدة من الفلاحة والتنظيم الفلاحى فى محاولة لانتاج المزيد من الغذاء بقدر أقل من العمل ، ونظمت المدارس فى جميع المستويات بأية موارد يمكن أن تتاح •

وبرغم أن الماركسية • اللينينية هيأت المرشد النظرى لخلق الصين الجديدة ، فان جمهورية الصين الشعبية اعتبرت نفسها وريثة حكمة الحكماء الصينيين ، وطاقة الشعب الصينى على الابتكار ، ووحدة الامبراطورية الصينية وعظمتها • وبينما نبذ نظام الأسرة الكونفوشيوسى كما كان يجرى تطبيقه ، وجد العلماء الصينيون البارزون فى كتابات كونفوشيوس أساسا للمبادىء الثورية والديموقراطية • والى جانب الطب الحديث الذى كانت تجرى ممارسته وتعليمه ، كانت ممارسة الطب الصينى التقليدى موضع التشجيع • وألفت الأوبرا فى موضوعات جديدة بالأسلوب الصينى القديم • وجرى حث الناس فى جميع الأقاليم على جمع الأغانى الشعبية وتأليف أغان جديدة بأساليب مألوفة • وشجع الذين تعلموا القراءة والكتابة حديثا على انشاء جمعيات للكتابة ورواية قصص مصانعهم أو مزارعهم • وأعيدت المعابد البوذية الشهيرة الى ماكانت عليه وجرى التعريف على نطاق واسع بالكشوف التاريخية والأثرية •

كانت مهمة التجديد جسيمة وصعبة بشكل خيالى • فخطوة التغير الوئيدة فى السنوات الأولى لم تقض على أمراض الجوع والبؤس القديمة بين يوم وليلة ، وجاءت فى ركابها بشدائد ومشكلات جديدة • ولكن فى الصين الجديدة لم يبد شيئا مستحيلا بالنسبة الى شـــعب من ستمائة مليون وراءه تاريخ مسجل يمتد الى أربعة آلاف عام ، حين انتهت فترة الضعف ، وعادوا مرة أخرى يسيرون فى طريقهم •

٣ ـ اليابان * :

فى اليابان البلد الآسيوى الذى سعى بأكبر قدر من الوعى والحماس الى اقتبـــاس الطرق الغربية ، أدمجت أنماط جديدة من الفكر فى ثقافة مختلفة اختلافا أساسيا ، ظلت برغم ذلك دون أن يطرأ عليها تغير فى نواح كثيرة • وكان اتجاه اليابان الثقافى خلال هذه السنوات نتيجة التفاعل بين العادات التقليدية والاتجاهات والأساليب الغربية المستوردة ، فى ظل ظروف من تأكيد الذات ، والتوسع القومى ، والهزيمة العسكرية ، وهذه كلها شكلت تاريخ اليابان فى القرن العشرين •

كانت اليابان ، أكثر من أى أمة أخرى بالفعل ، تتكون من شـعب متجانس يشترك فى ثقافة تقليدية مشتركة • ومذ كانت اليابان منطوية على نفســـها مركزة اهتمامها فى شئونها ، تعيش فى سلام طيلة قرنين ونصف من العزلة قبل أن يفتح الغرب أبوابها ؛ لهذا لم تتدخل أو تؤثر فيها الطرق والأفكار أو الصراعات الأجنبية • وكانت صـــورة العالم فى أذهان اليابانيين هى صورة اليابان نفسها •

فى المجتمع اليابانى المغلق والمنظم ، والاقطاعى والعائلى بصـــفة أساسية ، كان مركز كل شخص ، وكانت كل عـــلاقة محددتين تحديدا دقيقا ، وتعبر عنهما أساليب الحديث والسلوك • فكانت الرأفة والاحسان فضائل سامية • وكانت علاقة الانسان بالطبيعة معرفة تعريفا واضحا أيضا • وكانت تتضمن اتساقا فطريا وثيقا مع الأرض المثمرة المناخ اللطيف وجمال الفصول المتغيرة ، الى جانب الخوف الذى لا حيلة فيه ، فى وجه الأعاصير الثائرة والزلازل التى تجلب الكوارث•ولم تكن الطبيعة ـ شأنها فى الغرب ـ قوة متحدية يجب التغلب عليها واخضاعها لخدمة الانسان •

(*) بالنسبة الى الجـــوانب الاخرى من تطـــور اليابان انظر الفصل ٤ ، ص ٨٨ ـ ٨٦ والفصل ٢٨ ، ص ٥٠٤ .

فطبقا للمفاهيم الدينية التى وهبت الأشياء روحا أو أرواحا ، كان النوع البشرى جزءا من وعاء طبيعى يشتمل على حيوانات وآلهة • وكان هدف الفرد الاحتفاظ بضبط النفس ، والصلابة ، والسلام الباطنى مع مكانة مقررة فى وجه شدائد الحياة والموت وابتلاءاتهما •

كانت هذه هى القاعدة الأساسية التى فرضت فوقها الثقافة الغربية المختلفة عنها اختلافا أساسيا من نواح كثيرة • فلم يتمكن الشعب اليابانى من التكنولوجيا الغربية ويطبقها فحسب ، ولكنه استورد وترجم كتبا غربية لاحصر لها فى جميع الموضوعات ، وصاغ ألفاظا تغطى المواد والأفكار الجديدة ، وجاء من الغرب بالموسيقى والرياضة والرقص ، وغير ذلك من أشكال الترفيه ، وجعل الفكر الفلسفى الغربى اطارا للدراسة الأكاديمية •

ووقف الكثيرون من المثقفين أنفسهم ، وبقدر وافر من النشاط والمقدرة ، على دراسة فكر الغرب وأدبه وعلمه وفنونه ، بحيث أصبحوا أكثر ائتلافا مع الأفكار وطرائق التفكير الغربية منهم مع ماكان منها تقليديا بالنسبة لليابان • واذ راحوا يستمعون الى الموسيقى الغربية ، ويناقشون الفلسفة الغربية ، بل ويحتفلون بالأجازات الغربية كعيد الميلاد ، فقد بدأوا يحسون أن اليابان تنتمى الى مجموعة ثقافة الغرب ، بدلا من انتمائها الى الثقافات « المتأخرة » بآسيا ، وهى الثقافات التى نظرت اليها اليابان العصرية المتجددة ، بازدراء •

ورأت جماهير الشعب من جانبها حياتها اليومية ، وقد أثرتها ثمار التصنيع الذى رفع مستوى المعيشة ، وان ظلت الأجور هزيلة ، ووجهت الجهـود الصناعية الكبرى نحو الصناعات الثقيلة والانتاج الحربى • ان التوسع الاقتصادى السريع زاد باستمرار من الفرص ، ولم تكن ثمة طبقة سابقة من أرباب الحرف اليدوية تخشى الآلة ، لانها حلت الى حد كبير محل العمـل الذى كان يرهق ربات البيوت ، أو دخلت ميادين جديدة لم تـكن جزءاً من الانتاج قبل العصر الصناعى • لقد بدت نواحى الخلط أو الصراعات بين الأساليب التقليدية والغربية تبدو انتقالية يسهل احتمالها بمثابة جزء من عملية استيعاب المعرفة الجديدة ، وجعلها ملكا لهم •

الا أن الفكر والأسلوب الغربيين لم يحلا تماما محل القيم والاتجاهات الثقافية اليابانية التقليدية ، فالحياة الخاصة : البيت والحديقة وأسـلوب العيش فيهما ، بنيان الاسرة والعلاقات الشخصية ـ ظلت يابانية كمـا جرى بها العرف ، وكانت الكراسى والملابس الغربية تسـتخدم فى أثناء العمل ، ولكن كانت الأرضيات المغطاة بالحصر « والكيمونو » تستخدم فى

البيت • واحتفظت الزراعة بشكلها التقليدى ، وتحسنت بالتدريج عن طريق التطبيق (البراجماتى) للمعرفة الجديدة • وكذلك تحسن العدد الجم من المشروعات العائلية ، حيث أساليب الحرف اليدوية أكملتها أو حلت محلها عمليات قليلة تستخدم فيها (الآلات الماكينات) • وخلقت الصناعة الكبيرة ، والأعمال المصرفية ، والتجارة ، والملاحة التجارية أنظمة وطرقا جديدة أضيفت الى الأشكال القديمة بدلا من الحلول محلها • وساد النمط ذاته فى الفنون وفى الترفيه ؛ فازدهرت المسرحيات والأفلام الغربية الى جانب الدراما التقليدية التى جرى الابقاء عليها بقوة ، وتنافست الموسيقى الغربية والرقص الغربى والكرة Baseball والبيسبول مع الأشكال التقليدية من الترفيه •

وبعبارة موجزة كان الصبغ بالطابع الغربى يعنى ادخال المعرفة والطرق الغربية فى البنيان القائم والقيم الأساسية للمجتمع اليابانى • وغالبا ما كان يجرى التعبير عن المثل الأعلى بأنه « الروح اليابانية والمواهب الغربية » • وبرغم أن البنيان الاقطاعى القديم استبدلت به نظم سياسية وتعليمية مستمدة من الغرب ، فقد استمر التركيب الاقطاعى للنسيج الاجتماعى ، يحكم جميع العلاقات — يدرب العمل والعمال ، ومالك الأرض والفلاح ، وكبار السن والشباب ، والسادة والخدم ، والرؤساء والمرءوسين فى كل تنظيم هرمى مهنى أو اقتصادى أو اجتماعى أو عائلى (٩ ، ١٠) •

أضف الى هذا أن النظم الغربية عدلت فى عملية اقتباسها ؛ فبرغم ادخال الأشكال البرلمانية ، ظلت الحكومة اليابانية نظاما تنفيذيا فى جوهره ، يتركز فى الامبراطور ، ويراد به تنفيذ عملية التنمية الرأسمالية السريعة والبناء العسكرى • وكان أعضاء الدايت اليابانى يختارون عن طريق الاقتراع المقيد ليمثلوا مجموعات اقتصادية واجتماعية وظيفية ، وكان هذا المجلس يفتقر الى الكثير من المظاهر الجوهرية التى تتسم بهـا البرلمانات الغربية — نظام حزبى فعال ، المسئولية الوزارية ، الرقابة الكاملة على الأموال العامة ، سيادة السلطة المدنية على العسكرية • وتشرب التعليم العام فى أول أمره بالمفهوم الغربى عن تكافؤ الفرص ، ولكن سرعان ما أعيد توجيهه ليؤكد المسئوليات والحقوق على أساس المبادىء التقليدية : تمجيد ماضى اليابان التاريخى ، النظام الامبراطورى باعتباره نقطة الارتكاز فى اليابان ، الأخلاق الكونفوشيوسية التى تحدد العلاقات بين المراكز المختلفة فى مجتمع شبه اقطاعى •

وهكذا كانت الصورة الذاتية والأمانى التى دخل بها الشعب

اليابانى الى الحرب العالمية الثانية وقاتل ـ عبارة عن مزيج من تكنولوجية الغرب وتنظيمه العسكرى وأســاليبه التعليمية ، ونظرة تقليدية تعتبر اليابان مركز العالم ، وأنماط تقليدية من الولاء والرضـــا بالأوضاع ، تتركز فى الدولة والامبراطور ، وموقف تقليدى ازاء الموت باعتباره آخر وأعظم فرصة يواجه فيها الانسان تقلبات الحياة بشجاعة وجلد ٠

وحطمت الهزيمة الكبرى هـــذه الصورة الذاتية ٠ ولم يبق شىء متماسك ، لا المكونات الغربية ولا اليابانية ، وكان أقلها بقاء هو المزيج الذى اختلطت فيه ٠ ففى السنوات التالية لسنة ١٩٤٥ وجه الشـعب اليابانى جهوده نحو التماس وجهة نظر جديدة ، وصرح اجتماعى جديد ، وهدف قومى جديد ؛ وذلك بنفس الجهد الواعى الذى كان يسعى به عن عمد الى الأخذ بالأسلوب الغربى قبل ذلك بخمسة وسبعين عاما ٠ وفى المرحلة المبدئية من هذا الجهد كان الشعب خاضعا للشذوذ الممثل فى دولة احتلال منتصرة ، تحاول ادخال النظم والمفاهيم الغربية مستفيدة من مركز القوة والتسلط الذى كانت تشغله ٠ ولأول مرة لعدة قرون ، شــهد الشعب اليابانى أيضا اختلاطا واسع النطاق مع شعب غريب وتعرض له ٠ وفى منتصف القرن كانت عملية اعادة رسم صورة ذاتية جديدة واعادة رسم الأهداف القومية ، لاتزال فى حالة ميوعـــة ، ولكن العناصر المكونة لها كانت آخذة فى الظهور ٠

كان عنصر الديموقراطية ، وهو أساسى بالنسبة الى الكثير من النظم التى اقتبست خلال فترة الاحتلال أو فى أعقابها ، يتمثل الى حد كبير فى نظام التعليم بعد أن أعيد النظر فيه ، وكان يجرى تطبيقه على ســبيل التجريب فى بعض ميادين العلاقات الشخصية ٠ ولكن لم يكن واضـحا الى أى حد سوف يثبت مفهوم الديموقراطية قابليته للحياة فى هـــذا المجتمع ٠ ذلك أن الناس قد حكمهم العرف واللغة والتجربة ، ليتمشوا مع قواعد مقررة وعلاقات تتصـــل بالمكانة فى المجتمع ، ولم يطالبوا بأن ينهضوا بذلك النوع من المســئولية الفردية من اتخاذ القرارات ، وهو النوع الذى كان أساسيا بالنســبة الى المفاهيم والأنظمة الديموقراطية الغربية ٠

واذ واجهت اليابان العالم الجديد فى منتصف القرن العشرين ، أثار دهشتها أن وجدت أن شعوب آسيا التى كانت اليابان تنظر اليهــا بازدراء : الهند ، اندونيسيا ، الصين وغيرها ـ كانت آخذة فى النهوض كأمم ٠ ولأول مرة منـذ بدء التجـديد والروح العصرية أمكن أن يحس

اليابانيون أنهم في رفقة طيبة بين شعوب آسيا ، ولم يعودوا يحاولون أن يشبهوا أنفسهم بالغرب ٠

ولكن اعادة تقييم تراثهم الآسيوى كان أعمق من اعادة تقييمهم للشعوب الأخرى بآسيا ؛ ففى عملية اتجاههم وجهة أخرى ، بدأ اليابانيون المتعلمون يعيدون تقييم الأسس غير الغربية للعقلية اليابانية والاحساس اليابانى ، وهى أسس كانت مختفية تحت سطح الفكر الواعى المتأثر بالغرب ٠ وكان فى امكان هذه الصورة الجديدة للذات أن تعترف بهذه الصفات ، وأن تسعى الى تنميتها واستخدامها كأساس يقوم عليه انتقاء وادماج ما قد يأتى من الخارج ٠

وفى صفوف الشباب من الرجال والنساء ـ أولئك الذين اضطروا الى اعادة التفكير فى مواقفهم من عرفهم الوطنى ومن الغرب خلال الحرب، بينما كانوا يواجهون الموت فى فصائل انتحارية ، أو رأوا وهم أطفال بالمدارس أن كل ماتعلموه يتحطم حولهم ـ فان محاولة اعادة اكتشاف قاعدة قومية ، قادتهم الى ارتياد الثقافة اليابانية الشعبية ٠ وبدا لهم أنه لا الطابع الغربى الذى لاجذور له ، ولا التقليدية الشكلية ذات الطابع العقلى يملكان الحيوية اللازمة لعصر جديد ٠ وهكذا سعوا الى اكتشاف نظرة الناس العاديين وقيمهم ومصادر قوتهم واحتمالهم ، وطبيعة أمانيهم وطرق اطلاق طاقاتهم الخلاقة الكامنة ٠ وكان هذا هو جوابهم على التحدى الذى وجهته المبادىء الديموقراطية الى مجتمع كان قد منح مكانا للمثقف ، وانتزع من جماهير الناس ضبطا للنفس ، ولكن لم ينتزع منهم تعبيرا عن الذات ٠

٤ ـ جنوب شرق آسيا وكوريا :

وقبل الحرب العالمية الثانية استمر اقليم جنوب شرق آسيا رازحا بقوة تحت الحكم الاستعمارى ، باستثناء تايلاند التى حافظت على استقلالها ، والفليبين التى حصلت على الحكم الذاتى فى عام ١٩٣٥ ، مع الوعد بالاستقلال فى ظرف عشر سنوات ٠ وكانت كوريا التى دخلت فى ظل النفوذ اليابانى بعد الحرب الصينية ـ اليابانية ، قد ضمت فى عام ١٩١٠ ، وأخضعت للادارة المباشرة من جانب اليابان ٠ وفى السنوات العشر التالية للحرب أصبح شرق آسيا وجنوبها الشرقى اقليما يتكون من دول مستقلة ، وفى الوقت الذى انضمت فيه الملايو الى أسرة الأمم فى عام ١٩٥٧ لم يبق فى المنطقة سوى بقايا قليلة من السلطان الاستعمارى ٠

وبالمقارنة مع معظم أجزاء العالم ، فان جنوب شرق آسيا الذى كان المكان الذى التقت فيه وعبرته الحضارة خلال معظم تاريخه ، وكان مصدر الثروة البالغة ، ظل منعزلا راكدا نسبيا حتى وقعت الحرب ، وان مسته تيارات الفكر التى كانت تثير شعوبا أخرى ، وتدفعها الى الوعى بالذات والى العمل • وقدمت الادارات الاستعمارية تنازلات قليلة نحو الحكم الذاتى ، ولم تقدم التعليم الغربى الا لفريق صغير من السكان • وكانت الجماعات الحاكمة التقليدية قد فقدت بوجه عام قوتها ومركزها ، الا حيث أبقت عليها القوة الاستعمارية ، كما حدث بالنسبة لبعض صغار الأمراء الاندونيسيين ، ممن كانوا يعملون كموظفين لدى الهولنديين •

وفى جميع أرجاء الاقليم كان النشاط الاقتصادى والادارة العامة فى أيدى الأوربيين بصفة رئيسية ، بينما مارس السكان المحليون زراعة الأقوات وصيد الأسماك واشتغلوا كعمال بالمزارع الكبيرة أو فى استغلال موارد الغابات والموارد المعدنية ، مثل التاك والبترول أو القصدير • وفى بعض المناطق حلت طبقة من التجار الصينيين والمديرين الأوربيين ـ الهنود أو مقرضى النقود والفنيين الهنود ، محل التوجيه الاقتصادى والادارى من جانب الأوربيين ، وكان العمال الهنود والصينيون يوفرون العمل لبعض المزارع الكبيرة والمناجم • وبرغم تفاوت الظروف داخل الاقليم ، الا انها لم تكن فى أى مكان منه مواتية لنمو قومية فعالة •

الا أنه كان فى الاقليم شىء من جيشان المشاعر القومية ، وبدأ نمو طبقة جديدة ممن يحتمل أن يتولوا القيادة • وبرغم أن الجو الاستعمارى والضغوط الاجتماعية مالت الى أن تحول البرمانى أو الاندونيسى أو الكمبودى المتعلم الى شخص انجليزى أو هولندى أو فرنسى ، وأن تبتعد به عن جذوره وقومه ، فقد بدأ بعض من حصلوا على تدريب غربى يتخذون نظرة قومية •

فمن عام ١٩٠٨ فصاعدا كانت فى أندونيسيا مطالبات من وقت لآخر بالحقوق ، وخاصة بالمشاركة فى الأنشطة المحتفظ بها للأوربيين • وجاءت أولى الشواهد عن شىء يوحى بالثورة ، مع الاضطرابات التى تزعمها الشيوعيون فى عام ١٩٢٦ ، وتمرد البحارة فى ١٩٣٣ وتكوين مؤتمر للشباب نذر نفسه للعمل من أجل « أمة أندونيسية واحدة ، وبلد اندونيسى واحد ، ولغة اندونيسية واحدة » • ان صورة « اندونيسيا واحدة » تمتد مسافة ١٥٠٠ ميل عبر ارخبيل يزخر بالجزر ويقطنه اناس فى كل مرحلة من مراحل التطور الاقتصادى والاجتماعى ، ويتكلمون

نحو ٢٥٠ لغة ولهجة ، هذه الصورة كانت صورة جريئة ، وبدت قريبة من الخيال عندما قدمتها مجموعة من المثقفين الشبان الذين كان عددهم صغيرا جدا ، ويفتقرون الى التنظيم والتأييد ٠

واستفادت بورما التى كانت تدار حتى ١٩٣٧ كمقاطعة هندية من امتيازات الحكم الذاتى المحلى التى حصل عليها للهند المؤتمر الوطنى الهندى ٠ ومن جهة أخرى كانت الوظائف الفنية التى لم يشغلها أوربيون، يشغلها الهنود الى حد كبير ، كما كان الجيش الهندى يوفر الدفاع ٠ وفى ظل الادارة الاستعمارية تقوضت بشكل خطير أنماط الحياة البورمانية المبنية على الاتجاهات والأنظمة البوذية ، وعم الاضطراب والخلل ٠ وكان التوسع فى زراعة الأرز فى الدلتا قد أدى الى خلق ضياع كبيرة فى أيدى ملاك لا يقيمون فيها ، والى عدم استقرار نظام الايجار ، والى العمل الموسمى وانشاء قرى جديدة لم يضم الكثير منها حتى معبدا ٠ وكان المهاجرون الهنود وبعض الصينيين يقدمون الكثير من الأيدى العاملة للمزارع والصناعات والمناجم ، وكان الشطر الأكبر من سكان المدن الكبرى قبل الحرب العالمية الثانية من غير أبناء بورما ٠ وكان هناك قدر بالغ من الاضطراب والتعبير المتكرر عن المعارضة للحكم البريطانى ، وخاصة فى الثلاثينات ٠

كانت الوحدات التى تكون منها الاتحاد المفكك العرى الذى دعاه الفرنسيون « الهند الصينية » ، تضم مجموعات سكانية وديانات وتواريخ متمايزة وخضعت لأشكال مختلفة من الادارة ٠ وكانت علائم الاضطراب واضحة فى الثورة الخطيرة التى نشبت فى عام ١٩٣٣ والتى قمعت بعنف، وفى نمو شيع دينية تحولت الى هيئات عسكرية فى ظل قادة من ذوى النزعة القومية القوية ٠

وكانت علامات القومية أقل ظهورا وعددا فى الملايو منها فى أى مكان آخر فى جنوب شرقى آسيا ٠ وكانت شبه جزيرة الملايو بمواردها من المطاط والقصدير ، تضم شعبا ملاويا يشتغل أساسا بالزراعة وصيد الأسماك ، ومجموعة سكانية كبيرة من الصينيين ، عمل الكثيرون من أفرادها فى مناجم القصدير المملوكة للأوربيين والصينيين ، ومن عمال زراعيين هنود يشتغلون فى مزارع المطاط المملوكة بصفة رئيسية للأوربيين ٠ وكانت السياسة الاستعمارية تحابى الملاويين ، وخاصة طبقة الأمراء منهم ٠ ولم يكن لدى أهل هذا البلد المقسم الى جاليات وطوائف ، والذى يعيش فى اقتصاد استعمارى ، فى ظل سنغافورة

القاعدة البحرية الامبراطوزية الكبيرة والمستودع ، نقول لم يكن لديه الا أساس هزيل يمكن أن يقوم عليه احساس بالهوية والوحدة القوميتين ٠

وجاءت نقطة التحول فى جنوب شرقى آسيا بسرعة ، وبصـــورة حاسمة مع الغزو والحكم اليابانى خلال الحرب العالمية الثانية ٠ فانهيار قوى الدول الاستعمارية السريع حطم بضربة واحدة الهيبة التى أبقت على سلطانها فى المنطقة ٠ وبمجرد طرد اليابانيين لم يكن ثمة اســترجاع للحكم الاستعمارى ، وان حاول الهولنديون ذلك فى اســتماتة ، اذ لم يستطيعوا الاعتقاد بأن شعبا بمثل هذا القدر اليسير من التجربة يستطيع أن ينظم ويحافظ على تماسك الأرخبيل الاندونيسى الشـــاسع المتناثر ، وبرغم أن الفرنسيين شنوا حربا باهظة التكاليف طيلة ثمانى ســنوات فى محاولة منهم للاحتفاظ بالهند الصينية ٠

ان الاحتلال اليابانى لم يحطم قبضة الدول الاستعمارية فحسب ، بل أسهم كذلك بطريقة أو أخرى ، فى خلق شعوب جديدة ، وفى الاختلال الذى تعين على هذه الشعوب أن تعالجه ٠

وأقام اليابانيون نظاما صوريا فى بورما التى منحوها «الاستقلال» فى عام ١٩٤٣ وآخر فى أندونيسيا التى وعدوها « بالاســتقلال » فى عشية هزيمتهم ٠ وكانوا يتولون ادارتهم فى أندونيسيا باللغة اليابانية التى لم يفهمها الاندونيسيون ، وباللغة الاندونيسية الملاوية التى كان القوميون الاندونيسيون يأملون فى أن يجعلوها لغتهم القومية ، وبهذا تزاح الهولندية ٠ وفى بورما دربوا وسلحوا كتيبة من البورمانيين لمقاتلة البريطانيين ، وبذا زودوا البورمانيين بأولى قواتهم العسكرية ٠ وبمرور الوقت تحولت وحـدات الجيش البورمانى ضد اليابانيين وســاعدت فى طردهم ، ثم أصبحت جزءا من الحركة الشعبية التى طالبت بالحرية من بريطانيا ٠ وكانت بورما التى اعترفت بها بريطانيا فى عام ١٩٤٧ أول من انسحب من ممتلكات بريطانيا من الكومنولث ٠

وبهذه الطرق وأشباهها ســاعد اليابانيون فى خروج بلاد جنـوب شرقى آســيا كشعوب مسـتقلة ، وهى البـلاد التى سعوا الى اعدادها لتكوين « مجال آسيوى للرخاء المشترك » فى ظل السيطرة اليابانية ٠ وفى الوقت نفسه مال احتلالهم الى اشاعة الاضطراب فى حياة الاقليم ٠ ان الخراب المادى الذى تخلف فى بورما جعل من الصـعب على الحكومة البورمانية فى فترة ما بعد الحرب أن تعيد بناء المواصلات ، وأن تسيطر على الريف ، أو أن تعيد الاقتصاد الى ما كان عليه ٠ وفى الملايـو جنـد

العمال بمعدل ٢٠ من كل ٥٠ شخصا من السكان ، وأرسل ٧٤٫٠٠٠ من أمثال هؤلاء العمال للعمل فى انشاء السكك الحديدية فى تايلاند ، ولم يعد منهم الى أوطانهم سوى ١٢٫٠٠٠ ٠ وشحن نحو ٣٠٠٫٠٠٠ شخص من جاوه لأعمال السخرة ٠ وهكذا فان بلاد جنوب شرقى آسيا الجديدة التى انغمست بسرعة فى مسئوليات الدولة عن طريق تجارب الحرب والاحتلال التى أشاعت الخلل ، رأت نفسها أولا كدول قومية ٠ وكان الشعب فى بعضها يربط نفسه بوحدة كانت قائمة قبل العهد الاستعمارى ، وفى غيرها بكيان خلقه الحكم الاستعمارى كلية ٠ بل وفى البعض الآخر فرضت تقسيمات على ضوء الصراع بين مجموعات القوة الكبرى ٠ فالممالك الصغيرة التى وحدها الفرنسيون لتكوين الهند الصينية ، عادت الى الظهور باسم دول كمبوديا ولاوس وفيتنام ٠ وعلى النقيض من ذلك فان الحشد من الجزر التى كان الهولنديون يبسطون سلطانهم عليها ، لم يعلن هويته المشتركة كأمة فحسب ، ولكنه ادعى الحق فى غينيا الجديدة الغربية على أساس أنها كانت جزءا من الامبراطورية الهولندية ، وأن اندونيسيا وريثة كل ما كانت هذه الوحدة تتكون منه ، فضلا عن كونها وريثة مملكة مادجاباهيت Madjapahit التى كانت قائمة فى القرن الثالث عشر ٠

كذلك ترك انهيار الامبراطورية اليابانية مستعمرة اليابان وهى كوريا ، حرة لكى تنضم الى أسرة الأمم ٠ فبرغم تاريخ كوريا الطويل بوصفها كيانا مستقلا تربطه بالصين روابط سياسية وثقافية غير وثيقة العرى ، راحت اليابان تعمل على مد نطاق اللغة والثقافة اليابانيتين الى المنطقة ، فضلا عن تنمية اقتصادها كجزء من تطورها الصناعى هى ٠ وأتاح تسليم اليابان الفرصة للكوريين كى يقبلوا عملية الادماج فى اليابان ، ويعيدوا اللغة الكورية ويحلوا محل اليابانيين الذين كانوا يشغلون مراكز المسئولية على جميع المستويات ، ويعيدوا تأكيد الهوية القومية ٠

ولكن هذه البلاد جميعا أقحمت بدرجات متفاوتة فى الصراع العالمى من أجل مد نطاق الشيوعية أو حصرها ، ودورها فى هذا السباق حدد تطورها ٠ فما كادت كوريا تزيد من تركيز هويتها القومية ، حتى وجدت أرضها تتحول الى ساحة قتال ، وبعد ثلاث سنوات من الدمار برزت كدولتين ، يفصل بينهما حد قسرى لم يرسمه الشعب الكورى ، وانما رسمته الدول الكبرى ٠ وعلى غرار كوريا قسمت فيتنام بمقتضى اتفاق دولى ، عندما أرغم الفرنسيون فى النهاية على مغادرة الهند الصينية بعد

الهزيمة على أيدى جيوش يقودها الشيوعيون ، وتؤيدها عصابات الفلاحين ، وأصبحت الوحدة الشمالية دولة يسيطر عليها الشيوعيون ، واحتفظت فييتنام الجنوبية باتجاهها غير الشيوعى • وخلال المراحل الصعبة المبدئية من التنظيم القومى قاومت حكومات الدول الجديدة الأخرى بالأقاليم ، وغالبا بمساعدة خارجية ـ حركات داخلية تتزعمها عناصر شيوعية •

وباستثناء كوريا الشمالية وفييتنام الشمالية رأت جميع الدول الجديدة نفسها بطريقة ما ، ديموقراطيات ليبرالية ، وصاغت دساتيرها أما كجمهوريات أو كملكيات دستورية ، وعلى الفور تقريبا صوتت فييتنام التى قامت فى مبدأ الأمر فى ظل الحكم الشخصى ـ على القضاء على الملكية فيها وخلق جمهورية • وواجهت جميعا صعابا ضخمة فى مهمتها وهى تحقيق اقتصاديات انتاجية قادرة على الحياة • وكان الاقليم يحتوى على موارد طبيعية بالغة القدر ، لا فى جزز اندونيسيا المتنوعة فحسب ، ولكن فى بورما وكمبوديا الغنيتين بالأرز ، وفى الملايو بقصديرها ومطاطها • غير أن كل بلد كان يفتقر بصورة تدعو الى الأسى ، الى مقومات التنمية الاقتصادية : العناصر البشرية الفنية والعلمية والادارية ، ورأس المال والتنظيم • الا أنها رأت نفسها بوجه ما ، كأنها تخلق مجتمعات حديثة ، وتخدم رفاهية أهلها •

وفى بحثها عن أساس تقيم عليه هويتها ووجودها رجعت الى تقاليدها بطرق شتى • فاتجهت بورما الى العرف البوذى الذى كان يستند اليه من قبل استقرار مجتمعها ورخاؤه ، وعادت فنذرت نفسها للقيم التى سبق أن نادى بها بوذا • وهذه القيم جعلها حية فى السياسة العامة ايمان رئيس وزرائها الأول أو ـ نو ، وأكسبها مزيدا من الهيبة المجمع البوذى الكبير الذى انعقد فى عام ١٩٥٥ احتفالا بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على موت بوذا • وكانت المشكلة هى ما اذا كان فى امكان هذا التجديد أن ينشط ويوجه الدولة الجديدة ويهىء دافعا وسيطرة كافيتين ، لا بالنسبة الى الأقليات غير البوذية ، ولكن أيضا فى المناطق الريفية الأقل استقرارا ، وفى المدن •

وكانت البوذية ذات شأن أيضا فى كمبوديا ولاوس وفييتنام ـ والحقيقة أنها أعلنت رسميا فى دستور لاوس على أنها دين الدولة ـ ولكن وجود الشيع الخاصة مثل : كاو داى Cao-Dai والأعداد الكبيرة من المسيحيين ، جعل العرف البوذى أقل أهمية نوعا بالنسبة الى الصورة التى رسمتها هذه الدول لنفسها •

وبالنسبة الى اندونيسيا كانت المشكلة هى تحقيق « الوحدة فى التنوع » • وفى محاولة أولى لمصارعة هذه المشكلة ـ أقامت الحكومة الجديدة دولة تسودها المركزية الشديدة ، ولكن سرعان ما أصبح ظاهرا أن الجزر العديدة كانت قد احتفظت بشعور قوى من ذاتيتها الفردية ، وأن شعار شباب ١٩٢٨ ـ « أمة اندونيسية واحدة ، بلد اندونيسى واحد ، لغة اندونيسية واحدة » ـ لن يصبح حقيقة بين يوم وليلة • وبرغم أن أندونيسيا أخذت بمبادىء الديموقراطية الليبرالية وأشكالها ، فان صعاب تنظيم البلد اقتصاديا وسياسيا كانت كبيرة ، والفجوة بين القرية والحكومة المركزية لم يجتزها سوى الولاء الشخصى • وبحث الرئيس سوكارنو الذى كان يتمتع بمثل هذا الولاء الشخصى من أوائل أيام النضال من أجل التحرير ـ عن شكل ما من « الديموقراطية الموجهة » ينشىء ، على أساسه دولة ناجحة •

وكانت مشكلة « الوحدة فى التنوع » قائمة الى حد كبير أيضا فى الملايو ، اذ كانت الطائفية تقليدية ، والتقسيمات الاقتصادية حادة ، وفى وقت الاستقلال كان أمام المجموعات السكانية الملاوية والصينية والهندية ، والفلاحين ، وعمال مناجم القصدير ، عمال مزارع المطاط ، وأصحاب المناجم والمزارع والتجار ، كان أمام هؤلاء جميعا طريق طويل يتعين السير فيه قبل أن يتمكنوا من اخضاع هوياتهم المنفصلة واعتبار أنفسهم « ملاويين » تماما •

وهكذا فان تحول الشعوب التابعة السريع فى كل جنوب شرقى آسيا الى دول مستقلة خلق شعوبا واجهت مشكلات كبيرة ، تتعلق بالتنظيم السياسى والتغيير الاقتصادى والاجتماعى ، دون أن تكون قد أوجدت نظرة مشتركة من خلال نضال قومى طويل ، ودون أن يكون لديها مجموعة كافية من رجال متعلمين ذوى تجارب ، زودوا بما يمكنهم من قيادة تنميتها الفنية والسياسية • واذ كان على جانبيها عملاقا آسيا الكبيران ، وهما الصين والهند ، وكل منهما تعمل بنشاط كبير على خلق مجتمع حديث قوى وفق مصطلحاتها ، فان هذه الدول الأصغر منهما والأقل رسوخا ، ربما كان لديها الهام مشترك يوجهها ، هو « مرديكا » Merdeka ـ أى الحرية •

٥ ـ العرب :

كانت القومية العربية فى القرن العشرين تعبير شعب تقاسم لغة مشتركة ، مع ماض عظيم ، وأيا كانت الوحدات السياسية التى وجدوا

فيها ، فقد تكون الاحساس بالهوية العربية وتكونت أمانى شعب اعتبر أفراده أنفسهم جميعا عربا ، تدريجيا خلال القرن ، ووصل كل هذا الى ذروة عاطفية عالية بعد الحرب العالمية الثانية بعقد من السنين ٠

ولقد امتصت القومية العربية ، أو تخطت حدود الولاءات الأخرى التى هيأت قواعد بديلة عن التماثل والتعلق فى صفوف الشعوب العربية ٠ وغطت على التعلق العاطفى بالدولة القومية ، وعلى الارتباط بغير المرحلة العربية من التاريخ الطويل للأراضى القديمة بالشرق الأوسط وشمال أفريقية ٠ وبرغم أن مصر أقامت تمثال رمسيس الثانى الضخم وسط القاهرة ، وجعلت معظم اهتمام السياح ينصب على الأهرامات والمقابر ، فقد كان التقليد العربى أكثر من الفرعونى ، هو الذى بنت فوقه مصر الحديثة احساسها برسالتها وهويتها ٠ واذ نهضت القومية العربية ، تضاءل الجهد من أجل التركيز على مصر ، بوصفها دولة قومية تضرب بجذورها فى أعماق ماضى الفراعنة ٠ وأخيرا انتصرت الهوية العربية باتحاد مصر وسوريا فى عام ١٩٥٨ ، وقيام الجمهورية العربية المتحدة والاستعاضة بها عن اسم « مصر » ٠

كذلك تجاوزت القومية العربية حدود الولاء للاسلام ، وان كان الاحساس بالعظمة العربية مرتبطا بالاحساس بأن الاسلام عربى فى حقيقته ٠ وكان مركز الاسلام ، وهو مكة المكرمة ، مدينة عربية ، وكانت العربية هى اللغة التى نزل بها القرآن ، واستمر يتلوه أو يردده بها جميع المؤمنين ، ومن الوجهة التاريخية كان العرب هم الذين حملوا الاسلام الى الشرق والى الغرب ٠ الا أن القومية العربية أفادت فى موازنة حركة الجامعة الاسلامية التى ظهرت فى أوائل القرن العشرين ، وسعت الى دعم سلطان الخليفة ، وكانت الحركة القومية تضم فى صفوف قادتها مسيحيين ودروزا عربا وضعوا الهوية القومية فوق الرابطة الدينية ٠ ومالت القومية العربية أيضا الى طمس الولاءات للأسر المالكة وضروب الولاء الشخصى الأخرى التى كانت الشكل الرئيسى للارتباط فى الاقليم ، والتى استمرت تميز العلاقات فى داخل العالم العربى حتى منتصف القرن العشرين ٠

واستمدت القومية العربية الكثير من قوتها وجذوتها العاطفية من حقيقة أنها أصبحت أكثر فأكثر نقطة يتركز حولها العداء لدول الغرب الاستعمارية ٠ فالشعور المعادى للاستعمار لم يكن فى أى مكان أقوى أو أكثر تشبعا بالسخط منه فى الشرق الأوسط ٠ ولم يكن هناك فى أى مكان آخر احساس بالخيانة أشد مرارة ٠٠٠ ففى مناخ منتصف القرن

العشرين بدت جهود الدول الغربية لحماية مصالحها فى المنطقة اهانة لا تحتمل بصفة خاصة ، موجهة الى كرامة شعب فخور ، وأتاحت القومية العربية مخرجا ينفذ منه هذا الغضب الشديد ٠

وجاء الدافع المبدئى على القومية العربية من البعث الاسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر ، والذى استمد الالهام من روح جمال الدين الأفغانى القومية ، ومن فكرة الجامعة الاسلامية ، ومن ليبرالية محمد عبده الذى أعتقد أن فى أمكان الاسلام أن يتطهر ، وأن يستوعب الأفكار الفنية والاجتماعية الحديثة ، وأن يجدد قوة المجتمع الاسلامى ٠ ونشط التعليم الذى وفرته الارساليات الدينية أفكار القومية العلمانية بالمعنى الغربى ، فقد كان نفر من أنشط أعضاء الحركة القومية العربية من خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت ٠

ان حركة « تركيا الفتاة » فى عام ١٩٠٨ بدعوتها الى « الحرية والاخاء والمساواة » بدا فى نظر العرب أنها تهيىء منفذا لوعيهم الذاتى الآخذ فى اليقظة ٠ ففى الامبراطورية العثمانية المتعددة الثقافات ، حيث الادارة يتولاها الباشوات الأتراك ، وان احتفظت القوميات بشخصيتها فى داخل الامبراطورية ــ ظن العرب أنهم يكسبون استقلالا أكبر فى ظل الحكم الدستورى الذى اقترحه رجال تركيا الفتاة ٠ ولكن رجال تركيا الفتاة كانوا يتخيلون دولة قومية يجب أن تكون تركية فى الثقافة والولاء القومى ، وليس فى الحكم فحسب ٠

وراح العرب يدركون أنه لا مكان لهم فى حركة تؤدى الى التتريك أو الاصطباغ بالصبغة التركية ، واتجهوا نحو تشكيل منظمات خاصة بهم ، فكونوا بين عامى ١٩٠٨ ، ١٩١٢ سلسلة من الجمعيات السرية ٠ كان هدف هذه الجمعيات لا يزال هو عدم الانفصال عن تركيا ، ولكنه كان الحصول على حقوق سياسية كاملة ونصيب فعال فى ادارة الامبراطورية ٠ وفى باريس اجتمع عام ١٩١٣ أول مؤتمر عربى جامع بناء على المبادرة من جانب مجموعة من الطلبة العرب فى الخارج ، وصاغ مطالب مشابهة ٠

وجاء أكثر تشجيع عملى للقومية العربية من الدول الغربية الكبرى التى سعت الى استخدام الأطماع العربية لتحقيق أهدافها العسكرية هى ، فى الحرب العالمية الأولى ٠ واذ أصبحت تركيا مشتبكة فى الحرب ، وظهر أن الامبراطورية العثمانية قد تكون فى طريقها الى التفتت ، انتقلت أمانى العرب بالتدريج من المشاركة فى نطاق الامبراطورية الى الاستقلال ٠

والتمس القادة العرب التشجيع لأهدافهم من جانب الحلفاء ، وحصلوا عليه ، وفى عام ١٩١٦ رفع حسين شريف مكة راية « الثورة العربية الكبرى » ضد الأتراك • وهكذا باسم القومية العربية ، انقلب العرب المسلمون على دولة اسلامية أخرى ، وعجلوا بسقوط السلطان الذى كان خليفتهم أيضا •

ولكن الدول الكبرى لم تعبىء العرب وتزودهم بالاحساس بامكاناتهم فحسب ، ولكنها كذلك خلقت فى صفوفهم معنى مشتركا من السخط هيأ لقوميتهم اتجاها جديدا ومرارة جديدة • وخلال المفاوضات التى عن طريقها شجع البريطانيون العرب على الثورة ، فهم القادة العرب أنهم وعدوا بالتأييد من أجل الاستقلال • فعندما انحازوا الى قضية الحلفاء ظنوا أنهم يحاربون معاركهم هم لا معارك الحلفاء • ولكن فى تسوية السلام التى قسمت الأراضى العربية (الهلال الخصيب بين بريطانيا وفرنسا بوصفهما دولتين منتدبتين فى ظل عصبة الأمم ، رأوا أنفسهم مجرد قطع شطرنج فى لعبة سياسة الدول الكبرى الأوربية •

ومن ذلك الوقت فصاعدا أصبح الحماس العاطفى فى القومية العربية التى كانت حتى ذلك الحين غامضة ومعادية للاتراك أو ممتزجة بطموح الأسر المالكة ، نقول : ان هذا الحماس أصبح معاديا للغرب بقوة • وزادت حدة الاحساس بالسخط ، وأثير الشعور المعادى للغرب ، بفعل تصريح بلفور لعام ١٩١٧ الذى أعلن أن بريطانيا تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين • بدا « الوطن اليهودى » فى نظر العرب عدوانا على ما يعتقدون أنه أرضهم ، واتخذ فى ظل الحكم الاجنبى المفروض عن طريق نظام الانتداب ، طابع رأس جسر للغرب ذى التفكير الاستعمارى •

وأدخل اكتشاف النفط عاملا جديدا مؤثرا فى أمانى العرب • فمنذ فتح آبار النفط الضخمة فى العراق فى العشرينات ، وفى شبه الجزيرة العربية فى الثلاثينات ، أصبحت سياسة الدول الغربية فى الشرق الأوسط سياسة النفط • وأخضع العرب لنتائج الاتفاقات بين بعضها البعض ، وبين الدول وتركيا ، وهى الاتفاقات التى تصرفت فى الأرض وخلقت مصالح نفطية • ولكن بوصفهم أصحاب الأرض التى يستخرج منها النفط والتى ينقل عبرها بواسطة خطوط الأنابيب الكبيرة ، كان فى امكانهم أن يمارسوا بدورهم ضغطا على الدول • وبعد تأميم ايران لممتلكات شركة الأنجلو ـ ايرانيان البترولية فى عام ١٩٣١ والذى أدى الى رفع عام للنصيب الذى تحصل عليه من أرباح النفط ،

الدول المحلية فى جميع أرجاء الشرق الأوسط من حوالى ١٠ – ١٥ ٪ الى ٥٠ ٪ تقريبا ، نقول : انه بعد هــذا التأميم بصــفة خاصة أتاحت الثروات التي لم يحلم بها أحد والتي جاءت بها الايرادات النفطية الى خزائن العراق والعربية الســعودية ومشيختى الكويت والبحرين — أتاحت لهذه الحكومات الوسائل المالية لمتابعة أطماعها ، أما لنفسها أو للقضية العربية • وفى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية وضعتها سيطرتها على هذه الموارد البترولية التى كانت محط الأطماع فى مركز يجعلها تضرب الكتل الدولية المنافسة بعضها ببعض •

وفى سنوات مابين الحربين كانت ممارسة السيطرة الأوربية فى البلاد العربية موضع المقاومة القوية والمتكررة فى جميع أنحاء المنطقة • كانت هناك ثورات مسلحة ضد دعم السلطان البريطانى فى العراق فى أوائل العشرينات ، بل وكانت هناك مقاومة أشد عنفا للحكم الفرنسى فى سوريا • وفى فلسطين كانت المقاومة مستمرة تقريبا • ونجحت مصر فى الخلاص من الحماية البريطانية فى عام ١٩٢٢ • وخلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين كان الزعماء القبليون والشيع الدينية يقاومون امتداد الحكم الأوربى فى شمال أفريقية ، واستمرت مثل هذه المقاومة في الظهور ، كما حدث عندما شن الريف فى المغرب حملة دامت خمس سنوات من ١٩٢١ الى ١٩٢٦ • وكان بعض المقاومة ذا اتجاه شرقى ، وعبر بعض آخر عن أطماع قبلية أو أطماع أسر حاكمة ، وتركز البعض على الدين • وفى شمال أفريقيا بوجه خاص ، كانت القومية خلال هذه السنوات دينية بدرجة شديدة ، وغالبا ما كان من النــادر تمييز حركة البعث القومى من أجل التمسك الشديد بالاسلام الصحيح، عن الحركة القومية ضد التسلط الأوربى • وأصبحت الحركات القــومية فى صورة أو أخرى ، قوة دافعة فى البلاد العربية •

واذ زادت هذه الحركات حدة ، فان الخصم المشـــترك — الدول الاستعمارية الغربية — كان أوضح من رباط الوحدة المشترك • ومالت عوامل كثيرة الى تقسيم الشعوب العربية والوقوف فى طريق تحويل الاحساس بالتشابه أو التماثل مع الآخرين الذين دعوا أنفسهم عربا ، الى أى شكل جوهرى بدرجة أشد •

وتفاوت الى حد واسع مستوى التطور الاجتماعى والاقتصادى ، من مصر ولبنان اللذين كانت بهما معدلات مرتفعـــة نسبيا للتعليم ، وطبقة متوسطة كبيرة ، الى شبه الجزيرة العربية التى كانت تفتقر بالفعل الى جميع التسهيلات الحديثة للســـكان ، وذلك خارج منشئات النفط

الأجنبية • وكانت القبلية والبداوة واسعتى الانتشـــار ، وكان أقوى تقليد عربى هو فى الحقيقة التقليد البدوى • وكان أكثر من نصـــف سكان شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب وجزء كبير من شمـــال أفريقيا ، مكونا من بدو أو من شعوب رحل أخرى • وبتطور النقـــل الحديث والأسلحة الحربية فقد الكثيرون من الرحل مصادر عيشهم ، وهى قيادة القوافل والقتال • ولكنهم ظلوا رغم تضاؤل وظيفتهم الاقتصادية والعسكرية ، يستمسكون بطريقتهم التقليدية فى الحيـــاة ، وكانوا لايزالون ، على الأقل من الناحية السيكولوجية ، رجالا يمتطون ظهور الخيل أو الابل ويقيمون فى الخيام ، وليسوا من رجال القرية أو المدينة • ومال استقلالهم ونمط ولائهم الشخصى ، الى الوقوف فى طريق الاندماج الوطنى ، وان كانت اتجاهات العصر تدفعهم نحو أسلوب حيـــاة أكثر استقرارا •

وكانت قرى الفلاحين فى كل مكان تقريبا ـ جزءا من النظـــام الاقطاعى الذى يسيطر عليه كبار ملاك الأرض ممن ندر أن كان اهتمامهم برفاهية فلاحيهم لايعدو أن يكون اهتماما بعيدا محدودا ، أو قل أن شجعوهم على توقع التغيير الاجتماعى أو السعى اليه •

وظلت المنافسات بين الأسرات الحاكمة تعمل على الفرقة والشقاق • وظلت الحروب الصغيرة المستمرة بين الحكام المتجاورين ـ النمط السائد فى شبه الجزيرة العربية خلال الربع الأول من القرن ، الى أن تغلب ابن سعود رئيس الطائفة الوهابية على منافسيه الواحد بعد الآخر ، ومد سلطانه على معظم شبه الجزيرة • وفى أثناء توطيد ابن سعود لحكمه ، أزاح شريف مكة الهاشمى ، وحسين ، الذى سبق أن قاد الثورة العربية الكبرى • وعندما أجلست بريطانيا ابنى الحســـين على عرشى العراق والاردن على التوالى ، انتقل التنافس بين الاسرتين المالكتين من السيطرة على المدينة المقدسة الى زعامة القضية العربية •

وبالاضافة الى استمرار المنافسات بين الأسر الحاكمـة ، كانت الشعوب العربية مقسمة الى دول قومية منفصلة ، حددتهـــا الدول الأجنبية بطريقة قسرية بوجه عام • فأنشىء العراق فى ظل الوصـــاية وقسمت فرنسا منطقة انتدابها الى لبنان الذى كان نصف سكانه من أهل السنة والشيعة ، وأغلبية من العـــرب ، وأقلية كبيرة من الاكراد • وقسمت فرنســـا منطقة انتدابها الى لبنـــان الذى كان نصف سكانه من المسيحيين والذى كان النفوذ الفرنسى فيه قويا لوقت طويل ، وسوريا حيث أصبح الولاء الشديد للاسلام مرتبطا بالمقاومة الوطنية • وفى

فلسطين ـ حيث كانت بريطانيا فى خضم الورطة التى سبق أن خلقتها باعلان تأييدها لقضية كل من العرب واليهود ، أوجد البريطانيون مملكة الاردن الصحراوية كدولة عربية ٠

وفى كل من الأقاليم الخاضعة للانتداب ، وكذلك فى مصر التى كانت ترزح تحت نير الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ ثم أصبحت تحت الحماية فى عام ١٩١٤ ، وفى شمال أفريقية ، كان النضال القومى تقوم به وحدات سياسية منفصلة سعت الى، ثم حصلت علىدرجات متعاقبه من الحكم الذاتى والحقوق الدستورية ، وأخيرا على الاستقلال ٠ وعندما عادت حركة شاملة من أجل القومية العربية الى تأكيد ذاتها خـلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ، واجهت مصالح راسخة ارتبطت بالدول التى سبق أن ظهرت الى عالم الوجود ٠

وواجهت أيضا دعاوى متنافسـة من أجل الزعامة العربية ٠ ان موقع سوريا جعلها حجر الزاوية فى الوطن العربى ، ورحب بعض قادتها بفكرة « سوريا الكبرى » الممتدة من دمشق فى اتجاه الجنوب الشرقى والجنوب الغربى ٠ وكانت للعراق ميزة تمتعه بحرية أكبر خلال فترة مابين الحربين ، وبالثروة المستمدة من النفط ٠ وكانت مصر تضم أكبر السكان عددا ، وتنشر صحفا تقرأ على أوسع نطاق فى جميع أنحـاء الاقليم ، وتزود البلاد العربية الأخرى بالمدرسين والفنيين ٠

وجاءت أول حركة ملموسة نحو شكل ما من الوحدة السياسية ، نتيجة التشجيع من جانب البريطانيين فى أوائل الحرب العالمية الثانية عندما ظهر أن الحلفاء لايمكنهم الاعتماد على التـأييد العربى على نحو مافعلوا فى الحرب العالمية الأولى ، وأنهم فى الحقيقة قد يجدون العرب فى صفوف المؤيدين للمحور ، على نحو ما أظهرته ثورة فاشلة ضـد البريطانيين فى العراق ٠ ففى مايو من عام ١٩٤١ صرح أنتونى ايدن وزير خارجية بريطانيا ، بأن الحكومة البريطانية سوف تقدم تأييدها الكامل لأى مشروع للوحدة العربية يحظى برضاء العرب ، اذ بدا « أنه من الطبيعى ومن الحق معا أن تدعم الصلات الثقافية والاقتصادية وكذلك السياسية بين البلاد العربية » ٠*

وبناء على مبادرة مصر تكونت جامعة الدول العربية فى عام ١٩٤٤ ٠ ولكن القوميات المنفصلة ، والمنافسات على الزعامة ، والفوارق الثقافية

(*) صحيفة التايمز ، ٣٠ مايو ١٩٤١ ٠

وغيرها من العوامل المفضية الى الانقسام ، جعلت من الجامعة تنظيما مفكك العرى ، يتشكل من دول ذوات سيادة • وفي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، كانت الدول في آسيا الغربية وشمال أفريقية هي التي استفادت فرادى من موجة القومية التي اكتسحت العالم • فما ان حل عام ١٩٥٧ حتى كانت عشر دول عربية منفصلة كل منها عن الأخرى ، أعضاء بالأمم المتحدة ، ويجوز اعتبار السودان الذي يضع قدما في العالم العربي والأخرى في أفريقيا الاستوائية ـ الدولة الحادية عشرة •

ولكن القومية العربية لم تغمرها القوميات المنفصلة بالدول العربية، وسرعان ما اكتسبت قوة جديدة بفعل تدخل الدول الأوربية ، بشكل أو بآخر ، في الشرق الأوسط • فاذا انتهى نظام الاستعمار بالفعل في آسيا ، بدت بقاياه في العالم العربي أقل تقبلا منها عندما كان العرب يشاركون مع الكثير من بقية العالم في الخضوع للحكم الأوربي • فقد احتفظت بريطانيا بحقوق خاصة معينة في العراق ، فضلا عن حمايتها المفروضة على عدن وبعض مشيخات شبه الجزيرة العربية ، وكانت قناة السويس تحت الادارة الأوربية ، وكانت الجزائر تدار كجزء من فرنسا • وفوق كل شيء ظهرت اسرائيل بمثابة حربة رشقها الغرب في الجسم العربي •

وعملت نتائج حرب فلسطين بين العرب واسرائيل عام ١٩٤٨ ، على تنشيط الاحساس بالوحدة العربية وبالحاجة الى الوقوف جنبا الى جنب ضد تهديد مشترك • ولكن لم تصبح القومية العربية أكثر من سخط ، ولم تصبح اتجاها يربط بين الدول العربية في داخل الأمم المتحدة وتهديدا دائما لوجود اسرائيل المستمر ، الا بعد أن برز زعيم استطاع أن يركز المشاعر العربية على مركز واحد •

كان جمال عبد الناصر في أول الأمر زعيم حركة ثورية مصرية طردت الملك فاروق في عام ١٩٥٢ وطرحت برنامجا للاصلاح الاقتصادي والاجتماعي • وفي فترة وجيزة أصبح أبرز شخصية في العالم العربي ، ومعبرا بأكبر قدر من الاصرار والالحاح على الكراهية العربية لاسرائيل دون مهادنة • وعندما تدخلت بريطانيا وفرنسا بالقوة في السويس عام ١٩٥٦ ، أصبح ناصر هدف ذلك النوع من دبلوماسية الزوارق الحربية ، الذي كان علامة التكتيك (الأسلوب) الاستعماري في الماضي • ثم صار بعد ذلك رمز الوقفة العربية ضد استعمار الغرب •

وأعلن الدستور الذى أصدره ناصر لمصر فى بداية عام ١٩٥٦ أن مصر دولة عربية ودولة اسلامية فى وقت معا ٠

وكدولة عربية نظر ناصر الى مصر باعتبارها مركز وحدة عربية أو اتحاد فدرالى عربى ، وكانت الخطوة الاولى محاولة تحقيق وحدة تضم سوريا ومصر ٠ وكان من الدلالات الكاملة على انتصار القومية العربية على اقليمية الدول المنفصلة بعضها عن بعض ، أن اسم « مصر » بتاريخها الطويل وارتباطاتها الكثيرة ، استبدل به اسم « الجمهورية العربية المتحدة » ٠ وبوصفه المدافع عن العرب الذين كانوا لا يزالون خاضعين للقوى الغربية ، قدم الرئيس ناصر المساندة للثوار فى الجزائر وهيأ ملجأ للحكومة الوطنية الجزائرية التى تكونت فى المنفى ٠ بيد أن مصر بتصميمها على الزعامة العربية ، واجهت منافسة من جانب العراق ، ولم يكن ظاهرا على الفور ما اذا كان فى امكان روح القومية العربية أن تربط بين مختلف أجزاء العالم العربى على أساس سياسى ٠

وباعلان أن مصر دولة اسلامية ، كان ناصر يسعى الى ابقاء مركز الاسلام فى العرب على نحو ما كان عليه الحال دائما ، وذلك برغم ظهور باكستان كدولة اسلامية وبرغم التفوق العددى لغير العرب فى مجموع سكان العالم المسلمين ٠ الا أن هذا الاهتمام بهذه الناحية كان يشغل مركزا ثانويا بالنسبة الى التركيز على العروبة ، ذلك أن دستور الجمهورية العربية المتحدة المؤقت (١٩٥٨) أعلن فقط أن «الجمهورية العربية المتحدة جمهورية ديموقراطية ، مستقلة ذات سيادة ، وشعبها جزء من الأمة العربية » ٠ ولم يرد به ذكر للاسلام ٠

كذلك أعلن ناصر أن مصر دولة أفريقية ، وراح بالنيابة عن العرب يسعى الى التعاون مع أفريقية السوداء ، عندما خرجت من الاستعمار والقبلية ٠ كان الاسلام قويا فى أجزاء من القارة الأفريقية وكان آخذا فى الانتشار ، فأعلن السودان أنه من الدول العربية ، مع ايثاره الاستقلال ، ووجه راديو القاهرة برامجه الخاصة باستمرار الى الجنوب والجنوب العربى ، وكان ممثلو الجمهورية العربية المتحدة على استعداد ليلعبوا أى دور هام بقدر الامكان فى أى اجتماع من الدول أو المجموعات الأفريقية ٠

هذه الحركات كانت جزءا من « سياسة القوة » فى منتصف القرن العشرين عندما تحدث السياسيون عن «فراغ القوة» فى الشرق الأوسط ، وكان النفط حيويا ، وكان العالمان الشيوعى وغير الشيوعى على طرفى نقيض ، وكان فى امكان من ينجح فى تنظيم وتجديد المنطقة العربية ، أن

يلعب دورا استراتيجيا • ولكن تحت هذه الحقائق السياسية الصلدة كان يكمن الحلم الغامض عن « وطن » عربي يمتد من الخليج العربي (الفارسي) الى المحيط الأطلسي ، واحساس عاطفي قوى بالهوية أو الشخصية العربية • فبرغم التخلف التكنولوجي والافتقار الى التنمية الاقتصادية ، والكثير من الفقر والجهل ، وكل مشكلة انتابت البلاد المتخلفة فى العالم الحديث ـ كان الشعب العربي يساوره الاحساس بأنه يتعرض لبعث روحى ، ويقف على عتبة عصر جديد من العظمة العربية •

(ب) ثقافات الأراضى التى استوطنت حديثا

وعلى النقيض من المجتمعات القديمة التى استمدت من ماضيها التاريخى ما تجدد به حياتها فى القرن العشرين ، فان البلاد التى جرى استيطانها فى أزمنة حديثة نسبيا ـ فى الأمريكتين واستراليا ونيوزيلندا ـ كانت ترنو بأبصارها من الناحية الثقافية الى المستقبل • لقد أنشأ هذه البلدان الجديدة قوم طرحوا وراءهم ماضيهم عن عمد ، وغامروا بحياة جديدة فى قارة شاغرة أو مجتمع جديد • وكان الأمل يداعبهم ، وكانوا يتوقعون أن يكون مصير الأبناء مختلفا عن مصير الآباء وخيرا منه • وكانت الروح الرائدة بهذه البلدان تجددها باستمرار سيول المهاجرين الجدد الوافدين اليها ، وتكرر انتقال المستوطنين القدامى الى أقاليم جديدة من أرض لم تستغل أو الى ميادين جديدة من النشاط •

فى هذه البلاد جميعا فى القرن العشرين كان ثمة حنين الى « العالم القديم » فبعضها يبحث عن جذور فى تراث أوربا الثقافى ، وكان يساور بعضها احساس بنقص ثقافى يجاهدون من أجل الخلاص منه • ولكن أمثال هذه الجواذب المتأخرة كان يوازنها ويزيد عليها الاحساس بأن هذه شعوب جعلت مصيرها فى أيديها ، وكانت عيونها مركزة على المستقبل من أجل أبنائهم وأبناء أبنائهم •

١ ـ الولايات المتحدة :

ان المصطلحات المألوفة التى غالبا ما تطلق على الولايات المتحدة ، تعكس اتجاه ثقافتها نحو المستقبل : « أرض الفرصة » ، حلم المهاجر عن « الذهب الذى يغطى الشوارع » والايعاز القائل : « اتجه غربا أيها الشاب » • كانت الأسطورة المنقوشة على تمثال الحرية فى مرفأ نيويورك تعلن عن أرض نذرت لمستقبل يستطيع الكل أن يتطلع اليه ، مهما كان

ماضيهم : « أعطونى جماهيركم المكدودة الفقيرة المتكالبة ، التى تحن الى استنشاق الحرية » .

كان الشعب الأمريكى منذ بداياته كامة ، على وعى ذاتى بالتجربة التاريخية التى يعيشها . لقد رأى نفسه فى « أرض الميعاد » كأنه يبنى نوعا جديدا من الحياة ونوعا جديدا من المجتمع ، سوف يكون نموذجا لبقية العالم . ولم يتوقف أبدا عن أن يأخذ كقضية مسلمة أن الولايات المتحدة تجربة فريدة تصلح لأن تحتـــذى ، وأن فى امكان كل طراز من الناس فى أى مكان آخر ، أن يستخدم نظرة هذا الشعب الى الحياة فى مجتمع مكون من جميع الطرز من الناس .

كان « الحلم الأمريكى » ـ الأسطورة الاجتماعية التى اجتذبت ملايين الأوربيين الى الشواطىء الأمريكية ـ موكبا من فلسفة الاستنارة بالقرن الثامن عشر بما فيها من عقلانية وتفاؤل ، ومن الشدائد والمكافآت التى تلازم تعمير قارة ، وكانوا يستمدون زادا وعدة من تراث الأنظمة البريطانية ، وكانت مبـادىء الأخلاق الكلفنية يوفر الكثير من الحـافز الأصلى . وكان الحلم يرتكز على الافتراض الأســاسى بأن فى امكان الانسان بمجهوده ، أن يسير قدما نحو هدف دنيوى ، وأن يتغلب على الصعاب التى تضعها فى طريقه الطبيعة التى يمكن اخضاعها ، وتضعها أخطاء الانسان التى يمكن علاجها . ويستطيع المجتمع أن يصنع نفسه من جديد ، وأن يجدد نفسه ويدنو من الظروف المؤدية الى حياة مثالية .

فى هذه الثورة الدائبة ، حيث جهد الفرد يسانده الوعى الاجتماعى والجهد الاجتماعى الناجح الذى تبذله الجماعات المتطوعة ، كانت للعمل قيمة عالية ، وكان النجاح مقياس الجدارة الفردية ، وكان الرخاء المادى هدفا اجتماعيا ، وكانت الحرية بمثابة الظروف المواتية . ولم تكن هذه أهدافا ذات صــبغة مادية بحتة ، كما تظهر فى الغــالب فى نظر الغير . فالحافز الأمريكى على الرخاء المادى كان فى جــوهره تعبيرا عن رفض الاستكانة الى الفقر والشقاء ، وكأنهما أمران محتومان على الانسان . ففى النظرة الأمريكية عمل الرخاء المادى والصحة والتعليم ، على تحرير الناس كى يحيوا حياة قوامها الكرامة البشرية . واذ اعتقد الأمريكيون اعتقادا عميقا فى امكانات الناس المحتملة ، أصروا على وجوب أن تكون الفرصه مفتوحة أمام جميع من يعملون من أجل تحقيق حياة أفضل لأنفســهم ولأطفالهم .

ففى كل التجربة الأمريكية كانت هذه الرؤيا الأساسية تؤخذ قضية

مسلمة ، مهما كانت بعيدة عن التحقيق من الناحية العملية • كانت هناك صراعات حادة حول كيفية تحقيقها ، فقد وهن الايمان البسيط فى التقدم الأوتوماتيكى وراح يبدو ساذجا ، وأسىء استخدام شـــعارات الفردية والحرية والنشاط اســـتخدمت لاقرار وضمان قوة الشركات ، وكان التعصب والتفرقة ، وخاصة ضد الزنوج ـ ينطويان على سخرية بمبادىء تكافؤ الفرص • وكان الشعب الهندى الأصلى الصـــغير الذى زحزح من مواطنه فى أثناء عملية الاستيطان ، وأبعد الى المعازل ـ موضع النسيان الى حد كبير • وفى عملية ازالة التناقض الممثل فى الرق ، من مجتمع التزم بالديموقراطية والمساواة ـ مزقت الحرب الأهلية فى الستينات من القرن التاسع عشر ، البلاد من الناحية الاقليمية وخلفت فى بعض الأقاليم فقرا ومرارة وحنينا ، كانت كلها لا تزال تعمل على عرقلة تحقيق المثل العليا القومية فى منتصف القرن العشرين •

ولكن لم تكن التعاليم الأساسية موضع جدل خطير الا من جانب مجموعات صغيرة من المتطرفين ، على حين تعلق الشعب فى مجموعه فى عناد وصلابة بالايمان الذى سبق أن جاء بأفرآده أو بآبائهم أو بأجدادهم الى الشـــواطىء الأمريكية • وحتى فى غمرة الكســـاد الذى حل فى الثلاثينات ، كانت البدائل أو التغييرات الجذرية تلقى استجابة يسيرة • وبرغم أن الماركسية اجتذبت عددا من المفكرين وبعض المجموعات العمالية ، وبرغم أن الفاشـــية جمعت حولها بعض الجماعات المشـــبعة بروح « الكراهية » ، ظلت الجمهرة الكبرى من الناس فى جميع المســـتويات واثقة من امكان وجود مخرج فى داخل اطار الدســـتور الديموقراطى ، ونظام المشروع أو القطاع الخاص ، كى تعيد بناء الأحوال التى تستطيع فى ظلها أن تعيش حياة مثمرة باطراد •

وأضفت التجربة التاريخية واقعا كبيرا على المثل الأعلى الاجتماعى • كانت فى أول أمرها ترتكز فى ثبات على تقليد زراعى تشكل فى عملية الاستيطان • فقد كانت الأرض والمناخ ، بوجه عام ـ رفيقين بالانسان • وبرغم أن الغابات كانت مظلمة ، والبرارى واسـعة ، والتـلال صخرية والأنهار خطرة فى حال فيضانها ـ كانت التربة فى الغالب خصبة ، وكان المطر كافيا ، وأمكن اجتياز الحواجز الممثلة فى الجبال ، ولم ينطو من المناخ على برد المنـاطق القطبية ، ولاحرارة الغابة أو الصـحراء بالمناطق الاستوائية • فى مثل هذه الأرض كان فى امكان الرجال ذوى الشجاعة والاقدام والجلد والبراعة أن يحصلوا على الرزق نتيجة الجهد المتواصل وبمســـاعدة النصوص الملائمة المتعلقـــة بتملك الأرض ظهرت الأسرات

الأرض ، وبنت بيوتا ، وأقامت لممارسة الزراعة أو رحلت من جديد • فمنذ الأربعينات من القرن التاسع عشر كان فى مقدور من يضعون اليد على الأرض أن يشتروا الأرض التى يشـــغلونها ، بأقل ثمن ، وابتداء من الستينات كان فى أمكان المستوطن أن يطالب بملكية ضيعة مساحتها ١٦٠ فدانا بمجرد اقامته عليها وفلحها فحسب• وبعملية الاستيطان هذه بنيت دعائم الديموقراطية والنزعة الفردية على قاعدة زراعية والحق أن بعض المؤرخين عزا عبقرية الحياة السياسية والاجتماعية الأمريكية الى ما كان لهذا الحد المتنقل (الأرض) من نتائج غير مباشرة على المجتمع كله •

وفى نفس الوقت الذى حدث فيه استيطان القارة تأصلت جذور الصناعة ، ونمت فى ظل ظروف جعلت العمل نادرا ، والقت عبئا ثقيلا على البراعة الميكانيكية وأساليب توفير الجهد ، وخلال معظم القرن التاسع عشر زاد عدد أهل الحضر ، بل وبأسرع ممـــا زاد عدد سكان الريف ، وبعد عام ١٨٧٠ سار التوسع الصناعى بخطى متزايدة السرعة ؛ فقـــد اجتذبت كل من الأرض والصناعة فيضا مستمرا من المهاجرين الفلاحين من كل جزء بأوربا ، ليمتزجوا ويشكلوا الشعب الأمريكى •

هذه الظروف وغيرها مما انطوت عليه الحياة الأمريكية ، تكاتفت لتدعم الصورة الأسياسية التى رسمتها أمريكا لنفسها • ولم يكن بأمريكا تراث اقطاعى • وبرغم أن الفوارق الطبقية كانت ملحوظة ، فأن الطبقات التى تشكلت كانت حديثة النشـــأة ، وفى امكان أى فرد أن يتطلع الى اللحاق بها • وكان « الرجل العصامى » نموذجا أو قالبا أمريكيا ، ثابتا، محببا الى النفوس ، وكان الناجحون من الســـياسيين ورجال الأعمال والكتاب وأرباب المهن يشيرون بفخر الى بداياتهم المتواضعة • كان النظام الطبقى فى تغير مستمر ، وكان المثل القائل « ينتقل المرء من الضعة الى رفعة الشأن ثم يعود وضيعا ، فى ثلاثة أجيال » تعبيرا عن الافتراض بأن المركز الطبقى لم يكن جامدا أو ســـاكنا ، ولكن لا يمكن الابقـــاء عليه الا بالجهد الدائب •

وكان الأمريكيون يسلمون تسليما بأنهم يتفقون مع العصر ، وأنهم مثال يمكن أن يحتذيه الآخرون ، لأن الاتجاهات الكبرى فى العالم الحديث ــ التكنولوجيا الصناعية ، المشروعات الرأســمالية ، المبادىء والأنظمة الديموقراطية ــ كانت العناصر الأساسية التى يتكون منهـا تقليدهم • وهذه لم يكن ليصدها نمط أو كيان سابق ، كما لم تكن ثمة حاجة الى نبذ عناصر التقليد المتعارضـــة فى سبيل اقامتها على أساس ثورى • كان

« النظام الأمريكى » موضع القبول الكامل والمتصل من جانب التقليد الامريكى ، ومن ثم يمكن الافتراض بانه من حيث أساسياته ، لا يرقى اليه الشك أو الجدل ·

ولكن كان لابد لمجتمع مبنى على الاحساس بالاستبشار والوعد ، أن يقصر عن بلوغ غاياته ، وكانت هناك دائما ثغرات كثيرة بين الحلم والواقع · كان الأمريكيون منذ بداية أمرهم يمارسون النقد الذاتى ، لأن انكار المبادىء الأساسية كان يجلب احساسا بالذنب والاخفاق · كان النقد الذاتى ونزعة الدفاع عن النفس ـ وحتى التعبيرات العنيفة عن التعصب ـ انعكاسات للضيق الذى استشعره الأمريكيون بصدد التناقضات بين المثل العليا والحياة اليومية ·

وفضلا عن هذا ، فالمجتمع المفتوح الفردى النزعة ، الذى يسوده التنافس ، بتوكيده على النجاح وباستيعابه المستمر لأناس جدد ، هذا المجتمع فرض على الفرد مطالب نفسية ثقيلة · ففى البرية الموحشة أو فى عالم الغرباء ، كان على كل رجل أن يهيىء لنفسه مكانا ، ولم يكن ليقتصر على تقبله · وكان الاعتماد على النفس قاعدة قاسية توحى بالعزلة ، وليس مما يبعث على الدهشة أن الذين طالبتهم هذه القاعدة باكثر مما ينبغى ، راحوا يلقون همومهم على عاتق الغير · فاذ أخذت المجموعات المتعاقبة من المهاجرين تقوم بأقل الأعمال أجرا وتشغل أفقر المساكن ـ فان كلا منها ـ بدورها : الارلندية ، الكندية الفرنسية ، الايطالية ، المكسيكية ـ قابلت فكرة راسخة متكررة تعزو أحوال الفقر والجهل الى خصائص يفترض أنها فطرية ، واذ استقرت كل جماعة ، واصل أفرادها تطبيق نفس الفكرة الراسخة على أحدث الوافدين · ومن وقت لآخر استغل الديماجوجيون أو الرعاع عوامل القلق الكامنة تحت السطح ، وحولوا المخاوف الكامنة الى فورات من الكراهية ·

كان المجتمع الأمريكى منطويا على ذاته ، باختياره ، فضلا عن حكم الموقع الجغرافى · فان الشعب الأمريكى عندما هاجر تخلى عن الاراضى التى نشأ فيها وألقى بمصيره فى « العالم الجديد » وقد يستشعر أفراده نزعة عاطفية ازاء « البلد القديم » أو يرسلون المال الى الأقارب ، ولكنهم لم يريدوا النظر الى الوراء أو التورط فى شئون أوربا · وكانت العزلة تعبيرا لأناس رأوا « قدرهم الواضح » فى داخل قارتهم ، واتخذت أمانيهم شكل مستقبل لأطفالهم ، لا مركز قوة فى العالم ·

وخلال القرن العشرين تعرضت الصورة التى رسمها الأمريكيون

لأنفسهم الى شدائد كثيرة • ففى العقود الأولى بلغ فيض الهجرة الذروة ، والقى عبئا ثقيلا على عملية الاندماج • كان الافتراض التقليدى هو أن كل من جاء بنية أن يجعل من الولايات المتحدة وطنه ، أصبح أمريكيا بمجرد أن تطأ قدماه شواطئها ، أو على الأقل بمجرد ان يستخرج أوراق اكتساب الجنسية • ولكن أصبح ظاهرا فى ذروة الهجرة الجماعية أن «البوتقة» لم تعمل عملها بسرعة وبصورة كاملة ، كما توقع البعض ، برغم أن ملايين الفلاحين من بلاد مختلفة كثيرة ، ممن لم يكونوا معتادين تماما على العمليات الديموقراطية والحياة الصناعية الحضرية ، تعلموا كيف يضطلعون بوظائفهم على نحو فعال داخل أنظمة المجتمع الأمريكى •

وأدت موجة من الشعور المعادى للهجرة الى تشريع يقيدها بعد عام ١٩٢٠ ، وضع نهاية لفصل طويل فى تاريخ كل من أوربا والولايات المتحدة • وحدد هذا التشريع حصصا قائمة على التفرقة ضد أهل جنوب وشرق أوربا ــ أحدث الجماعات المهاجرة ــ بتهمة أنهم أقل « استعدادا للاندماج » ، وعزا اليهم الافكار الراسخة المألوفة عن الفقر والجهل • وقدر لنظام الحصص أن يسبب الحرج بعد ذلك بسنوات عندما وصل أبناء وأحفاد المهاجرين الطليان والبولنديين الى مراكز التألق والزعامة ، ولكنه ظل لعشرات من السنين فى سجلات القوانين ــ رمزا للقلق الذى أحدق بشعب مختلط يجاهد كى يكون شعبا واحدا •

ان الاخفاق المستمر فى منح الأقليات العنصرية المساواة الكاملة فى الفرصة والمركز الاجتماعى ، بل وفى ضمان الحقوق الأولية للمواطنين الزنوج هذا الاخفاق ظل شوكة فى الضمير الأمريكى ، ومصدر صراع زاد من مرارته ما يكمن تحته من الاحساس بالذنب • وخففت الحملات المنظمة على التفرقة ، تخفيفا بطيئا ، من العقبات القائمة فى وجه التوظف والتعليم والمشاركة السياسية والتمتع بطيبات المجتمع • ولم يتوقف الزنوج أبدا عن الاعتقاد بأن المبادىء الأمريكية سوف تطبق عليهم فى نهاية الأمر • ولكن ظلت التفرقة العنصرية فى أعين الامريكيين أنفسهم الوصمة التى تلطخ الحياة الأمريكية •

وأخرجت الحربان العالميتان الولايات المتحدة من عزلتها ، والقت بها فى خضم الشئون العالمية (١٤ ، ١٥) وبعد الصراع الأول عادت الرغبة القديمة فى نبذ أوربا ، لتؤكد وجودها وبقدر من القوة ، بحيث حالت دون اشتراك أمريكا فى عصبة الامم ، برغم احساس الكثيرين من الناس أن البلد كان قد بلغ درجة من النضج تؤهله للاضطلاع بنصيب

من المسئولية العالمية ٠ ولكن بعد الحرب العالمية الثانية لم تستطع الولايات المتحدة الانسحاب ، كما فعلت من قبل ٠ وراح الامريكيون ، وعلى غير رضا منهم ، يتجاوزون مشاغلهم هم وينظرون الى المشكلات العالمية ، وتحملوا الضرائب كي يوفروا المعونة المالية لأجزاء أخرى بالعالم، وأنفقوا مبالغ ضخمة على الدفاع العسكرى ، وحاولوا أن يلعبوا دورا يتفق مع المركز الذى وجدوا أنفسهم فيه :

وأثارت التنمية الاقتصادية أسئلة تتعلق بمدى صلاحية المبادىء والأساليب التى صيغت فى أزمنة أخرى ٠ فخلال العشرينات كان هناك الكثير من النقد الذاتى والنقاش حول نتائج حضارة الآلة ٠ ووسط الرخاء المشهود فى هذه الفترة ، بدأ كثير من الناس يتساءلون عما اذا كانت المساواة والديموقراطية والاستقلال متمشية مع ما تتصف به الحياة بالمصنع من رتابة وتنظيم دقيق ٠ ولكن كساد الثلاثينات خلخل الايمان بالحلم الامريكى : أين الحرية حيث لا يجد المرء مكانا يذهب اليه ؛ أين مستوى المعيشة الأمريكى حيث لا يتوفر العمل ؟ وبوجه خاص ، أين احترام النفس اذا لم يكن هناك العمل ؟ ولما كان النجاح هو الهدف المقرر من الناحية الثقافية ، فان الافتقار اليه ترك الناس دون احساس بالتوجيه، وتركهم يئنون تحت ثقل الفشل المخيف ٠ وكانت التجربة مدمرة بوجه خاص بالنسبة الى الكثيرين من أطفال المهاجرين ، وهم الذين بلغوا الرشد فى هذه السنوات ؛ ذلك أنهم كانوا قد تعلموا أن يجعلوا الانتماء الى أمريكا مرادفا لمستوى عال من المعيشة والنجاح ، الا أنهم وجدوا باب الفرصة موصدا فى وجوههم، وترك هذا علامة عميقة على النظرة الامريكية، وأثار الرغبة فى الأمن فى مجتمع كان حتى ذلك الحين معنيا بالفرصة ، بصفة رئيسية ٠

ولكن كان من أشد المكونات الحاحا فى التقليد الامريكى ، روح الاصلاح التى جعلت الامريكيين يواصلون دائما العمل الذى لم يتم ، وهو ازالة ما فى مجتمعهم من مظالم ونقائص ٠ فالنظام الجديد New Deal فى الثلاثينات ، وهو الذى أعاد تشكيل الكثير من الانظمة ، استجابة للكساد ، كان جزءا من هذا التقليد ٠ كان جهدا براجماتيا عمليا لجعل النظم الأمريكية تعمل بطريقة أفضل ، وليس لنبذها ، وكان يسعى الى مواجهة مشكلات اقتصاد رأسمالى حديث داخل اطار الحرية والديموقراطية، وأعاد الى الأمريكيين الاحساس بأن مبادئهم الاساسية وأسلوبهم المعتاد فى معالجة المشكلات أتاح لهم الوسائل لمواصلة السير فى طريقهم فى ظل الظروف الجديدة التى تنطوى عليها الحياة الاقتصادية الحديثة ٠

وجلب نمـــو التنظيم الواسع النطاق مشـــكلات أخرى • فحلت البيروقراطيات فى الحكومة والصناعة والمنظمات العمالية محل الكثير من النشاط الفردى الذى نمت جذوره فى الدكان الصغير وفى مزرعة الاسرة • وفى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية أصبح الامريكيون على ادراك «برجل التنظيم» وباتجاه الناس الى الاعتماد على الغير ، ليستمدوا منهم الأفكار والاحساس بالتوجيه ، بدلا من الاعتماد على أنفسهم ، ووجد علماء الاجتماع بعض أمارات تنم عن ازدياد الجمود الطبقى ، ولكن تحت ضغط الضرائب التصاعدية الثقيلة ارتفعت المستويات الاقتصادية الدنيا بأسرع ما ارتفعت العليا ، وبذا سدت الثغرة فى أنماط العيش• واحتفظت المبادرة والنشاط بقيمة ثقافية عالية وظلا يتضـــحان فى مجال الاعمال وحياة الجماعة • وجرى بصورة متزايدة تعريف أمانى النـاس فى كافة مجالات الحياة ، على ضوء مستويات مشتركة للاستهلاك والرفاهية •

وكان نجاح التجربة الامريكية هو البرهان المستمر أمام الامريكيين على طريقتهم فى الحيـــاة ، فبرغم اعتـــراف الامريـــكيين بان الحظ الحسن وضع قارة فى أيديهم فى وقت حرج من تاريخ العـــالم ، فانهم اعتبروا رخاءهم ، واســـتقرار مجتمعهم فى عالم مضـــطرب ، واطراد امتـــداد ديموقراطيتهم ـ دليلا على صحة مبادئهم • وفى القرن التاسع عشر رأوا تجربتهم فريدة ؛ اذ كانوا مشغولين باقامة طريقة ديموقراطية للحياة فى قارة لم يتم ترويضها • وفى القرن العشرين ظلوا يعتقدون فى تفردها ، ذلك انهم كانوا أول من أقام اقتصـــاد وفرة على أســـاس التكنولوجيا الحديثة ــ أول مجتمع كبير لم يرتكز على طبقة تحتية من الفقراء الذين يمكن استغلالهم •

وفى منتصف القرن كان الكثيرون من الامريكيين يسألون أنفسهم عما اذا كانوا وهم يحققون الرخاء ، قد أدركوا فى الحقيقة هدفهم • هل الطرق العامة الرئيسية المزدحمة بالسيارات الخاصة ، والأسواق العملاقة التى تتكدس فيها البضائع ، والضواحى الآخذة فى الامتداد باستمرار ، والألوان التى لا عد لهـــا من الراحة والرغد والترفيه ، زادت من الحياة الطيبة ؟ هل استمرار المشكلات الاجتماعية التى لم تحل : سوء السكنى، المدارس الشديدة الازدحام ، تلوث المياه ــ يعكس انصرافا أكثر من اللازم الى الاشباع الذاتى على حساب المسئولية العامة ؟ هل كان الناس بصدد أن يصبحوا أكثر طراوة ويفقدوا احساسهم بالهـدف ؟ الا أن الامريكيين حتى فى توجيه هذه الأسئلة الى أنفسهم ، استمروا يفترضون أن طريقهم

لم يكن صحيحا بالنسبة اليهم فحسب ، ولكنه مثال له قيمته بالنسبة الى الآخرين ٠

وظل أبراهام لنكولن أصدق صوت يتحـــدث باسم أمريكا ٠ فان ملايين الأمريكيين الذين ارتقوا درج نصـب لنكولن التذكارى فى عاصمة الأمة ليقفوا أمام هذه الصورة النحيلة العطوفة للمحرر العظيم ، أحسوا انهم هنا ، أكثر منهم فى أى مكان آخر ، فى حضرة روح أمريكا ٠ وكانت رؤيا لنكولن للكرامة الانسانية كامنة فى الحرية ، هى نفس الرؤيا التى كانوا يسعون هم أيضا ، الى تحقيقها ٠ وأن يكن بطريقة متعثرة ٠ وبرغم أنه كان فى امكانهم أن يتقبلوا فكريا حقيقة أن شعوبا أخرى فى ثقـافات أخرى قـد تأخذ بقيم أخـرى بقيمهم ، فانهم كانوا فى قرارة نفـــوسهم يعتقدون مع لنكولن أن « الروح التى تقـــدر قيمة الحرية » هى التراث المشترك « لجميع الرجال ، فى جميع البلاد ، فى كل مكان » ٠

٢ ــ كنـــدا :

ان كندا التى اقتسمت القارة مع الولايات المتـــحدة ، شاركتها أيضا نفس الروح الرائدة ، وكانت أيضا مجتمعا ديموقراطيا يسير فى طريق الصعود ، ناذرا نفسه للعمل ، ملتزما بمبدأ المساواة ، مكونا من مهاجرين يجاهدون من أجل النجاح ، مجتمعا عمليـــا (براجماتيا) فى نظرته الى الحياة ، فخورا بانجازاته ٠

ولــكن كان لدى كندا الكثير الذى أكسبها نظرة متميزة تماما عن نظرة جارتها الأكثر سكانا ؛ فأرضها ومناخها أصعب تذليلا واحتمالا ٠ ويقع جزء كبير من أرضها الشاسعة الى الشـــمال من الدائرة القطبية ، والجو قاس فى الكثير من الباقى ٠ ولم يكن هناك سوى شقة ضيقة من الشرق الى الغرب ، يمكن تعميرها بذلك النـــوع من استيطان الحدود ، والذى انتشر عبر الولايات المتحدة ٠ كان حد كندا واقعـا الى الشمال ، وهنا اعتمد الزحف على العلم والتكنولوجيا ــ على ســـلالات جديدة من القمح تستطيع أن تنضج فى فصل النمو القصير ، وعلى المسح الجوى المغناطيسى والطلب الجديد على اليورانيوم والكوبالت ، وعلى الرحلات الجوية لاقامة أود المستعمرات القطبية ٠

وكان مجتمع كندا مجتمعا يضم ثقافتين ؛ فكانت أغلبية سكانها من النـاطقين بالانجليزية ممن يغلب عليهم المذهب البروتستنتى ٠ وكان قد سمح لسكانها الفرنسيين بالاحتفاظ «بمزايا قوانينهم وتقاليدهم وعاداتهم

واستخدامها، عندما استحوذت بريطانيا على المنطقة من فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولم تتوقف كندا الفرنسية أبدا عن الاصرار على الحق فى انتهـــاج طريق حيـــاتها الذى تتميز به • وكان فى جوهره مجتمعا من الفلاحين ، محافظا ، شديد التعلق بالكنيسة الكاثوليكية التى لعبت دورا رئيسيا فى حياة الجماعة • وكانت النظرة الكندية ، وكل ناحية بالفعل من نواحى المجتمع الكندى ـ متأثرتين بالحاجة الى التوفيق بين جماعات ذات ثقافات متباينة ، واحتمال الفوارق الواسعة ، والمحافظة على جو من الاحترام المتبـــادل الذى يمكن جميع العنـــاصر من السير قدما ، معا ، باعتبـــارهم كنديين • وأصبح الكنديون سادة فن خلق مشاركة ناجحة ودعمها •

ووفرت الامبراطورية البريطانية الاطار الذى حلت كندا فى داخله مشكلاتها العسيرة المتعلقة بالجغرافية والسكان • وفى هذه العـــلاقة أيضا كانت المشاركة هى المفتاح • ففى داخل بنيان الامبراطورية المرن تحركت كندا نحو الحـــكم الذاتى والاستقلال دون أن تقـطع صلتها أبدا بالبلد الأم ، وخلقت أمة من جزر سكانية صغيرة تفصل بينها مسافات واسعة• وفى هذه العملية كان لها أثرها من حيث تحويل الامبراطورية البريطانية الى الكومنولث ؛ ذلك أن كل خطوة فى هذا التحويل من اصلاحات درام Durham لعـــام ١٨٣٨ الى قانون وستمنستر فى عـــام ١٩٣١ ، قد ابتدعت لتلائم الموقف وتلبى مطالب كندا ، وهى أكثر وحدات الامبراطورية تطورا واستقلالا من النـــاحية السياسية ، وأصبحت الممتلكات المستقلة الاخرى (الدومينيون) هى المستفيدة من العملية •

وبشعب صغير ينمـــو ببــطء ، وبأرض شاسعة وصعبة ، كانت مشروعات كندا للتنمية وبنيان النظم فيهـــا ، بوجه عام ، تسبق ظروف الواقع • فبينما كان الناس فى الولايات المتحدة يتخطون بصورة متكررة، الحدود المفروضة عليهم ، فى حركة السكان وفى كل نوع من الأنشطة ، بحيث تعين باستمرار أن تلحق بهم الأنظمة الرسمية وعمليـــات الحكم المنظمة ـ ابتدعت كندا بصورة متكررة اطار النظم قبل أن كان هناك ناس يستخدمونه • كان الرمز الدال على حد كندا هو البوليس الكندى الملكى الراكب ـ « الفارس ذو الرداء الأحمر » ـ على خلاف صورة « الغـــرب الموحش » فى الولايات المتحدة • وكانت للمبادرة الفردية قيمتها ، ولكن الكنديين أخذوا كقضية مسلمة أن العمل العام ضرورى لخلق الاحوال التى يمكن فيها ممارسة هذه المبادرة الفردية •

ويوصف كندا الشريك الأصغر فيعلاقات ناجحة وثيقة مع الولايات المتحدة ، فانها لقيت بعض العنت فى المحافظة على مصالحها وهويتها ٠ فحجم الولايات المتحدة وحده وتطورها الصناعى قبل كندا ، جعلاها مغناطيسا يجذب الكنديين الباحثين عن الفرصة ٠ فعبر أعداد كبيرة من أهل الريف والحضر ، الحدود الى المدن الآخذة فى النمو فى الولايات المتحدة ٠ فمن ١٨٥٠ الى ١٩٥٠ كان النزوح من كندا معادلا فعلا للهجرة اليها من الخارج ، وفى عام ١٩٥٠ كان هناك ما يقرب من مليون شخص من مواليد كندا يعيشون فى الولايات المتحدة ، بالقياس الى مجموعسكان كندا البالغ ١٤ مليون نسمة ٠ وارتبط الكنديون والامريكيون عن طريق منظمات مشتركة : نقابات العمال ، الهيئات المهنية ، الجماعات الدينية ورجال الاعمال والجماعات المتطوعة ــ وكان الكنديون عادة يمثلون الأقلية وهنا أيضا ، فان قدرة كندا على المحافظة على سلامتها فى داخل علاقة قائمة على المشاركة ، هذه القدرة أبقت على هويتها وحافزها الباطنى سليمين لم يمسا ٠

وفى منتصف القرن العشرين رأى الكنديون أنفسهم وقد بدأوا فى كشف الغطاء عن الثروة غير المحدودة فى شمالهم المتجمد ، بمساعدة العلم ، وبقدرتهم على ايجاد الأنظمة اللازمة ، وبشعب لا تعوقه المشاق ٠ وكزعيمة داخل الكومنولث البريطانى ، وكعضو يزداد قوة فى الرابطة الأمريكية الشمالية ، كانت كندا فى مركز يجعلها تستفيد وتستمد قوة من كلتا الرابطتين ٠ وعلى أساس نجاح الكنديين فى خلق مجتمع من ثقافتين ، وفى ضبط علاقاتهم الداخلية والخارجية ، اعتقدوا أن لديهم اسهاما فريدا يقدمونه الى عالم كانت فيه الأمم والشعوب فى حاجة مستميتة الى ايجاد طرائق عملية للعيش والعمل معا ٠

٣ ــ بلاد أمريكا الاسبانية :

تنقسم بلاد أمريكا الجنوبية والوسطى الى مجموعتين : بلاد سكانها أساسا من أصل هندى ومختلط ، مثل المكسيك وجواتيمالا واكوادور وبيرو وبوليفيا ، وبلاد ــ شأنها شأن كندا والولايات المتحدة ــ كانت فى جوهرها نتاج الاستيطان الاوربى ، برغم أنه قد لا تزال هناك أقليات من المجموعات السكانية الوطنية ، كأنها جزر أو بقاع صغيرة منعزلة ، اسهمت اسهاما كبيرا فى التكوين العنصرى لمجموع السكان العام ٠ وهذه البلاد الاخيرة كانت تضم الأرجنتين وكولومبيا وشيلى وفنزويلا وباراجواى ،

وكلها تتكلم الأسبانية ، وبعض البـــلاد المطلة على الكاريبى ، فضلا عن البرازيل التى تتكلم اللغة البرتغالية ٠

وكان لكل من البلاد الأســبانية تاريخه وطـابعه اللذان يميزانه ٠ كانت تشترك فى لغة مشتركة وتعبير مشترك ، وتخطيط للمدن والبنادر متشابه ، طبقا للطراز الذى وضعه حاكمها الأسبانى فى القرن السادس عشر ، كما اشتركت فى أن تاريخها القـــومى بدأ فى فترة التحرر من أسبانيا حوالى سنة ١٨٢٠ ٠ وكانت هوية البلاد المتعددة بعد الاستقلال تطابق بصورة جزئية ــ التقسيمات الادارية الاسبانية ، ولكن الحـدود لم تكن مستقرة ، وكانت الصراعات بين الدول المتجاورة جزءا من تاريخ معظم البلاد خلال السنوات المائة الاولى من وجودها ، ولقد كان التمثال الكبير «لمسيح» الأنديز ، الذى أقيم فى سنة ١٩٠٢ عند الحد الفاصل بين شيلى والأرجنتين رمزا على انتهـــاء أحد هذه الصراعات الطويلة ٠ وفعل تكوين منظمة الدول الامريكية فى عام ١٩٤٨ ، بنظامها القائم على الأمن المتبادل ــ الكثير من أجل تقليل التوترات بين البلاد الامريكية ، وتنمية التعاون فى مواجهة المشكلات المشتركة فى منتصف القرن العشرين ٠

ووجدت معظم هذه البلاد فى الولايات المتـــحدة السوق الرئيسية لمنتجاتها ، وكان هـذا البلد المصدر الكبير للاستثمار الاجنبى ، وان كان قدر كبير من قمح الارجنتين ولحومها يتجه الى بريطانيا ٠ وكان حتما أن تسخط هذه البلاد على هذا الاعتماد على جارها الأكبر منها والأغنى ، فى حين تشعر فى الوقت نفسه برابطة مشتركة معه ، ذلك أن الجمهوريات الامريكية حافظت منذ البداية على مالها من مصلحة متماثلة ازاء أية قوة أوربية قد تسعى الى فرض سلطانها فى نصف الكرة الغربى ، أو اعادة فرضه ٠ ولو أنها من الناحية الثقافية كانت تتطلع الى أوربا أكثر ممـــا تطلعت الى الولايات المتحدة ، الا بالنسبة الى الشئون الاقتصادية ٠ هذا الموقف المزدوج ازاء الولايات المتـــحدة كان يتقلب مـع الظروف المتغيرة والزعامة المتغيرة والسياسات المتغيرة من جانب الولايات المتـحدة ٠ ففى الجو الوطنى النزعة والمعادى للاستعمار ، جو منتصف القرن العشرين ، غالبا ما كان الشعور المعادى للولايات المتحدة تعبيرا عن الأمانى القومية الآخذة فى النمو لشعوب أمريكا اللاتينية ٠

من بين الدول الأمريكية ــ الأســبانية الفردية ، كانت الأرجنتين أكثرها تطورا من الناحية الاقتصادية ، كما أنها اجتذبت سكانها من أكثر المصادر الاوربية تنوعا ٠ وخلال الربع الأول من القرن العشرين أصبحت

واحدا من أهم منتجى الغذاء فى العالم ، لا بالنسبة الى اللحوم التى تربى على سهول البمباس الشاسعة فحسب ، بل لأن الزراعة الجافة سمحت بمد نطاق زراعة الحبوب الى سهولها الجنوبية ، لانتاج القمح أيضا ٠ ولقيت التنمية الصناعية حافزا خلال الحربين العالميتين كلتيهما ، ومن الجهود القوية التى بذلها نظام حكم جوان بيرون فى الاربعينات والخمسينات من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتى الاقتصادى ٠

وبمرور الوقت فان مساحات تربية الماشية طغى عليها نمو مدن كبيرة يسكنها بأعداد كبيرة مهاجرون من الطليان والألمان وغيرهم٠ وكانت الارجنتين مقصدا رئيسيا للهجرة من أوربا ، وخاصة بعد أن أغلقت الولايات المتحدة أبوابها فى وجه الهجرة اليها فى العشرينات ٠ وهؤلاء السكان الآخذون فى النمو السريع والذين يرجعون الى أصول أوربية متباينة ، ميزوا الارجنتين عن البلاد المطلة على المحيط الهادى التى كان أغلب سكانها من المستعمرين ، وكذلك عن البلاد التى ترتكز على قاعدة هندية عريضة ٠ وأتاح لها حجمها وثراؤها ونشاطها مركز زعامة بين جمهوريات أمريكا الأسبانية ، لا فى التنمية الاقتصادية فحسب ، ولكن فى الميادين الثقافية عن طريق صحافة وصناعة نشر تنبضان بالحياة ٠ لقد ضاعت هذه الزعامة فى الاربعينات والخمسينات عندما خضعت البلاد للدكتاتور الوحيد ، الفاشى الطراز ، الذى قام فى نصف الكرة الغربى ، وهو جوان بيرون ، ولكن عادت الأرجنتين بعد سقوط بيرون فى عام ١٩٥٥ فاتخذت مكانها كعضو نشيط فى أسرة شعوب أمريكا اللاتينية ٠

وقطعت شيلى شوطا بعيدا نحو خلق مظاهر دولة الرفاهية، ووفرت للبلاد الأخرى مثالا يحتذى ، وفريقا مدربا من الرجال لادارة الخدمات فى هذه البلاد ٠ وأوجدت منذ العشرينات نظاما متقنا للتأمين الاجتماعى تطور فى الخمسينات الى واحدة من أكمل وأعم الخدمات الصحية فى العالم ٠ وكانت لها الزعامة فى تدريب العمال الاجتماعيين ووضع الخدمات الاجتماعية الموسعة على أساس من الاحتراف ٠ وكانت تحتل مركز الصدارة فى التخطيط الاقتصادى القومى عندما أنشأت هيئة التنمية الشيلية فى عام ١٩٣٩ كأسلوب لمعالجة التنمية القومية الشاملة ٠

وكان لغيرها من البلاد الأسبانية خصائصها المميزة وأدوارها ٠ فحافظت أوروجواى بفخر على سجل متصل من الديموقراطية المستقرة ، وبلغ من تصميمها على التحرز من حكم الرجل الواحد ، أنها وضعت السلطة التنفيذية فى أيدى مجلس رئاسى من تسعة أشخاص ، بدلا من

وضعها فى يد رئيس جمهورية واحد • واحتفظت كولومبيا بعرف كاثوليكى قوى بوجه خاص ، وفخرت بنقاء لغتها الاسبانية • وبسبب انقسامها الى سلسلة من الهضاب العالية والأودية ؛ وعدم تأثرها بالهجرة الحديثة العهد الا قليلا ، نشأت فيها فوارق اقليمية قوية تركزت فى عدد من المراكز الحضرية القوية• غير أن الاختلافات الطائفية ذات الجذور التاريخية العميقة ، حطمت الاستقرار السياسى الذى نعمت به البلاد حتى سنة ١٩٤٨ ، وخلقت حالة من القلق اعترضت طريق الجهود المبذولة من أجل الاستفادة من الارض والموارد الكبيرة غير المستغلة ، ورفع مستويات أهلها الاقتصادية والاجتماعية • واستغلت فنزويلا الغنية بالنفط والمعادن والتى كان يستغلها أساسا رأس المال الأجنبى ـ هذه الموارد لتوفير مال عام وفير ؛ ولكن السنوات الطويلة من الدكتاتورية خلفت وراءها تنمية اجتماعية محدودة حاولت البلاد بنشاط وقوة التغلب عليها فى أواخر الخمسينات •

٤ ـ البرازيل :

كانت البرازيل أكبر بلاد أمريكا اللاتينية من ناحية أساسها الاوربى ، ومن أكثرها نموا • فبأرض تعادل مساحتها القارة الاوربية بأسرها أو الولايات المتحدة ، وتتميز بلغة برتغالية وتاريخ استعمارى عن الجمهوريات الناطقة بالأسبانية ، رأت البرازيل نفسها بمثابة ثقافة وشعب فى طريق التكوين •

وظلت مناطق شاسعة من البلاد حتى منتصف القرن العشرين دون أن يستوطنها أحد ، وتركزت أغلبية أهلها الذين يتجاوز عددهم ٥٠ مليون نسمة ، على السهل الساحلى ، وفى أقاليم الهضبة الوسطى ، حيث تقوم زراعة البن وصناعة التعدين • وكان الوصول صعبا الى الكثير من الارض البرازيلية ، بفعل غاباتها الاستوائية التى لم تذلل وأنهارها الضخمة التى تهدد بالخطر • وكانت محفوفة بالأخطار ـ من الحيات والحشرات السامة ، وأمراض المناطق الاستوائية ، والهجمات من جانب الهنود الرحل •

الا أنه بنهاية القرن الثامن عشر كان قد تم التغلغل الى معظم أجزاء البلاد • ففى الوقت الذى لم ينتشر فيه المستوطنون بأمريكا الشمالية الا فى سدس المسافة عبر قارتهم ، كان رجال مناطق الحدود البرازيليون يسوقون قطعانهم من مرعى الى مرعى ، أو يقيمون مستعمرات بالبرية فى

كل أقليم تقريبا ٠ ولكن على خلاف مستعمرات الحدود فى الولايات المتحدة والتى حافظت على الاتصال بمراكز السكان والثقافة ، وبذا شكلت الخط الأمامى لحضـــارة تزحف الى الأمام ، عاشت المستعمرات التى قامت فى الظهير البرازيلى ، حيـــاة عزلة واكتفاء ذاتى ، بعيدة عن الاتصال بأهل الساحل ٠

كان القسم الرئيسى من سكان البرازيل واقتصادها ومجتمعها يتكون من ضياع كبيرة تتملك الرقيق حتى العقد الاخير من القرن التاسع عشر، مخصصة لزراعة قصب السكر أو البن أو للتعدين٠ وكانت المزارع الكبيرة ــ التى تزرع قصب السكر فى المناطق الاستوائية والبن فى المرتفعات ، بأنماطها الممثلة فى البيـــوت الكبيرة والأحياء المخصصة للعبيد ــ توفر الأساس الذى قامت عليه أرستقراطية ريفية زودت البلاد بثروتها وبطبقتها العليا الأبوية ٠ وعمل الاختلاط العنصرى الكبير على أن يجتاز بشكل جزئى الفجوة الفـاصلة بين الاوربيين والافريقيين الذين ظلوا يؤتى بهم كعبيد حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وبقوا فى الرق حتى عـام ١٨٨٨ ٠ وقدر عدد ذوى الدم المختلط فى عام ١٨٣٢ بخمس السكان ، وقدر عدد العبيد بالسبع ، وفى منتصف القرن العشرين قدر أن ثلث السكان من ذوى الدم المختلط أو الزنوج ٠

وما من بلد آخر فى العـــالم القديم أو الجديد تحققت فيه عملية الاندماج العنصرى كاملة بمثل ما تمت فى البرازيل ٠ وظـل تراث الرق يعكسه الوضع الاقتصادى المنخفض لتلك العناصر من السـكان التى هى أشد دكنة من غيرها ، ونادرا مافاخر الاشخاص البارزون من ذوى النسب المختلط ، بمـيراثهم الافريقى ، ان فاخروا ، برغم انهم قـد يشيرون فى الغالب وبفخر الى العناصر الهندية فى خلفيتهم ٠ وكانت سياسة الهجرة فى القرن العشرين تشجع المهاجرين الاوربيين، بدلا من المهاجرين الوافدين من الكاريبى أو أفريقية ــ أو من آســـيا بعد فترة قصيرة كانت الهجرة اليابانية خلالها موضع ترحيب ٠ ولكن التعصب العنصرى القليل نسبيا الذى أظهره عموما المستوطنون البرتغـاليون ، كان قـــد أرسى أساسا للاندماج العنصرى ولاتجاهات البرازيل العنصرية فى القرن العشرين ٠

كانت الأرستقراطية الريفية بالاقليم الساحلى تشـكل صفوة مثقفة صغيرة ٠ وهـــذا الطراز من الصفوة كان صفة مميزة لجميع بلاد أمريكا اللاتينية ، حيث هيأ نظام اقتصادى شبه اقطاعى وســـائل قليلة ، أو

لم يهيىء أية وسائل ، لكى يشارك الجزء الاساسى من السكان فى حياة البلد الثقافية .

وكان الجزء الداخلى من البلد عالما آخر . فهنا نجـــد أنه لا البيت الكبير ولا العبد ولا الثروة ولا الفارق الاجتماعى الواسع ، كان يميز رجال مناطق الحدود أو الرعاة أو أهـــل المزارع الكبيرة أو أهل المدن الصغيرة التى عملت كمراكز أسواق لتلك النواة من السكان فى الظهير . وهنا فى الهضبة الداخلية استمر الاختلاط السلالى والاجتـــماعى باستمرار ، وتشكلت الثقافة الشعبية البرازيلية بالتـــدريج خلال ســـنوات الحكم الاستعمارى وسنوات التسلط الاقطاعى المستمر فى القرن التاسع عشر. من هذه الثقافة الشعبية والقاعدة المحلية برز فى القرن العشرين الكثير من الحيوية التى حددت نظرة وصورة ذاتية تميزان البرازيل .

ان المجرى المميز الذى سارت فيه البرازيل كبلد جديد يعمل على تحديد ذاته ، حددته جزئيا العلاقات التى كانت قائمة فى البلد الام فى فترة الحكم الاستعمارى ، وفى نصف القرن التالى للاستقلال . فعلى خلاف أسبانيا التى صبت نشاطا ثقـــافيا كثـــيرا فى امبراطوريتها فى العالم الجديد ، عن طريق تخطيط المدن وانشاء الجامعات واقامة مراكز للمعيشة الغنية والثقافة العالية ، كان اهتـــمام البرتغال بمستعمرتها البرازيلية اقتصاديا بصفة رئيسية . فقد أنشئت أول مدارس مهنية فى البرازيل فى بداية القرن التاسع عشر ، أى بعد انقضاء ٣٥٠ عاما على تأسيس جامعة المكسيك وجامعة سان ماركوس فى بيرو . وبينما كانت مدن كثيرة فى الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية مراكز للثروة والثقافة ، كانت المدن البرازيلية بنادر فقيرة تضم صغار التجار ، فقد تركزت الثروة الحقيقية والثقافة فى البيوت الكبيرة للارستقراطية الريفية . وكانت جماعة المثقفين البرازيليين الصغيرة قد تعلمت فى البرتغال .

وتحقق الانفصال عن البلد الأم فى عام ١٨٢٣ ، دون ذلك النوع من النضال التاريخى الذى ميز الحروب التى شنها بوليفار ضد أسبانيا من أجل الاستقلال ، فالوصى نفسه أعلن استقلال البلد . وخلال شطر كبير من القرن التاسع عشر ، وبينما كان الكثير من الجمهـــوريات الاسبانية يعانى اضطرابا سياسيا كبيرا تمتعت البرازيل بحكم امبراطورها دوم بدرو الذى استمر نحو خمسين عاما (١٨٤٠ ـ ١٨٨٩) . وخلال الفترة بأسرها ظل الصرح الاجتماعى القديم بدون تغيير بالفعل ، على حين عمل التعليم المتاح على ادامة العقلية الأدبية القانونية التقليدية ، وفعل القليـــل بشأن ايجاد النظرة والمهارات التى تتناسب مع الوسط البرازيلى .

وجاء سقوط الامبراطورية فى ١٨٨٩ من أعلى ، شأنه شأن ماسبقه من الانفصال عن البرتغال ، أى جاء من جانب نفس العناصر التى كانت تنعم بالمكانة والقوة ـ وهى الكنيسة والجيش والارستقراطية الريفية ٠ فاعترضت الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تشغل مركز كنيسة الدولة فى ظل دستور ١٨٢٣ ، على تأديب رجال الدين الذين رفعوا الصوت عاليا ضد نظام الحكم ، وسخط العسكريون بسبب ابعادهم عن السياسة ، وانقلبت الارستقراطية الريفية على النظام عندما أبدل تحرير العبيد التدريجى ، وعن طريق التعويض لأصحابهم ، بالغاء للرق ، مباشر ودون مقابل ٠ وأقام انقلاب عسكرى جمهورية ، ودفع البرازيل فى طريق التجديد والروح العصرية ٠

ان الدستور الجمهورى الذى طبق فى ١٨٩١ ، كان فى جوهره على نمط دستور الولايات المتحدة من حيث النص على نظام اتحادى ، وهيئة تشريعية من مجلسين ، ورئيس جمهورية ينتخب من وقت لآخر ، وفصل الكنيسة عن الدولة ، واعلان حقوق مدنية معينة ٠ وكان الكثير من روحه مستمدا من فلسفة أوجست كومت الوضعية ، وهو الذى ظهرت عبارته «النظام والتقدم» على العلم البرازيلى ٠ وبرغم أن هذا الاتجاه والبنيان السياسى كانا موضع التهديد المتكرر من جانب العسكريين الذين حاولوا التدخل عندما لم يكن سير النظام السياسى موضع رضائهم ، الا أنه هيأ الاطار لأسلوب قوى من أجل التصنيع وتشجيع التنمية الاقتصادية ٠

وفتحت الابواب واسعة أمام الهجرة ، واستقبلت البرازيل جزءا كبيرا من الفيض العظيم الذى تدفق من أوربا فى العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فكان ثلثا البيض فى عام ١٩٤٠ من عروق خلاف العرق البرتغالى ، وكانوا بصفة رئيسية من الطليان وغيرهم من أهل جنوب أوربا ٠ واستقر الكثيرون من المهاجرين فى الارض فى مستعمرات أنشئت تحت اشراف الحكومة أو فى ضياع كبيرة ، حيث احتفظوا بلغتهم ومؤسساتهم التعليمية وأنماطهم الثقافية ، وكانوا قليلى الاختلاط بالبرازيليين من العروق الاخرى ٠

ولم تنقطع الروابط الثقافية مع أوربا بعد تكوين الجمهورية ، ولكن الصلة الثقافية الرئيسية كانت مع فرنسا ٠ وأصبحت باريس « مدينة النور » التى اجتذبت أعدادا كبيرة من الرسامين والكتاب والطلاب من أوربا والعالم الجديد ـ مصدرا رئيسيا للتأثير الثقافى على المثقفين فى البرازيل الجديدة وكانت الروابط الاقتصادية الكبرى مع الولايات المتحدة٠

وهيأت الحرب العالمية الأولى دافعا على عملية بلوغ البرازيل سن الرشد • فبرغم ان اشتراكها المباشر فى العمليات الحربية لم يتكون الا من بعثة طبية وعدد قليل من السفن ، فان القرار بالاشتراك كان انعكاسا لاحساسها بمكانتها ، وأكسب البرازيل مكانا على مائدة الصلح ومقعدا مؤقتا فى مجلس عصبة الأمم • وبهذا ، وبمعنى ما ، كان علامة على دخول البرازيل فى المشهد الدولى خارج نصف الكرة الغربى •

ان احساس البرازيل الجديد بالشخصية انعكس بقوة فى حركة التجديد فى الفن والأدب ، التى بدأت عام ١٩٢٢ بعرض للفنون الحديثة فى ساو باولو فى تلك السنة • لم تكن هذه الحركة مجرد امتداد للحركات الأدبية والفنية التى تشكلت فى أوربا قبل الحرب العالمية الأولى واتبعت فى جميع أرجاء مناطق الثقافة الغربية ، بما فى ذلك مختلف الحركات فى البلاد الأسبانية بأمريكا اللاتينية ، والتى كانت تسمى نفسها « عصرية للغاية » أو « طليعية » •

كانت الخاصية الرئيسية المميزة لحركة التجديد البرازيلية ، أنها كانت معادية لأوربا ، بصورة تشيع فيها المرارة والعنف • ومهما كان ماتدين به لتيارات الفكر والأسلوب التى نشأت أو تغذت فى أوربا ، فان روحها كانت روح ثورة واحتجاج لا ضد التقاليد فحسب ، بل وضد التسلط الأوربى أيضا • كانت تشديدا لحدة نفس روح القومية البرازيلية التى سبق أن عبرت عن نفسها ، أى التى اتخذت فى وقت الاستقلال شكل معالجة رومانسية لموضوعات برازيلية محلية ــ الطبيعة ، الهندى المجمد ، صورة قاطع الطريق الرومانسية ، والتى كان يعكسها بعد اقامة الجمهورية، الترحيب بافليدس داكونها Euclides da Cunha بسبب روايته التى كان موضوعها رجلا متعصبا من أهل الجزء الداخلى من البلاد ــ أوس سرتوس Os sértos (١٩٠٢) •

لكن ظل مجرى التطور البرازيلى حتى الثلاثينات دون أن ينفذ خلال الصرح الاجتماعى ونمط الحياة القديم ، برغم قيام مراكز جديدة كبيرة من المجتمع الحضرى ، بشكل ملفت للنظر • فريو التى تحررت من حمى صفراء فى العقد الأول من القرن ، أصبحت من أعظم مدن العواصم بالعالم ، واتخذت ساو باولو بالاضافة الى كونها الميناء الغنى الذى يخدم أقليم زراعة البن خصائص مركز صناعى مزدهر • وبحلول الثلاثينات كان الانتاج الصناعى قد تجاوز الزراعى من حيث القيمة برغم أن النشاط الصناعى كان لا يزال مقصورا الى حد كبير على تصنيع المنتجات الزراعة فى صناعات

الغذاء والمنسوجات • وكان رخاء البلد منذ أواخر القرن التاسع عشر لا يزال يصب كله تقريبا فى أيدى الصفوة الأبوية القديمة المكونة من الطبقة الراقية ، باستثناء الرخاء الزراعى المنطوى على نفسه الى حد كبير ، والذى كانت تنعم به بعض جاليات المهاجرين ، وبخاصة الجاليات من المستوطنين الألمان فى ولاية ساو باولو • وظلت الأمية واسعة الانتشار ، وكان الفقر يميز حظ الأغلبية الساحقة من السكان ، فى المناطق الزراعية وفى الأحياء الحقيرة بالمدن • وحتى فى عام ١٩٥٠ كان الذين يلتحقون بالمدارس الابتدائية لا يكادون يتجاوزون نصف من بلغوا سن التعليم •

وابتداء من الثلاثينات وجهت الجهود الوطنية نحو اقامة مجتمع حديث ، يتميز بطابعه البرازيلى وقادر على تحقيق امكانات البلد الشاسع الارجاء ، واستغلال ثرواته المادية والبشرية ، ويبنى للبرازيل ثقافة تميزه ومكانا فى العالم • ووضعت سلسلة من الاصلاحات التعليمية نظاما واسع النطاق من التعليم الابتدائى والثانوى ، وتخريج المدرسين والجامعيين • فخلال العقدين التاليين أنشئت نحو عشرية جامعة ـ جامعات حكومية فى عواصم معظم الولايات وجامعات كاثوليكية فى خمس من المدن الرئيسية • وكان أعضاء هيئات التدريس الرئيسيون فى بعض الكليات يؤتى بهم من الخارج ، ومن فرنسا وايطاليا وألمانيا بصفة رئيسية ••

وأقيمت أعداد من المدارس الفنية والمتخصصة فى جميع الميادين بسرعة كبيرة ، وغالبا ما أقيمت قبل امكان الحصول على الأعداد المطلوبة من أفراد هيئات التدريس • فمثلا كانت البرازيل فى الخمسينات تضم أكثر من ثلث جميع مدارس العمل الاجتماعى فى جمهوريات أمريكا اللاتينية وفى سنة ١٩٥٥ أنشئت فى البرازيل أول مدرسة للادارة العامة بامريكا الجنوبية • ففى ميدان بعد آخر ، كانت البرازيل التى تأخرت فى البدء تشق طريقها الى الأمام ، فتنشر المؤسسات والمنظمات ، وتستهل جهودا جديدة ، وتنفس عن أطماعها خلال هذه السنوات • ان التعليم والميادين المتصلة به من قبيل النشر والصحافة والراديو وبيع الكتب وبدايات بحث اجتماعى نشيط ، لم تكن سوى قلة من الاتجاهات التى أظهرت فيها البرازيل قوة بلد فتى يشكل نظرته وشعبه وثقافته •

وأخلت السياسة القديمة القائمة على استيطان المجموعات التى شجعت أو أسفرت عن الابقاء على الأقليات القومية بلغاتها ونظمها ، هذه السياسة اخلت مكانها لسياسة « البرزلة » Brazilianisation ، فقد تطلبت الاصلاحات التعليمية فى الخمسينات تدريس جميع الموضوعات

الأساسية باللغة البرازيلية . ونظمت سياسات الهجرة بقصـــد أن تأتى بالمهاجرين الذين يمكنهم الاسهام المباشر فى بناء البلد ، ولتحقيق هـــذا الغرض عدلت السياسة المفتوحة التى كانت متبعة فى أوائل القرن .

وانعكست سلسلة من التغييرات السياســـية فى اعادة النظر فى الدســـتور البرازيلى ، ليعمل الى جانب أشياء أخرى على توفير مزيد من المركزية ، وعلى اضطلاع الدولة بمسئوليات اقتصادية . وسنت تشريعات اجتماعية ذات طابع متقـدم . وكانت البرازيل أول جمهـورية بأمريكا اللاتينية حاولت مد نطاق مزايا تأمينها الاجتماعى وغيره من برامج الرفاهية على نطاق واسع الى سكان الريف . واعتبارا من الخمسينات عمل احياء كاثوليكى قومى قوى على اشراك الكنيسة بفعالية أكبر فى عمليـة تشكيل الحياة البرازيلية الحديثة ، وذلك بانشاء سلسلة من الجامعات البابوية ، الدينية وشن حملة ناجحة للتعليم الدينى فى المدارس، والمشاركة النشيطة فى برامج الرفاهية .

كانت البرازيل فى منتصـــف القرن العشرين ماتزال تمر بعمليـة تعريف ذاتها ، وتسعى الى ايجاد الأرض التى تقف فوقها ، وسط اتجاهات عالمية متصارعة . لقد التزمت بالمبادىء الديموقراطية ، بحكم دســـتورها الجمهورى الأول فى عام ١٨٩١ ، ولكن الممارســـة الفعلية والتنقيحـــات الدستورية التى أجريت بعد ذلك ، كشفت عن قلق بشأن مدى هـــذا الالتزام وطبيعته . فقد استولى الدكتاتور جيتوليو فارجاس على السلطة فى ١٩٣٠ على خلاف مايقضى به الدستور ، وظل محتفظا بها لمدة خمس عشرة سنة بمساندة العسكريين ، وبعد ذلك بسنوات ثمان أعيد الى الحكم بطريق انتخاب ديموقراطى . وكفل دســـتورا ١٩٣٤ ، ١٩٤٦ الحقوق الفردية بعبارات أقل كمالا منها فى دستور الولايات المتحدة وغيرها من البلاد الديموقراطية ، فحرية التعبير مثلا قيدت بوجه خاص . ولم يكن حق التصويت عاما ولكنه اقتصر على من يستطيعون القراءة والكتابة ، وهو قيد شديد فى بلد قدرت الأمية فيه بين البالغين بنسبة ٥٢٪ فى عام ١٩٥٠ . وفى المجال الاقتصادى كانت مبادىء الرأسمالية والقطاع الخاص موضع القبول والممارسة بوجه عام ، ولكن تضمن دستورا ١٩٣٤ ، ١٩٤٦ نصوصا محدودة عن سلطة الدولة ومســـئوليتها فى التدخل لا لتوفير الخدمات الأساسية فحسب ، ولكن لكسر أى احتكار تزاوله الايدى الخاصة .

كانت البرازيل واضـحة من حيث المبدأ بشـــأن مشـكلة التكامل والاستيعاب العنصريين ، فقد كان أحد القيود الدستورية على حرية القول

موجها ضد التعبير عن التعصب العنصرى • ولكن حتى هذا المبدأ الكريم كانت تحد منه سياسة تشجيع الهجرة الأوربية وتقييد هجرة العناصر السلالية الأخرى • وكانت الحرية الدينية مقررة بوضوح من حيث المبدأ، وشهد وجود أقلية بروتستانتية كبيرة بحقيقة الضمانات الدينية ، ولكن طابع الثقافة الكاثوليكى ، وهو العرف السائد ، الذى قوى واشتد بفعل الاحياء الكاثوليكى ــ مال الى تحويل الاتجاهات الكاثوليكية الى سياسات عامة ، واستجابة لضغط كاثوليكى قوى احتفظ فى دستور ١٩٤٦ بتحريم الطلاق تحريما كاملا •

وظل الصراع دون أن يفض ، بين المجتمع التقليدى ــ الأرستقراطى والشخصى ، والأبوى ، والأدبى والقانونى ــ والاتجاهات الحديثة نحو طريق للحياة : ديموقراطى وعملى وعلمى وصناعى •

واذ تطلعت البرازيل الى دورها كدولة آخذة فى النمو وقوة كبيرة محتملة ، سعت الى فتح واستغلال ماتبقى من أرضها وبناء صرح اقتصادى وسياسى مترابط داخليا ــ وهو مهمة أيسر بكثير فى الأيام الحديثة ، حيث طرق السيارات والطائرات وامتداد السكك الحديدية ــ منها فى الأيام الاولى التى انقطعت فيها أسباب الاتصال بين المستوطنين على الحدود القائمة وبين المناطق الساحلية • ولكنها جلبت فى أعقابها ضغوط التضخم الذى هدد بتقويض الجهود المبذولة من أجل ارساء الأساس للتوسع الاقتصادى•

ان الدليل الأخير على تصـــميمها على أن ترسى تطورها القومى على أساس عادل من أرضها وجماهير أهلها ، هذا الدليل كان هو القرار بنقل مقر الحكومة بعيدا عن مدينة ريودى جانيرو الساحلية والدولية الصاخبة، وبناء عاصمة جديدة من طراز حديث بصورة براقة ، تلك هى برازيليا ، فى داخلية البلد •

وبأرضها ومواردها الواسعة ، وبأصولها السلالية المتباينة ، وسكانها الآخذين فى الازدياد بسرعة ، وحيويتها الدافقة ، أكدت البرازيل زعامتها بصورة متزايدة فى داخل نظام الدول الأمريكية ، وتطلعت الى أن تأخذ مكانها فى القرن القادم كأحد شعوب العالم الكبرى •

٥ ــ استراليا ونيوزيلندا :

كانت استراليا ونيوزيلندا مخافر أمامية للامبراطورية البريطانية • فعلى خلاف الولايات المتحدة بشعبها المختلط ، وكندا بأقليتها الفرنسية

كانت الأراضى « التابعة هناك » بريطانية سكانا وثقافة واعتمادا فى وجودها على الامبراطورية البريطانية • فقد كانتا حتى الحرب العالمية الثانية تفترضان أن الامبراطورية البريطانية نظام دائم ، وانها الأساس الذى يرتكز عليه بقاؤهما على قيد الحياة • وكان ارتباطهما بالامبراطورية واحساسهما بالاعتماد عليها ينعكسان بصورة واضحة فيما اسهمتا به فى الحفاظ عليها• كانت الخسائر الاسترالية فى الحرب العالمية الأولى تساوى بالفعل خسائر الولايات المتحدة ؛ برغم أن عدد سكان أستراليا لم يكن يزيد على ٥٪ من عدد سكان الولايات المتحدة ، وفى نيوزيلندا تطوع نحو ٤٠٪ من الرجال الصالحين للخدمة العسكرية ، ولم تعد منهم نسبة كبيرة •

ولكن هذين البلدين لم يبرزا كوحدتين تعتمد كل منها على نفسها ، الا بعد الحرب العالمية الثانية • فبزوال الامبراطورية البريطانية فى آسيا وجدوا أنفسهم فى بلادهم الصغيرة بعيدين عن البلد الأم الذى كانوا يرتبطون به • وأظهر دور استرانيا فى الأمم المتحدة هذا التغيير • ففى أوائل أيام تكوين تلك المنظمة كان المندوب الاسترالى الدكتور هـ • ف ايفات Dr. H.V. Evatt هو الذى تزعم الحركة الرامية الى أعطاء الجمعية العامة دورا أكبر ، حتى يمكن سماع أصوات الشعوب الصغيرة • وهكذا وقفت استراليا كالمتحدث باسم الشعوب الصغيرة ، ولم تعد كجزء من الامبراطورية البريطانية وحسب •

وكان تاريخ استراليا فى القرن التاسع عشر تاريخ صراع بين مجموعات اقتصادية حول نوع المجتمع الذى يجب أن يقام على القارة • فبسبب بعد الشقة وتكلفة الهجرة جاء معظم المستوطنين عن طريق المساعدة من جانب الحكومة ، بدلا من ذلك النوع من الهجرة الحرة غير الموجهة التى عمرت الولايات المتحدة وكندا • ومن ثم كان الاستيطان ينطوى دائما على سياسة عامة وعلى مشكلة نوع البلد الذى يراد بناؤه ، على حين فرضت القارة الخشنة القاحلة قيودا شديدة على أنواع الاستيطان الممكن القيام به وراء المناطق الممتدة على طول الشواطىء •

وكانت استراليا لأكثر من ستين عاما تستخدم كمستعمرة للعقاب أى بمثابة منفى ، ولكن قبل أن أوقف نقل المذنبين اليها نهائيا فى عام ١٨٥٣ كان المستوطنون الأحرار قد أدخلوا تربية الأغنام وبدأوا يجعلون الصوف الأسترالى مشهورا • فعلى النقيض من أصحاب الضياع الذين فتحوا أبواب الولايات المتحدة ، استحوذ أصحاب المزارع الكبيرة الأستراليون على مساحات كبيرة من الأرض الجرداء لاستخدامها فى عمليات

الرعى . ففى ظل سياسة أريد بها توفير مورد من العمل عن طريق الحيلولة دون الاستحواذ السهل على الأرض ، كانت الأرض تعرض للبيع دون فرض أى حد على حجم الملكيات ، واستخدم نصف المتحصلات للمساعدة على مزيد من الهجرة . ولما ترك اندفاع قصير الأمد وراء الذهب فى الخمسينات من القرن التاسع عشر ــ الكثيرين ممن كانوا ينقبون عنه ، يسعون وراء انشاء ضياع لهم بعد أن أخفقت عمليات الحفر ، كانت هناك ضغوط لصالح صغار المستوطنين . ولكن التدابير التى اتخذت للسماح بانشاء الضـــياع فى الستينات من القرن التاسع عشر وبعدها أدت الى صراع مع أصحاب المزارع الكبيرة ، وجعل الجو انشاء الضياع صعبا ، ان لم يكن مستحيلا ، الا فى جزء صغير من البلد .

وهكذا نشأت أستراليا لا كبلد من صغار الفلاحين ، ولكن كبلد من كبار الملاك ومن العمال ــ كبار أصحاب المزارع وشركات التعدين وشركات الملاحة ، بدلا من المشروعات الصغيرة والعمال الرحل الذين يشتغلون بجز الصوف ، وفى المزارع الكبيرة ، وعمال المناجم والبحر وغيرهم فى المدن الساحلية ، بدلا من زراع مستقلين . فى ظل هذه الظروف تكونت نقابات عمالية قوية فى وقت مبكر . وراح رجال ذوو أفكار وتجربة نقـــابية من بريطانيا ينظمون عمال جز الصوف والمناجم والأحواض البحرية فى نقابات قوية امتدت فيما وراء التقسيمات السياسية المحلية .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ارتبطت المشكلة بالتساؤل: عما اذا كان ينبغى تنمية البلد من أجل كبار ملاك مزارع الماشية والمناجم ومزارع قصب السكر وشركات الملاحة ، أو من أجل العمال ؟ وسعى الملاك الى استغلال موارد القارة بأية أيد عاملة يستطيعون الحصول عليها، وأصر العمال على أن تجرى تنمية القارة لمنفعة الرجل العادى فى ظل ظروف تهيىء مستوى لائقا من العيش . .ومن هذا الصراع برزت سياسة « استراليـــا البيضاء » الموجهة أصلا ضد الصينيين الذين جيء بهم للعمل فى المناجم ، ثم وسعت حتى أصبحت معارضة عامة لاستيراد العمال من آسيا والباسفيك . وكافح العمال المنظمون فى النقابات ، وأخيرا حرموا النظام الذى بمقتضاه كان يؤتى بالعمال لحقول قصب السكر من جزر المحيط الهادى وفق شروط تقارب السخرة الى حد بعيد . وبمرور الوقت أصبحت «استراليا البيضاء» تستخدم كتقييد عام لهجرة الأسيويين الحرة الى استراليا (١٦) .

وخلال التسعينات من القرن التاسع عشر أحرز الملاك نصرا مؤقتا عندما قمعوا اضرابات ضخمة قام بها عمال جز الأغنام وعمال المناجم وعمال

البحر بالقوة ، وبمساعدة البوليس والمحاكم • ولكن انتصارهم كان قصير الأمد ؛ ذلك أن العمال وقد هزموا فى الجبهة الاقتصادية ، تحولوا الى العمل السياسى وتشكل أول حزب عمالى فى أى بلد بهدف الوصول الى السلطة ، ووضع نظاما فريدا للتحكيم فى المنازعات العمالية ، وسن مجموعة من التشريعات الاجتماعية التى وضعت استراليا فى مقدمة الحركة نحو دولة الرفاهية •

وفى القرن العشرين رأت استراليا نفسها كمجتمع جديد ملتزم بأن يحتفظ لجميع الناس ، وعن طريق الجهد المنظم ـ بحد أدنى مرتفع من مستوى العيش يتيح الفرصة للجميع ، لا لأن يصبحوا أغنياء ، ولكن ليعيشوا حياة لائقة • وشكا نقاد الذات فى أواسط القرن من أن استراليا لم تلحق بالبلاد الأخرى : بريطانيا ، بلاد اسكنديناوه ، نيوزيلندا ـ فى ميدان الرفاهية التى كانت هى الرائدة فيه فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى • ولكن نظام الحد الأدنى للأجور ، والتنظيم النقابى والتأمين الاجتماعى ، والخدمات الاجتماعية ؛ هذه جميعا هيأت الوسائل لامتصاص أعداد من المهاجرين المعدمين بعد الحرب العالمية الثانية ، بالمستويات المقررة للاستراليين ، ذلك دون السماح لتدفقهم بأن يقوض مستويات الأجور ، أو يلقى عبئا لامبرر له على الخدمات الاجتماعية أو يهبط بأسلوب يمزق الحياة •

ولم تنظر استراليا الى نفسها على أنها بلد يسوده المذهب الفردى ، برغم محطات الأغنام المنعزلة واعتماد الناس على أنفسهم • فنفس بعدها عن أوربا جعلها تدرك بشكل خاص أهمية الروابط العالمية ، كما جعلها تاريخها فى الصراع الاقتصادى على وعى بالحاجة الى العمل الجمعى • كما أن أرضها ومناخها القاسيين اللذين تطلبا ماهو أكثر من الجلد والبراعة للتغلب على الجفاف ونقص التربة والآفات والمرض ـ جعلا الاستراليين على وعى بوجه خاص باعتماد الانسان على تطبيقات العلم •

ان غزوا علميا بعد آخر غير النظرة الزراعية على نطاق كبير • فالبحث العميق أفضى الى ايجاد سلالات من القمح تقاوم الجفاف والصدأ ، وجعل استراليا أحد كبار منتجى الغذاء فى العالم ، وأمكن التغلب على آفة الأرانب بنشر مرض ، وحشرة الكمثرى التى كانت تدمر نحو مليون فدان فى السنة ، أمكن ابعادها باطلاق فراشة ، كما أن التعرف على العناصر التى تفتقر اليها التربة ضاعف بالفعل مساحة الأرض التى يمكن زراعتها • وحدثت نتائج باهرة بالمثل فى تنمية الموارد المعدنية والصناعية •

وكانت استراليا فى أواسط القرن العشرين لاتزال بلدا يبنى مجتمعا

على أساس توفير مستوى لائق من المعيشة للجميع ، ولكن كان فى وسعها آنذاك أن تأخذ كقضية مسلمة أدواتهـــا القديمة للتنظيم النقابى والأمن الاجتماعى اللذين أصبحا معالم ثابتة من بنيانها الاجتماعى والحكومى ، وكانت تؤكد تأكيدا كبيرا على اسهامات العلم • وكان جوهر برنامجهـا للتنمية بعد الحرب العالمية الثانية تنظيما على مستوى الشعب كله ، للبحث والتطوير العلمى • ومما دل على الضوء الذى رأت فيه استراليا نفسهـــا أن وكل الى الجامعة الحديثة النشــأة فى كانبرا العمل على انشاء مركز للعلوم الطبيعية يكون الأول من نوعه ، ويجتذب أقدر العقول العلمية التى يمكن وجودها فى أى مكان آخر فى العالم ، وأكثرها ابتكارا وخلقا •

ان تاريخ نيوزيلندا القصير منذ ابتداء التوطن الأوربى فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، وسكانها الذين لم يتجاوزوا مليونى نسمة فى منتصف القرن العشرين ، جعلاها على بينة من أنها فتية وصغيرة بالنسبة الى المركز الذى وجدت نفسها فيه فى العالم • والى هذا الوضع عزا بعض المتحدثين باسم نيوزيلندا اهتمامها الكبير بالتعليم والرفاهية ؛ ذلك أن لكل فرد قيمة ، ويجب تنميته وحمايته ـ وعزوا أيضا ذلك المزيج الخاص فيها بين الفردية والمساعدة الحكومية •

وعلى أساس تربتها وجوها الملائمين ، بلغت نيوزيلندا مستوى عاليا من الانتاجية ــ فنقول : ان بها أعلى انتاجية زراعية بالنسبة الى الفرد فى العالم ــ ومستوى عاليا من العيش لأهلها متمشى مع هذه الانتاجية • ومع وجود حالات قليلة من الثراء الفاحش والفقر المدقع ، فان فى وسعها أن تصر على أن دخلها المرتفع بالنسبة الى الفرد كان يعكس حالة جميع الناس بأصدق مما يعكسه متوسط الدخول فى بلاد أخرى ، وفيها فوارق أوسع• كان نظامها للرفاهية الاجتماعية أشمل نظام فى الوجود •

ولكن النيوزيلانديين ، كشعب صـــغير منعزل واجهوا المشـــكلات الرئيسية التى جاءهم بها انهيار الأسواق العالمية فى الثلاثينات من القرن العشرين ، والحرب فى الباسفيك والنزوح المستمر من جانب الكثيرين من أقدر رجالهم • الى أى حد ينبغى لنيوزيلندا أن تحاول خلق حياة منطوية على نفسها ، والى أى حدينبغى أن تستمر فى انتاج اللحم وغيره من الأغذية للاستهلاك العالمى ، وأن تعتمد على الواردات لسد الكثـير من حاجاتهـا ؟ ما الذى ينطوى عليه الابقاء على مستوياتها العالية للعيش فى عالم مزدحم ؟ وهل يستطيع بلد صغير كهذا أن يخلق حياة ثقافية غنية تحتفظ بأهلها ممن حصلوا على درجة عالية من التعليم ، أو هل يجب أن يستمر فى أن يتوقع

من أبنائه الممتازين ، مثل عالم الطبيعة الذرية الكبيرة ارنست رذر فورد Ernest Rutherford ــ أن يجدوا فرصا أفضـــل ليقدموا اسهامهم بعيدين عن الأرض التي ولدوا فيها ؟ •

(ج) اعادة التوجيه الثقافي بالمجتمعات المختلطة : المكسيك

في أقاليم أمريكا الوســطى والجنوبية ، حيث تسلطت في وقت ما امبراطوريات الأزاتقة والانكا والمايان العظيمة ــ ارتكز صرح علوى أوربى على أساس هندى عريض • وهنا اتخـذت تطورآت القرن العشرين شكل اعادة توجيه ثقافي وحركة نحو التكامل أبرزا التراث الهنـدى • وانطوت العملية على ثورة تحركت عن طريقها الطبقات المهضومة الحقوق والشعوب المعزولة نحو المواطنة الكاملة •

وقادت المكســـيك الطريق في هذه العملية التي كانت لا تزال في منتصف القرن بعيدة جدا عن الكمال • لقد حركت الثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ ثورة اجتماعية ، وحركت ما أطلق عليه اصطلاح « اعادة غزو الهندى للمكسيك » • ولم تكن النتيجة تغيير البنيان الطبقى فحسب ، بل كذلك تغيير القيم العنصرية والثقافية ، حتى لم يعد كون المرء « أوربيا » مصدرا للعزة والكرامة ، ولكن أصبح من الفخر أن يدعو المرء نفسه «هنديا» ولم يقف الأثر الناجم من هذه الصورة الجـــديدة للذات وهو الأثر الذى أحدثته الثورة بالنسبة الى أهل المكسيك ، لم يقـف عند حد البلد الذى نشأ فيه ولكنه توغل في جميع المجتمعات القـائمة على أساس هندى في اقليم أمريكا الوسطى والانديز •

كان سكان هذه البـــلاد يتكونون من ثلاثة عنــاصر رئيسية هى : الأوربى ، والهندى ، والمخلط • وكانت الطبقة العلوية الأوربية الصغيرة تتكون من سلالة الفاتحين الاوربيين ومن جاء بعدهم من المستوطنين • ولما كان معظم المهاجرين الاوربيين من الرجال فقط ، كانت نســـبة كبيرة من السكان من المخلطين أى من أسلاف اختلط فيهم الدم الهنـدى والاوربى • ولكن عند مستهل القرن العشرين كانت هناك مجموعات سكانية كبيرة في المكسيك وجواتيمالا واكوادور وبوليفيا وبيرو ، ومجموعات أصغر في بلاد أخرى ، وكلها مجموعات لم تكد تمسها الاساليب الاوربية ، تعيش فيعزلة عن الحياة القومية • وكانت التقديرات لعام ١٩٥٠ تشير الى أن السكان من ذوى الثقافة الهندية كانوا لا يزالون يشكلون ٢٠٪ في المكسيك ، ٤٠٪ في اكوادور وبيرو ، ٥٥٪ في بوليفيا وجواتيمالا •

وفى كل من هذه البلاد فى مستهل القرن ، كانت ثمة صفوة ذات طابع أوربى ، ثرية صغيرة ـ تحكم شعبا أميا وفقيرا ، وتنعم باحتكار فعلى للأرض وغيرها من الثروة ، وبالقوة السياسية والعسكرية والمركز الاجتماعى . وبرغم أن المدن التى كانت مراكز كبيرة للثقافة فى فترة الاستعمار ، فقدت بعض بهائها الامبراطورى فى السنوات العاصفة بعد الاستقلال ـ ظلت الأسرات القديمة من ملاك الارض تشكل مجتمعا أرستقراطيا . وكانت ترى نفسها مرتبطة ثقافيا بأوربا ، وعاشت حياة راقية فى بيوتها الحضرية التى تواجه الميدان الرئيسى أو فى «البيت الكبير» فى ضياعها ، وترسل أبناءها لتولى قيادة الجيش وادارة مزارع قصب السكر واحتراف المهن الحرة واقتحام ميادين العلم ، وشغل الصفوف العليا من البيروقراطية ذات الطابع الشخصى الى درجة عالية .

ان جماهير الناس الذين ظلوا خارج هذا الوسط الثقافى كانوا منقسمين الى عنصرين رئيسيين : أولئك الذين ظلوا يعيشون كهنود داخل بنيان ثقافتهم الجماعية التقليدية ، ثم المنعزلون جغرافيا ، فى بقاع منعزلة داخل المجتمع ذى الطابع الاوربى ، ثم الذين عاشوا وعملوا كفلاحين يكدحون ـ وغالبا فى حالة تشبه الرق ، فى الضياع الكبيرة أو فى المناجم، أو كعمال صناعيين فى المدن . وكانت الطبقة الوسطى الصغيرة من التجار ومقدمى العمال أو الصناع بالمدن ـ تتكون بوجه عام من المخلطين ، ومن جماعات كاليهود أو السوريين ، وبعضهم كان قد نزح الى المنطقة منذ وقت قريب .

وكانت الملامح المحددة لعناصر هذا المجتمع المنقسم ، العنصرية والاقتصادية والثقافية ، مختلفة فى الأقاليم المختلفة . فيمكن تمييز اللادينو ladino عن كل من الهنود والبيض ، كما هو الحال فى الكثير من أجزاء أمريكا الوسطى ، أو أن المجموعة العامة ممن يطلق عليهم البيض قد تشمل جميع من لم يكونوا هنودا أو زنوجا بشكل واضح ، وكان اسم « هندى » يعنى بوجه خاص أولئك الذين يعيشون داخل البنيان القروى الجماعى الهندى ، أو قد يعنى فحسب « الفقير ، الريفى المتخلف » ويستخدم دون تحديد العرق . ولكن أيا كان النمط فقد كان الهندى ينظر اليه نظرة أقل بوصفه أدنى مستوى من الناحية الثقافية ، وكانت كلمة « أوربى » تحمل معنى المكانة ، وكان ثمة احساس طبقى قوى ، يدعم هذه الاتجاهات فى كل مكان .

وبرغم أن دساتير جمهوريات أمريكا اللاتينية التى وضعت فى وقت

الاســتقلال ، كانت ديموقراطية لفظا ، وعلى غرار دســتور الولايات المتحدة ، فان الواقع الاجتماعى لم يكن متفقا مع الشــكل الســياسى . فالثغرة الواسعة التى فصلت الصفوة الراقية عن جمهرة الناس لم يكن ليجتازها سوى « أبوية » السيد أو مالك الأرض شبه الاقطاعى . لم تشجع الكنيسة الكاثوليكية التفرقة العنصرية ، ولكنها أقرت الانقسام الطبقى ، وأمرت الطبقات الدنيــا أن تقبل وضعهــا وتحترم ســلطان سادتها .

وهذا النمط خرقته الثورة المكسكية التى بدأت فى سنة ١٩١٠ ، لقد بدأها مثقفون ذوو مثل ديموقراطية ، ولكنهم قليلو الاهتمام بالاصلاح الاجتمــاعى ، هاجموا طغيــان بورفيريو دياز الســياسى وانكار نظامه الدكتاتورى للعمليات الديموقراطية ، وهو النظام الذى ظل يتولى السلطة لأكثر من أربعين عاما . وفى الســنوات التى أعقبت سقوط الدكتاتور انحازت الى الثورة جماعات أخرى ضغطت على الزعماء كى يضمنوا مبادئها فى أهداف الثورة ، وأصبحت ثــورة اقتصــادية واجتماعية ضد البنيان شبه الاقطاعى للمجتمع .

وكانت المجموعات التى نهضت لتســتفيد من الثورة ولتجعل منهــا التعبير عن آمالها ــ كانت أولا وقبل كل شىء من الفلاحين بزعامة اميليو زاباتا الذى طالب بالأرض وبوضع نهاية لنظام الضياع الكبيرة ، وانضم اليهم عمال المدن الذين تكونت نقاباتهم فى داخل الأندية السياســية ، وكانت فرقهم العسكرية هى التى نظمت العمال فى كل مدينة ، حيث أحرزوا النصر . وأدى اشتراك العمال فى الثورة الى تضمين الدســتور المكسيكى لعام ١٩١٧ أكثر قانون عمالى تقدما فى العالم فى ذلك الوقت . ولما كان معظم التوســع الصنــاعى فى عهد دياز ــ المنــاجم ، النقل ، الصناعات ــ تم عن طريق رأس المال الأجنبى ، كانت حركة العمال ذات طابع وطنى معاد للأجانب بشــكل قوى ، وجذبت اليها عناصر وطنية أخرى .

لم يتزعم الثورة المكسيكية حزب منظم أو جماعة منظمة ، ولم تتبع أيديولوجية واحدة . ولم يتكون حزب ثورى وطنى الا بعد سبعة عشر عاما ، ونجح فى الانتخاب وتولى الســلطة ، واضــطلع بتقنين الثورة . وكانت الثورة وسياســة زعمائها تســير فى اتجاهات مختلفة من وقت لآخر ، فتعجل أو تبطىء بعملية توزيع الأرض ، وتزيد أو تخفف من حدة العداء للمستثمرين الأجانب ، وتصبح معادية للكنيسة أو متســامحة معها . ولكنها لم تفقد أبدا أساليبها وأغراضها الشعبية .

وكانت الآثار المباشرة للثورة كثيرة • فهى قد حطمت نظام الضياع الكبيرة ، وبذا حررت الفلاحين من اعتمادهم على المالك شبه الاقطاعى ومن عبوديتهم له • وهبطت بمركز الكنيسة بابعادها عن ميدان التعليم ، وتأميم ممتلكات الكنيسة وتقييد نشاط رجال الدين • واستهلت سلسلة واسعة من الاصلاحات الاجتماعية والتعليمية • وهيأت مكانا للعمال المنتظمين فى سلك النقابات • وأحدثت نهضة فى الفنون ربطت بين استخدام الصور الوطنية المحلية وبين التعبير عن الموضوعات الاجتماعية الحديثة ، لتجعل من الرسم المكسيكى على الجدران واحدا من أبرز أشكال التعبير الخلاق فى القرن العشرين • ولم يعد الهندى عقبة كئيبة فى طريق تقدم المكسيك ، ولكنها جعلت منه ممثلا صادقا لشعبها وروحها •

وكان لا يزال أمام المكسيك فى منتصف القرن طريق طويل ، كى تصل الى الهدف الذى تتوخاه ، وهو التعمير الاقتصادى والتكامل الثقافى • فبرغم أن الثورة عجلت الى حد كبير بادماج الهندى فى الحياة القومية المكسيكية ، وبرغم تخصيص جهد قومى كبير للبرامج المراد بها تمكين السكان الهنود من رفع مستويات عيشهم والخروج من عزلتهم ـ قدر أن ربع السكان الهنود فى الخمسينات كانوا لا يزالون يعيشون فى فقر مدقع • وبرغم تحطيم نظام الضياع استمرت فوارق كبيرة قائمة بين الثراء والفقر ، وبالكاد كان معدل التوسع الاقتصادى يسبق الزيادة السكانية •

كان الاحساس الجديد بالكرامة الذى وجده المكسيكيون فى اعادة ادماج تراثهم الهندى ، هو الذى جعل اسهام الثورة المكسيكية فريدا • ان الباعث على ادماج الثقافات والشعوب سبق أن تكرر ظهوره فى التاريخ المكسيكى ، ففى أول الأمر ظهر فى موقف الفاتحين ازاء الهندى باعتباره روحا يجب تنصيرها وفى قبول التزاوج ، وفى زمن الاستقلال ظهر فى مفاهيم المساواة السياسية التى صاغها الزعيم المخلط جوزيه ماريا موريلوس ، وظهر فى منتصف القرن التاسع عشر فى وصول الهندى بنيتو جواريز Benito Juarez الى منصب قاضى القضاة ، ثم رئيس جمهورية المكسيك • والآن قدمت المكسيك للعالم أول دليل فى الأزمنة الحديثة على أن فى امكان شعب ما أن يعبر عن كرامته الذاتية بمصطلحات كان يزدريها من قبل • ففى عالم كان التفوق الأوربى ما يزال قائما ، لا يكاد يتحداه شىء تقريبا ، كان من تأكيد الكرامة الانسانية أن يكون فى مقدور الدم المختلط أن يفخر بأنه كان هنديا بدلا من أن يعتذر بأنه أبيض من

جهة أحد الوالدين فحسب · لقد بقيت المكسيك فى منتصف القرن مثالا بارزا عن الالتحام الناجح بين الأجناس والثقافات واعادة توجيهها ·

ونفس اعادة توجيه القيم الثقافية ، وهو ما صحب الثورة المكسيكية، كان يشق طريقه فى جميع البلاد التى كانت أغلبية أهلها فى منتصف القرن العشرين من الهنود والمخلصين · ولم يكن هذا الاتجاه الجديد قد حطم بعد قبضة المجتمع القديم فى معظم البلاد ، فبوليفيا فقط هى التى أحدثت ثورة اجتماعية كبيرة شملت توزيع الأرض · وفى بيرو تكرر اخماد حركة الأبريستا Aprista ، وفى جواتيمالا ، برغم الشروع فى الاصلاح الزراعى كانت الفجوة بين الهندى واللادينو ladino (المخلط) لا تزال واسعة · ولكن اتجاه الحركة كان واضحا ، وكانت الصفوات القديمة تتخذ موقف الدفاع أو تتراجع · ان التراث الهندى والأصل العنصرى ، فضلا عن التيارات الأوربية التى ظلت تسرى فى حياة القارة ، كل أولئك هيأ الاطار الذى جرى فى داخله مناقشة السياسات القومية وتشكيلها ·

ان القوة الدافعة على اعادة التنظيم الاقتصادى لهذه المجتمعات المختلطة واندماجها الثقافى ، وهى مجتمعات كانت تمزقها التقسيمات الطبقية والسلالية ، هذه القوة جاءت بصورة منطقية من حركة المخلطين · وكان من الصعب أن تأتى من الصفوة ، اذ كانت لها مصلحة كبيرة فى المحافظة على الصرح الاقتصادى ، وكانت مكانتها وكرامتها عرضة للتهديد · كذلك لم يكن فى الامكان أن تأتى من أولئك الذين واصلوا العيش كهنود فى مجتمعات صغيرة تدور حول أصل سلالى واحد ، اذ كانت حركة تدعو الى شكل ما من المشاركة فى الحياة القومية · ولكن بالنسبة الى المخلط ، فان وضعه كان مرتبطا بصورة وطنية تسوى بين التراث الهندى والأوربى ، وتحدد الرفاهية القومية على ضوء التكامل العنصرى والثقافى · وطالما كان يجرى تعريف المثل الأعلى القومى على أساس الخصائص العنصرية والثقافية للصفوة البيضاء الأوربية ، فلابد أن يشغل المخلط المركز الثانى · ولكنه ليس بحاجة الى الخضوع لأحد فى مجتمع كان فيه الدم الهندى سببا يدعو الى الفخر ، وحيث تفرض القيم الهندية احترامها ·

وكانت الاجراءات المكسيكية بالنسبة الى الاصلاح الزراعى والتعليم أمثلة بارزة عن محاولات تحقيق مثل هذا التكامل · فابتدعت الثورة شكلا فريدا من ملكية الأرض ، هو Ejido ، ليلبى مادرج عليه الفلاح السليب من الأرض من عرف خاص ، ويتمشى مع عقليته وحاجاته · هذا الشكل احتفظ بالكثير من عناصر الملكية المشتركة المحلية للأرض ، ولكن أضفى

عليها طابعا علمانيا وفرديا بغير موافقة وتماسك الثقافة الريفية · وهكذا تضمن اعادة تفسير أنماط الهندى الثقافية ، وسمح له باكتساب مواقف جديدة ، من قبيلها علاقة فردية وعلمانية بالأرض تمكنه من قبول التعبير فى نواح أخرى من الحياة ، بدلا من علاقة جماعية ومقدسة ·

وتضمنت الأساليب التعليمية بعثات ثقافية ريفية ومدارس ريفية استخدمت الحرف والعادات وأساليب التعبير المحلية كأساس للتعليم ، وشجعت تطورها · وفى هذه المدارس ربطت الحكمة والحرف التقليدية بتعليم القراءة والكتابة والحساب وتحسين الصحة وأساليب الفلاحة ، كى تمكن الفلاح ، سواء أكان هنديا أم مخلطا من تحسين حظه وفق ما يتراءى له ، ومن أن يسير أيضا فى طريق يؤدى به الى المجتمع الأوسع اذا توافرت لديه أو لدى أطفاله المبادرة لتحقيق هذا ·

ان الحركة التى بذلت أو الجهد من أجل سد الفجوة وتحقيق انصهار اندماج الهندى بشخصته وثقافته ، هذه الحركة أطلقت على نفسها اسم « العودة الى التراث الوطنى » indigenismo · ولقد نشأت فى المكسيك ووصلت الى مستوى دولى بحلول عام ١٩٤٠ ، عندما عقد المؤتمر الهندى الأول الممثل لبلاد أمريكا ، فى باتزكوارو فى المكسيك ، وأعقبه المؤتمران الثانى والثالث فى عامى ١٩٤٩ ، ١٩٥٤ فى كوزلو ببيرو وفى لاباز ببوليفيا · ان « العودة الى التراث الوطنى » كحركة ، تميزت عن «الهندية» من جهة ، وعن «الاتجاه الى الغرب» من جهة أخرى · فهى قد رفضت «الهندية» التى اتخذت من وقت لآخر صورة حركة تمرد ضد المجتمع المحيط بها ، ولم تكن تعطف بالمثل على الجهد الرومانسى الذى يعمل على ابقاء الهندى فى حالته الطليقة باعتباره تحفة أثرية مكانها المتحف · وفى الوقت نفسه رفضت نزعة الاتجاه الى الغرب ، كما مثلها اليسار واليمين ، وهى النزعة التى كانت ترى أن الهندى لا يملك أية قيم ايجابية ، وتفترض أن طريقه الوحيد الى التقدم هو أن يقبل ــ مهما كان الثمن ــ القيم والأنماط المادية والفكرية الغربية ، سواء كانت ذات طابع اشتراكى أو فردى ·

ان الذين كانوا يدعون الى حركة الرجوع الى التراث الوطنى كانوا يسعون وراء التفاعل ، واعادة التفسير والتأليف · وكانوا يدركون أنه منذ سنوات الغزو كانت التغييرات فى الثقافة الهندية تغييرات فى السطح الى حد كبير ــ ولكنهم كانوا يدركون أيضا أن قوة تغلغل الثقافة الصناعية لن تصد ، وأنها ان لم يخفف من تأثيرها ، تملك القوة على احداث الاضطراب فى المجتمعات الهندية · وكانوا يبحثون عن وسائل تقوم على

أساس الاحترام للشخصية والثقافة الهندية ، ولكنهم لم يكونوا ليترددوا في التدخل لتيسير التعديلات التي لا بد أن يولدها التغيير الثقافي ٠

وأعلنت مبادىء « العودة الى التراث الوطني » في الاعلان الذىأصدره المؤتمر الهندي الأمريكي الثالث في عام ١٩٥٤ ٠ وفي اطار الاعلان العالمي لحقوق الانسان ، طالب بحق المواطن الامريكي الأصل في أن يمارس حقوقه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية كاملة ٠ وعرفها بأنهـا الحقوق في الارض والحرية والتصويت والتعليم ، والحـق في عمل ينـال عليه جزاء مناسبا ، وفي الحماية التي يوفرها التشريع الاجتماعي ، والحق في تكوين الجمعيات على أساس ريفي أو عمالي أو تعـاوني ، والحق في التحرر من التفرقة العنصرية وفي احترام تقاليده الثقافية ، والحق في ادماج تقـاليده الثقافية في التكنيكات الحديثة (١٧) ٠

هذه المطالب للأمريكي المحلي كانت تعبر عن أهداف المجتمعات التي كان مثل هذا المواطن جزءا رئيسيا منها ٠

(د) قليات تسعى وراء الاستقلال الثقافي

في أجزاء كثيرة من العالم كانت الدول القومية تضم مجموعات سكانية تختلف من ناحية الثقافة عن العنصر المتسلط ، ومع ذلك كانت تسعى وراء المحافظة على ذاتيتها كشعوب ٠ وكانت بوجه عام تضم أقلية من السكان ، ولكن حيث كان العنصر المتسلط صغيرا هو نفسه من النـاحية العددية ، فقد تربط أغلبية السكان نفسها بمجموعات تشغل مركز الأقليات ٠

ومشكلة الأقليات حسب هذا المعنى كانت الى حد كبير نتيجة ثانوية مترتبة على القومية ؛ ففي المجتمعات الاسيوية التقليدية فيظل الامبراطورية العثمانية ، والى حد ما في ظل امبراطورية النمسـا والمجر والامبراطورية الروسية ، خضعت مجموعات ثقافية كثيرة لحكم مشترك ، وغالبا ماعاشت أجيالا في مناطق متجاورة ٠ على حين احتفظت بهويتها الثقافية ، ولغتها وأعرافها ، ولباسها المميز لها ، وديانتها ، ونظامها في التعليم ، وأحيانا بقانونها للاحوال الشخصية ، ولكن هذا الموقف حطمه نمو القومية ، لأنه حول جميع أعضاء الدولة الى رعايا ـ فرنسيين أو هولنديين ، كنديين أو مكسيكيين ، برازيليين أو لبنانيين ٠ وأينما كان سكان الدولة القومية غير متجانسين ثقافيا فان الأماني القومية والرغبة في تقرير المصير من جانب القطاعات غير المتسلطة ، قد تتعارض مع قومية المجموعة المتسلطة ٠

وكانت مشكلة الأقليات قبل ابتداء القرن العشرين موجودة فى مطالبات الدول القومية باسترداد أرض مجاورة يسكنها أناس من نفس الثقافة ، ومن قبيل ذلك مطالبة ايطاليا باقليم الترنتينو وتريستا ، ومطالبة فرنسا بالألزاس واللورين . وكانت ماثلة أيضا فى جموح الشعوب الخاضعة فى امبراطورية النمسا والمجر والامبراطوريتين الروسية والعثمانية ، وهى شعوب كانت تسعى وراء استعادة استقلالها السابق كما سعى البولنديون ، أو تطالب بقدر من الاستقلال الذاتى المرتبط بحقوق وفرص اقتصادية وسياسية كاملة . وحينا كانت أقلية ما مرتبطة ثقافيا بدولة أخرى أو تماثلها فى الدين ، فان أمانيها قد تصبح عذرا يبرر التدخل الدولى ، وقد تجد نفسها بيدقا فى رقعة شطرنج السياسة الدولية . فقد كانت الأقليات الألمانية فى شرق أوربا والمجموعات السكانية الصقلبية فى البلقان القواعد التى قامت عليها حركات الجامعة الألمانية والجامعة السلافية ، ووضع الأرثوذكس الشرقيون وغيرهم من المسيحيين فى داخل الامبراطورية العثمانية ، تحت « حماية » روسيا وفرنسا على التوالى . وحيث لم تكن للأقلية صلة بدولة خارجية ، فان أمانيها لم تؤد الى تورط فى السياسة الدولية ، فوقف الأرلنديون بمفردهم فى الجهد الذى بذلوه من أجل الحصول على الاستقلال من بريطانيا ، وكان شبيها بذلك موقف أهل قطالونيا فى مطلبهم المشابه من أسبانيا ، وكان اليهود فى كل بلد لا ينالون سوى تأييد أمثالهم ممن كانوا هم أيضا فى مركز الأقلية فى بلد آخر .

وخلال القرن التاسع عشر اعترفت النمسا من حيث المبدأ ـ بحق الأقليات فى الاستقلال الثقافى ؛ فقد نص قانونها الدستورى لعام ١٨٦٧ على أن لكل جنسية حقا ثابتا لا ينتهك فى الاحتفاظ بطابعها القومى واستخدام لغتها فى التعليم والادارة والحياة العامة . غير أن مثل هذه السياسة لم تتبع فى الجزء الهنغارى من امبراطورية آل هيسبرج ، كما لم تتبعه الروسيا أو ألمانيا بالنسبة الى الأقليات . كذلك وضعت معاهدة برلين فى عام ١٨٧٨ سابقة بشأن حماية الأقليات بمقتضى معاهدة دولية ، وكان ذلك بالنسبة الى دول البلقان التى تكونت حديثا ، ولكن لم تكن هناك وسائل لفرض التنفيذ ، فاستمرت رومانيا مثلا ، الى ما بعد الحرب العالمية الاولى ترفض منح حق المواطنة لليهود من سكانها .

وخلال السنوات الاولى من القرن العشرين زاد من حدة مشكلة مركز الأقليات ، ازدياد البواعث على الاستقلال الوطنى وتقرير المصير ، كما زاد من حدتها اتساع نطاق التصويت وتعليم الجماهير ، وغير ذلك من الضغوط

التى استهدفت جعل جميع المواطنين أعضاء متساوين فى الدولة • فضغط الأرلنديون فى غير ما كلل من أجل الحكم الذاتى ، وأسهمت الجهود من أجل تحسين مركز الشعوب التى تمثل أقليات ، فى الثورة الروسية عام ١٩٠٥ وفى الاضطرابات المتكررة داخل امبراطورية النمسا والمجر • وفى الوقت نفسه فان ازدياد حدة قومية جماعات مثل « تركيا الفتاة » أو «البروسيين» ، وضع الأقليات فى بلادهم تحت ضغوط جديدة أريد بها جعل العرب أتراكا أو جعل البولنديين ألمانا •

وفى تسوية « السلام » بعد الحرب العالمية الاولى ، أسفر تطبيق مبدأ «تقرير المصير كلما كان ذلك ممكنا من الناحية العملية » عن منح الاستقلال لبعض الأقليات السابقة فى شرق أوربا • غير أن خلق دول جديدة لم يقض على مشكلة الأقليات ووضعها • فقد كانت المجموعات السكانية المتباينة ثقافيا متنافرة ومتفرقة ، بحيث لم يكن فى الامكان رسم الحدود بوضوح وفق خطوط سلالية • وعلاوة على هذا فان عوامل أخرى من قبيل الحدود الاستراتيجية أو محاولات خلق وحدات اقتصادية قادرة على البقاء ، هذه العوامل تركت أقليات ثقافية على امتداد حدود عدة •

وأدرك مؤتمر فرساى الأزمة الناشئة من الصراع بين مبدأ تقرير المصير على أساس قومى ووجود أقليات ثقافية ، وراح يعالج هذه المشكلة بالنسبة الى الدول الجديدة والموسعة • فعقد الحلفاء مع هذه الدول ومع دول النمسا والمجر وبلغاريا وتركيا المهزومة، معاهدات تطالب بوجوب أن تتمتع الأقليات بمركز مدنى وسياسى كامل ، وأن يكون لها الحق فى الحصول على التعليم الاولى بلغتها هى ، وفى استخدام لغتها للنشر وأمام المحاكم ، وفى اقامة المؤسسات الاجتماعية والثقافية الخاصة بها • وكان السكان البالغ عددهم ٢٥ ـ ٣٠ مليونا والذين شملتهم اتفاقيات الأقليات يشكلون خمس مجموع السكان فى الأقطار الثلاثة عشر المعنية ، وكانوا الثلث تقريبا فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا والربع فى رومانيا • وكانت أكبر المجموعات من الألمان والأوكرانيين واليهود • ووضعت تحت ضمان عصبة الامم الالتزامات التى قررتها الاتفاقيات بالنسبة الى الأقليات، ولكن التزامات مشابهة أقرت دوليا ، ولم تفرض على أعضاء العصبة الآخرين ، باستثناء العراق الذى وافق عليها كشرط لانضمامه الى العصبة فى عام ١٩٣٢ •

وخلال السنوات العشرين التى طبق فيها مبدأ الحماية الدولية لحقوق الأقليات ، تكشفت الصعاب الكامنة فى صراعات الأقليات •

فالمئات العـــديدة من العرائض التى تلقتها عصبة الامم كانت تتراوح من أعمال عنف فردية الى اتهامات بقمع منظم تتعرض له مجموعات كبيرة · ولم تجرؤ بعض الأقليات على الشكوى الى العصبة خشية أعمال الانتقام ، وحاول غيرها أستخدام جهاز العصبة لمقاومة التـدابير الاجتماعية ــ مثل الاصلاح الزراعى ــ ألتى كانت تلحق الضرر بالقلة من أجل منفعة الكثرة· ورفضت بعض المجموعات أن تقبل وضعها كأقليات ، وسعت فى الحاح وراء تقويض سلطان الدولة أو تحطيم سيرها · فكانت المجموعات الالمانية والهنغارية بوجه خاص ، تنظر الى الصقالبة الذين كانت خاضعة لهم ،على أنهم شعوب أقل منها ، ولا تريد هذه الجماعات الخضوع لتسلطهم ·

وبالنسبة الى الأقليات الثقافية الكثيرة فى روســيا ، والتى كانت عموما موضع الاهمال فى عهد القياصرة وهدف الكبت والقمع فى بعض الحالات ، جاءت ثورة أكتوبر بتغيير ظاهر ؛ فقد شجع الاتحاد السوفييتى التعبيرات الثقافية عن المجموعات غير الروسية ، حيث كانت هذه التعبيرات متفقة مع غرض الدولة الشامل · وابتدع لغات مكتوبة لشعوب لم تكن لها هذه اللغات ، واستخدم اللغات المحلية للتعليم الاولى وللدعاية ، وشجع النشاط الادبى والفنى · لقد كانت مواد التعليم فى الثلاثينات تنشر فى ١٠٤ من اللغات ، كما انطبق الأمر نفسه على التعليمات الفنية والاعمال الادبية ·

ولكن الأنمــــاط الثقافية والتقــاليد القومية عند بعض المجموعات السلالية كانت تنتهك وتنسخ ، حيثما تتعارض مع مصالح المجتمع الأكبر· فالاندفاع نحو التصنيع وانشاء المزارع الجماعية والتعليم المتجانس الذى يشدد على الموضوعات العلمية والتاريخ الروسى والثقـافة الروسية ، هذا الاندفاع سار فى طريقه فى جميـــع أنحاء الاتحاد السوفييتى · ووضع توطين الشعوب الرحل نهاية لطريقتهم القديمة فى الحياة · وقوض الأساس المضاد للدين الذى تقـــوم عليه المبادىء الشــيوعية ــ السلامة الثقافية للمجموعات التى كانت تقاليدها متأصلة بقوة فى الدين وفى الاساليب الدينية · وطبقا لدستور الاتحاد السوفييتى أقيمت جمهـوريات مستقلة على أساس الهوية الثقافية لسكانها · لكن خلال الحرب العــالمية الثانية صفيت الجمهـــورية المستقلة الالمـــانية على نهر الفولجا ونقل أهلها الى سيبيريا ، كما اختفت جمهـــوريات مستقلة أخرى فى القـرم والقوقاز والفولجا · أعيد لبعض الشعوب استقلالها القـومى · وبعد موت ستالين وعلى مر الســـنين أصبح الجـو فى أجزاء كبيرة من العـــالم أقل ملاءمة

بصورة متزايدة لمركز الأقليات الثقافية · فمن جهة اتخذت خطوات للقضاء عليها كمجموعات ، من داخل الجسم السياسى ؛ وهذا الاسلوب طبق أولا فى تركيا واليونان تنفيذا لمعاهدة لوزان التى أنهت القتال الذى استمر فى شرق البحر المتوسط بعد الحرب العالمية الاولى · فمن أجل تحقيق التجانس الثقافى طرد اليونانيون من آسيا الصغرى ، برغم ان الكثير من أسراتهم كان يعيش هناك منذ العصور الموغلة فى القدم ، وذلك مقابل أتراك من مقدونيا كانوا يقيمون فى تلك المنطقة منذ أمد طويل ·

ان قيام الدكتاتورين وازدياد حدة ذلك النـــوع من القومية الذى كانت فيه الاشتراكية الوطنية أقصى تعبير مغالى فيه عنها ، جاء الى الحكم بنظم على استعداد لتصل الى أى مدى فى تخليص الدولة من عناصر الأقلية أو لحملها على التمشى مع المجموعة المتسلطة · فسياسة هتلر فى تخليص المناطق الواقعة تحت حكمه من اليهود وفى اخراج غير الألمان من مقاطعات البلطيق ، هذه السياسة أعقبها بعد الحرب طرد مئات الالوف من الألمان من بولندا وتشيكوسلوفاكيا(١٨) · واقترنت اعادة توطين اليهود الذين بقوا على قيد الحياة فى أوربا الوسطى والشرقية ، والجاليات اليهودية من البلاد الاسـلامية : اليمن ، العراق ، مراكش – فى اسرائيل – اقترنت باخراج ما يقرب من مليون عربى من ديارهم ، ظل معظمهم عشر سنوات أو أكثر فى رعاية وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة · وكان تبادل السكان عند تقسيم الهند سببا فى أكبر هجرة جماعية عرفها التاريخ ، برغم أنها تركت أقليات هندوكية ومسلمة كبيرة فى باكستان والهند ·

أن التغير الى أسوأ فى مركز أقليات كثيرة بين نهـــايتى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، انعكس على الأسلوب الذى عالجت به الامم المتحدة المشكلة على خلاف ما فعلت عصبة الامم · فبينما سعت العصبة الى ضمان حق الأقليات فى وجود ثقافى مستمر وفى التمتع بالحقوق المدنية ، كانت الأمم المتحدة معنية بمجرد المحافظة على حياتهم · وانتهت جهود العصبة من أجل الأقليات ، وذلك قبل نهاية العصبة نفسها · فتضاءلت العرائض المقدمة بالنيـــابة عن الأقليـــات من ٢٠٤ فى ١٩٣٠ – ١٩٣١ الى ٤ فى ١٩٣٨ – ١٩٣٩ ، وأغلق مكتب الاقليـات فى سكرتارية العصبة فى عام ١٩٣٩ · ولم تبذل الامم المتحدة جهدا لاحياء هذا الجهاز · وبالنسبة الى الاقاليم التى تتمتع بالحكم الذاتى أنشأت مجلس وصاية ، وعن طريق لجنة حقوق الانسان اهتمت بحقوق الأفراد · ولكن عندما اقتربت من مشكلة الأقليات التى ترغب فى الاحتفاظ باستقلالها الثقافى وشخصيتها ، نظرت

الى المشكلة ، لا على ضوء حقوق يجب ضمانها ، ولكن على ضوء أخطار تهدد بقاءها ٠

وكان اسهام الأمم المتحدة منبثقا من مفهوم «ابادة الجنس» Genocide أى الأعمال التى ترتكب » بقصد القضاء على مجموعة قومية أو سلالية أو عنصرية أو دينية بصفتها هذه ، قضاء كليا أو جزئيا » (المادة ٢ من اتفاق ، القتل الجماعى « ابادة الجنس » وكان اتفاق القتل الجماعى الذى وضعته الأمم المتحدة ينطبق على أفعال من قبيل القتل ، واحداث الأذى الجثمانى أو العقلى الجسيم ، ومنع الولادات ونقل الأطفال بالقوة ٠

كان الصراع بين أمانى الأقليات واندفاع العناصر المتسلطة نحو تحقيق أمانيها بالنسبة الى الشعب بأكمله سبب توتر فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية ٠ لم يكن هناك تقريبا اقليم لم توجد به هذه المشكلة فى صورة ما ٠ لم تكن مشكلة كبيرة فى معظم أوربا الغربية ، ويرجع بعض السبب فى هذا الى أن الأقليات كانت قليلة وأن طابع نظم الدولة القائم على عدم القمع ، أدى الى التوفيق والتلاؤم بين أناس ذوى تقاليد مختلفة ، ولكن كانت هناك توترات لم تجد لها تسوية فى مناطق مثل أرلنده الشمالية وقطالونيا ٠ وكان أكبر الاحتمال أن توجد المشكلة فى مناطق عاشت فيها شعوب قرونا وهى متناثرة مبعثرة فيها ، وحيث خلفت دول جديدة أو غيرت الحدود ، ولكن الأقلية الفرنسية فى كندا كانت دليلا على استمرار الأقليات الثقافية فى بلاد جرى استيطانها فى الماضى القريب العهد نسبيا ٠ وفى النمط السكانى المتشابك فى أوربا الشرقية ، زاد من تعقيد مشكلات الأقليات زحزحة مجموعات سكانية عن مكانها واعادة توطينها فى أماكن أخرى ، نتيجة للحرب العالمية الثانية وما جاء فى أعقابها أو ترتب عليها ٠ وزاد تنوع الولاءات القبلية والدينية فى الشرق الأوسط من مشكلات التكامل والاندماج فى الدول المتعددة ، على حين ظلت متميزة ، فى جنوب وجنوب شرقى آسيا ٠ جماعات أو جاليات عاشت منفصلة بعضها عن بعض ولم تقصر مشكلة الشخصية القبلية عن أن تكون ذات أهمية كبيرة فى الدول القومية الناشئة فى أفريقيا ٠

وفى منتصف القرن وجدت الأقليات الراغبة فى الاحتفاظ بذاتيتها الثقافية ، أنها فى أوضاع وظروف متباينة ٠ ففى المجتمعات المتعددة الثقافات والمندمجة والمتكاملة بدرجة طيبة حيث وجد توافق كبير بين العناصر شغلت الأقليات مركزا محددا بوضوح بوجه عام ، وكان موضع الرضا والقبول ، وان أمكن وجود جهود متنافسة من أجل زيادة النفوذ أو مد

نطاق نظم واحدة أو أخرى من هذه المجموعات · لقد ظلت كندا الفرنسية ــ أو قل الاقلية الفرنسية فى كندا ــ مثلا أشبه شىء بدولة داخل الدولة ، الا أن أهلها شاركوا فى الحياة القومية بطرق تخطت حدود العزلة الثقافية للمجموعة ·

وفى المجتمعات ذات الثقافات المتعددة ، والتى كانت درجة الاندماج فيها أقل ــ حافظت المجموعات التى تتكون منها الدولة على توازن مزعزع غير مستقر ، فى الوقت الذى كانت تمر فيه لعملية خلق نظم واتجاهات ومجموعة من التجارب ، تتخطى الخطوط السلالية وتؤدى الى مجتمع أكثر تكاملا · ومن أمثلة هذه البلاد لبنان المقسم بالتساوى بين مسلمين ومسيحيين · وكانت الملايو تقدم مثالا مشهورا عن التوازن المزعزع ؛ ذلك أن الملاويين كانوا أقل عدوانا من الأقلية الصينية التى تكاد تعادلهم من الناحية العددية ، وكان فى مقدور الأقليات الصينية والهندية أن تربط نفسها بدول قومية كبيرة ودينامية تضم اخوانهم ، اذا لم تصبح عملية الاندماج ذات أثر فعال فى دولة الملايو الجديدة ·

وكانت بعض الأقليات فى مواقف تتسم بالصراع الحاد ، كما كان شأن التاميل Tamils فى سيلان ممن كانوا مصممين على أن يضعوا لغتهم على قدم المساواة مع اللغة السنهالية الرسمية ، أو الأتراك فى قبرص الذين قاوموا جهود الأغلبية اليونانية من أجل تحقيق اتحاد الجزيرة مع اليونان · ووجدت بعض الأقليات أنها معرضة للطرد أو القمع · وهيأت بلغاريا للأقلية التركية فيها فرصة مغادرة البلاد حتى تاريخ محدد ، أو التلاؤم مع ظروف اعتبرها معظم السكان الأتراك غير مقبولة ، فهاجروا الى تركيا(١٩) · وكان يهود أوربا الشرقية يمنعون من النزوح تارة ، ويشجعون على الخروج تارة أخرى · وكانت مجموعات من الاجانب المشتغلين بالتجارة فى عدد من المناطق موضع السخط بسبب مركزهم الاقتصادى ، وكانوا يتعرضون أحيانا للهجوم عليهم على أسس سلالية ، كما كان شأن الصينيين فى جنوب شرقى آسيا ، والهنود فى شرق أفريقية ·

وفى أجزاء من آسيا والشرق الاوسط حيث الانتقال من الولاء للمجموعة الى الولاء القومى كان فى مراحله الاولى ، وخاصة فى أفريقية ، كانت الأقليات فى حالة انتقال · فالكارين Carens الذين اعترفت لهم بورما بما يشبه الاستقلال ، والشعوب المتباينة فى اندونيسيا ممن لم يكن أعضاؤها مستعدين على الفور لقبول حكم قائم على المركزية ، والشعوب القبلية فى ايران وغيرهم من الشعوب القبلية فى جميع أنحاء الشرق

الاوسط ـ كل أولئك كانوا جددا نسبيا على القومية • لقد بدأوا فقط فى التأثر بنظم الدولة القـــومية ، والتعليم العام ، والفكر الحديث والحياة الاقتصادية الحديثة •

وكان موقف مختلف تماما حيث بقيت مجموعات قبلية صغيرة منطوية على نفسها وسط مجتمعات على درجة عالية من التطور • فالسكان الأصليون فى استراليا ونيوزيلندا وهنود أمريكا الشـــمالية المقيمون فى المعازل ، والقبائل التى تقطن الجبال فى شمال ووسط الهند ، والجاليات الهندية المحلية فى أمريكا الوسطى وهضبة الأنديز ، هؤلاء جميعا عاشوا كجزر أى مجموعات منعزلة داخل المجتمع الحديث والثقافة الحديثة • وكانت أمانى هذه المجموعات القبلية المنعزلة مختلفة ومتغيرة ؛ ففى صفوف هنود أمريكا الشمالية مثلا ، كان هناك تناقض كبير بين الرغبة فى الاحتفاظ بشخصيتهم وفى أن يلتزموا طرائق حياتهم الخاصة بهم ، وبين ادراكهم أن هذا كان بالضرورة أملا ضيقا ومحـــدودا • وبعضهم ، مثـل الهوبى Hopi ساورهم اعتقـاد عميق بأن طريقتهم فى الحيـــاة أرقى ، بحيث قاوموا جميع المؤثرات التى يمكن أن تغيرها • ورأى غيرهم ، وخاصة بعد أن اشترك الكثير من الشـــبان فى الحرب العالمية الثانية ـ أن مستقبلهم الوحيد هو فى الاندماج فى المجتمع الأكبر ونبذ الحياة القبلية ؛ كل أمثال هذه المجموعات واجهت اختيارا جذريا بين استمرار العزلة ، والتخلى الفعلى عن ثقافتها التقليدية •

وبالنسبة الى الأقليـات الثقـــافية أيا كان وضعها ؛ فان عددا من المشكلات ظل معلقا بغير حل • وكانت المشـكلة الاولى هى طبيعة ومدى التعدد الثقافى الممكن فى داخل المجتمعات والثقافات القومية وكان هناك اتجاه نحو أنماط من التوافق تقوم على أساس شخصية قومية مشتركة ترتبط بقبول الفوارق الدينية واللغوية والسلالية ، ولكن الاتجاه المضاد نحو التجانس والتعصب تجلى بقوة فى الثلاثينات ، ويمكن أن يعود الى الظهور عند الشدائد ، مثل ما حدث عندما انقلبت مصر فى أزمة السويس على سكانها اليهود الذين كانوا يقيمون فيها منذ أمد بعيد •

وكان السؤال الثانى هو مبلغ التنوع الثقافى الذى يظل حيـا بعد عملية التسوية التى تحدثها الثقافة الصناعية الحضرية بمرونتها ونظامها الصناعى ، وآثار الانتاج الكبير وأنماط التوافق • فالى الحد الذى كانت عنده الذاتية الثقافية مرتبطة بأسلوب فى الحياة بدوى أو زراعى ـ مال التصنيع الى تحطيمه ، وان بقيت التجمعات الثقافية داخل البيئة الحضرية

المشتركة • لقد كان من المحتمل أن تختفي الفوارق المميزة في الملبس في شوارع المدينة ومكان العمل وفي المكاتب • فالتحرك من أجل السعي وراء الوظائف والاعمال كسر شوكة العزلة التي سببت الانفصال الثقافي ، على غرار ما فعلت الطرق التي شقت وتوغلت في منـــاطق نائية ، والأفكار المشتركة التي انتشرت على أمواج الأثير •

وأخيرا كانت هناك العلاقة بين الباعث الذي يدفع الافراد الى السعي وراء الفرص ليعملوا كمـــواطنين كاملين ، والباعث الذي يحرك الأقليات للحصول على اعتراف بشخصيتها المستقلة • هل يتفق هذان الباعثان كل منهما مع الآخر ؟ أو هل الاصرار على الاعتراف الثقافي يفصل بين أعضاء المجموعة ، بحيث يقف في طريق قبولهم التـام كأفراد ، ومن ثم تمتعهم الكامل بالمواطنة التي يطالبون بها ؟ • وبالعكس ، هل قبولهم كأفراد على أساس الجدارة يخفف من احساسهم بالتماثل مع المجموعة التي جاءوا منها، بحيث لا يعودون يشاركون في الدافع على المحـافظة على الذاتية الثقافية وحقوق الأقلية ؟ •

تعليقات على الفصل العاشر

(١) يرى أرنالـدوف A.L.Arnaldov ، وهو دكتور فى الفلسـفة ، ان من الضرورى أن يشدد المؤلفون على وجهة نظر العلماء السوفييت فى أن هذا الفصل يجب أن يتضمن قسما خاصا عن تطور « الثقافة الشيوعية » التى أصبحت مكونا له شأنه من مكونات التطور الثقافى فى القرن العشرين .

ان اعادة بناء المجتمع بناء اشتراكيا لا يمكن تصورها بدون تغييرات عميقة فى ميدان الثقافة ، وهى تغييرات يمكن ادراجها كثورة ثقافية حقيقيـة ، وهدفهـا خلق ثقافة اشتراكية جديدة . غير أن الثورة الثقافية يجب ألا تفهم بمعنى مبتذل على أنهـا انكار لكل الثقافة الماضية ، فالثقافة الاشتراكية لا تنشأ فى فراغ . انها أفضل ما خلق فى ظروف مجتمع قائم على الاسـتغلال . ولقـد قال ف . لينين : « من الضرورى أن نتناول كل الثقافة التى خلفتها الرأسمالية ونبنى الاشتراكية منها . فمن الضرورى أن نأخذ كل العلم والتكنولوجيا ، وكل المعرفة والفن . وبدون هذا لن نكون قادرين على بناء مجتمع شيوعى » V.I. Lenin, Collected Works, vol. 29, p. 52.

ومن ثم ، فمن المهام الاساسية للثورة الثقافية أن ننتقى من التراث الثقافى للماضى كل شيء ذى قيمة خالدة وأن نطـرح جانبا كل شيء لا لزوم له ، وكل شيء يتعـارض مع طبيعة المجتمع الاشتراكى ، ولا نقول : انه ضار ورجعى . وهـذا هو الاسـاس الذى يقوم عليه ابتداع ثقافة اشتراكية حقا من حيث محتواها ، أى انها تعكس حياة وأفكار المجتمع الجديد التى ترى فيها أيديولوجيته ، ويرى فيها الحافز على خدمة الشعب ومساعدته بشكل فعال فى النضال من أجل الاشتراكية ، ويعد ذلك من أجل الشيوعية .

(٢) يؤكد أ . م . دياكوف A.M. Dyakov ، وهو دكتور فى العلوم التاريخية ، على أن بعث الثقافات القديمة لشعوب آسيا يرتبط فى المحل الاول بنمو النضال من أجل التحرر القومى وخلق دول مستقلة ، وكان لثورة أكتوبر فى روسـيا تأثير حاسم فى هذا الاتجاه : « ان وجود الدولة السوفييتية ونمو القوة السـوفييتية اثرا فى الحركات الوطنية فى بلاد آسيا التى ظفرت أخيرا بحريتهـا ، وكانت مصـدر الهام لها فى بعض الحالات .

K.M. Panikkar, Asia and Western Dominance, London, 1954, p. 248.

(٣) اذ يلاحظ ت . فولديسى T. Foldessy (هنغاريا) ول. اى. بوريفتش L.I.V. Urevich الزميـل فى العـلوم التاريخية ان دراسة الهند فى أوربا لعبت بغير شك دورا فى أن أثارت فى الشعب الهندى اهتمـاما بماضيه ، فانهما يؤكدان أن بعث الثقافة الهندية واصلاح الهندوكية كانا بصفة رئيسية تعبيرا عن النضـال المتزايد من أجل التحرر الوطنى ، وعن الايديولوجية البورجوازية الجديدة التى برزت الى المقدمة.

(٤) كتب الدكتور دوســــــان زبيفـــاتل Dusan Zbivatel يقول : أوضحت شخصيات ممتازة كثيرة فى السياسة والحياة الثقافيـــة الهنـدية أن التعليم الانجليزى فى الهند كان متحيزا ، فقد خنق التقاليد الهندية ومنع ايضا الهنود من التعمق في معرفة الثقافات الروسية والفرنسية والالمانية وغيرها . ويكفى أن نشـــير الى رابندرانت تاغور الذى قدم فى خطابه المشهور الى الآنسة راتبون (١٩٤١) تقويما منصفا لتأثير التعليم الانجليزى على الحيـــاة الهندية . ووجهة النظر هذه يشـــترك فيها ت . فولديسي ، ل . ايوتفوس L. Eotvos اللذان يلاحظـــان أن المســـتر نهرو ، وهو يصف السياسة البريطانية فى الهند ، وخاصــــة فى المجـــالات الثقافية والتعليمية ـ كتب يقول : ان البريطانيين « حاولوا عن عمد أن يمنعوا التغيير الا بقدر ما كان ذلك ضروريا لدعم مركزهم ومساعدتهم فى استغلال البلد وشعبه لما فيه منفعتهم » « حدثت بالفعل تغييرات ، وبعض تغييرات فى اتجاه تقدمى ، ولكنها جاءت برغم السياسة البريطانية ، وان كان الحـــافز على ذلك التغيير هو تأثير الغرب الجـــديد عن طريق البريطانيين » .

« .. وحتى الحكومة البريطانية برغم نفورها من التعليم ، اضطرتها الظروف الى اتخاذ التدابير لتدريب وتخريج كتبه لمؤسساتها الآخذة فى النمو ، حيث لم يكن فى وسعها أن تأتى بأعداد كبيرة من الناس من انجلترا لتـــولى هـــذه الاعمال الثانوية . ولهذا نما التعليم ببطء ، وبرغم أنه كان تعليمـــا محدودا وفاسدا ، فانه فتح أبواب العقل ونوافذه للافكار الجديدة والآراء الدينامية »

(See J. Nehru, The Discovery of India, New York, 1946, pp. 312-313).

(٥) يشدد الدكتور دوسان زبافينل Dusan Zbivatel على الاتجاهات الاصلاحية من أجل الغاء التنظيم الهرمى الذى يتسم به النظام الطائفى ، بل وعلى أن النظام الطائفى نفسه كان موجودا فى الهند قبل ادخال التعليم الانجليزى بوقت طويل ، فقبل ذلك بوقت طويل طالب السيخ ، مثلا بالغاء التنظيم الهرمى الطائفى .

(٦) كذلك يؤكد الدكتور دوسان أن رابندرانات تاغور عبر قبـــل غاندى بوقت طويل عن الفكرة التى تذهب الى أن الحرية لا يمكن فصلها عن التحرير الاجتماعى . وفضلا عن هذا أعلن تاغور أن التحرير الاجتماعى للشعب الهندى كان هو الشرط الاول لتحرير الهند السياسي من السيطرة البريطانية .

(٧) يقيم س . ل . تيخينسكى S.L. Tikhvinsky الدكتور فى العـــلوم التاريخية الحجة على أن الكومنتانج لم يفقد طابعه الثورى فى عام ١٩٣٧ ، وانما فقـــده فى عام ١٩٢٧ . فمن اللحظة التى وصل فيها الى السلطة فى عام ١٩٢٧ استبعدت منـــه جميع العناصر التقدمية ، وشـــغل مناصبه البيروقراطيون وممثلوا الطبقة العسكرية شبه الاقطاعية الذين سرعان ما حصلوا على أغلبية مطلقة فى الحزب .

وكان من أهم مظاهر الحياة السياسية الداخلية بالصين فيما بين عامى ١٩٢٧ ، ١٩٣٦ ، الصراع المسلح بين الرجعية المتجسدة فى الكومنتانج والمعســـكر الديموقراطى الثورى . وأغرقت حكومة الكومنتانج الصـــين فى دماء العمـــال والفلاحين الثـــوريين .

ويقول التقرير المرفوع عن عام ١٩٣٠ الى المنظمة الدولية لمساعدة المناضلين من أجل الثورة : « منذ اللحظة التى انتهت فيها فى عام ١٩٢٨ ما يقال لها فترة عمليات القتال ، وحتى اجتماع الكومنتانج والممثل لجميع الصين فى ١٩٢٩ ، أبيد ما يقرب من ٤٥٠،٠٠٠ من العمال والفلاحين . وخلال الشهور الستة الاخيرة من عام ١٩٣٠ وصل عدد الثوريين الذين فقدوا حياتهم ، الى ١٤٠،٠٠٠ » .

ومنذ بدء العدوان اليابانى على الصين فى عام ١٩٣١ انتهجت حكومة شيانج كاى شيك سياسة تقديم التنازلات الى المعتدين : فتخلت أولا عن منشوريا لهم ، ثم عن مقاطعة جيهول . وعندما قاومت قوات الكومنتانج فى مقاطعة شالهار الهجوم اليابانى فى صيف ١٩٣٣ ، متحدية أوامر الحكومة ، ارسلت ضدهم فرق شيانج كاى شيك . وخلال الفترة الممتدة من نهاية ١٩٣٣ الى بداية ١٩٣٤ أخمد الكومنتانج بوحشية الثورة المعادية لليابانيين فى مقاطعة فوكيين . وفى ١٩٣٥ سمحت لليابانيين باحتلال مقاطعة هوبيه والجزء الشمالى من مقاطعة شاهار . وهذا الرأى يؤيده ت . فولدوس ، ل . ايوتغوس .

(٨) علق الاستاذ زريق بقوله : يبدو لى أن هذه الصفحات تحمل ثناء على الصين الشيوعية ، فهى تشدد على الجوانب البراقة وتستبعد الجوانب البشعة . فهى لا تصور الامانى وصورة الذات ، لكنها تنطوى بوجه عام على معنى الموافقة عليها وعلى انجازات النظام .

(٩) يعتبر هـ . ج . ايدوس H.J. Eydus الدكتور فى العلوم الاقتصادية ، انه من المستحيل ان نرى تطور اليابان الرأسمالى على أنه نتيجة فحسب لتغلغل المؤثرات الاقتصادية ، والسياسية والاجتماعية ، والثقافية الغربية فى البلاد . لقد انتقلت اليابان من صرح اقطاعى الى صرح رأسمالى وفقا لنفس القوانين التى تحكم بصورة موضوعية التطور التاريخى ، شأنها شأن البلاد الاخرى . فان ما تحتفظ به اليابان من مخلفات الاقطاع هو نتيجة قيام الراسمالية اليابانية ، وليس أنبثاقا من « روح اليابان » .

(١٠) يلفت المؤلفون الذين قاموا بالتحرير نظر القارىء الى مناقشة التصنيع اليابانى فى الفصل الرابع ، ص ٨٨ — ٨٩ .

(١١) يؤكد الدكتور من لات Min Latt أن من الخطأ اعتبار الاحتلال اليابانى نقطة تحول فى حركة التحرير فى جنوب شرقى آسيا . فعند ابتداء الحرب كانت شعوب جنوب شرقى آسيا قد اكتسبت خبرة كبيرة فى النضال ضد الاستعمار ، من أهم معالمها الثورة الوطنية ضد الحكم الهولندى فى اندونيسيا فى ١٩٢٦ — ٢٧ ، والثورة الوطنية فى بورما فى ١٩٣٢ — ٣٢ ، وغيرهما .

(١٢) يؤكد الزميل فى العلوم التاريخية ، ف . ب . لوتسكى V.B. Lutsky انه طبقا لشهادة عضو الارسالية آل سميث Zeitschrift der deutschen Morganlandischen Gesellschaft, 1854. يرجع تأسيس اول جمعية تعليمية فى سوريا الى المبادرة العربية .

(١٣) يعتقد العلماء السوفييت أن المؤلفين يخطئون اذ يقولون : ان القومية

العربية ، على خلاف الحركات القومية فى الهند ــ لم تكن فى أساسها حركة من أجل الاصلاح الاجتماعى » . ويشدد ف . ب . لوتسكى ، وهو من المؤرخين المشتغلين بالبحث على حقيقة أن الاصلاحات الاجتماعية أدخلت فى الجزائر وتونس ومراكش ومصر وسوريا والعراق بعد تحرر هذه البلاد .

(١٤) يلاحظ ل . زوبوك L.I. Zubok الدكتور فى العلوم التاريخية أن التأكيد بأن الولايات المتحدة الامريكية ظلت فى عزلة حتى الحرب العالمية الاولى ، ولم تشارك فى الشئون العالمية ــ لا يتمشى مع الحقائق انظر الملاحظة الخامسة الملحقة بالفصل الاول .

(١٥) يلفت المؤلفون نظر القارىء الى لغة النص الدقيقة .

(١٦) يؤكد ل . أ . زاك L.A. Zak الزميل بالعلوم التاريخية ، أن الشعار عن « استراليا بيضاء » والذى أريد به اثارة العداوة العنصرية فى صفوف العمال ، لم يؤثر فى مصالح العمال فحسب ، ولكنه أثر أيضا فى مصالح دوائر معنية من البورجوازية .

انظر :

KL.L. Sharkey, An Outline History of the Australian Communist Party (Sydney, 1944), L.L. Sharkey : The Trade Unions (Sydney, 1959).

وغير ذلك من المؤلفات التى وضعها قادة الحزب الشيوعى الاسترالى .

(١٧) يشدد ل . أ . زاك على أن المشكلة الرئيسية التى تواجه سكان أمريكا اللاتينية فى ستينات القرن العشرين لا تزال هى النضال ضد طغيان رأس المال الاجنبى الذى حصن نفسه فى الحياة الاقتصادية لهذه البلاد . انظر مثلا المؤلف الذى وضعه الصحفى ايناور كارنيرو شيكا Yenaro Carnero Checa من أهل بيرو ، وعنوانه Ensayos latinoamericanos

(١٨) يلاحظ تاماس فولدوسى ولورانت ايوتفوس انه ليس ثمة شىء مشترك بين السياسة الهتلرية ضد اليهود والشعوب الاخرى ، وطرد الألمان من تشيكوسلوفاكيا وبولندا بعد الحرب العالمية الثانية :

(أ) كانت السياسة الهتلرية موجهة ضد أناس أبرياء على حين كان الألمان فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا منغمسين كطابور خامس فى الاعداد للحرب ضد البلاد التى كانوا يعيشون فيها .

(ب) فقد مئات الألوف من الناس حياتهم نتيجة للجرائم النازية ، ولكن لم يكن هناك أى تهديد لحياة الالمان الذين أخرجوا من بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، بل كان فى مقدورهم أن يواصلوا العيش والعمل فى وطنهم الجديد .

ان طرد الالمان من أراضى بولندا وتشيكوسلوفاكيا صدق عليه القرار الذى اتخذته القوى المتحالفة الثلاث : المملكة المتحدة ، الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد

السوفييتى — فى مؤتمر بوتسدام (برلين) فى سنة ١٩٤٥ . انظر القسم الثالث عشر من :

Report on the Berlin Conference of the Three Powers, Regularised Transfer of the German Population.

(١٩) كتب الاكاديمى د . كوسيف D. Kosev يقول : بعد اقامة حكومة ديموقراطية شعبية فى بلغاريا زاد الاتراك من حدة دعايتهم فى صفوف السكان الاتراك فى بلغاريا لاثارة استيائهم من الشعب البلغارى والسطات الوطنية وحثهم عن طريق الوعود الديماجوجية على النزوح من بلغاريا . ولعبت البعثة والقنصلية التركية دورا خاصا فى هذه الاثارة ، كما لعبه أيضا بعض الاتراك الاغنياء الذين استغلوا ما كانوا ينعمون به من نفوذ بين الناس فى الماضى .

وبتأثير سنوات كثيرة من الاثارة وبتأثير الوعود الديماجوجية من جانب الدعاية التركية — عبر قسم من الاقليات القومية التركية عن الرغبة فى الهجرة الى تركيا . وتحقيقا لرغبات هؤلاء الأتراك ، وتمشيا مع اتفاق ١٨ أكتوبر ١٩٢٥ بين بلغاريا وتركيا على تبادل السكان اتخذت الحكومة البلغارية بعد أن تخلصت من نتائج الموقف الاقتصادى بعد الحرب خطوات لاصدار تراخيص الهجرة الى جميع الاتراك الراغبين فى الخروج . وحتى أكتوبر ١٩٥٠ فان حوالى ١٢٠٫٠٠٠ تركى ممن قدموا الاقرارات التى تشهد برغبتهم فى الهجرة ، أعطوا جوازات السفر للهجرة .

ومهما يكن من أمر ، فان الحكومة التركية خلقت عددا من الصعاب والعوائق أمام المهاجرين ، ولم ينجح الكثيرون من أولئك الذين باعوا ممتلكاتهم فى الحصول على تأشيرات الدخول لتركية ، ولكنهم اضطروا الى البقاء فى بلغاريا . والذين توجهوا الى تركيا وجدوا أنفسهم فى موقف صعب جدا هناك . وهذه مثلا انطباعات مهاجر كما أوردتها صحيفة Gercek فى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٠ : « ظننا أن فى تركيا فردوسا سماويا . والآن يسأل بعضنا بعضا : أين هذا الفردوس ؟ .. حتى فى ظرف سنة أو سنتين سوف نظل عاجزين عن ايجاد عمل . اننا حقا لا ندرى ماذا نفعل » .

الفصل الحادي عشر

البواعث على الحرية الفردية والكرامة الإنسانية

بينما سعت الأمم والشعوب الى تحقيق أمانيها بوصفها مجتمعات كلية ، كانت عناصر من السكان تصبو الى تغيير ظروفها ومركزها . فسعى العمال والفلاحون والنساء وأعضاء مجموعات الأقليات الى بلوغ ما بشرت به مبادىء حقوق الانسان من مركز وفرص لجميع الناس ، لم يتمتع بها سوى العناصر التى هى أكثر حظوة . كان الدافع لهم هو تحقيق الحرية الفردية ، والكرامة البشرية ، واحترام الذات واحترام الغير ، والمواطنة من الدرجة الاولى ، والمشاركة الكاملة فى حياة مجتمعاتهم .

(أ) العمل (١ ، ٢)

كان الدافع للعامل كى يحصل على الاعتراف به ، وعلى المركز والرفاهية — أقوى هذه الجهود وأوسعها انتشارا . فبابتداء القرن كان «العمل» قد رسخت أقدامه ككيان على وعى بنفسه فى المجتمعات الصناعية بأوربا وأمريكا واستراليشيا . وبرغم تفاوت تحديد الأمانى واختلاف المفاهيم بشأن أفضل السبل لمتابعة الأهداف — كان العامل عنصرا يحسب له حسابه فى هذه البلاد . ووجد الاختلاف الكبير فى الأمانى بين من

داعبهم الأمل فى قلب النظام القائم واقامة نظام اجتماعى جديد بالوسائل الثورية ، وبين من كانوا يسعون الى تحسين مركزهم داخل المجتمع القائم .

ففى المجتمعات الصناعية الاقدم عهدا كان الحرفيون والعمال الصناعيون هم أصلا الذين فكروا فى أنفسهم بوصفهم « العمل » وتنظموا أنفسهم كى يحصلوا على حقوقهم . وكان العمال الزراعيون عناصر أقل شأنا فى هذه الحركات العمالية ، أو لم يكونوا منظمين على الاطلاق ، ولم يربط الموظفون من « ذوى الياقات البيضاء » ، أنفسهم بالعمل الا ببطء وبالتدريج . لكن فى بعض المجتمعات غير الصناعية والمجتمعات التى أخذت حديثا بأسباب التصنيع ، غلب الموقف المضاد ، تقريبا على الحركات العمالية التى تشكلت هناك ؛ ذلك أن المجموعات الرئيسية من العمال المستخدمين كانوا فى الغالب من عمال المزارع الكبيرة أو الحكومة أو المنافع العامة . وفضلا عن هذا ، ففى الظروف المختلفة جدا والتى فى ظلها نشأ الوعى العمالى – وكان يجرى السير فى طريق التصنيع – غالبا ما اختلطت الحركات العمالية بالحركات القومية ، وارتبطت أمانى الناس بوصفهم عمالا برغباتهم فى تحقيق الوحدة القومية .

ولكن أيا كان الشكل الذى اتخذته الحركة العمالية الواعية ، فقد نظر اليها فى منتصف القرن على أنها مظهر عادى وجزء لا يتجزأ من المجتمع الحديث .

(١) أمانى العمل :

عبر العمال عن أمانيهم بطرق كثيرة . ففى كل بلد صناعى ، وفى البلاد غير الصناعية ، حيث انتشرت الأفكار أو الأساليب الصناعية عبر العمال عن مصالحهم المشتركة عن طريق الاتحادات العمالية . وجرى أيضا التعبير عن أمانيهم بالوسائل السياسية بتكوين أحزاب عمالية ، أو بارتباط العمال بالجماعات السياسية الأخرى التى قدمت الوعود بتلبية رغباتهم . وفى داخل المنظمات القائمة على أساس المصلحة الدينية أو الرفاهية أو المصلحة العنصرية أو أية مصلحة مشتركة أخرى كون العمال قطاعات للتعريف بأمانيهم ولنيل تأييد المجموعة بأسرها .

وعبر العمال أيضا عن أمانيهم بطرق فردية شتى وغير منظمة – على النحو الذى أنفقوا به أجورهم ، واستجابتهم لفرص العمل وحوافزه ، وسعيهم وراء التعليم ، وبذل الجهد فى سبيل أن يوفروا لأطفالهم مزايا

لم ينعموا بها هم أنفسهم ، ومشاركتهم أو عدم مشاركتهم كمواطنين فى حياة المجتمع ٠

واختلفت الطريقة والموقف الذى صيغت فيه آمال العمل وأهدافه فى مختلف البلدان ، بالنسبة الى البنيان الاجتماعى ، وأحوال التصنيع ووقته، والأيديولوجية السائدة فى صفوف العمال وقادتهم ، ولكنها كانت فى كل مكان تعكس رغبات مشتركة فى الكرامة وفى الحياة اللائقة ، وفى المكانة والمشاركة فى المجتمع الذى كانوا يكونون جزءا منه ، ومن أجل نصيب معقول مما يقدمه ٠ وفى البلاد ذات التقاليد الطبقية القومية التى ميزت معظم الشعوب الأوربية ، ركز العمال اهتمامهم على الرغبة فى رفع مركزهم الطبقى ، وعلى أن يضطلعوا بوظيفتهم على قدم المساواة تقريبا مع العناصر الأخرى فى المجتمع ٠ وحيث كانت الخطوط الطبقية أقل جمودا ، كانت الأهداف اقتصادية بصورة أخص ٠ وحيث كانت المبادىء الليبرالية قد استقرت دعائمها بفعل طبقة متوسطة قوية سعى العمال الى مد نطاق هذه المبادىء بحيث تشملهم ، ووجدوا حلفاء كثيرين فى صفوف رجال الطبقة الوسطى الذين رأوا فى أمانى العمل انعكاسا لمعتقداتهم ٠ وحيث لم يروا فى النظام القائم سوى الاستغلال سعوا الى قلبه لصالح دكتاتورية تتولاها البروليتـــاريا ٠ وفى ظل الحكم الدكتاتورى واجهوا الاتهامات بالتمرد والتخريب ، وكانوا موضع القمع ٠

وفى كل مكان سعى العمال وراء نصـيب أكمل فى ثمار الانتـاج الصناعى والى دخل أوفى حتى ينعموا بمستوى من المعيشة أرفع ٠ وكان المطلب الرئيسى الذى تقدم به العمل من أجل زيادة الأجور الحقيقية ، وهو مطلب تلقاه فى كل تفاوض حول العقد أو نزاع عمالى ، بالفعل ، هذا المطلب كان يعبر عن اصرار العمال على أن يكونوا المنتفعين بالصناعة فضلا عن ادارتها ، وأن يتمكنوا من التمتع بأطايب الحياة ، كما حددها مستوى معيشة قطاعات المجتمع الاخرى ٠ وسعوا أيضا الى وضع مستويات لظروف عمل لائقة وانسانية ، من قبيل تقصير ساعات العمل والوقاية ضد الحوادث والأمراض الصناعية ٠ كانوا يريدون الأمن فى وجه مخاطر الحياة وتقلبات الاشتغال فى ميدان الصناعة ٠

وأهم من هذا كله ســـعى العمال فى جميع البـــلاد الى الكرامة الشخصية ــ مركز مخلوقات من البشر ٠ وتحديا للمفهوم الاقتصادى ، كما عبرت عنـه سياســـة الحرية الاقتصـــادية Laissez-faire فى القرن التاسع عشر ، وهو المفهوم الذى اعتبر العمل سلعة تشـــترى

وتستخدم فى عملية الانتاج ، وتحديا أيضا للاتجاهات الطبقية التقليدية من ناحية ما هو صالح للعمال ، طالبوا بأن يعاملوا كأناس ، وأن يتمتعوا بحقوق الرجال الأحرار وكرامتهم · وفى سبيل تلك الغاية سعوا الى نيل الحق فى تكوين المنظمات ، وفى أن يتحدثوا بصوت مشترك عن طريق ممثلين من اختيارهم ، وأن يحبسوا عملهم عن طريق الاضراب · وفى بلاد قليلة رغبوا فى المشاركة فى ادارة الصناعة · وفى بلاد كثيرة تاقوا الى الاضطلاع بالمسئولية عن سير الحكومات الوطنية ، عن طريق الأشكال البرلمانية ، والى استخدام هذه الحكومات للاستيلاء على القطاعات الكبرى من الصناعة الأساسية وتشغيلها ·

وفى مناطق كثيرة من العالم داعب المجموعات المنظمة من العمال الأمل فى احداث تغيير أساسى فى الصرح الاقتصادى والسياسى والاجتماعى بالوسائل الثورية ، واحلال سيطرة العمال محل سيطرة الذين جرى العرف على أن يمارسوا الامتياز والسلطة · وفى البلاد التى حدث فيها بالفعل مثل هذا التغيير الثورى ، اضطلعت المنظمات العمالية بالمسئولية عن تحقيق أهداف الانتاج وتنفيذ القواعد الواقية والمنافع الاجتماعية ·

وخلال هذه السنوات اتسع نطاق أمانى العمل تمشيا مع ما طرأ على المجتمع من التغيير ، وان ظل موجودا الاندفاع الاساسى نحو المشاركة الاقتصادية والاجتماعية الكاملة · ففى السنوات المبكرة من القرن عنيت الحركات العمالية بحماية العمال ضد مجموعة من الأدواء : الأجور المنخفضة ، عدم استقرار العمالة ، خطر الحوادث والمرض ، والرضوخ لسلطة أصحاب الأعمال التى لا يكبح جماحها · وسعت النقابات الى زيادة نصيب العمال فى ثمار الصناعة ، والى التقليل من قوة رب العمل النسبية · وبرغم أن هذه الأهداف ظلت أهدافا رئيسية ، الا أنها لم تعد موضع الاهتمام الوحيد كلما اكتسب العمال ظروفا أفضل وقوة أكبر · وبانتصاف القرن أصبح العمل معنيا أيضا بالمحافظة على اقتصاد دينامى ، آخذ فى النمو ، وانتاجى ، اذ أدرك العمال أن رفاهيتهم مرتبطة ارتباطا وثيقا بازدياد ثمار الصناعة ؛ عن طريق ارتفاع الانتاجية والتوسع وليست مرتبطة بنصيب مناسب فحسب ·

ولقد لاحظت لجنة تابعة لمنظمة العمل الدولية هذا التحول فى التأكيد خلال الربع الثانى من القرن العشرين ، فاذ راحت تستعرض دور ممثلى العمال وأصحاب الأعمال والعمال أكثر ايجابية وأقل سلبية مما كان فى البداية » · وعندما تكونت منظمة العمل الدولية فى عام ١٩١٩ كان لكل

من أصحاب الأعمال والعمال فريق يمثلهم « لحماية مصالح كل منهم المادية والدفاع عنها الى حد كبير جدا » • وبحلول عام ١٩٥٦ كان هذا التمثيل قد « اكتسب مضمونا أوسع ، هو الآن يمثل أيضا مصلحة العنصرين المشتركة فى انتاجية الصناعة وفى سير أو مهارة ادارة الصناعة (*) •

وكانت التغييرات الاقتصادية والاجتماعية العريضة فى هذهالسنوات مسئولة على الأقل بصورة جزئية ، عن تحقيق الكثير من أهداف العمل • فارتفاع مستوى معيشة العمال المادى فى البلاد الصناعية كان يرتكز فى أساسه على الانتاجية التى حققتها التكنولوجيا الحديثة (٣) • وكانت العلاقة متبادلة : فالزيادة فى الاجور ، التى جعلها ارتفاع الانتاجية فى حيز الامكان حفزت بدورها أرباب الاعمال على استخدام العمل بمزيد من الكفاية • كذلك بدل التغيير الفنى حتما مركز العامل بأن استبعد الكثير من العمل غير الحاذق ، وتطلب قوة عاملة متعلمة ويقظة وكفاية من الناحية الفنية • ومال الى أن يخلق فى صفوف العمال أرستقراطية عمالية قوامها المهارة والكفاية ، متميزة عن أولئك الذين لم يكن لديهم ما يقدمون سوى مجهودهم الجثمانى • ولم تكن مصالح هذين القطاعين من العمال متفقة دائما •

وفوق هذا تأثرت رفاهية العامل ومركزه فى أى وقت معين تأثرا عميقا بفعل ظروف اقتصادية عامة لا سلطان عليها للعامل الفردى ومنظمات العمل على السواء • كان التباين بين حالة العمال فى وهدة الانهيار الاقتصادى فى الثلاثينات وسنوات الرخاء العشر بعد الحرب العالمية الثانية ــ أعظم بكثير من أى فارق يمكن أن يحدثه نجاح أو فشل جهود العمل فى أى من هاتين الفترتين • مثال ذلك أن التغيير فى موقف العمل بأمريكا الشمالية فى هذه الفترة كان يعكس أصلا التحول من اقتصاد مريض يائس الى اقتصاد نشيط قوى ، برغم أنه خلال هذه السنوات نفسها أصبحت حركة عمالية ضعيفة ومحتقرة قوة قوية معترفا بها تمام الاعتراف •

وفضلا عن هذا كانت التغييرات فى مكان العمل فى المجتمع جزءا من كل عملية التغيير الاجتماعى فى هذه السنوات ــ انهيار الصروح

(*) International Labour Office, Report of the Committee on Employers, and Workers' Organisation (McNair Report), International Labour Office, Governing Body, 131st Session, Geneva, March 6 - 10, 1966. Mimeo 7, p. 200.

الطبقية ، امتداد مسئولية وسلطان الدولة ، ارتفاع مستويات التعليم العام ، القضاء على الامتيازات القديمة - كل هذه عجلت بها الحروب والضرائب والتحولات فى القوة السياسية . وتم تحقيق الكثير من أمانى العمل عن طريق تحلل الصروح الاجتماعية القديمة التى كانت قد خصصت للعمل مكانا سعى الى الخروج منه . وأخيرا زودت الثورة البروليتارية فى روسيا بقية العالم بصورة جديدة أحدثت اضطرابا بعيد الغور فى المفاهيم القديمة عن مركز العمل ووضعه .

لكن عندما ندرك كما ينبغى الاثر المترتب على هذه القوى العريضة يظل الدور الذى لعبه العمل نفسه عاملا كبيرا فى تاريخ النصف الاول من القرن العشرين . فنضالات اتحادات العمال ، وممارسة السلطة السياسية والجهود المستمرة التى بذلها أفراد لا حصر لهم ، هذه كلها حققت للعمال منافع مادية ومركزا جديدا فى آن واحد .

٢ - وسائل السعى وراء أهداف العمل :

كانت الطرق المنظمة التى حدد بها العمل أهدافه ، وسعى الى تحقيقها تختلف من مكان الى مكان ، بسبب الشكل التاريخى للأنظمة الاجتماعية والسياسية من جهة ، وبالنسبة الى وقت التنمية الصناعية وشكلها من جهة أخرى ، وبسبب الايديولوجية السائدة فى صفوف قادة وجماهير العمال من جهة ثالثة .

كان الاختلاف الكبير فى الايديولوجية ، قائما بين من تقبلوا النظام الرأسمالى وسعوا الى تحسين حظ العمل فى داخله ، ومن رفضوا النظام ورأوا آمالهم لا يمكن أن تتحقق الا عن طريق قلبه . لكن التفرقة لم تكن واضحة صريحة وبسيطة .

فقد ركز أفراد المجموعة الاولى جهودهم على استخدام المساومة الجماعية للحصول على أجور أعلى ، وظروف أفضل للعمل ، وحرية تكوين الجمعيات والعمل ، ومختلف المنافع المباشرة . وكانوا بوجه عام يتطلعون الى الدولة لتقديم حد أدنى من ظروف الأجور وساعات العمل وحالات الصحة والأمان ، وتوفير الأمن الاجتماعى وخدمات الرفاهية ، واستخدموا تأثيرهم السياسى ليخرجوا الى حيز الوجود ، التشريع المؤدى الى هذا الغرض .

ومال الذين رفضوا الرأسمالية الى التركيز على التدابير الهدامة التى أريد بها اظهار قوة العمل ، ثم قلب بنيان السلطة القائم فى نهاية

الامر • وكانوا ينقسمون الى معسكرات عدة • فكان النقابيون (السندكاليون) والفوضويون يرفضون أيضا بنيان الصناعة الرأسمالية، تأييدا لمفهوم الصناعات التى يديرها عمالها • وسعى الاشتراكيون الثوريون الى اقامة دكتاتورية البروليتاريا ، ورأوا فى الحركة العمالية أداة الثورة البروليتارية ، وسندا لدكتاتورية البروليتاريا من أجل ادارة الصناعة •

وثمة مجموعة وسط كبيرة تضم الاشتراكيين غير الثوريين ممن اتبعوا التحليل الماركسى لعناصر ضعف النظام الرأسمالى ، كما تضم غيرهم ممن تقبلوا الرأسمالية الى حد ما ، وان شكوا لأسباب مختلفة فى « دافع الربح » وحبذوا ملكية الدولة لوسائل الانتاج الرئيسية أو الملكية التعاونية لها ، وسعوا الى تأميم الصناعات الرئيسية •

وجريا وراء أهدافه استخدم العمل القوة الاقتصادية التى كان فى امكانه أن يتحكم فيها عن طريق التنظيم النقابى ، كما استخدم القوة السياسية التى كان فى مقدوره أن يجمعها فى يديه عن طريق الاحزاب المنظمة • وتفاوت اختيار المنهج كما اختلفت العلاقة بين الاسلوب الاقتصادى والسياسى ، تبعا للعوامل سالفة الذكر •

وبرغم أن الحركات العمالية الناتجة عبرت جميعا عن صراع المصلحة المشترك ضد أرباب الاعمال ، بطرق متشابهة ، الا أنها اختلفت فى التأكيد وفى مدى استخدام واحد أو آخر من الاساليب المتاحة للعمال المنظمين • ففى بعض البلاد تغير طابع الحركة تبعا للمواقف المتغيرة على مر السنين• كانت الحركة العمالية البريطانية مبنية على أساس المساومة الجماعية ، ولكنها تطورت بمرور الوقت كقوة سياسية قوية • وتشكلت فى بلاد الكومنولث والولايات المتحدة حركات مشابهة تضع التأكيد على المساومة الجماعية • وفى القارة الأوربية كان اتجاه العمل منذ البداية سياسيا وثوريا كجزء من الحركات الاشتراكية أو الفوضوية أو الشيوعية ، ولكن هذه المنظمات العمالية اهتمت أيضا بالمساومة الجماعية لتحسين حالة العمال الاقتصادية • ولعبت الاتحادات الشيوعية دورا قبل الثورات وفى أعقابها ، فى حين أن القدرات المحتملة للحركات العمالية فى البلاد التى أخذت حديثا بالتصنيع فى منتصف القرن العشرين ـ كانت قد بدأت فقط فى الظهور ، وكان اتجاهها أبعد من أن يكون واضحا •

(أ) الحركة العمالية البريطانية :

ابتدعت أقدم حركة عمالية كبيرة ، وهى حركة بريطانيا العظمى — شكلها وأسلوبها فى ظل الظروف التى أحاطت بالتصنيع البريطانى . كانت بريطانيا أول بلد أخذ بأسباب التصنيع ، وكان بها تقليد متطور لحرية الاجتماع والديموقراطية البرلمانية ، وأخلاق دينية بروتستانتية تشدد على المسئولية الفردية والاجتماعية ، وكانت أنظمتها الاقطاعية قد مزقتها وان لم تكن قد حطمتها تماما طبقة متوسطة تجارية وصناعية متسلطة بصورة متزايدة .

على ضوء هذه الخلفية اتخذ العمل البريطانى أسلوب التكوين الاختيارى للجمعيات من أجل المساومة الجماعية ، وبدأ بالحرف ، ثم بالصناعات ، وقرر من الناحيتين القانونية والعملية حقه فى التنظيم وفى استخدام قوته الاقتصادية عن طريق الاضراب السلمى ، وغير ذلك من الأساليب المنظمة ، ودخل الحياة السياسية وعمل عن طريق النظام البرلمانى . وكانت هذه الأساليب قد استقرت فى مستهل القرن العشرين، وأصبحت مضمونة للعمال عندما سن البرلمان الذى سيطر عليه حزب الأحرار الممثل للطبقة الوسطى ، قانون « منازعات الحرف » فى عام ١٩٠٦ بناء على التحريض من جانب أول عضو فى حزب العمال .

كان أسلوب العمال البريطانيين براجماتيا ، أى عمليا دائما . وكما أوضحت مرجريت بوندفيلد أول امرأة بريطانية تدخل الوزارة كوزيرة للعمل فى حكومة حزب العمال سنة ١٩٢٩ : « لقد تعلمنا من الحقائق والأحداث . ولعب المذهب دورا صغيرا نسبيا فى حياة معظمنا .. وكانت التجربة هى الشىء الرئيسى » (*) .

وخلال النصف الأول من القرن العشرين مد العمل نفوذه بهذه الأساليب ذاتها الى أن حصل حزب العمال على مركز الأغلبية ، وهو حزب يستند الى قاعدة نقابية ، ولكن عضويته تضم أفرادا من خارج الصفوف النقابية . وعند ختام الحرب العالمية الثانية تولى الحكم ، ونفذ برنامجا من الملكية العامة لصناعات رئيسية معينة مع نظام واسع النطاق من الخدمات الاجتماعية العامة والاصلاحات التعليمية ، تسانده ضرائب تصاعدية ثقيلة . لقد لعبت جهود العمل البريطانى دورا هاما فى تعديل المجتمع البريطانى ، نتج عنه تضييق كبير للثغرة فى الدخل الحقيقى بين الأغنياء والفقراء ، فحصل العمال البريطانيون على وضع جديد ومستوى

(*) Margaret Bondfield, A Life's Work ((London, 1948), p. 10.

معيشة جديد ، ونطـــاق من خدمات الرفاهية ، وقـــدر من الســـلطة والمسئولية ٠

(ب) الحركات العمالية فى القارة الأوربية :

نمت الحركة العمالية الألمانية فى بلد تسوده تقاليد التســـلط ، لا التقاليد الديموقراطية ، وفيه جاء التصنيع أسرع منه فى بريطانيا وان كان متأخرا عنه ، وحيث كان هناك بنيان طبقى قوى وبقايا كثـيرة من النظام الاقطاعى ٠ وفى داخل هذا الاطار كانت الحركة العمالية الألمانية نتاج التنظيم السياسى (٤)٠كانت الاتحادات من خلق الحزب الديموقراطى الاجتماعى (الاشتراكى) وعملت بوصفها شيئا ملحقا بالحزب الى أن وضعها اعلان مانهايم لعام١٩٠٦ على قدم المساواة فى الزمالة٠وبعد ذلك استمرت تنظر الى جهودها السياسية فى سبيل الظفر بالنفوذ فى الحكم على أنهـا على الأقل ذات أهمية تتساوى مع المساومة الجماعية ٠ كان هدف كل من الاتحادات والحزب ، كما تقرر فى اعلان مانهايم ، « نهوض الطبقة العاملة ومساواتها مع طبقات المجتمع الأخرى » ٠ أما العمال الكاثوليك الألمان ــ وكانوا فى موقف مشابه ، وان لم يستطيعوا تقبل المفهوم الماركسى عن النضال الطبـقى ــ فكونوا اتحادات منفصـــلة ، مرتبطة على وجـــه العموم بأحزاب الوسط الكاثوليكية ، وتسير على نهج الأيديولوجية التى تضمنها المنشور البابوى الصادر فى عام ١٨٩١ (Rerum novarum).

وفى معظم البلاد الأخرى بأوربا الوسطى والشمالية اتبع العمل النمط الألمانى ، فتبنت الأحزاب الاشتراكية التنظيم النقابى ، وكانت بمثابة الصوت الذى ينطق باسم العمال ٠ وكانت المساومة الجماعية ثانوية بالنسبة الى العمل السياسى ٠ كان النضال الرئيسى هو من أجـــل رفع الطبقة العاملة ، وكانت الأيديولوجية هى المفهوم الماركسى عن الصراع الطبقى ٠ ان الموقف السياسى فى هذه البلاد المتعددة حدد الى درجة كبيرة مجرى التطور العمالى ، فحيث كان هناك تقليد برلمانى قوى كما هو الحال فى البلاد الأسكنديناوية ، كان التنظيم العمالى والأساليب العمالية قريبا جـــدا مما نلقاه فى بريطانيا العظمى ٠ وحيث كانت مجموعة ســـكانية كاثوليكية كبيرة ، كما هو الحال فى الأراضى الوطيئة والنمسا ، تشكل قوة سياسية منفصـــلة ــ تطابقت النقابات الكاثوليكية مع الأحزاب السياسية الكاثوليكية ٠ وحيث اكتسبت الأحزاب الشيوعية قوة وقعت بعض الاتحادات تحت نفوذها السياسى ٠

وعلى نقيض الحركات العمالية الاشتراكية فى جهات أخرى بالقارة ،

سار العمل الفرنسى والايطالى قبل الحرب العالمية الأولى فى طريق فوضوى نقابى (سنديكالى) فاذ واجه العمل فى هذه البلاد نظما برلمانية ضعيفة تميزت بحشد من أحزاب منقسمة وفق خطوط أيديولوجية دقيقة ـ دعا الى التغيير الاقتصادى الثورى بالوسائل المباشرة بدلا من العمل السياسى أو الارتباط بالأحزاب • ان الأهداف الثورية وأساليب العمل المباشر جعلت العمال الفرنسيين والايطاليين يلجئون الى الاضراب العام أو غيره من أعمال وقف العمل اللافتة للانظار ، باعتبار ذلك أداة مفضلة لابراز المازق الذى وقع فيه العمل وتأكيد مطالبه وقوته •

وبقيام الشيوعية الدولية بعد الحرب العالمية الأولى تمزقت الحركات العمالية الفرنسية والايطالية بين من ظنوا أن الشيوعية تهيىء طريقـــا لتحقيق آمالهم الثورية ، ومن حاولوا تجنب الأسلوب السـياسى الذى تنطوى عليه الشيوعية • وفى السنوات التاليـــة لثورة أكتوبر ، وكذلك بعد الحرب العالمية الثانية كان النضال فى ســـبيل السيطرة الشيوعية وضدها ، وهو النضال الذى حدث داخل جميع الحركات العمالية بالفعل، كان حادا بوجه خاص فى ايطاليا وفرنسا •

(ج) الحركات العمالية فى البلاد الصناعية المستوطنة حديثا :

وفى البلاد الواقعة خارج أوربا ، والتى حققت قبل منتصف القرن العشرين درجة عالية من التنمية ، وأشهرها استراليا ونيوزيلندا وكندا والولايات المتحدة ، سار العمل فى مجرى كان أقرب الى مثيله فى بريطانيا منه الى الحركات العمالية بالقارة • غير أنه فى جميع هـــذه البلاد التى استوطنت حديثا ، فان غياب ماض اقطاعى وكون التصـــويت الفعال للرجال سبق التصنيع ، كل هذا أحدث أثرا عميقا فى اتجاهات العمال وأهدافهم وأساليبهم • ولم يضطر العمال الى الكفاح للقضاء على امتياز طبقى راسخ منذ زمن طويل أو لاقامة الديموقراطية السياسية • ومن ثم كانت أهدافهم هى أن يحصلوا لأنفسهم فى الميدان الاقتصادى على حقوق وامتيازات تطابق ما كانوا ينعمون به كمواطنين ، وأن يرفعوا مســتوى معيشتهم، ويحصلوا على فرص لأطفالهم تطابق ما للطبقة الوسطى الرغدة، التى كانوا يحسون أنهم مثلها •

لكن اختلفت الحركات العمالية باستراليا ونيوزيلندا عن مثيلتها فى الولايات المتحدة وكندا من حيث انها كانت أكثر استخداما للقانون • ففى استراليا وضع نظام للتحكيم الاجبارى عند مســـتهل القرن ، بعد سلسلة من الاضرابات الواسعة النطاق والتى سببت الاضطراب • وكان

على العمل أن يسعى وراء أهدافه عن طريق هذا السبيل ، وأن يلجأ الى القضاء أمام محاكم مجالس التحكيم ، كى يحصل على زيادات فى الأجور ، وعلى ساعات وشروط للعمل تتضمن مبدأ الأجر الذى يكفى للعيش والطمأنينة فى الوظيفة • وفى الوقت نفسه كون حزبه السياسى الخاص به الذى أمسك بميزان القوة فى البرلمان الاتحادى وبرلمانات الولايات فى السنوات المبكرة من القرن ، وحكم البلاد خلال الحرب العالمية الأولى ، وفى أواخر العشرينات وبعد الحرب العالمية الثانية •

واستخدم العمل الاسترالى نفوذه وقوته للحصول على التشريع الذى يكفل الوقاية فى المصانع والمناجم ، والتعليم الاجبارى المجانى ، ونظاما شاملا من الخدمات الاجتماعية الحكومية • وبالاضافة الى هذا كان يشارك فى نظرة بقية السكان ـ وهم شعب صغير منعزل من أصل أوربى، يسعى وراء تحقيق أسلوب ومستوى معيشة أوربيين والاحتفاظ بهما ـ وكان يؤيد بشدة سياسة « استراليا البيضاء » ووضع تعريفة حامية يراد بها استبعاد منتجات العمال الأسيويين ذوى الأجور المنخفضة •

ومن جهة أخرى ، ركز العمل فى الولايات المتحدة وفى كندا أيضا جهوده على المساومة الجماعية ، أولا على أساس حرفى محدود ، ثم عن طريق الاتحادات الصناعية الكبيرة فى صناعات الانتاج الكبير ابتداء من الثلاثينات • وكان نضالها الأكبر هو من أجل الحق فى المساومة الجماعية وفى استخدام أسلحة القوة الاقتصادية التى تجعل مثل هذه المساومة ذات أثر فعال ، دون أن يتعرفوا للارهاب من جانب أصحاب الأعمال بسبب هذه الجهود• وابتدع العمل فى أمريكا الشمالية أساليب للتفاوض، وزود نفسه بالمعرفة الفنية اللازمة يواجه بها أصحاب الأعمال فى ميدانهم، وأوجد جهازا اختياريا يضم الاتحادات والادارة لتنفيذ العقود وتسوية المظالم أو المنازعات طبقا للعقود •

ولم تعمل جمهرة العمال الأمريكيين على تكوين حزب سياسى • فقد كانت الاتحادات فى أول الأمر تنظر بعين الريبة الى جميع العمل السياسى ، بل والى التشريع الاجتماعى ، حيث خشيت أن يؤدى التدخل الحكومى الى فرض قيود حكومية على نشاط الاتحادات ، وفضلت أن تظل ممارسة القوة الاقتصادية متحررة من التورط السياسى • غير أنه اعتبارا من الثلاثينات ، وبعد أن حمى التشريع الفدرالى حق الاتحادات فى التنظيم والمساومة الجماعية والتوقف سلميا عن العمل ، وبعد أن أوضح تأثير الكساد الحاجة الى الأمن الاجتماعى وغيره من صور الحماية ، غيرت الحركة العمالية موقفها ، فساندت بنشاط التشريع الاجتماعى ، وأصبحت قوة هامة فى تعبئة الرأى العام والضغط على المشرعين • وبالاضافة الى هذا

منحت الاتحادات تأييدها للمرشحين الذين يميلون اليها من رجال أحد الاحزاب السياسية الكبرى ، ونظمت اللجان لتوفير التربية السياسية لأعضائها واستثارة النشاط السياسى ٠

(د) الحركة العمالية الشيوعية :

نشأ النمط الشيوعى للتنظيم العمالى فى ظل ظروف روسـيا القيصرية ، حيث لم يكن ثمة وجود للحقوق والحريات التى نعم بها العمال فى بريطانيا وأوربا الغربية ، وحيث كانت مسالك التعبير السـياسى مغلقة ٠ وبرغم أن مفاهيم النضال الطبقى ، وقلب النظم بطريق الثورة، ودكتاتورية البروليتاريا ، كانت تعـزو نشأتها الى كارل ماركس ، فان مشروع لينين للتنظيم هو الذى شكل الاتحادات العمالية الشيوعية فى كلتا مرحلتيها قبل الثورة وبعدها ٠

فى كلتا المرحلتين كان مفهوم الحزب بوصفه الصوت الاسـاسى المعبر عن الطبقة العاملة والخطة التنظيمية للمركزية الديموقراطية همـا اللذان حددا دور الحركة وأسلوبهـا ٠ وكان على كل تنظيم أن يعترف بزعامة الحزب ويخضع لها ٠ كان معنى « المركزية الديموقراطية » أن يعمل أعضاء الحزب الخاضعون للتنظيم الدقيق والذين يتلقون التوجيهات من لجنة الحزب المركزية على تكوين خلايا ينقلون عن طريقها توجيهات الحزب المركزية الى الاتحادات الواقعـة تحت اشرافهم على حين تمـد الاتحادات بدورها هذا التأثير الى العمال بوجه عام ٠ وفى الدولة القائمة قبل الثورة كان الهرم المكون من خلايا الحزب المنظمة تنظيما وثيقـا والموجهة من قبل المركز تهيىء وسيلة لوضـع استراتيجية الثـورة وتنفيذها ٠ وبمجرد أن تسلط الحزب الشيوعى وتولى ادارة الدولة ، هيأ هذا النظام الحزام الذى ينقل السياسة المركزية الى مجموعات العمال ويعمل على أن يصل رأى العمال الى المركز ٠

وعملت الاتحادات العمالية فى روسيا السوفييتية وغيرهـا من الدول الشيوعية ، بصفتها أجهـزة للحكم مسئولة عن تنفيذ السياسة الاقتصادية ، وتحقيق أهداف الانتاج ، وادارة الخدمات الاجتماعية(٦)، فنصت ديباجة لوائح المنظمات العمالية على أنها « تنظم منافسة اشتراكية للعمال والمستخدمين لرفع انتاجية العمل الى حـدها الأقصى ، وتنفيذ خطط الدولة ان لم تجاوزها ، والتنمية المستمرة لجميع فروع الصناعة والنقل والزراعة ، وتحسين النوعية وخفض تكاليف الانتاج ، والاستخدام الكامل لجميع مدخرات الاقتصاد الاشتراكى ، والاشتراك فى تخطيط

الأجور وتنظيمها .. ورفع فئاتها » .. واضطلعت الاتحادات ببعض مسئوليات فى ميادين الأمن الاجتماعى ، والصحة والأمن الصناعيين ، والتفتيش العمالى ، مما تقوم به فى العادة الوكالات الحكومية فى بلاد أخرى .

فى ظل هذه الظروف كانت المساومة غير لائقة ، وكان الاتفاق الجماعى لايخدم وظيفة تقرير الأجور أو غيرها من الظروف الأساسية ، فهذه جميعا تحددها وكالات التخطيط . « الغرض من العقود الجماعية السوفييتية هو ضمان تنفيذ بل تجاوز خطط الانتاج ، والزيادة المستمرة للانتاج وتحسين تنظيم العمل ، ودعم المسئولية عن التنظيم الاقتصادى والنقابى لتحسين أحوال العيش المادية للعمال والخدمات الثقافية المتاحة لهم » . ان الاتفاق الجماعى الذى يجب أن يكون متمشيا مع خطط الدولة والذى يوقع بعد المناقشة الكاملة فى داخل المصنع ، كان يتضمن عادة المسائل الآتية : التزامات الادارة ولجان العمل بالنسبة الى تنفيذ خطة الانتاج ، الأجر ، تدريب وترقية العمال والمهندسين والفنيين والمستخدمين من ذوى المرتبات ، النظام الحكومى والعمالى ، حماية العمل ، أحوال الاسكان والعيش ، تزويد العمال بالمؤن وترتيبات توفير الغذاء المشتركة ، والخدمات الثقافية .

وكانت الخلافات فى الرأى بين المديرين ولجان المصنع تحال لاتخاذ قرار بصددها الى الوزارة المختصة واللجنة المركزية للاتحاد ، ومنها الى المجلس المركزى للاتحادات الذى يعمل بالاتفاق مع الوزارة المختصة .

ووفقا لمبدأ المركزية الديموقراطية كانت جميع أجهزة الاتحادات العمالية « من القاعدة الى القمة » تنتخب بواسطة أعضاء الاتحاد الذى يرفعون اليه التقارير عن نشاطهم ، وكانت جميع القرارات تتخذ بأغلبية الأصوات . وكانت المنظمات العمالية تفض جميع المشاكل حسب لوائح الاتحادات وقرارات أجهزة الاتحاد العليا . « أجهزة الاتحاد من المستوى الأدنى تخضع للأجهزة من المستوى الأعلى » . وتمارس اتحادات العمال السوفييتية « أنشطتها فى ظل توجيه الحزب السوفييتى للاتحاد السوفييتى ، وهو القوة التى تتولى تنظيم المجتمع السوفييتى وتوجيهه » .

وبالنسبة الى حق الاضراب كتبت الحكومة السوفييتية فى تقريرها الى مكتب العمل الدولى فى عام ١٩٥٥ أنه « لاوجود لنص ولم ينص أبدا، فى التشريع السوفييتى على تقييد أو تحريم الاضرابات . لكن من الناحية العملية لاتحدث اضرابات فى الاتحاد السوفييتى ، اذ ليس ثمة سبب يدعو اليها فى بلد ذى نظام اقتصادى واجتماعى اشتراكى ، فيه أدوات

ووسائل الانتاج ملك للعمال أنفسهم ، وكانت التقارير من بلغـــاريا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وبولندا مشابهة * ٠

وبرغم أن الاضطرابات بصفتها هذه لم تكن غير قانونية ، كان أي شخص يشارك في اضراب يتهم بجرائم أخرى تستلزم عقوبات شديدة ، مثل النشاط المعادي للثورة ، أو التغيب عن العمل الذي كانت عقوبته العمل التأديبي بأجور مخفضة في وظيفة العامل المعتادة ٠ وكانت التقارير عن أي شيء يشبه الاضرابات نادرة للغاية ، وبدا كأن هذا النظام كان في الحقيقة قد قضى عليه بالفعل في الاتحاد السوفييتي ٠ غير أن اضرابات خطيرة واسعة النطاق وقعت فعلا في عام ١٩٥٦ في بولندا وألمانيا الشرقية وهنغاريا ، وهذه عزتها السلطات الى القيادة الخاطئة ونشـاط العناصر المضادة للثورة ، وتخلف أجزاء معينة من الطبقة العاملة (٧) ٠

(هـ) الحركة العمالية في اليابان :

لم تكن ظروف التصنيع في اليابان مواتية للتنظيم التلقائي للعمال ولاستقلالهم في التعبير عن أنفسهم ، فقد فرض مجتمع اقطاعي ودكتاتوري بقوة طابعه على كل من المشروعات الكبيرة التي أنشئت بمساعدة حكومية من أجل الصناعات الثقيلة ، وعلى ورش الصناعة الخفيفة الصغيرة ذات الطابع الأبوي ، حيث كانت العلاقات من الطراز العائلي تمتد فتشـمل العلاقات بين العمال وأرباب الأعمال ٠ ولم تكن الحركة العمالية اليابانية لسنوات كثيرة حركة عمال بقدر ما كانت حركة مثقفين قرأوا مؤلفات ماركس ، وعرفوا شيئا عن الحركات العمالية في أوربا وكونوا مجموعة متتابعة من المنظمات تنشق ثم تعود الى الالتئام ، وذلك حول المشـكلة الرئيسية المتعلقة بما اذا كان عليها أن تدعو الى قلب النظام الاقتصادي برمته أو الى العمل من أجل الاصلاحات ٠

وفي الفترات التي كانت الحكومة فيهـا معادية للديموقراطية ، وذات صبغة عسـكرية قمع القانون الحركة العمالية ٠ ومنـذ أوائل الثلاثينـات حتى نهايـة الحرب العـالمية الثـانية ، كان زعماؤها في السجون ٠ وفي الفترات التي كان فيهـا المنـاخ السياسي أكثر ملاءمة استمد القادة من بين المثقفين الماركسيين اتباعهم الى حد كبير من صفوف الخدمة المدنية والمعلمين وعمال النقل وبعض المسـتخدمين في المصـانع الكبيرة ٠ ولما كان كل اتحاد مقصورا بوجه عام على مشروع واحد حيث

International Labour Office, McNair Report, op. cit., pp. 194-5. (*)

ظلت الغلبة للاتجاهات العائلية الأبوية ، وحيث لم ينضم العمال « المؤقتون » الى نفس الاتحاد ، كما كان شأن من لهم مركز « دائم » ، لهذا لم تنشأ اتحادات قوية ، ذات تفكير عملى يتولى العمال قيادتها . وظهر اتجاه طفيف نحو اتحادات عملية ، بعد الحرب العالمية الثانية فى ظل الحافز الذى وفره الاحتلال الأمريكى ، والتعاون الذى قدمه الاتحاد الدولى للنقابات الحرة ، ولكن كان المظهر الرئيسى للحركة العمالية اليابانية فى هذا الوقت هو التسابق من أجل السيطرة بين القيادة الشيوعية وغير الشيوعية . وبقدر ما استطاع العمال أنفسهم التعبير عن أفكارهم ، فانهم حاولوا بصفة رئيسية أن يحموا بأى ثمن قبضتهم على وظائفهم فى الظروف الصعبة والقلقة التى أحاطت بالاقتصاد اليابانى فى السنوات التالية للحرب مباشرة .

(و) الحركات العمالية فى المناطق التى أخذت حديثا بأسباب التصنيع :

لما امتد نظام التصنيع الى أجزاء أخرى بالعالم ، أو حتى قبل التنمية الصناعية ، نشأت حركات عمالية محاكاة لتلك التى سبق أن نشأت فى البلاد الصناعية الأقدم عهدا . ونشأت هذه الحركات فى اطار مجتمعات مختلفة جدا عن مجتمعات أوربا أو البلاد التى استوطنها الأوربيون ، وفى ظل ظروف اقتصادية مختلفة ، وفى مناخ من الرأى العام المحلى والعالمى مختلف . ونتيجة لهذا لعبت دورا مختلفا من ناحية هوية عمال هذه المناطق وأهدافهم . ولما كانت الحركات مستعارة أكثر منها وطنية ، فانها لم تنبع من جذور محلية . واذ ورثت مستويات وأيديولوجية نشأت فى أماكن أخرى ، واذ كانت تفتقر الى الخبرة المتولدة من النمو البطىء والكفاح والانجاز التدريجيين ، فانها نادرا ما ابتدعت بنيانا متينا أو أساسا تقوم عليه الواقعية والمسئولية . بل انها ، بالقياس الى الاتحادات الأوربية التى سبق أن قامت فى مرحلة مماثلة من تطورها ــ كانت أكثر اعتمادا على قيادة المثقفين ومشاركتهم . وفى الوقت نفسه ، فان ضعف الطبقات الوسطى فى هذه البلاد زاد من أهمية العمال كعامل فى تطور مجتمعاتهم .

ففى المناطق غير الصناعية بأمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقية ، حيث قامت شركات من أوربا وأمريكا الشمالية بتنمية المناجم ، والمشروعات الصناعية أو المزارع التى تدار على نمط المصانع ــ لم يكن العمال المحليون المجردون من الخبرة أندادا للهيئات الكبرى . وفى أوائل مراحل الحركات العمالية الأوربية سار العمال ورجال الصناعة فى طريق النمو معا ، وفى الوقت الذى دخل فيه العمال ميدان الصناعة ووجدوا لهم فيه مكانا ، فان

كثيرا من الناس من ذوى الموارد المتواضعة برزوا كمقاولين أو أرباب أعمال • ولكن عندما تعرض العمال فى المناطق غير الصناعية للتأثير المفاجىء الناجم من مشروعات على درجة عالية من التنظيم ، كانت قد نمت تماما فى بلادها الأصلية ، وجدوا أن فجوة واسعة من القوة والمعرفة والثقافة تفصلهم عن سادة الصناعة الحديثة •

ففى البلاد المنهمكة عن وعى وبنشاط فى التنمية الاقتصادية كان المشروع الحكومى أو غيره من العمليات الكبيرة يقود الطريق ، ولم يترك الاندفاع نحو التصنيع السريع وقتا للتطور التدريجى للتنظيم العمالى •

الا أن العمال وغيرهم ممن يحتمل أن يصبحوا كذلك ، كانوا على بينة من بعض الظروف التى نعم بها زملاؤهم فى البلاد النامية من الناحية الصناعية • كان أمامهم نجاح « دولة العمال » فى روسيا فى تحقيق التصنيع السريع ، وجاء الكثير من الحافز للتنظيم العمالى الاسيوى من مصادر شيوعية ، يساعده « معهد روسيا للكادحين فى الشرق الأقصى » Russia's Institute for Toilers in the Far East • كذلك رأوا مستويات العيش العالية والمسئولية السياسية التى كان يتمتع بها العمال فى بلاد مثل بريطانيا واسكنديناوه واستراليا والولايات المتحدة وأرادوا هذه المزايا لأنفسهم •

لكنهم تطلعوا الى الحكومة ، بدلا من جهودهم المباشرة لتحديد التزامات أصحاب الأعمال وتقرير مستويات وشروط للعمل • وكان من الطبيعى أن يفعلوا ذلك • أن مستويات العمال التى كانت موضع القبول من الناحية الدولية لقيت القبول رسميا من جانب كثير من البلاد غير الصناعية التى صدقت على الاتفاقات التى وضعتها منظمة العمل الدولية بشأن مسائل من قبيل ساعات العمل ، وعمل النساء والأحداث ، والحوادث والأمراض الصناعية • وحتى بعض الحكومات الدكتاتورية التى قمعت المنظمات العمالية بشدة ــ كما حدث فى بعض بلاد أمريكا اللاتينية ، اقتبست القوانين العمالية والتشريعات الاجتماعية التى كافح من أجلها العمال الأوربيون طويلا ، وان بقى أمثال هذه القوانين دون تنفيذ فى الغالب •

تكونت الاتحادات العمالية فى البلاد الصناعية القديمة ، استجابة للتجربة الصناعية الفعلية ، ونتج التشريع العمالى والاجتماعى من النضال الطويل الذى عاناه العمال المنظمون من أجل ظروف عمل لائقة وشروط للتوظف ومزايا اجتماعية • وكان الترتيب معكوسا فى البلاد الحديثة

العهد بالتصنيع • وكانت الخطوة الأولى سن تشريع عمالى واجتماعى لم يتعين على العمل نفسه أن يكافح من أجله ـ تشريع أرادت به الحكومات حماية شعبها ضد الاستغلال الأجنبى أو جعل بلادها تتمشى مع المستويات الدولية • هذه المجموعة من التشريعات ، والتى تغطى مسائل من قبيل ساعات العمل ، والحد الأدنى من الأجر ، وتشغيل الأطفال ، والتعويض عن الحوادث ، وأجازات الوضع بالنسبة للنساء ، والبقاء فى الوظيفة والأمن الاجتماعى ، هذه المجموعة هيأت اطارا مختلفا جدا عن الاطار الذى قامت فيه الصناعة فى أوربا وأمريكا ، ووضعت العمل فى مركز مختلف جدا •

فى ظل هذه الظروف الجديدة كان دور اتحادات العمال وأساليبها المناسبة للعمل ، أبعد ما تكون عن الوضوح • فنادرا ما كانت المساومة الجماعية مهمة أساسية لهذه الاتحادات • وفى بعض البلاد ، وبصفة ظاهرة فى أمريكا اللاتينية ، كان للاتحادات نشاط كبير هـــو مراقبة تشريع الوقاية وتنفيذه ومساعدة العمال فى الحصول على حقوقهم فى ظل هـذه القوانين •

وفى معظم البلاد التى أخذت حديثا بالتصـــنيع ، وعلى الأخص فى آسيا والشرق الأوسط ، جاءت القيادة العمالية ، بصورة تامة تقريبا من خارج صفوف العمل نفسه ، ووفرها المثقفون أو غيرهم من أعضاء الطبقة الوسطى المتعلمين • مثل هذه القيادة مالت الى أن تكون أكثر انصرافا الى الأيديولوجية منها الى مشكلات العمال اليومية فى الصناعة ، والى دعم الطابع السياسى للنقابات (٨) وكانت الاتحادات العمالية تشكل أجـزاء جوهرية من مختلف الأحزاب الســـياسية ، وكان لكل اتحاد ارتباطه السياسى • ولعبت الاتحادات دورا خاصا فى البلاد الأفريقية الناشئة ، بسبب عدم وجود طبقة متوسطة ، ولأن الاتحادات هيأت بالفعل الأساس الوحيد الذى يقوم عليه التنظيم الجماهيرى والقيادة فى خارج البنيان القبلى •

واذ اكتسبت الحركات العمالية الفتية فى هـذه البـلاد خبرة ، وزادت من اتصالهـا بالقـادة العماليين فى البلاد الأخرى ، عن طريق الاشتراك فى منظمة العمل الدولية والاتحـادات العمالية الدولية ، وعن طريق المعونة الفنية وتبـادل القـادة الزيارات فى ظل برامج المعونـة الدولية ـ بدأت تتخذ بعض الاتجاهات والأساليب التى سبق أن ابتدعتها الاتحادات الأقدم عهدا • لكن ظل موضــع الشـــك فى منتصف القرن

السؤال المتعلق بمدى أهمية الخبرة والاتجاهات المكتسبة فى البلاد التى تصنعت ، بالنسبة الى المواقف التى واجهتها الاتحادات الجديدة ٠

كان مستوى الانتاجية من بين العوامل الكبرى التى كيفت دور النقابات الجديدة ، ففى البلاد الصناعية القديمة كانت الزيادة فى الانتاجية تعكس الى حد كبير ، الزيادة فى أجور العمال الحقيقية ومستويات معيشتهم ، وجعلت ذلك فى حيز الامكان ٠ وكان نجاح الحركه العمالية انتظامية فى الحصول على زيادات فى الأجور الحقيقية ، قد تحقق فى داخل حدود رسمها مستوى الانتاجيه الآخذ فى الارتفاع ٠ وفى البلاد الشيوعية كانت الوظيفة الكبرى للاتحادات العمالية هى المساعدة على تحقيق أهداف الانتاج ورفع انتاجية العمال كوسيلة لرفع مستويات المعيشة فى نهاية الأمر ٠ وفى البلاد الحديثة العهد بالتصنيع كانت انتاجية العمل منخفضة ، ولكن الكثير من الظروف أو الأوضاع التى عكست الزيادات فى الانتاجية بالبلاد الكبرى ، نقول : ان هذه كانت موضع المطالبة بها باعتبارها حقا سياسيا ٠ وفى منتصف القرن ظلت الورطة الناشئة عن انخفاض الانتاجية وعن الأمانى العريضة بغير حل فى الحركات العمالية فى هذا الجزء من العالم ٠

(ز) الحركات العمالية الدولية :

منذ أوائل أيام الاتجاه الى النظام الصناعى تضمن الوعى العمالى عنصرا دوليا قويا من بين العناصر التى يتكون منها ، وكان هذا صحيحا بوجه خاص بالنسبة الى الحركات ذات الاتجاه السياسى ، والتى تسيطر عليها الأيديولوجيات ٠ من ذلك أن البيان الشيوعى الصادر فى عام ١٨٤٨ أهاب بعمال العالم أن يتحدوا ، وكان أتباع ماركس على اختلاف آرائهم ، سواء كانوا من دعاة التدرج أو الثورة ــ يشتركون فى قدر من الاحساس الذى عبر عنه ماركس ، وهو الاحساس بمصير مشترك وقضية مشتركة ٠ قد تكون الحركات العمالية التى غلب عليها الطابع العملى ذات نزعة قومية ضيقة فى مسائل مثل تقييد الهجرة أو الحماية الجمركية ، ولكن حتى هذه غالبا ما اعترفت بأن مكاسبها سوف يحميها على المدى الطويل نجاح العمال بالبلاد الأخرى فى رفع أجورهم ، كما عبرت عن عطف مشترك ٠

ان الدولية الأولى (١٨٦٤) ، ثم الدولية الثانية (١٨٨٩) بوجه خاص ، التى تكونت فى مبدأ الأمر من الأحزاب الاشتراكية فى أوربا ثم ضمت فيما بعد الأحزاب الاشتراكية فيما وراء البحار ، قد هيأتا أرضا

تتلاقى فوقها الحركات العمالية ذات الاتجاه الاشتراكي • ولكن ولاءات العمال القومية أثبتت أنهـا أقوى من تضـامنهم الدولى ، حين تعرضت للاختبار عندما نشبت الحرب العالمية الأولى • وأصبحت الدولية الثالثة التى تكونت فى عام ١٩١٩ المركز الدولى الذى تتجمع حوله الأحزاب الشيوعية ، وعن طريقها تتجمع حوله الاتحادات العمالية التى سيطرت عليها تلك الأحزاب •

وفى هذه الأثناء اتحدت الاتحادات دوليا على أسـاس الحرف أو الصناعات المستقلة ، مثل عمال المناجم والطباعة والصناعات المعدنية • وكانت الوظيفة الرئيسية لهذه السكرتاريات اطلاع أعضائها على أحوال الحرف والمنازعات فى البلاد المختلفة ، ومنع العمال فى بلد من تحطيم الاضراب فى بلد آخر • ففى عام ١٩٠٣ تكونت السـكرتارية الدولية لمراكز الاتحادات الدولية ، من مركز الاتحاد الرئيسى فى كل بلد ، وفى عام ١٩١٣ غيرت اسمها الى الاتحاد الفدرالى لاتحادات العمال • وكان غرضها الأصلى أن تكون مكان لقاء تناقش فيه المشكلات المشتركة • وفى زيوريخ اجتمعت عام ١٩٠٨ اتحادات العمال المسيحية التى شـجع على تنظيمها فى بلاد عدة المنشـور البابوى ، تقول : انهـا اجتمعت لتكوين السكرتارية الدولية للاتحادات المسيحية ، مع فتح أبواب العضوية أمام الاتحادات البروتستانتية ، فضلا عن الكاثوليكية • وفى عشـية الحرب العالمية الأولى كان أغلب الأعضاء فى ألمانيا •

وفى أعقاب الحرب العالمية الثـانية تعين على الاتحـادات أن تعيد الترابط بينها دوليا بعد أن أعيد انشاء الاتحادات الأوربية التى حطمها أو شوهها التسلط النازى والفاشى • وتزعمت الاتحادات الشيوعية حركة احياء التنظيم العمالى الدولى بان انضمت الى الاتحادات غير الشيوعية فى عدد من البلدان ، لانشاء الاتحاد الفدرالى العالمى لاتحادات العمال فى عام ١٩٤٥ ، ولكن انسحبت الاتحادات غير الشيوعية بعد أربع سـنوات ، وكونت الاتحـاد الكنفدرالى الدولى للاتحـادات الحرة • وهذا الأخير لم يقتصر ، كما كان شأن الاتحاد الفدرالى الدولى للاتحادات من قبل — على اتحاد واحد أو مركز نقابى واحد من كل بلد ، وبذلك اجتذب اتحادات ذات ارتباطات سياسية مختلفة فى أوربا وآسيا ، وأجنحة مختلفـة من الحركات العمالية فى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية • واسـتمر الاتحاد الفدرالى الدولى للاتحادات المسيحية مكونا بصفة رئيسـية من الاتحادات الكاثوليكية فى فرنسا وبلجيكا والنمسا وكندا ، ومن الاتحادات الكاثوليكية والبروتستانتية فى الأراضى الوطيئة وسويسرا (٩) •

(٣) حقوق العامل ومسئولياته :

ان الطريقة التى استطاعت بها الاتحادات العمالية بالبلاد المختلفة ، أن تضطلع بوظائفها ، لم تتوقف فحسب على شكل الاتحادات نفسها ونواياها ، ولكنها كانت تتوقف على الاطار القانونى الذى عملت فى داخله ، وعلى موقف أصحاب الأعمال والحكومة والجمهور • وتضمن هذا الاطار : حق العمال فى تكوين اتحادات ، وحق الاتحادات فى ادارة شئونها الخاصة بها ، وحق العمل فى استخدام سلاحه النهائى وهو الاضراب ، وتوفير الجهاز اللازم لاجراء المفاوضات بين العمل والادارة ، وما يتطلبه استخدام هذا الجهاز •

(أ) حق التنظيم :

كان على العمال فى كل بلد بالفعل أن يناضلوا طويلا وبمرارة فى الغالب ، كى يتقرر لهم الحق فى حرية تكوين الاتحادات والانضمام اليها ، دون ما تدخل من جانب أصحاب الأعمال أو الحكومة •

فالاتحادات العمالية البريطانية ، وهى من أول من حصل على المكانة والتحرر من التدخل كافحت طيلة أكثر من مائة عام فى سبيل التحرر من القيود القانونية • وكانت عرضة لمقاضاتها ؛ أولا بسبب وجودها نفسه ، ثم بسبب معظم أفعالها وتصرفاتها ، وذلك الى أن منحتها قوانين الاتحادات العمالية الصادرة فى السبعينات من القرن التاسع عشر مركزا قانونيا والحق فى ممارسة الأنشطة الأساسية التى يقتضيها وجودها الفعال • وبرغم هذا كان من أثر قرار أصدرته المحكمة فى عام ١٩٠١ فى قضية شركة سكة حديد تاف ڤيل Taff Vale أن منعت الاضرابات بالفعل ، ثم سن قانون منازعات الحرفة فى عام ١٩٠٦ لتأكيد هذا الحق • ومرة أخرى منعت الاتحادات فى عام ١٩٠٩ من استخدام أموالها لأغراض سياسية ، وتطلب الأمر اصدار قانون الاتحادات لعام ١٩١٣ كى يقرر الشروط التى يمكن للاتحادات بموجبها أن تسعى وراء أهداف سياسية • وكافح العمال الاستراليون كفاحا مرا فى التسعينات من القرن الماضى فى سبيل حق المساومة الجماعية ضد أصحاب الأعمال المعاندين فى صناعة تربية الأغنام والصناعة البحرية ، ولم يتمكنوا من دعم مركزهم وتقرير حقوقهم الا بعد أن دخلوا فى السياسة ، وأصبح حزب العمال قوة سياسية فى أوائل القرن العشرين •

وجعلت النظم الفاشية والنازية بايطاليا وألمانيا من الاتحاد الحر واحدا من الأهداف الرئيسية التى تسدد اليه ضرباتها ٠

وفى الولايات المتحدة قاومت كثير من الصناعات الكبيرة وبمرارة تكوين الاتحادات ٠ وكشف تحقيق قامت به السلطات عن انتهاكات لحرية الكلام وحق العمال ، فى أوائل الثلاثينات عن أن بعض الشركات الكبيرة كانت تحتفظ بترسانات من الغاز المسيل للدموع وغيره من الأسلحة ، وكان العنف والتهديد بالعنف من الأمور الشائعة ، وانصرفت رابطات رجال الأعمال بصورة منتظمة الى تعبئة الشعور العام ضد النقابات ، ومنع العمال من تنظيم أنفسهم وتحطيم القوة النقابية ٠ وفيما بين عامى ١٩٣٤ ، ١٩٤١ كانت المشكلات المتعلقة بمحاولة العمال تنظيم أنفسهم ونيل الاعتراف بهم وتقرير المساومة الجماعية أكبر سبب تعزى اليه الاضرابات ٠

وفى الثلاثينات زودت سلسلة من القوانين سنها الكونجرس الاتحادى ، العمال بميثاق قانونى جديد يسعون فى اطاره وراء أهدافهم ٠ وضمنت هذه القوانين لهم الحق فى التنظيم وفى أن تمثلهم « اتحادات من اختيارهم » ، وحددت « الأساليب العمالية غير العادلة » التى حرم على أرباب الأعمال ممارستها ، وقررت حق الاضراب السلمى ، ومنعت استخدام الانذارات فى المنازعات العمالية ٠ وانشأت جهازا اداريا ليسهل للعمال اختيار النقابة التى يرغبون فى أن يمثلوا عن طريقها ، وتضمن أن يمارس أصحاب الأعمال المساومة بنية طيبة ، وتنص على وكالة يستطيع العمال أن يلجئوا اليها اذا ظنوا أن ثمة انتهاكا للأوامر الصادرة بمنع الأساليب العمالية غير العادلة ٠ وبهذه الضمانات نمت المنظات العمالية بسرعة فى صناعات الانتاج الكبير التى كانت هذه التنظيمات مستبعدة منها الى حد كبير ، وأصبح الاعتراف بالاتحادات والمساومة الجماعية أساليب مستقرة وموضع القبول فى الصناعة الأمريكية ٠ وفى عام ١٩٤٧ حد من قوة التنظيم العمالى الجديدة ، بفعل قانون تافت ـ هارتلى الذى قيد أساليب نقابية معينة تتعلق « بالمتجر المغلق » وعمليات المقاطعة والمنازعات حول الاختصاص والذى نص على أنه عندما يرى رئيس جمهورية الولايات المتحدة أن اضرابا مهددا به أو اضرابا فعليا يعرض للخطر صحة الشعب أو أمنه ، فيجوز اصدار الأمر الى العمال بالامتناع عن الاضراب لفترة ثمانين يوما فى حين تسعى الحكومة الى تسوية النزاع ٠

وكانت اتحادات العمال الألمانية تتمتع بمركز قانونى ملائم ابتداء من عام ١٨٩٠ ، بعد أن انقضى أجل قوانين بسمرك المضادة للاشتراكية ،

والتى كانت قد استخدمت لتقييد نشاط النقابات ، وكانت الحركة العمالية الألمانية من أقوى الحركات فى القارة الأوربية • ولكن عندما تولى النازى السلطة لم يكن للاتحادات العمالية القوية المستقلة مكان فى دولة استبدادية ذات حزب واحد ، فحلت منظماتها واضطهد زعماؤها • وطبقا لمبدأ « المساواة فى المضمون والتفاصيل Gleichschaltung والفكرة التى تعتبر التنظيم العسكرى نمط الحياة الألمانية تكونت الجبهة العمالية النازية، بوصفها هيئة منظمة من العمال ، تخضع لقادة الصناعة وتدين بالولاء لنظام الحكم •

ولم تشغل النقابات الايطالية أبدا مركزا آمنا ، وأخفقت محاولة سن عدد من القوانين المقترحة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، لمنحها مركزا قانونيا • وكانت النقابات تنعم من حيث الواقع بنوع من المركز بحكم التشريع الذى كان يعنى ضمنا وجودها ، بأن فرض حدودا على نشاطها ، أو خول حق تمثيلها فى هيئات معينة • وصفى النظام الفاشى النقابات المستقلة وأحل محلها منظمات العمال التى كانت تعمل ، لا كأدوات للمساومة ، وانما بوصفها عمدا للدولة الجماعية •

وفى السنوات التالية للحرب تعين اعادة بناء النقابات الألمانية والايطالية ، والنقابات فى البلاد الأخرى التى احتلها النازى ، من الصفر ، أو من أساسها •

وكان حق العمل فى حرية تكوين الجمعيات موضع الاعتراف به كمبدأ على النطاق الدولى ، وذلك فى بنيان منظمة العمل الدولية ؛ ففى هذه المنظمة التى أنشئت فى عام ١٩١٩ كان كل بلد عضو يمثله مندوبون عن الحكومة والعمال وأصحاب الأعمال ، كل فريق على حدة ، وكان هؤلاء المندوبون يصوتون بصفة فردية ، بدلا من أن يصوتوا كمجموعة قومية • هذا الشكل من التمثيل الثلاثى سمح لمندوبى العمال من البلاد المختلفة بأن يشتركوا فى تحديد مركز العمال بصدد مشكلات ذات طابع خاص محدد • وأكد الاعلان العالمى لحقوق الانسان أن « لكل فرد الحق فى تكوين النقابات والانضمام اليها لحماية مصالحه » (المادة ٢٣) • وفى عامى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ أقرت منظمة العمل الدولية اتفاقيات تحدد بالتفصيل الشروط التى تشكل حرية العمال الحقيقية فى الارتباط بعضهم ببعض • وكانت تشمل حق جميع العمال بدون ترخيص سابق فى تكوين منظمات يختارونها ، وحق هذه المنظمات فى أداء وظائفها فى حرية دون رقابة أو اشراف أو خطر التعرض للحل فى مسائل من قبيل وضع دستورها وقواعدها ،

وانتخاب موظفيها ، وعقد الاجتماعات ، والانضمام الى الاتحادات القومية والدولية ، والاشتغال بالنشاط السياسى ٠

ما أن حل عام ١٩٥٥ حتى كانت هذه المبادىء المتعلقة بحرية تكوين الجمعيات جزءا بوجه عام من آنكيان القانونى بالبلاد الصناعية فى أوربا الغربية والولايات المتحدة والكومنولث البريطانى ٠ وفى هذه آلبلاد تمتعت الاتحادات بوجه عام بضمانات دستورية أو قانونية تكفل حق الارتباط ، وهى ضمانات ليست خاضعة بشكل صريح لقيود يفرضها القانون ٠ ولم تكن تطالب بتسجيل نفسها ، وان كانت ثمة امتيازات معينة قد احتفظ بها فى حالات قلائل للنقابات المسجلة ، ولم تكن ثمة قيود بالنسبة لأى من فئات العمال يسمح لها بتكوين الاتحادات ، بما فى ذلك المستخدمين فى الوظائف الحكومية ٠

ولم يكن هناك رقابة على الاتحادات فى هذه البلاد ، بالنسبة الى تكوين دساتيرها ، واختيار موظفيها ، والاجتماعات ، والحق فى الاشتغال بالنشاط السياسى فضلا عن الاقتصادى ، وحق الانضمام الى الاتحادات القومية او الدولية ٠وكانت تتمتع بحق الاضراب فضلا عن ممارسة المساومة الجماعية والدخول فى عقود جماعية ٠ وبخلاف القيود المتعلقة بالصناعات الأساسية أو المستخدمين العموميين لم يبق سوى قيد من وقت لآخر ، مثل تحريم الاضرابات الخاصة بالولاية القضائية فى الدنمرك ، والاضرابات لمجرد العطف أو التأييد فى كندا ، أو أعمال المقاطعة الثانوية فى الولايات المتحدة ٠ بيد أنه خارج البلاد الصناعية كان مركز الاتحادات القانونى أكثر تقييدا فى العادة ٠ ففى عدد من المناطق كان الأمر يتطلب التسجيل الاجبارى وقدراً من الاشراف الحكومى ، وكان حق الاضراب محدودا أو محرما٠

(ب) الاضراب :

كان السلاح الأخير فى يد اتحادات العمال هو الاضراب ـ أى قدرة العمال المنظمين عن حبس عملهم ٠ وكان حق الاضراب أحد الحقوق الأساسية التى تمتعت بها الاتحادات الحرة ، ولكن كان هناك ميل الى البحث عن وسائل لتحقيق المنافع التى سعى اليها العمال ، دون اللجوء الى وقف العمل وهو العملية الأليمة الباهظة التكاليف ٠ كانت حالات وقف العمل من جانب أصحاب الأعمال لارغام العمال على قبول شروطهم ، وغالبا لمنع التنظيم النقابى تستخدم على نطاق واسع فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ولكن قل اللجوء اليها ، حين ظفرت الاتحادات بترحيب أكبر ٠

وكان للاضراب طابع مختلف ، واضطلع بوظيفة مختلفة نوعا ، حيث كان العمال يتجهون نحو المساومة الجمـــاعية ، بدلا من ارتباطهم بالعمل السياسى وكان فى جميع الحالات اختبارا للتضامن العمالى ، وكان له بصفته هذه معنى أخلاقى وعاطفى بالنسبة الى العمال الذين كانوا يدعون الى تقديم تضحيات فردية من أجل أهداف مشتركة ٠

وكملجأ أخير فى المساومة الجماعية ، كان الاضراب يمثل مقدرة العمال على انزال ضرر اقتصادى مباشر بمن كانوا يسعون ــ أى العمال ــ الى الحصول منهم على امتيازات تتعلق بالمســاومة ٠ فبين المســاومين ذوى الصلابة كان الاضراب اختبارا للاحتمال ــ أى اختبارا لما اذا كان فى امكان أصحاب الأعمال أن يتحملوا خسارة الانتاج لوقت أطول من احتمال العمال خسارة الأجور ٠ وكانت أمثال هذه الاضرابات المتعلقة بالمساومة ، تميـــل الى أن يطول أمدها ، اذ لم يكن يتم الالتجاء اليها الا بعد أن تتحطم عمليـة المساومة وتتأزم الأمور بشكل حاد ٠

وحيث كان العمال ذوى اتجاه سياسى ، كان الاضراب يفيد كمظاهرة أو احتجاج أكثر منه كجزء من أسلوب المساومة ٠ كان الهدف هو التأثير واحداث الارتباك ، وكان فوق كل شىء تأكيدا لقضية العمال وابرازا لها ٠ وكان الخروج من العمل بسرعة ، أو وقفه لمدة أربع وعشرين ساعة حركة عامة ، لاظهار قوة العمال أو لاحداث الاضطراب العام ، أكثر منه اساءة الى أرباب الأعمال اقتصـــاديا ، أو وضع قدرة العمال على التضـــحية فى مواجهة قدرة صاحب العمل على التجاوز عن الدخل ٠ ومالت الاضرابات السياسية الى أن تكون قصيرة جدا ، فلا تستمر سوى يوم أو يومين أو حتى ساعات قلائل ٠

وكان الاضراب العام المراد به شل الحياة الاقتصادية فى المجتمع أكثر وسائل احتجاج العمال حسما ٠ ففى أوائل القرن العشرين كانت أشـد الاتحادات راديكالية تعتبره سلاحا رئيسيا ، فى حين عارضت الاتحادات المعتدلة استخدامه ٠ وعبر السنديكالى ــ الفوضوى الفرنسى جورج سوريل فى كتابه « تأملات فى العنف » (١٩٠٨) عن الاعتقاد بأن قيمة الاضراب العام لم تكن فى استخدامه الفعلى ، ولكنها فى دوره بوصفه «أسطورة اجتماعية» لابقاء الاحساس بالنضال الطبقى حيا ٠

واستخدم الاضراب العام لأغراض ســياسية ، وفى بلجيكا بوجه خاص ، فى محاولات الحصول على حق التصويت للذكور فى أعوام ١٨٩٣، ١٩٠٢ ، ١٩١٣ ٠ واستخدم للاحتجاج على الأحوال الاقتصادية ، كما فى

السويد فى اضراب دام شهرا فى عام ١٩٠٩ للاعتراض على ازدياد استخدام أرباب الأعمال لأسلوب وقف العمل ، أو فى الاضراب العام البريطانى عام ١٩٢٦ للاحتجاج على حركة قام بها أصحاب مناجم الفحم فى البلاد لوقف العمل • وجرى الالتجاء اليه لأغراض ثورية ، وخاصة فى الثورة الروسية عام ١٩٠٥ وفى ألمانيا عام ١٩١٨ •

وكانت الاضرابات العامة تقمع بشـــدة كبيرة ، مع انزال العقـــاب بمثيريها وتكبيدهم خسارة فادحة فى الأرواح فى حالة الاضرابات الثورية وبعض السياسية ، وعقوبات اقتصادية وقانونية عندما كانت الأهداف اقتصادية • فالاضراب العام البريطانى عام ١٩٢٦ أدى الى صدور قانون رجعى لمنازعات العمل ، قلب الاتجاه الذى دام مائة عام نحو تحرير مركز الاتحادات العمالية (١٠)

وبينما لقى حق الاضراب القبول بوجه عام ، بوصفه عنصرا أساسيا فى حرية العمال فى التنظيم والســـعى وراء أهدافهم أثارت التغييرات فى طبيعة وبنيان الصناعة وكيانها مشكلات معقدة بالنسبة الى ممارسة هذا الحق • وبالاضافة الى هـــذا مال ابتداع أساليب أخرى لتحقيق أهداف العمل الى جعل الاضراب أقل ضرورة نوعا ، اذ راح العمال يزدادون اعتمادا على العمل السياسى أو القانونى أو على البحث الاقتصادى لتأكيد قضيتهم • وكان هذا صحيحا بالنسبة الى البلاد النامية من الناحية الصناعية ، حيث زاد احكام الكيان التنظيمى الخاص بتنظيم العلاقات العمالية ، كما كان صحيحا بالنسبة الى البلاد التى أخذت حديثا بأسباب التصنيع ، حيث كان تأثير العمال الســـياسى فى الغالب يفوق قدرتهم على الضغط على أرباب الأعمال عن طريق الامتناع عن العمل عندهم •

وخلال هذه السنوات حدث توسع كبير جـــدآ فى القطاع العام من اقتصاديات البلاد غير الشيوعية ، اســـتجابة لاعتبارات عملية ، وكذلك بفعل مؤثرات اشتراكية قوية فى بلاد كثيرة • ولقد وجدت منظمة العمل الدولية فى استعراضها لاقتصاديات البلاد السبعين الأعضاء فيها عام ١٩٥٥ أن انقطاع العام كان يستخدم جزءا كبيرا من القوة العاملة فى معظم البلاد، بغض النظر عن البنيان السياسى • فبالاضافة الى الخدمات المدنية النظامية، والتعليم ، والصحة والرفاهية كانت مجالات الاستخدام من جانب وحدات حكومية أو هيئات حكومية تشمل بوجه عام بعض أو كل خدمات المواصلات البريد ، البرق ، التليفون ، الراديو ، المرافق العامة ــ الكهرباء ، الماء ، الغاز ، النقل ــ السكك الحديدية ، وسائل النقل فى المدن ، فى الجو ،

البحرية التجارية ، الطرق ، القنوات ، تسـهيلات المطارات والأحواض البحرية ، الوكالات المصرفية والمالية ، صـناعات الذخائر ، المحافظة على اسـتغلال موارد طبيعية معينة ، مثـل القوى المائية والغابات والمناجم والبترول ، الطاقة الذرية ، وبعض المشاركة الحكومية فى أحيان كثيرة فى الصناعات الكيماوية الأساسية وصناعات الصلب والكهرباء وبناء السفن أو السيارات وفى برامج التنمية الكبرى مثل هيئة وادى نهر التنيسى فى الولايات المتحدة أو مشروع الجبال المغطاة بالجليد فى استراليا . وفى ظل هذه الظروف حيث كان مايعادل ٢٠٪ من القوة العاملة يعمـل فى خدمة الحكومة فى بلد مثل اسـتراليا أو مايتراوح من ١٠ الى ١٣٪ فى كندا والولايات المتحدة أصبح الأمر متعلقا بمسألة حقوق العمال ازاء الحكومة.

وبالاضافة الى هذا ، فان نمو المدن الكبير والترابط البالغ بين مختلف مجالات النشاط الصـناعى ، جعلا المجتمع بأسره يعتمد اعتمادا كليا على استمرار تشغيل الكثير من الصناعات واسـتمرار المحافظة على الخدمات المركزية . فالمدن التى تضم الملايين من الناس ولا يتوافر بهـا من الغذاء الا مايكفى لأيام قليلة ؛ هذه المدن كانت معرضة لكارثة اذا توقفت خدمات النقل فترة طويلة ، أو توقف العمل فى انتاج المواد الأساسية مثل الصلب أو فى مصـادر الوقود أو القوة الكهربية مما يمكن أن يشـل مناطق أو اقتصاديات بكاملها ، وكان وقف الخدمات الاساسية يمكن أن يهدد الصحة والأمن . وسواء كانت هذه الصناعات والخدمات يديرها القطاع العـام أو الخاص ، فأمر غير ذى أهمية ، حيث كان توقفها يهدد الجمهور .

فى ظل هذه الظروف ، فان البـلاد الصـناعية ـ حيث كان حق حرية الارتباط والالتجاء الى الاضراب موضع الاعتراف بوجه عام ـ أحاطت الاضراب بقيود يراد بها حماية الجمهور على حين لم تمس الحقوق والحريات الأساسية للعمال . ففى منتصف القرن فرض كل بلد صناعى تقريبا بعض القيود على حرية العمال فى الاضراب ، عندما يسفر مثل هذا الاضراب عن خطر على الصـحة أو الأمن أو عن مشقة للمجتمع ، أو عنـدما كان يمس صناعة « جوهرية » أو الموظفين العموميين . وكانت البلاد الوحيدة فى أوربا الغربية التى خلت من واحد أو آخر من هذه القيود فى عام ١٩٥٥ ، هى الدنمرك والسويد وايطاليا . وكانت القيود على حق الاضراب أعم فى البلاد غير الصناعية . فلم يكن يسمح بالاضرابات الا بغرض الحصول على منافع اقتصادية أو اجتماعية مباشرة فى عدة من بلاد أمريكا اللاتينية وكانت جميع الاضرابات محرمة فى تركيا وأسبانيا والبرتغال .

بيد أن الخط الفاصل لم يكن من السهل رسمه ، وخاصة بالنظر الى اتجاه الحكومات نحو توسيع مجالات نشاطها ، ومن ثم ادخال نسبة كبيرة من العمال فى عداد الموظفين العموميين ٠ ان حرمان هؤلاء العمال من الحقوق التى كان يتمتع بها أولئك الذين يستخدمون فى أنواع مشابهة من العمل فى الصناعة الخاصة ، هذا الحرمان بدا كأنه عقوبة على كونهم من الموظفين العموميين ٠ وكان من الصعب بالمثل محاولة رسم الخط الفاصل بين الخدمات أو الصناعات « الأساسية » و « غير الأساسية » ٠

(ج) جهاز تنظيم العلاقات بين العمل والادارة :

أصبحت المعضلة التى لم تحل أقل خطورة فى معظم البلاد نتيجة وسائل ايجابية لضبط أو تنظيم العلاقات العمالية ، وهى وسائل تقلل من احتمال الالتجاء الى الاضراب ٠ ففى كل بلد بالفعل أقيم شكل ما من الجهاز لتسهيل المفاوضة والمساومة الجماعية ؛ ففى بعضها لم يكن الاضراب قانونيا الا اذا اتبعت الاجراءات المقررة ٠

وحيث كانت المفاوضات تهدد بأن تتعثر أو تقف ، كانت الحكومة تقدم عموما خدماتها للوساطة ، وصار استخدامها اجباريا فى بعض البلاد ٠ ففى بلاد اسكنديناوه أرسيت المفاوضة بشأن العقود الكبيرة على مستوى الصناعة على أساس قومى ، مع وضع جدول زمنى ثابت للمفاوضات التمهيدية السنوية ، واحالة نقاط الخلاف على الوسطاء الحكوميين ، وتسوية المشكلات الباقية بغير حل على أيدى لجان الأجور الحكومية فى النرويج ، ولجنة مشتركة من أصحاب الاعمال والاتحادات فى السويد ، ووضع اتفاق جديد فى وقت محدد كل سنة ٠ ولن تكون هناك امكانية وقوع اضراب الا فى الحالات النادرة التى لا يتم فيها الاتفاق بعد اتباع الاجراءات ٠ واستقر أيضا مبدأ أن المنازعات الناشئة عن تفسير أو تنفيذ عقد العمل لايجوز أن تؤدى الى وقف العمل ، وأنشئت محاكم عمالية للفصل فى أمثال هذه المنازعات فى الدنمرك عام ١٩١٠ ، والنرويج عام ١٩١٥ والسويد عام ١٩٢٨ ٠

وفى معظم بلاد غرب أوربا نص القانون على تكوين مجالس بالمصانع ، كانت انتخاباتها تجرى بطريق الاقتراع السرى تحت اشراف الحكومة ٠ وفى داخل الاطار العام للقوانين واتفاقات المساومة الجماعية ، كان على مجالس المصانع هذه مسئولية وضع شروط عقد العمل المفصلة وضمان مراعاته ٠ وكان أشد الأنظمة احكاما والزاما فيما يتعلق بالعلاقات العمالية،

هو نظام التحكيم الاجبارى الذى أنشىء فى أستراليا ونيوزيلند اتحاد جنوب أفريقية وشمال ايرلندا ٠

٤ ـ تحقيق أهداف العمل :

بانتصاف القرن كان الكثير من الأهداف التى بدت بعيدة جدا فى نظر العمال في مستهل القرن قد تحقق على الأقل بصورة جزئية ، أو أصبح قاب قوسين أو أدنى ـ من ناحية المستويات المادية ، والحقوق كعمال ، والمركز كمواطنين ٠

ونتيجة لتحسن الأجور وظروف العمل ، وللخدمات الاجتماعية التى توفرها دولة الرفاهية ، راح العمال يأخذون كقضية مسلمة ، الكثير من المنافع المادية التى كان أسلافهم فى عام ١٩٠٠ يكادون لا يتجاسرون على أن يحلموا بهـا ـ الزيادة الـكبيرة فى الأجـور الحقيقية ، الفراغ ، الأمن الاجتمـاعى ، الخدمات الاجتماعية ، الاسكان ، السـفر ، الاجازات ، المعاشات ، الخدمات الطبية ، تربية أطفالهم ٠ مثل هذه المزايا لم يتمتع بها على قدم المساواة عمال جميع البلاد الصناعية ولا جميع العمال فى كل بلد بعينه ؛ ذلك أن الفوارق الكبيرة فى الانتاجيـة ظلت تنعكس على الفوارق فى مستويات العيش ، وضاقت الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى بعض البلاد بأكثر مما ضاقت فى غيرها ، وظلت هناك مجموعات فى مركز سيىء ٠ ولكن برغم جميع هذه القيود نعم معظم عمال البلاد الصناعية بمسـتوى مادى من العيش يفوق كثيرا مثيله قبل ذلك بخمسين عاما ، وكان الفارق (بين الماضى والحاضر) كبيراً فى معظم البلاد الصناعية المتقدمة ٠ ومع ذلك استمر النضال من أجل أجور أعلى ومنافع أخرى ، دون أن تخف حـدته ؛ ذلك أن أمانى العمال المتصاعدة كانت تسبق ارتفاع انتاجية الصناعة ٠

وفى البلاد الصناعية الكبرى اسـتقرت حقوق العمال فى حرية الارتباط والسعى وراء أهدافهم ٠ وفى معظم البـلاد جعل جهـاز ادارة المفاوضات وتسوية المنازعات العمالية ، فى مقدور ممثلى العمال والادارة أن يتعاملوا مع بعضهم بعضا ، دون ما حاجة الى اشتباك مستعر أو عناد مستمر ٠ وفى الحقيقة بدا أحيانا لجمهرة أعضاء الاتحادات أن موظفيها انصرفوا الى موضوع تنظيم العلاقة بين العمل والادارة الى حد أنهم لم يعودوا يشكلون قيادة حيوية قوية ، وكانت الاضرابات « غير النظامية » أى التى لم ترخص بها الاتحادات تشكل احتجاجا ضد هذه الاتحادات وضد أصحاب الأعمال معا ٠

الا أن ذكرى تحطيم المنظمات العمالية على أيدى النظم الفاشية والنازية كانت لا تزال حية فى الأذهان ، وكانت حقوق العمل لا تزال محدودة ، وكان النقابيون لا يزالون يزج بهم فى السجون فى ظل بعض الدكتاتوريين الحاكمين . كان الشعور المعادى للعمال أبعد فى الحقيقة عن أن يكون ميتا ، حتى حيث كان التنظيم العمالى نظاما مستقر الدعائم . وظلت الحركات العمالية تعمل باعتبارها حارسة لحقوق العمال دائبة على تنميتها ، نافعة كوسيلة لكفاح العمال داخل اطار مجتمعاتهم المتعددة : الاجتماعى والسياسى ، من أجل أن يحصلوا لأنفسهم ولأطفالهم على المركز وفرص الحياة وظروفها ، مما جعلته مبادىء المجتمع الغربى هدفا لجميع الناس .

وكان دور العمال السياسى قد استقر أيضا بوجه عام . فعن طريق الأحزاب السياسية أو الضغط على الهيئات التشريعية ، واصل العمال الجهد من أجل التشريع الاجتماعى ، وشاركوا على نحو يتسم بالمسئولية ، وعن طريق منظمة العمل الدولية فى صوغ مستويات عالمية لمركز العمال ورفاهيتهم .

وفضلا عن هذا أظهر العمال فى استجابتهم الفردية للفرص الآخذة فى الاتساع ، التصميم والقدرة على التحرك الى مكان جديد فى المجتمع . فبعث الكثيرون بأطفالهم الى المدارس الثانوية ، وبالبعض منهم الى الجامعات ، واقتنوا وتمتعوا ببيوت لائقة ، وسافروا وقرأوا ، وتمتعوا بالسينما والراديو ، وابتدعوا هوايات وتقبلوا مسئوليات اجتماعية . وبهذا فبانتصاف القرن العشرين كان العامل فى البلاد الصناعية قد ظفر بمكانة بوصفه كائنا بشريا ومواطنا ، وتمتع فى الغالب بظروف عمل لائقة ، وقل تمييزه عن غيره ، كما كان الحال فى الماضى ، وذلك من ناحية الملبس والحديث ، وفقر مسكنه وافتقاره الى التعليم ، وضعف صحته وصحة أطفاله . كذلك لم يكن يتوقع منه أن يحتفظ بمكانه وأن يتقبل ما كان مقدرا له من المستويات الدنيا التى اعتبرت ملائمة له بالدرجة الكافية . وطبقا لما يقوله التقرير الذى تبناه وزراء الرفاهية (أو الشئون الاجتماعية) ببلاد شمال أوربا : « فعن طريق انضمام الأجير الى اخوانه وجد وسيلة قوية لا لتنمية مصالحه الاقتصادية فحسب ، بل ولرفع مكانته العامة وكرامته كعضو نافع فى المجتمع . ان العامل المهضوم الحقوق الذى كان فى الأيام السابقة يقف بحذاء خشبى وبالقبعة فى يده ، أمام رب العمل ، ليس الآن الا ذكرى ماض قد ولى » * .

Freedom and Welfare, op. cit., p. 53. (*)

وبرغم هذا فنفس طبيعة جميع الصناعات ظلت تجعل مركز العامل الفردى مركزا تابعا يفتقر الى الأمن • فغالبا ما كانت وظيفته مملة تكيفها الآلة ، وشكلت التكنولوجيا المتغيرة تهديدا مستمرا لتمكنه من عمله ولقيمة مهاراته ، وثمة عوامل كثيرة لا سلطان له عليها ـ (الآلات ذات الحركة الذاتية) ، التقلبات الاقتصادية ، تغييرات المنتجات أو موقع المصنع ـ قد تتركه بدون عمل ، وتتطلب منه أن يجد وظيفة جديدة أو ينتقل الى مكان جديد ، وظل فى حسابات الادارة بندا من بنود التكلفة • وفى الصراع المستمر من أجل اكتساب المركز بذل العمال جهدا مستمرا للتقليل من اعتمادهم على هوى رب العمل ، وذلك عن طريق أساليب من قبيل الأقدمية والأجور السنوية المضمونة ، وسعوا وراء تدابير ايجابية لتسهيل التغييرات الضرورية مثل النصوص المتعلقة باعادة التدريب وبتكاليف الانتقال الى أعمال جديدة ، وحاولوا الحصول على الاسهام فى تصيب تحديد الطريقة التى يمكن بها ادخال التغييرات التى تؤثر فى العمال ، مثل استخدام الآلات الأوتوماتيكية •

كان المكان الذى شغله العمال قد أصبح مفتاح طابع الدول الصناعية ، ففى الدول ذات الاتجاه الديموقراطى أصبحوا عنصر قوة كبيرة ، يمدون نطاق تأثيرهم ومشاركتهم النشيطة خطوة خطوة خلال الفترة كلها ، واضطلعوا بالزعامة السياسية فترات من الزمن فى بعض البلاد ، واستخدم مركز العمال وحقوقهم كرموز تنم عن الليبرالية الديمقراطية فى الدساتير والسياسات القومية • وفى البلاد التى كانت القوى الدكتاتورية قوية فيها ، كان العمل هو النقطة التى تتلاقى عندها التحديات للسلطة ، وكان القضاء على حق العمال فى التنظيم والتعبير عن مظالمهم رمزا للدكتاتورية • ففى البلاد الشيوعية كانت مصالح المنظمات العمالية مرتبطة بمصالح الحكومة ، وكانت مسئولة عن تنفيذ السياسة الاقتصادية وتحقيق أهداف الانتاج وادارة الخدمات الاجتماعية •

وفى البلاد التى أخذت حديثا بأسباب التنمية كان الجهد الواعى من جانب العمال من أجل الحصول على مركز آمن ـ مرتبطا ارتباطا لافكاك منه بيقظة الناس السياسية وأمانيهم القومية وجهودهم من أجل اثبات هويتهم كمواطنين فى المجتمعات الجديدة التى كانت تحل محل مجتمعات الماضى الراكدة والمقيدة بنظام للمركز الاجتماعى • ان الظروف التى واجهها العمال غالبا ما كانت أسوأ ، كما كانت مشكلاتهم أضخم من تلك التى واجهها العمال فى أوائل أيام التصنيع الغربى • ولكن عمال

آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا ، كان أمامهم ، فى انجازات عمال البلاد المتطورة صناعيا ، مستوى من الأمانى كان أسلافهم يفتقرون اليه ٠

(ب) الفلاحون والمزارعون

بينما كان العمال يحرزون قدرا كبيرا من النجاح فى نضالهم من أجل المركز فى البلاد المتقدمة صناعيا ، ومن ازدياد الوعى الذاتى فى غيرها — ظلت جماهير الريف بوجه عام أقل تعبيرا عن نفسها وأقل نجاحا فى جهودها المتفرقة من أجل تحسين حظوظها ومقدراتها ٠

ففى كل من أقاليم الزراعة المتقدمة ، والمناطق المتخلفة كان الفلاحون يشغلون مركزا سيئا نسبيا بالقياس الى المشتغلين بالصناعة والتجارة ٠ وفى كلا النوعين من المجتمعات كانت الدخول الزراعية بوجه عام دون دخول العناصر التى تقابلها فى المدينة ٠ ففى المناطق المتخلفة كانت الأساليب البدائية وعدم كفاية الأرض تعنى انخفاض الانتاجية ، ومن ثم انخفاض العوائد التى تئول الى المزارع ٠ وحيث كان الأسلوب الزراعى متقدما مالت نفس كفاية الفلاح الى أن تهبط بدخله عن طريق التهديد الدائم الناجم من تكدس السلع فى الأسواق والانخفاض فى الأثمان ٠ وكانت معدلات المواليد فى صفوف أهل الريف فى كل مكان أعلى منها فى المدينة ، وكانت الحاجات المتوسعة للصناعة الى العمال تلبيها الأيدى العاملة التى لا تحتاج اليها المزرعة ٠ وهذه العملية كان يعكسها تفاوت الأجور فى الصناعة ولمصلحتها (١١) ٠

وفى التعامل مع القطاعات الأخرى من السكان كان الفلاحون عموما فى مركز مساومة ليس فى صالحهم ، ذلك أن وحدات متنافسة صغيرة كثيرة غالبا ما كانت تواجه عددا قليلا من موردى المعدات والتخزين والنقل والخدمات التسويقية الأقوياء ٠ وحيث لم يملك الزراع أرضهم ، وانما يطالبون بأن يعطوا شطرا كبيرا من محصولاتهم الى ملاك غائبين أو اقطاعيين ، لهذا كانوا فى مركز سيىء علاوة على ذلك ٠ وحيث كانوا غارقين أيضا فى الديون لأصحاب الأراضى ، أمكن أن يكونوا فى حالة استرقاق حقيقى ٠

وفى سبيل دخله القليل كان الفلاح يشتغل عموما وقتا طويلا ، ويزاول العمل الشاق حسبما تتطلبه محاصيله أو ماشيته ، ونادرا ما كان فى امكانه أن يقصر ساعاته على عدد محدد على غرار ما يفعل العامل بالمدينة ٠ وقد يكون خاملا فى المواسم الراكدة ، كما يرهق بالعمل

فى مواسم أخرى • وبارتفاع معدل المواليد الريفى وقعت تكلفة وعبء تربية الأطفال على أهل الريف بصورة لا تتناسب معهم • وبالاضافة الى هذا كانت الحياة الريفية فى مناطق كثيرة تفتقر الى أطايب المدينة : المتع من قبيل الكهرباء والماء الجارى ، والتسهيلات ، مثل المدارس والخدمات الصحية ، والمحلات التجارية ووسائل الترفيه •

وبرغم أن ساكن الريف كان فى مركز اقتصادى واجتماعى سيىء بالمقارنة الى ساكن المدينة ، وبرغم أن المدينة كانت قوة تجتذب النازحين من الريف بحكم الأعمال ومغريات المدينة ، الا أن ثمة جوانب من الحياة الريفية كان الفلاحون يعتزون ويرغبون فى الاحتفاظ بها • كانت أمانى الريفيين ، كما جرى التعبير عنها خلال هذه السنوات تنصب بصفة رئيسية على الوسائل التى بها ينعمون بهذه القيم الريفية الايجابية ، فالفلاحة كأسلوب للحياة كانت فى موقف طيب بالقياس الى نوع الحياة المتاح فى المدينة ، من ناحية كونها مرتبطة برتابة المواسم ، تلك الرتابة التى اعتادوها على مر القرون • وكانت تهيىء للفلاح قدرا من التوجيه الذاتى ، لا يخضع الا الى مطالب الطبيعة ، واذا استثنينا الحالات التى كان يعمل فيها لحساب شخص آخر ، فقد هيأت له التحرر مما يفرضه عليه آخرون • وبرغم أن المهام الرئيسية كثيرا ما كانت شاقة وتسير على نمط متشابه ، الا أنها كانت أكثر تنوعا من الأعمال المملة التى غالبا ما كان يطلب الى عمال المدن أداؤها ، بصورة متكررة يوما بعد يوم • وكانت الأرض حسب العرف الريفى تعنى الامن ، فالبديل وهو التوظف فى المدينة تحت رحمة هوى صاحب العمل ، كان يعنى الخطر •

كان الريفى يريد أولا وقبل كل شىء الامن الذى كان جزءا من أسلوب الحياة الريفية ــ وان كانت محفوفة بالمخاطر من جانب الطبيعة ــ يدعمه أمن الحيازة أو الملكية فى أرضه ، وثانيا كان يريد أن يصل الى استغلال أرضه بطريقة فعالة ، وبهذه الطريقة يمكن أن توفر له معيشة لائقة • وكان هذا يعنى الوصول الى المعرفة ، والى الاسواق ومصادر العرض بشروط ملائمة ، والى الائتمان من أجل التنمية ، وثالثا كان الفلاحون يصبون الى أن يدخلوا تماما وبحرية الى الحياة الثقافية فى المجتمع الأوسع ، عن طريق الوصول الى التعليم ، وعن طريق الاتصال وفرصة التمتع بالمسرات التى أصبحت جزءا من حياة المدينة ، مثل المعدات التى تؤدى الى توفير العمل فى بيت المزرعة ، ووسعت من نطاق الاتصالات التى جعلها النقل والمواصلات الحديثة فى حيز الامكان •

كان الموقف القانونى واضحا فى الهند المستقلة • فطبقا للدستور : منطقة لأخرى ، ولكن الجميع تقاسموا أمنيتين مشتركتين أساسيتين : التقليل من التفاوت الاقتصادى والثقافى بين المزرعة والمدينة ، وتحقيق ماتشتمل عليه الحياة الريفية من قيم ايجابية •

وحيث الفلاح النموذجى كما كان فى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية وجنوب أفريقية وأستراليا ونيوزيلندا ـ أنتج المحاصيل للسوق فى مزرعة الأسرة التى يملكها أو يحوزها على أساس مستقر وكانت منظمات الفلاحين مكونة من منتجين مستقلين ، يرتبطون فيما بينهم ليزودوا أنفسهم بالخدمات المشتركة ، وللمساومة الاقتصادية أو لاستخدام قوتهم السياسية للظفر بالتسهيلات العامة أو بالتشريع الملائم للزراعة • وكانت بعض المنظمات اقتصادية أصلا من ناحية ما تركز عليه،وكان غيرها سياسيا فى جوهره ، وقام عدد آخر منها بالأنشطة الاجتماعية ، ولكنها جميعا سعت الى تقوية مركز الفلاح فى داخل كيان الزراعة القائم والنظام الاجتماعى القائم • وحيث وجدت فوارق طبقية مميزة بين الفلاحين الأغنياء والمتوسطين والفقراء ، أو العمال الزراعيين كانت المنظمات الفلاحية تمثل بوجه عام المجموعات الوسطى والعليا •

وفى ظل الظروف المختلفة جدا المتعلقة بالحيازة الاقطاعية أساسا فى أوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط ، حيث المستأجرون والعمال الزراعيون لم تفصلهم عن مرتبة الأقنان الا خطوة واحدة ، وكانوا يعيشون فى فقر وجهل تحت رحمة ملاك الأرض ، كانت حركات الفلاحين ذات هدف ثورى بوجه عام • وكانت تتكون من الفلاحين الفقراء أو المعدمين ، ممن كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من أهل الزراعة فى مناطق ، فيها الفلاح المتوسط الذى يميز أوربا الغربية وأمريكا الشمالية، يكاد ألا يكون له وجود • وكانت تسعى الى اعادة تشكيل صرح المجتمع الزراعى ، بحيث يعطى الفلاح حقوقا فى الأرض التى يفلحها ويكسر قوة الملاك •

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ طراز ثالث من الحركة فى صفوف أهل الريف ، يتشكل فى البلاد الآسيوية وفى غيرها من المناطق المتخلفة، وذلك بتأثير الدافع المنشط الخارجى المنبعث من برامج التنمية الريفية • وكانت أهداف أمثال هذه البرامج رفع المستوى الاقتصادى والثقافى للمناطق المتأخرة ، والمنعزلة فى الغالب ، كجزء من المجهود المبذول من أجل التنمية القومية • ودلت القوة التى استجاب بها الناس فى مناطق كثيرة الى هذه الدوافع ـ فى الهند والفلبين وجاميكا وبورتوريكو وأفريقية ـ

على أن المساعدة الذاتية الريفية ذات امكانات محتملة لحركة كبيرة من أجل اعادة بناء الحياة الريفية ٠

(١) حركات المزارعين فى البلاد ذات الزراعة المتقدمة :

لم يكن فلاحو أوربا الغربية وأمريكا الشمالية وأستراليشيا طبقة مهضومة الحقوق ، ولنكهم كانوا مقاولين أو ملتزمين تســود فيهم نظرة الطبقة الوسطى ٠ وبرغم أن مركزهم كان دون مركز الطبقة الوسطى الحضرية ، الا أنه كان مركز أصحاب الأملاك ورجال الأعمال ٠ بيد أنه كانت هناك فوارق فى الاتجاه بين الفلاح فى البلاد الفتية مثــل كندا واستراليا والولايات المتحدة ، والفلاحين الملاك ، ممن كانت جذورهم أشد تأصلا فى الأرض التى ظلت فى أيدى أسراتهم أجيــالا كثيرة ٠ وكانت الأرض بالنسبة الى الأول موردا يدر عليه معاشا ورزقا ، وبرغم أنه غالبا ما كان شديد التعلق بأفدنته أو رقعته الخاصة به ، الا أن اهتمامه الرئيسى كان منصبا على الدخل الذى يمكن أن يأتى به استخدام الأرض ٠ وكان أسلافه المباشرون قد انتقلوا من مزرعة لأخرى خلال حياة الواحد منهم ، سعيــا وراء فرص أفضل ، وظل الكثيرون من فلاحى القرن العشرين يبحثون عن أفدنة اضافية أو أرضأفضل ٠

وعلى نقيض هذا كاد الفلاح الأوربى أن يكون جزءا من الارض التى يفلحها ٠ كان الحارس المؤقت على أرض زودت أسلافه بأسباب العيش، وعليه أن يعتز بها ويسلمها الى أطفاله ، كتراث أغنى ان أمكن ، ودون أن يكون أفقر بالتأكيد ٠ ولم يكن فى أمكان الفلاح الذى يعيش داخل أرض الاسرة ، أن يستغل ويجهد الارض بارادته ، كما فعل المقاول أو الملتزم فى الغالب ، دون أن يأبه بالغد : بل يجب أن يمارس الزراعة الجيدة ، لأن مستقبله هو وأطفاله مرتبط بالمحافظة على خصوبة التربة(١٢)٠

أما منظمات الفلاحين فى البلاد التى غلبت فيها الفلاحة المستقلة والزراعة بقصد التجارة ، فقد نشأت من جمعيات فنية أنشئت لأغراض من قبيل تربية الماشية ، ومن الاتحادات الأخوية أو الاجتماعية المتناثرة ، ومن حركات الاحتجاج المتفرقة ضد ظروف غير مواتية للزراعة ٠ ومالت الى أن تصبح الوسائل التى عن طريقها مارس الفلاحون بشــكل مباشر النشاط الاقتصادى التعاونى ، من أجل الائتمان الزراعى كما هو الحال فى ألمانيا وايطاليا ، أو التسويق التعاونى كما هو الحال فى الدنمرك وسويسرا وكندا ونيوزيلندا والولايات المتحدة ٠ وكانت تشتغل بالنشاط

السياسى ، عن طريق حزب زراعى أحيانا ، وعن طريق الضغط السياسى داخل الأحزاب وعلى الحكومات كما حدث فى كندا والولايات المتحدة، وهو ما كان أكثر حدوثا . واذ مد نطاق الخدمات الحكومية ، واتخذت البلاد تدابير اقتصادية لدعم دخول الفلاحين ، أصبحت منظمات الفلاحين فى الغالب الوسيلة التى نفذت بها هذه البرامج . وكانت الخدمات الزراعية مثلا تقدم فى الدنمرك عن طريق المنح الحكومية للمنظمات الفلاحية ، وكانت تساندها بصورة جزئية المنظمات الفلاحية فى الولايات المتحدة ، وكانت لجان الفلاحين المحلية تشارك فى عملية توزيع المساحات المخصصة للزراعة وبرامج المحافظة على التربة فى الولايات المتحدة ، واضطلعت مجالس الفلاحين المحلية بالكثير من المسئولية عن البرنامج الزراعى البريطانى .

ومالت التنظيمات الفلاحية الى أن يتسلط عليها الفلاحون الأكثر ثراء ، وأن تعكس مصالحهم ، الى حد أن صغار الفلاحين كانوا يكونون منظمة مستقلة ، كما حدث فى الدنمرك . وكانت الرابطة الدولية الرئيسية التى تربط بين المنظمات الفلاحية الوطنية ، وهى الاتحاد الدولى للمنتجين الزراعيين الذى تكون فى عام ١٩٤٦ تتحدث باسم هذه الجماعات الكثيرة.

وبالنسبة للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية العريضة مال الفلاحون المندمجون فى منظمات الى التزام جانب الاصلاح الاجتماعى ، اذا تعلق الأمر بالمشاكل التى تؤثر فى الفلاحة بشكل مباشر ، وقاوموا قوة المصارف والمرافق العامة والشركات الكبيرة ، وطالبوا باتخاذ اجراءات ضد الاحتكار ، وأيدوا الكهرباء الرخيصة ، والائتمان السهل ، وكهربة الريف ، والملكية العامة للنقل أو تنظيمه ، وتسهيلات التخزين والتسويق ، ومد نطاق الطرق والتعليم والصحة وغير ذلك من الخدمات الى المناطق الريفية . ومالوا بالنسبة الى المشاكل الأخرى الى أن يكونوا محافظين بدرجة أكبر ، وتطرفت بعض المنظمات الفلاحية الى حد مناصبة العمال العداء ومعارضة مختلف ماتوفره دولة الرفاهية من أسباب الوقاية الاجتماعية ، وانضمت منظمات أخرى الى العمال فى مساندة البرامج الاجتماعية الموسعة .

وعموما كانت الحركات الفلاحية بالقرن العشرين فى البلاد المتقدمة فنيا ، تعكس الجهود المبذولة من جانب المقاولين أو الملتزمين الفلاحين المستغلين من أجل مقاومة ضغط الاقتصاد الصناعى الحديث أو مسايرته ، وايجاد مكان لهم فيه ، مكان يتسم بالأمن والرخاء .

(٢) حركات الفلاحين :

كانت أعلى حركات الفلاحين فى الضياع الاقطاعية صوتا وأكثرها تنظيما ، هى حركات روسيا وأوربا الشرقية • فهنا ، فى مستهل القرن، كانت الأرض لاتزال عبارة عن مزارع كبيرة تقوم على شروط اقطاعية أساسا ، وترك الغاء الرقيق فى الستينات من القرن التاسع عشر الفلاحين فى حال لاتكاد تفضل حالتهم من قبل ، اذ كانوا مثقلين بأقساط مقابل أرضهم التى غالبا مافقدوها واستولى عليها الملاك الأغنياء • وفى داخل الصروح الاقطاعية بقيت تقاليد فلاحية مختلفة ، مثل مجتمع القرية أو mir فى روسيا ، والاسرة الموسعة أو Zadruga فى بعض مناطق البلقان ، والملكية الفردية فى أماكن أخرى • ولكن كانت أمانى الفلاحين واحدة فى كل مكان — هى أن يتملكوا أرضهم •

وازدادت حركات الاحتجاج والدعوة الى الاصلاح قوة دفع فى أواخر القرن التاسع عشر ، فتصور رجال الحركة الشعبية فى روسيا مجتمعا زراعيا قائما على « المير » Mir واعتبارا من عام ١٩٠٠ ، احتفظ خلفاؤهم ، الاشتراكيون الديموقراطيون بهذا المطلب بمثابة هدف يصبون اليه ، بالنسبة الى القطاع الريفى ، على حين اتخذوا بالنسبة للصناعة وجهة نظر اشتراكية ثورية • « وكان قلق الفلاحين عنصرا كبيرا فى الثورة الروسية العقيمة عام ١٩٠٥ ، وبعد ذلك اقتبست اصلاحات ستوليبين Stolypin كمحاولة من أجل تهدئة استياء الفلاحين ، ولكنها محاولة جاءت متأخرة • وكان القصد من هذه الاصلاحات خلق ملاك فلاحين مستقلين ، بدلا من دعم مجتمع القرية •

واتخذت أحزاب الفلاحين وحركاتهم فى شرق أوربا من الملكية الفردية للأرض هدفا لها • وتشكل عدد من أمثال هذه الحركات حوالى مستهل القرن ، وكان من أقواها وأشدها طابعا عمليا حزب الفلاحين التشيكى الذى تكون فى عام ١٨٩٦ • وأدت الحركة فى رومانيا الى ثورة الفلاحين الى الحرب الطبقية ، وأعيد تنظيم الزراعة على أساس جماعى الفلاحين •

وعلى نقيض أمانى الفلاحين فى قيام مجتمع زراعى من ملاك فلاحين، أصر ماركس وأتباعه على أن تحول الفلاحين الى بروليتاريا أمر محتوم ، وأن التحسين الأساسى فى حظوظهم لايمكن أن يتحقق الا اذا انضم صغار الفلاحين الى الحرب الطبقية ، وأعيد تنظيم الزراعة على أساس جماعى لتكوين وحدات انتاجية كبيرة • وهكذا وقفت الأحزاب الاشتراكية تعارض من حيث المبدأ تطلعات رجال الحركة الشعبية وحركات الفلاحين •

لكن رأى لينين أن اندفاع الفلاحين الثورى يمكن استخدامه بمثابة سند عملى فى احداث الثورة البروليتارية ، وكان ذلك فى الحقيقة أمرا أساسيا بالنسبة الى نجاح الثورة فى مجتمع تغلب عليه الزراعة مثل روسيا • لقد عمل شعاره « الأرض لمن يفلحونها » على ربط ثورة الفلاحين بالثورة البروليتارية ، ووضع تحت قيادته الفلاحين الذين تحركوا من تلقاء أنفسهم لنزع الأرض من المـلاك بمجرد أن سارت ثورة ١٩١٧ فى طريقها • وهكذا كانت ثورة أكتوبر نصرا للفلاحين فضلا عن العمال ، وكان من ثمارها المباشرة العاجلة توزيع الأرض على الفلاحين •

وهيأت الثورة فى روسيا دفعة قوية لحركات الفلاحين فى شرق أوربا • فبالاستفادة من التوسع فى حق التصـويت فى ظل الدساتير الجديدة ببلاد شرق أوربا ، وصلت أحزاب الفلاحين الى السـلطة فى العشرينات فى جميع أرجاء المنطقة •

وكانت أحزاب الفلاحين هذه مكونة كلية من الفلاحين الفقراء اذ لم تكن هناك طبقة متوسطة من الفلاحين شبيهة بمـا كان فى بلاد غرب أوربا ، وكانت هذه الأحزاب موجهة ضد ملاك الأرض وبرامجها تعكس أمانى الفلاحين • وكانت تدعو الى مزرعة الأسرة المملوكة ملكية فردية ، وذلك باعتبارها وحدة اقتصادية ، وطريقا للحيـاة فى الوقت نفسـه ، وكانت تؤيد مبادىء الحكم الديموقراطية •

وكانت هذه الأحزاب معادية للرأسمالية كلما كان الأمر متعلقا بملكية واستغلال الوحدات الكبيرة من الأرض ، واستغلالها ، وبالصناعة الكبيرة • وكانت تؤيد ملكية الدولة للخدمات العـامة والصناعات الاساسية ، وتوزيع الصناعات الصغيرة المملوكة ملكية فردية فى جميع أنحاء الريف لنشر مزايا التصنيع واقتسامها مع الفلاحين الملاك • وكانت تحبذ تنظيم التعاونيات ، حيث تفضل العمليات الكبيرة للصناعة الريفية أو الزراعة • وكانت تريد مد التعليم والصحة والخدمات الأخرى بالدولة الحديثة الى القرى ، وتعارض ما اعتبرته المركز الممتاز الذى تنعم به المدن • وكانت الصورة التى رسمتها صورة مجتمع ريفى قائم على فلاحين متعلمين ، ومستقلين يملكون الأرض ، ويستخدمون التعاون كالوسيلة الوحيدة للجمع بين مزايا الملكية الصغيرة ومزايا المشروع الكبير •

وبرغم أن أحزاب الفلاحين تقاسمت وجهة نظر مشتركة ، الا أنها تفاوتت تفاوتا بالغا من بلد الى بلد • فنجح الحزب التشيكوسـلوفاكى المنظم تنظيما طيبا ، فى سن أوسع برامج الاصلاح الزراعى وتقرير يوم

العمل ذى الثمانى ساعات للعمـــال الزراعيين · لم يكون الفلاحون البولنديون تنظيما واحدا ، ولكنهم كونوا عددا من المنظمات التى تراوحت من منظمات راديكالية الى محافظة ، ومن معادية للكنيسة الى منظمـــات كنسية · وفى رومانيا كان حزب الفلاحين يشكل المعارضة السياسية الى أن وصل الى الحكم فى عام ١٩٢٨ وأقام أول حكومة برلمانية شهدتهـــا البلاد · وحصل الحزب البلغارى القائم منذ ١٩٠١ ، على الأغلبية فى انتخابات ١٩٢٣ · وجمع الحزب الكرواتى الذى أصبح عنصرا مسيطرا فى يوغوسلافيا فى العشرينات بين القومية الكرواتية وأيديولوجية ريفية محددة بشكل واضح ·

ومن كلا اليمين واليسار جاءت الحركات الرامية الى ربط حركات الفلاحين على المستوى الدولى ، فبعد الحرب العالمية الأولى حاول عنصر محافظ فى بافاريا والنمسا انشاء منظمة دولية ، ولكنه أخفق · وعقدت منظمة دولية شيوعية للفـــلاحين يرعاها الروس ، مؤتمرها الأول فى عام ١٩٢٥ ، ولكن تأثيرها على حركات الفلاحين فى أوربا الشرقية كان ضئيلا نسبيا خلال سنوات مابين الحربين · وبناء على المبادرة من جانب حزب الفلاحين البلغارى أنشىء فى براغ عام ١٩٢١ مكتب للبحث الزراعى يتكون من أحزاب الفلاحين التشيكية والبلغارية والبولندية والصربية ، ثم انضمت اليه فيما بعد بعض المجموعات بأوربا الغربية · ولم تصـــل حركات الفلاحين أبدا الى درجة من التنظيم الدولى تماثل تنظيم الأحزاب الاشتراكية والشيوعية ·

وباستثناء هنغاريا حيث احتفظت طبقة ملاك الأرض بقبضتهـــا ، تم قدر بالغ من توزيع الأرض فى جميع أرجاء أوربا الشرقية فى سنوات ما بين الحربين · وبرغم أن الاصلاحات الزراعية تفاوتت تفاوتا كبيرا فى درجة كمالها ، وفى حجم الملكية التى تركت للمالك السابق ، وفى نسبة الفلاحين الفقراء الذين حصلوا على الأرض ، وفى قدرة الفلاحين على امتلاك الوسائل اللازمة للزراعة ، الا أنه تم القضاء فعلا على طبقة كبار ملاك الأرض ونفذت ثورة اجتماعية كبيرة · وبرغم صغر ملكيات الفلاحين ، فان تحررهم من الالتزامات لكبار الملاك ، والفرصة التى أتيحت لهم لزراعة مزيد من المحاصيل اللازمة لمعاشهم بدلا من الحبوب المعدة للسوق ، كل ذلك مكن أعدادا من الفلاحين من تحسين حالتهم ومن أن يخطوا خطوة نحو مثلهم الاعلى فى قيام مجتمع زراعى يسوده الرخاء ·

غير أن احتفاظ أحزاب الفلاحين فى أوربا الشرقية بالسلطة كان قصير الأمد ، فالعناصر الرجعية التى انتزعت من الأرض عادت الى تأكيـــد

وجودها من الناحية السياسية وحطمت الاجراءات الديموقراطية التى مكنت الفلاحين من النهوض ، فتمزق حزب الفلاحين البلغارى نتيجة مقتل قادته فى عام ١٩٢٣ ، وزج بزعماء الفلاحين الكروات فى السجن ، وقتل بعضهم ، واضطهد الزعماء الرومانيون ومنع الحزب من الوصـــول الى السلطة الى أن ظفر بها فى الانتخابات ، وفى بولنده سجن بعض الزعماء وفر آخرون • وانتهى قمع أحزاب الفلاحين بالدكتاتورية بالنسبة الى معظم بلاد شرق أوربا •

وفى هذه الأثناء استبدلت بملكية الفلاح الخاصة لوسائل الانتاج فى الاتحاد السوفييتى ـ الملكية التعاونية • ولم يرض الحزب الشـــيوعى قط فى أى وقت عن أمانى الفلاحين فى الملكية الخاصة للأرض ، الا كحيلة للخلاص من الملاك وخلق مشاركة بين الفلاحين والعمال الصـــناعيين • وكانت الزراعة الجماعية هى الهدف دائما • وجاءت بعد فترة مبدئية من سياسة الزراعة الجماعية فترة السياسة الاقتصادية الجـــديدة فى عام ١٩٢١ عندما سمح للفلاحين بممارسة العمليات الفردية ، ولكن أعلن منذ البداية أن هذا ليس الا اتئادا مؤقتا فى الخطى ، وليس تغييرا جوهريا فى الاتجاه • وعندما استؤنف نظام الزراعة الجماعية فى عام ١٩٢٨ نفذ بشدة وعنف ، برغم معارضة فئات معينة من الفلاحين الملاك (١٣ ، ١٤)•

وفى السنوات المؤدية الى الحرب العالمية الثانية ، وخلال الحرب كان فلاحو أوربا الشرقية عناصر قوية فى المقاومة المضـــادة للحركات النازية فى بلادهم • ولما استردت هذه البلاد استقلالها عند ختام الحرب، فان الأقليات الشيوعية التى تتزعمها المدن المؤيدة تأييدا قويا من جانب التنظيم الشيوعى الدولى تنازعت على السلطة مع الأغلبيات الفـــلاحية المفككة العرى • وعندما وصلت الأحزاب الشـــيوعية الى السلطة انتزعت ملكية الضياع الباقية ، وقسمت الأرض بسرعة كبيرة ، ونظمت أحزابا شيوعية للفلاحين فى بولندا وبلغاريا ورومانيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، فى محاولة لتوجيه الفلاحين نحو الزراعة الجماعية (١٥) •

فى وجه الأمانى التقليدية القوية فى صفوف الفلاحين ، بالنسبة الى الملكية الفردية فى الأرض ، تحرك الزعماء الشيوعيون فى كل من هذه البلاد ، فى حذر نوعا نحو هدفهم المعلن ، وتوقفوا فى بولندا بل وقلبوا العملية فى عام ١٩٥٦ • ولكن زعامة الديموقراطيات الشعبية كانت ملتزمة بالفكرة الماركسية التى تقول بأن التحول الى الزراعة الاشتراكية أمر جوهرى • فالمجتمع الاشتراكى لا يتصور ديموقراطية ريفية من ملاك فلاحين • وهى الديموقراطية التى كانت حركات الفـــلاحين فى أوربا

الشرقية تتطلع اليها فى السنوات التى كانت تهيىء خلالها وسيلة تعبير لجماهير الفلاحين من أهل تلك المناطق(١٦) ٠

ولعبت انتفاضات الفلاحين دورا فى الحركات الثورية فى أمريكا اللاتينية وآسيا ، فغيرت آمنية الفلاحين طابع الثورة المكسيكية التى بدأت فى عام ١٩١٠ ٠ وفى ظل دكتاتورية بورفيريو دياز انطويلة (١٨٧٧ — ١٩١١) كان أكثر من ٩٠٪ من الفلاحين المكسيكيين لا يملكون أرضا ، وفى كثير من الولايات تجاوزت النسبة ٩٥٪ ٠ وهبط دخلهم الحقيقى بأطراد ، وخاصة فى السنوات العشر بعد ١٩٠٠ حين تفاوت تقدير الهبوط بين ٣٣ ، ٧٥ ٪ ٠ وفى هذه الأثناء كانت ثروة البلد المتزايدة تنساب الى أيدى طبقة صغيرة من أصحاب الأراضى الأغنياء والكنيسة والمستثمرين الأجانب ٠ ان الثورة فى مرحلتها المبدئية ، والتى أوحى بها وتزعمها المثقفون من أبناء الطبقة الوسطى ، ممن كانوا يسعون الى وضع حد للطغيان السياسى والامتيازات التى تمنح للمستغلين الأجانب ، هذه الثورة لم تكن حركة من أجل الاصلاح الزراعى ٠ ولكن عندما أطلق الزعيم الزراعى اميليو زاباتا Emilio Zapata صرخة « الأرض للمعدمين » وحث أتباعه على المطالبة بالاراضى المملوكة لكبار الملاك والكنيسة والاستيلاء عليها ، أصبح هذا دافعا رئيسيا للثورة ٠

كانت مطالبة الفلاحين المكسيكيين بالأرض تعبر عن أيديولوجيتين متميزتين لهما أصول متعارضة تماما ، وهما المفهوم الهندى التقليدى عن الأراضى المملوكة للجماعة والتى تحوزها وتفلحها القرية ، ومفهوم أمريكا الشمالية عن تملك كل فلاح أرضه ملكية فردية ٠ ومن كلتا وجهتى النظر رفض الفلاحون وزعماؤهم سلطة « المالك » ، كما رفضوا تحذير الكنيسة بأن عليهم الرضوخ لهذه السلطة باعتبارها مستمدة من الله ، كذلك لم يسترشدوا بالمبادىء الماركسية كأساس يقوم عليه أسلوب الزراعة الجماعية ٠

وفى المراحل المتعاقبة من الثورة المكسيكية المستمرة حقق الفلاحون التحرر من الرضوخ للملاك الأراضى ومن العمل وفاء لديونهم ٠ وظفروا بتوزيع نسبة كبيرة من الأراضى الزراعية — كل الأراضى فى أكثر الأقاليم سكانا ٠ لقد جمعوا بين تقاليدهم عن الملكيات التى تقتنيها الجماعة وبين رغبتهم فى تملك الأرض فى ظل نظام من المزارع التى تشترك فى ملكيتها القرية ، ولكنها مجزأة بحيث يخول لكل واحد من أهل القرية أو المزرعة الحق فى تملك جزء من الأرض طالما كان يزرعها ٠ وبعد أكثر من أربعين سنة من بدء الثورة ظلت حالة الفلاح المكسيكى الاقتصادية منخفضة ،

وكانت مطالب الكثيرين من أهـــل المزارع لم يتم تحقيقهـا بعد ، بسبب الافتقار الى أرض تكفى لتزويد الكل بمزارع تدر عليهم عيشا مناسبا • ولكن الأساس الزراعى ساعد على ابقاء الثورة المكســيكية ديموقراطية أساسا ، من حيث قيمها واتجاهها (١٧) •

وفى الأجزاء الأخرى من أمريكا اللاتينية كانت أمانى الفــلاحين أساس الحركات الثورية ، ولكن كان نجاحها ضئيلا فى تغيير نظام المزارع الكبيرة الذى كان يسود المنطقة بوجه عام • فحزب آبرا Apra الذى تكون فى بيرو فى الثلاثينات على أيدى المثقفين من أبناء المدن كان يستمد تأييده الجماهيرى من المناطق الريفية ، وغلف مطالبه بشعار « الأرض للمعدمين » • غير أن الحركة قمعت ، وزج بقادتها فى السجون أو نفوا ، وفى الخمسينات لم يكن فلاحو بيرو ، شأنهم شأن فلاحى معظم البلاد الأخرى فى أمريكا اللاتينية قد وجدوا بعد وسيلة لكسر قبضـــة ملاك الأراضى • وفى بلاد أخرى صعد التيار التحتى ، الممثل للجوع الى الأرض، الى السطح لفترة وجيزة أو على نطاق محلى من وقت لآخر ، كما حدث فى جواتيمالا فى أوائل الخمسينات • بيد أن أمانى الفلاحين بشأن الأرض تحققت فى بوليفيا عندما استولت على الحكم بالقوة فى عام ١٩٢٥ حكومة كانت قد تعهدت باعادة توزيع الأرض ، وراحت تفى بوعدها ، وكان الاصـــلاح الزراعى بندا رئيسيا فى برنامج الزعيم الثورى الذى طرد دكتاتور كوبا فى عام ١٩٥٩ (١٨) • وما من زعيم شعبى يمكن ألا يكون على بينة من رغبة فلاح أمريكا اللاتينية فى الحصول على الأرض ، أو يخفق فى أن يدرك أنه فى عالم أزيلت فيه بقايا الملكية الاقطـــاعية فى الأرض ، أو كانت فى طريقها الى الزوال ، وكان الاصلاح الزراعى فى هذه المناطق قد تجاوز الوقت الذى يجب أن يطبق فيه •

وفى جميع أرجاء آسيا استيقظ الفلاحون فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى ، للسعى وراء حقوق جديدة • ففى معظم المناطق وخصوصا فى الهند واندونيسيا وبورما أسهمت يقظة الفــلاحين فى الحركات القومية • وبعد الاستقلال كانت اعادة بناء الحياة الريفية جزءا من عملية التنمية القومية •

وفى الصين أقامت الزعامة الشيوعية الحركة الثورية ، وبصورة عادلة ، على تطلع الفلاحين الى الأرض وأمانيهم فيها ، اذ أصر ماوتسى تنج على أن الفلاح ، وليس العامل بالمدينة ، هو الذى يجب أن يوفر القاعدة الثورية فى مجتمع زراعى أساسا • وفى ظل الظروف الفعلية التى سادت الزراعة الصينية كانت الملكيات صغيرة بصورة لامتناهية وغير كافية لتوفير

العيش حتى لو استغلت استغلالا شديدا ، وبوسائل غالبا ما اتصفت بالمهارة .

وعندما عمد الزعماء الشيوعيون بعد أن أعادوا فى أول الأمر توزيع الأرض ، الى استخدام الاقناع والمغريات والضغط بقصد تشجيع الزراعة التعاونية أو الجماعية ــ وجدوا الفلاحين الصينيين أقل اصرارا من فلاحى روسيا وشرق أربا على الاحتفـــاظ بالملكية الفردية . وفى ظرف عشر سنوات من التوزيع المبدئى للأرض استطاعوا أن يخطوا خطوة أبعد من ذلك ، وهى وضع ملكية الأرض وكل الحياة الريفية على أســـاس الملكية الجماعية .

(٣) التنمية الريفية :

فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية لم تأت الجهود المبذولة من أجل النهوض بالفلاحين فى جميع أجزاء العالم من جانب الفـــلاحين أنفسهم فحسب ، ولكنها جاءت من جانب وكالات وطنية ودولية تسعى الى تشجيع التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ففى نظر الزعماء الذين قادوا هذه البلاد فى نضالاتها من أجل الاضطلاع بوظائفها كدول حديثة، بدت جماهير الفلاحين المعزولة عن تيارات العالم الحديث عبئا يعرقل جهودهم وأدرك الزعماء الوطنيون أنه اذا لم يكن فى الامكان رفع مستوى الانتاجية والمشاركة بين أهل الريف ، فلن تستطيع اقتصاديات البلاد ان تحقق تقدما جوهريا ، وعرفوا أن صروحها السياسية والاجتمـــاعية سوف تستند الى أسس غير ثابتة . وعلى ذلك جرى البحث فى كل من هذه البلاد عن وسائل لحث الفلاحين ، لا على أن يغيروا أساليبهم الزراعية فحسب ، ولكن على أن يعتمدوا على جهودهم من أجل تحسين مقدراتهم . وأطلق على هذه العملية المصطلح العام وهو « التنمية الريفية » .

كانت التنمية الريفية تعنى بذل الجهود المنظمة لرفع مستوى الحياة الاجتماعية الريفية ، وبصفة أصلية عن طريق المعونة الذاتية والنشاط التعاونى من جانب المجتمع الريفى نفسه ، تنشطه وتزوده بالمعونة الفنية على نحو يؤدى الى تربية الاعتماد على النفس والمبادرة والجهد المشترك . وكان لبرامج التنمية الريفية سوابقها فى مجموعة منوعة من الأنشـــطة المرتبطة بها : فى الخدمات الريفية ، والبرامج الريفية للتربية الصحية ، والتنظيم التعاونى ، والمدارس الريفية أو البعثات الثقافية ، وأشكال شتى من النشاط المتعلق بالرفاهية . واذ تشكلت فى بلاد مختلفة فانها

تفاوتت تفاوتا بالغا من حيث الشكل والتأكيد ، ولكنها جميعا كانت بطريقة أو أخرى تمثل مشاركة بين الحكومة وجمهور الشعب ·

ففي أقصى الطرفين أى فى الفلبين حيث كانت الحكومة بأسرها قائمة على درجـــة عالية من المركزية ، كان البرنامج يدار من مكتب رئيس الجمهورية ، بمثابة وســـيله يمكن بها أن تنتقـــل الخدمات العامة الى الأقاليم النائية ، حيث لم تصل اليها من قبل · وكان «موظف القرية» يمثل جميع الخدمات الحكومية على المستوى المحلى ، ويعمل كأداة اتصال بالنسبة الى جميع الوكالات الحكومية التى كان مسئولا أمامها ، كما كان يعمل أيضا على ايقاظ المبادرة وتوجيه المساعدة الذاتية فى القرية وما جاورها · وفى الطرف الأقصى الآخر ، فى جاميكا بجزر الهند الغربية ، اتخـــذ البرنامج أساسا ، شكل معونة تقدم الى المجهود الاختيارى ، يقدمهـــا موظفون تابعون لما كان فى الأصل منظمة غير حكومية وهى « لجنة جاميكا للرفاهية » · وكانت لاتزاول عملها الا فى المجتمعـــات التى تلتمس المساعدة من أجل القيام بمجهود مشترك · وكانت مهمة عمالها الرئيسية تقديم النصح للزعماء المحليين المتطوعين ومساعدتهم وتدريبهم ، والقيام بدور مستشارين للمجموعات التى تعبر تعبيرا ديموقراطيا عن مصالح الجهة التى تقوم فيها ·

وبين هذين الطرفين مجموعة متنوعة من برامج التنمية الريفية ، تفاوت الغرض منها كى تتلاءم مع المنـــاطق المختلفة · وكانت البرامج الطموحة التى بوشر تنفيذها فى الهند وباكستان تستهدف الوصول الى أكثر من نصف مليون قرية فى شبه القارة الشاسع هذا ، فى ظرف عشر سنوات · وجمع البرنامج الهندى بين مائة قرية تقريبا فى كل « قطاع تنمية » ، وفى كل مركز كان يجرى توفير الخدمات الريفية المناسبة : الخدمات البيطرية ، العيادات الصحية ، التعليم المهنى ، التوسع الزراعى ، التعاونيات ، الصناعات الصغيرة · وكان « الموظف على مستوى القرية » الذى يعيش فى احدى القرى التى يخدمها ، يعمل كمنشط ومستشار لمجموعة من القرى فى داخل المنطقة · وكانت الحكومة تقدم قدرا معينا من المعونة المالية ، فضلا عن الفنية الى المشروعات التى يضطلع بهـــا القرويون ، بأن تقدم بعض المواد اللازمة لانشاء الطرق والآبار والمدارس والمراحيض وبالوعات المجارى ، أو تقدم السماد والبذور للتجـــارب الزراعية ، أو المواد والمعدات اللازمة للتعليم المهنى ·

وألح البرنامج المصرى المعد للقرى المزدحمة الكبيرة فى وادى النيل فى التأكيد على انشاء مراكز تخدم عدة قرى ، حيث ترتبط مجموعة من

الخدمات والأنشطة : المستشفيات ، المدارس ، تعليم البالغين ، الورش المهنية ، المشروعات التعاونية ، المراكز الاجتماعية • وكان الهدف هو القضاء على التفاوت بين المناطق الريفية والحضرية بالنسبة الى الخدمات التى كادت أن تكون مقصورة على المدن ، وكذلك جعل هذه الخدمات فى متناول الناس ، والحث على الافادة منها • وفى عدد من البلاد كانت ثمة برامج خاصة للاسكان ، عن طريق « المعونة الذاتية » توفر الارشاد الفنى والمواد بتكلفة يسيرة ، كى تجعل فى امكان مجموعات الأسر ، وعن طريق جهودها التعاونية تزويد أنفسهم باسكان ريفى متحسن •

ان الفلسفة التى سادت جميع برامج التنمية الريفية أجاد التعبير عنها القانون المنشىء لبرنامج التعليم الريفى فى بورتوريكو عام ١٩٤٨ : « يجب ألا تكون الجماعة متعطلة من الناحية المدنية • ويمكن توظيفها بصورة مستمرة ونافعة فيما فيه خدمتها هى ، بما يبعث الفخار والرضا فى نفوس أعضائها » • وبينما كان الالحاح أو التركيز موضوعا فى بعض الأماكن على النتائج الملموسة ـ الأفدنة التى زرعت بأساليب متقدمة ، الأميال من الطرق التى انشأها أهل القرية بكدهم ، الآبار التى حفرت ، القناطر التى أقيمت ، المدارس التى بنيت ، الأرض التى استصلحت ، والمراكز الريفية القائمة بعملها ـ فان هذه لم تكن سوى العلامات الظاهرية للتغير فى نظرة أهل الريف وعاداتهم •

كانت التنمية الريفية مفروضة بمعنى ما على أهل الريف من الخارج، ويراد بها جعلهم يتمشون مع قيم المجتمع الأوسع وأساليبه « الا أنه أينما نفذت أمثال هذه البرامج بقوة ومهارة ، فقد كان من أثرها اطلاق سراح طاقة كامنة ، وازاحة الغطاء عن رغبات واهتمامات كامنة ، والذين بدأوا بدور المنشطين سرعان ماوجدوا أنفسهم يواجهون مطالب بمزيد من المعونة تقدم بها القرويون الذين غالبا ما تجاوزت مبادرتهم ما كان الفنيون والقادة على استعداد لتوقعه • واشتد الضغط على الحكومات للوفاء بالوعود بالمعونة الفنية والمادية التى تعهدوا بأن يكملوا بها الجهود المحلية • وبرغم اخفاق بعض الجهود التى بذلت من أجل تنشيط المبادرة القروية ، ألا أنه كان لزاما أن تراجع بسرعة صورة الريفيين البلداءالشعور الذين يصعب تنشيطهم والمتشبثين فى عناد بالطرق العتيقة • وغالبا ماتبين أن نقص النشاط لايعدو أن يكون نتيجة انتشار الملاريا ، وسوء التغذية أو الطفيليات الباطنية ، وكان نقص الطموح يعكس اليأس من تحسين حال الفلاح ، وهو اليأس الموجود منذ أمد طويل ، وكان الجهل وروح المحافظة يعكسان انتفاء الفرصة للتعلم • ولم تتغير مجتمعات

الفلاحين القديمة بين يوم وليلة ، اذ كان العبء الثقيل من الفقر والجهل يعرضان مشكلة ذات ابعاد مذهلة فى جميع البلاد الاحدة حديثا بأسباب التنمية ، وكانت المسافة التى يتعين قطعها كبيرة جدا • ولكن الباعث على التغيير كان موجودا بشكل لايمكن أن يخطئه النظر ، ففى منتصف القرن العشرين كانت شعوب الفلاحين فى آسيا والشرق الأوسط ، وفى أمريكا اللاتينية وأفريقيا قد بدأت تلمح حياة جديدة كانوا على استعداد للكفاح من أجلها ، وبدأوا يرفعون أصواتهم ويجدون وسائل العمل ، عندما تحركوا للمشاركة فى حياة العالم الحديث •

(ج) المرأة

كان للكثير من التغييرات الكبرى بالقرن العشرين أشد الأثر على حياة النساء اللائى لم يشاركن فى التجارب والنظرة الجديدة التى أثرت فى المجتمع باسره فحسب ، ولكن وجدن مركزهن قد تغير • فكل ناحية من الحياة الصناعية الحضرية غزت وعدلت ميدان النساء التقليدى وهو البيت ، بأن أزالت معظم وظائفه الاقتصادية ، وحولت مسئولياته السابقة مثل الصحة والاسكان وحفظ الصحة والتعليم — الى مسائل يعنى بها المجتمع • كان لامفر من أن تغير هذه القوى أنشطة النساء ومجال عملهن ومركزهن فى المجتمع ، بأن اجتذبتهن الى التوظف والحياة العامة ، وغيرت علاقاتهن فى داخل مجموعة الأسرة وخارجهـــا ، وأضفت عليهن مركزا جديدا ، وأدوارا جديدة ، وفرصا جديدة ، ومسئوليات جديدة • وكان مركز النساء الجديد نتيجة عارضة الى حد كبير ترتبت على الاتجاهات الاجتماعية العريضة ، ولكنه كان الى درجة بالغة وليد الجهود الواعية من جانب النساء أنفسهن •

وقبل القرن العشرين كان النساء فى جميع أجزاء العالم يعشن فى داخل نظم اجتماعية فرضت لهن مركزا منحطا ودورا مقيدا • فاتحد القانون والدين والعرف فى البلاد الغربية على اقرار خضوع النساء التام للرجال ، وان وجد النساء دائما فى الواقع العملى وسائل لجعل تأثيرهن ملموسا • فطبقا للقانون العام الأنجلو — سكسونى لم يتمتع النسوة المتزوجات بحقوق قانونية مستقلة — فى الملكية والوصاية على أطفالهن ، واستخدام مكاسبهن ، وتقرير مسكنهن • وفى النظم المستمدة من القانون الرومانى عن طريق قانون نابليون كاد الرجال أن يتمتعوا بحقوق الملكية والأبوة ، على حين لم يكن فى مستطاع المرأة المتزوجة أن تلجأ الى القضاء

أو تمارس العمل أو تعقد العقود ، أو لم يكن فى مستطاعها أن تفعل ذلك الا بموافقة زوجها • وأقر الدين واجب الطاعة • وباستثناءات قليلة لم يتمتع النساء بحقوق سياسية ، وكانت فرص الوصول الى التعليم محدودة جدا أمامهن •

وكان القانون فى البلاد الشرقية أقل تقييدا نوعا لمركز النســاء منه فى الغرب ، ولكن العرف كان أكثر تقييدا له • فحسب الشريعة الاسلامية تمتع النساء بحقوق مستقلة فى الملكية والوصاية والشخصية القانونية ؛ ومن ناحية الواقع العملى كان نظام عزلة النساء عاما الا فى أندونيسـيا ، فكن يرتدين الحجاب اذا خرجن من البيت ــ الا اذا كن يعملن فى الحقول ــ وكان التعليم والحقوق السياسية مقصورة على الرجال • وعاشت النساء الهندوكيات فى ظل قيود قانونية واجتماعية قاسية ، ومجال نشـــاطهن يحدده مركزهن فى نظام الأسرة الموســـعة • وكانت العزلة عامة ، زواج الأطفـــال كثير الحدوث ، والترمل الدائم هو القاعدة ، والتعليم نادرا • وكانت المبـادىء البوذية تسمح بالمســاواة العامة فى الملكية والأموال الشخصية ، ولكن الأسرة الأبوية القوية فى الصين تركت للنســاء مجالا مستقلا صغيرا ، ودعم المجتمع اليابانى القـائم على الطبقية الشديدة مركز النساء المنحط ، وذلك بالقـول والاشارة وكل صغيرة وكبيرة من تفاصيل الحياة •

١ ــ أهداف الحركات النسوية :

كانت أعداد متزايدة من النســـاء فى جميع أرجاء العالم فى القرن العشرين تصبو الى مركز جديد وحياة جديدة • وكان المركز الذى سعين اليه هو الهوية الشخصية كأفراد ، وكانت الحياة الجديدة حياة الفرصـة الكاملة • لقد رغبن فى المشاركة فى الحقوق التى يتمتع بها الرجال ، وفى ان يتمكن من أن يشاركن فى النشاط السياسى ، وتلقى نفس التعليم ، وممارســة نفس المهن أو الأنواع الأخرى من العمل ، وأن يحكمهن نفس قانون السلوك الاجتماعى • ولكن أردن أيضا فرصـــة التعبير الكامل عن النواحى التى يختلفن فيهـــا عن الرجال ، دون أن ينطوى ذلك على معنى النقص فى النوع • مثل هذه الأمانى كان يعبر عنها بوجه عام النســـاء المتعلمات ، ولم يكن من الواضح دائما أن هذه الأمانى كان يشاركهن فيها سائر النســـاء • وتحققت الى حد كبير خلال النصف الأول من القرن على أيدى نساء البلاد التى ساد فيها التصنيع ، ولكن لم يبدأ معظم النســـاء فى البلاد الأخرى فى تحقيقها الا فى منتصف القرن •

فى كل بلد أخفى النســـاء أهدافهن المشـــتركة فى مصطلحات من ايديولوجيات مجتمعاتهن وظروفها . وكان النســـاء الأوربيات قد بدأن يتحركن من أجل اجراء تغيير فى مركزهن ، فى وقت الثـــورة الفرنسية عندما سعين الى مد مفهوم « حقوق الانسان » بحيث يشمل النساء . ولكن تعبيرات من قبيل «تأكيد حقوق المرأة» بقلم مارى ولستونكرافت (لندن ، ١٧٩٢) أو الاقتراح الذى تقدمت به مجموعة من الفرنسيات بأن تصدر الجمعية الوطنية عام ١٧٨٩ « اعلانا بحقوق النساء » لم تلق الا القليـــل من العطف . كذلك لم يحمل أحد على محمل الجد التحذير الذى وجهتـــه أبيجيل آدامز لزوجها فى المؤتمر القارى الذى عقدته المستعمرات الامريكية الثائرة فى عام ١٧٧٦ « اذا لم توجه عناية واهتمام خاصان الى السيدات، فاننا مصممات على احداث ثورة ، ولن نعتبر أنفسنا ملزمات بأية قوانين ليس لنا فيها صـــــوت أو تمثيـــل » (*) . كان المدافعون المتحمسون عن حقوق الرجال من أمثال جان جاك روسو وتوماس جيفرسون يصرون على أن هذه الحقوق لاتشمل النساء .

لكن بمرور الوقت أصبح مفهوم « جميع الرجال خلقوا متساوين ، ولهم حقوق معينة لاسبيل الى تغييرها» ، يعمل كخميرة الى أن اتخذ مفهوم « الرجل » معنى « الانسان » . ولم يكن من قبيل الصدفة العارضـــة أن مؤسسى حركة المطالبة بمنح النســـاء حق التصويت فى الولايات المتحدة كانوا قادة فى الجهاد المضاد للرق ، أو أن يكون جون ستيوارت مل المدافع العظيم عن الليبرالية ، هو الذى كتب النص المشهور لحركة حقوق النساء فى بريطانيا وفى القارة الاوربية .

هذه المبادىء عن الديموقراطية الليبرالية هيأت الأيديولوجية المحركة لنساء بريطانيا وشعوب الكومنولث والولايات المتحدة ، ولكثير من نساء القارة الاوربية ومعظم النساء ممن رفعن الصوت عاليا فى أمريكا اللاتينية والبـــلاد الشرقية . كان مفهـــومهن عن أنفسهن وعن أهـــدافهن مبنيا على أساس فكرة تعتبر الشخصية الفردية هى القيمة الاجتماعية النهائية ، وكان الحافز الأيديولوجى الأساسى على المذهب الفردى تدعمه اتجاهات اقتصـــادية ، ولـــكن غالبا ما كان عليه أن يصارع الفـــكرة التقليدية عن أولوية واجب المرأة كزوجة وأم فى أسرة أبوية ، ومع التأكيد الجديد على دور الأم ، وهو التأكيد الذى جاء به الطب النفسى فى القرن العشرين .

(*) اقتبسها س . أ . بيرد فى « الجمهورية الجديدة » (نيويورك ، ١٩٤٣) ، ص ٥ .

وهيأت الاشتراكية الماركسية الأيديولوجية للعاملات اللائى اشتركن فى الحركات السياسية الاشتراكية والشيوعية وفى المنظمات العمالية المرتبطة بها • وفى هذه الفكرة كانت المساواة بين النوعين جزءا لا يتجزأ من مجتمع يزول فيه استغلال فرد لآخر •

واعتبر كارل ماركس اخضاع النساء ضربا من الاستغلال وشرا من شرور المجتمع الرأسمالى ، وأعلن أن « التقدم الاجتماعى يمكن قياسه بدقة عن طريق المركز الاجتماعى الذى تشغله الاناث » (*) • وكانت المساواة بين النوعين شيئا أساسيا فى الحقيقة بالنسبة الى المفهوم الاشتراكى عن مجتمع جديد ، بحيث لم تعد مشكلة مستقلة عن غيرها • وكان النساء يتمتعن بنفس الحقوق والواجبات كالرجال فى الأنشطة المشتركة داخل الاحزاب السياسية التى كونتها الطبقة العاملة • ولعب الكثيرات من أمثال روزا لكسمبرج (١٨٧٠ ـ ١٩١٩) وكلارا زتكين Clarazetkin (١٨٥٧ ـ ١٩٣٣) فى ألمانيا ، ولويزه متشيل (١٨٣٠ ـ ١٩٠٥) ولورا لا فارج (١٨٤٦ ـ ١٩١١) فى فرنسا ، ونادزدا كروبسكايا Nadezhda Krupskaya (١٨٦٩ ـ ١٩٣٩) وألكسندرا كولونتاى Alexandra Kollontai (١٨٧٢ ـ ١٩٥٢) فى الروسيا ـ دورا بارزا فى الحركات الثورية • وقرر المؤتمر الدولى الثانى للنساء الاشتراكيات ، المنعقد فى كوبنهاجن فى ١٩١٠ ـ اعتبار يوم ٨ مارس « يوم النساء الدولى » دلالة على تضامن النساء الدولى فى النضال من أجل المساواة الاقتصادية والسياسية ، والمحافظة على السلم ورفاهية أطفالهن • وعند انشاء الاتحاد السوفييتى أدمج مبدأ المساواة بين الرجال والنساء فى القانون بصورة أتوماتيكية •

وكانت بعض الانتفاضات من أجل المطالبة بتغييرات فى مركز النساء قد بدأت فى البلاد الآسيوية قبل ختام القرن التاسع عشر ، نتيجة الاتصال بالفكر الليبرالى بالغرب ، ففى اليابان كان بعض النساء قد تلقين التعليم فى الخارج ، وأنشأن مؤسسات تعليمية عالية للنساء ومنظمات للعمل على تحقيق حقوق النساء • غير أنهن ظفرن بالقليل من التأييد من جانب الرجال الذين تزعموا حركة الأخذ بالحضارة الغربية ، حتى وان كان منح النساء حرية أكبر ومساواة أكثر ، يعتبر من مظاهر المجتمع الغربى • وفى الصين كان للارساليات تأثير على عدد محدود ، وخاصة فى صفوف طبقات التجار

(*) خطاب الى كوجلمان ، ١٨٦٨ •

الذين كان لهم أعظم الاتصالات بالغرب ، ودفعت ببعض النساء فى طريق التعليم • وتضمنت حركات الاصلاح فى الهند ، التى أثارها الاتصال بالغرب ، مثل حركة برامو ساماج Bramo Samaj ، تضمنت تحرير النساء من الأعراف الهندوكية ، باعتباره نقطة رئيسية فى برامجها ، وكانت الهنديات من بين المشتركات والزعيمات النشيطات فى الاثارة القومية • وفى المناطق الاسلامية لم يكن هناك بعد سوى اشارة يسيرة عن الحركة •

وخلال القرن العشرين نمت حركات النساء فى جميع أجزاء آسيا تقريبا • فبعد ثورة أكتوبر أصبحت المساواة بين الرجال والنساء فى الاتحاد السوفييتى الهاما وحافزا للنساء فى البلاد الآسيوية ، اذ رأين فى هذا المثال أول مجتمع ينتظر أن يضطلع فيه النساء بوظائفهن حسب قدراتهن وامكاناتهن المحتملة •

وبمجرد أن حدث الشرخ فى جدار العزلة والخضوع ، وهو الشرخ الذى كان من تأثير الديموقراطية الليبرالية أو الاشتراكية الماركسية ، استشهدت الآسيويات بمبادىء القرآن والبوذية بمبادىء الفكر الهندوكى الأساسية عن المساواة ، لكى يهاجمن مجموعة الأعراف التى أثقل بها كاهل هذه المبادىء • فلفتت المسلمات النظر الى حقيقة أن القرآن منحهن حقوقا فى الملكية لم تتمتع بها نساء الغرب ، وأن النبى (ص) شجع مشاركة النساء السياسية ، وأن تحديد عدد الزوجات بأربع مع الأمر بالاقتصار على واحدة اذا خيف عدم العدل بينهن، هذا التحديد كان يشكل خطوة تقدمية، وأريد به رفع مركز النساء • وظفرت الهندوكيات بالتأييد من جانب المصلحين الهندوكيين الذين اعتبروا الأساليب التقليدية من قبيل الترمل الدائم وزواج الأطفال ، تشويهات للمبادىء الهندوكية • وحتى فى أفريقيا بدأ القادة الذين أخذوا بالحضارة الغربية يدركون أن جهودهم من أجل تجديد بلادهم لايمكن أن تستمر الا اذا قاسمهم النساء التعليم والمفاهيم التى كانوا هم أنفسهم يعملون بها •

وغالبا ما كانت أمانى النساء وثيقة الارتباط بحركات أخرى مثل التحرر الوطنى أو حقوق العمال ، وان كانت جهود النساء العاملات من أجل تحقيق المساواة فى الأجر اذا تساوى العمل — لم تحظ بالتأييد الكامل من جانب النقابات أو من المجموعات النسائية الأخرى الأكثر انصرافا الى الحقوق السياسية • وعن طريق المشاركة فى النضال ضد الحكم الاستعمارى أصبح النساء فى الهند وأندونيسيا جزءا من الجهود المشتركة ، وحصلوا

بطبيعة الحال على نفس حقوق التصويت كالرجال ، عندما أصبحت بلادهن شعوبا مستقلة • وبالمثل كان اشتراك المصريات ، وكن لا يزلن يلبسن الحجاب ، فى الحركة من أجل التحرير الوطنى فى سنة ١٩١٤ هو الذى هيأ الدافع المبدئى لتحريرهن وكسب التأييد لقضيتهن •

وفى الربع الثانى من القرن العشرين قدمت المنظمات الدولية مساندة قوية لأمانى النساء • فأوصى المؤتمر الخامس الممثل للأمريكتين والمنعقد فى عام ١٩٢٢ بأن تعدل حكومات الجمهوريات الامريكية دساتيرها وقوانينها « حتى يتسنى الحصول لنساء الأمريكتين على نفس الحقوق المدنية والسياسية التى يتمتع بها الرجال » • وتعاونت على النطاق الدولى نساء البلاد الشيوعية والجماعات المرتبطة بهن فى البلاد الأخرى ، عن طريق الاتحاد الديموقراطى الدولى للنساء الذى تكون عند انعقاد المؤتمر الدولى الأول للنساء الذى عقد بباريس فى عام ١٩٤٥ ، وأشتركن فى الاحتفال فى اليوم الدولى للنساء وفى بدء أول مؤتمر للسلام العالمى عام ١٩٤٩ ، وفى الاحتفال السنوى بأول يونية على أنه « دفاع عن يوم الأطفال » •

وأكد ميثاق الامم المتحدة الايمان « بالحقوق المتساوية للرجال والنساء » وأعلن من بين أغراضه تشجيع احترام حقوق الانسان ، دون تمييز بسبب الجنس أو النوع أو اللغة أو الدين • ورسم الاعلان العالمى لحقوق الانسان صورة واضحة لمركز النساء فى ذلك النوع من المجتمع ، والذى كان الاعلان يعنيه ، معلنا أن « الرجال والنساء •• لهم حقوق متساوية بالنسبة الى الزواج وفى اثناء الزواج وبعد حل رباطه » وأن « كل شخص » له الحق فى « الاختيار الحر للعمل » و «بدون أى تمييز له الحق فى الاجر المتساوى عن العمل المتساوى » ، و « الحق فى التعليم » مع « فتح الابواب بالمثل أمام الجميع على أساس الجدارة بالنسبة الى التعليم العالى ، و « الحق فى الاشتراك فى الحكم » و « المشاركة بحرية فى الحياة الثقافية للمجتمع » •

وهكذا بانتصاف القرن كان الرأى العام العالمى الرسمى يقف الى جانب النساء ، وان بقيت فجوة واسعة بين الهدف الذى تخيله الاعلان العالمى لحقوق الانسان وبين واقع اليوم ، كهدف ، نادرا ما كان موضع التحدى بشكل سافر ، مهما كان مدى الرفض من ناحية الفكر والاحساس•

٢ ــ أساليب السعى وراء الأهداف :

وفى المراحل المبدئية من الحركة النسائية فى كل بلد خرجت نساء

بارزات تولين الزعامة وأصبحت أسماؤهن تتردد على الألســنة فى بلادهن وأحيانا فى جميع أنحاء العالم • فالكثير من الحركة من أجل حقوق النساء فى القرن التاســع عشر وأوائل القرن العشرين فى أوربا وأمريكا ـ كان يتركز فى نشاط بعض النساء فرادى مثل سوزان ب • انتونى (١٨٢٠ ـ ١٩٠٦) ، واليزابث كادى ستانتون (١٨١٥ ـ ١٩٠٢) ، ولوكريشيا موت (١٧٩٣ ـ ١٨٨٠) ، ولوسى ســتون (١٨١٨ ـ ١٨٩٣) فى الولايات المتحدة ، والنقابية مارى ماك آرثر (١٨٨٠ ـ ١٩٢١) ، والمناضلتين اميلين (١٨٥٧ ـ ١٩٢٨) وسيلفيا (١٨٨٢ ـ ١٩٦٠) بانكهيرست فى انجلترا، وفردريكا بريمـــر (١٨٠١ ـ ١٨٦٥) والين كى Ellen Key (١٨٤٩ ـ ١٩٢٦) فى الســويد ، ونينا بانج (١٨٦٦ ـ ١٩٢٨) فى الدنمرك ، ولويز أوتو ـ بيترز (١٨٢٦ ـ ١٨٩٥) فى ألمانيا واليـنــا جاكوبس (١٨٤٩ ـ ١٩٢٩) فى هولندا • وفى الوقت الذى نشبت فيـه الحرب العالمية الأولى كانت حركات النساء فى هذه البلاد قد تجاوزت مرحلة الزعامة الفردية ، وان أستمر نساء ممتازات يمهدن الطريق على نحو مافعلت مرجريت بوندفيلد (١٨٧٣ ـ ١٩٥٣) أول بريطانية عضو بمجلس الوزراء والذى جاء بها الى المنصب السياسى فى عام ١٩٢٩ ـ حياتها كزعيمة عمالية أكثر منها زعيمة نسائية •

وفى البلاد غـير الغربية اضطلعت نســـاء بصفتهن الفردية بزعامة شخصية وبدأن حركات قوية بالنيابة عن النساء فى بلادهن خلال القرن العشرين • فالســيدة ساروجينى نايدو (١٨٧٩ ـ ١٩٤٩) فى الهند ، والسيدة هدى شعراوى (١٨٧٩ ـ ١٩٤٧) فى مصر ، وخالدة أديب أديفار (١٨٧٥ ـ) فى تركيا ، والبارونة ايشيموتو (١٨٩٧ ـ) فى اليابان ، والسيدة صن يات سن (١٨٩٠ ـ) فى الصين ، هؤلاء جميعا بشجاعتهن الشخصية وتضحيتهن وقدرتهن على ابراز قضية النساء ركزن الانتباه وكسبن التأييد ، وأحطن أنفسهن بأتباع جعلن منهن زعيمات بدورهن ، وسلمن اليهن دورهن ومسئوليتهن •

وسعت النساء البارزات فى كل بلد وراء التعليم العالى وفرصـــة الدخول فى المهن الرئيسية التى تحل معهـــا الكرامة والمركز العالى فى المجتمع • وسعين وراء هذه الفرص ، نظرا لما تؤدى اليه من تنمية الذات وما ينطوى عليه العمل المهنى من ارضاء للنفس ، ولكن اعتقدن فى الوقت نفسه أنهن يظهرن أن النســـاء كطبقة لسن بالكائنات المنحطة ، كما كان المفروض فيهن • واللائى حققن الامتياز واستطعن منافسة الرجال بنجاح فى أعلى مستوى من النشاط فى المهن أو العلم أو البحث أو الخلق الفنى ،

كن رموزا تدل على النوع الذى ينتمين أليه • وعن طريق انجازاتهن كن يأملن فى القضاء على تعصب الرجال ودعم الثقة بالنفس فى صفوف غيرهن من النساء •

واعتبارا من القرن التاسع عشر كون النساء منظمات لدفع قضيتهن الى الأمام • وكان من أوائل أهداف جهودهن المنظمة جعل التعليم العالى فى متناول النساء باعتباره طريقا الى المهن والاستقلال الاقتصادى والزعامة• فأنشئت معاهد للتعليم العالى للنساء فى بلاد شتى ، فى الولايات المتحدة فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وفى انجلترا فى أربعيناته، وأنشئت مدرسة الطب للنساء فى لندن عام ١٨٧٤ • وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت الجامعات الأوربية والامريكية تسمح بأن تلتحق بهـا النساء ، اما فى حالات خاصة أو بغير قيد • وسمح لأول هولندية بمتابعة الدراسة الجامعية باذن خاص من رئيس الوزراء فى عام ١٨٧٠ ؛ وحصلت نساء وقع عليهن الاختيار على اذن بدخول الجامعات فى الروسيا وسويسرا• وكانت جامعات الولايات التى تساعدها الأموال العامة والتى أنشئت فى الولايات المتحدة ابتداء من عام ١٨٦٢ مفتوحة الأبواب أمام كل من الرجال والنساء ، كما كان الحال عموما بالنسبة الى الجامعات البلدية البريطانية والجامعات فى الممتلكات المستقلة • وخرجت المكسـيك أول طبيبة فى ١٨٨٧ ، وأول محامية فى ١٨٩٨ • وبافتتـاح القرن العشرين كانت قد خلقت قوة دفع من أجل مد نطاق التعليم العالى ليشمل النساء •

وفى البلاد غير الغربية حيث لم تتشـكل الحركات من أجل حقوق النساء الا بعد الحرب العالمية الاولى ، لم يكن حق الدخول فى معاهد التعليم العالى بالمشكلة العسيرة ، كما كان بالنسبة الى الغربيات فى مرحلة مماثلة من مجهودهن المنظم • كان المبدأ قد تقرر ولم تفرض الجامعات التى أنشئت على الطراز الغربى فى هـذه المناطق حواجز معينة تحول دون التحـاق النساء بها •

وكان التركيز الرئيسى من جانب الحركات المنظمة من أجل حقوق النساء منصبا فى كل مكان على كسب حق التصويت ، وكان مثل هـذا التأكيد طبيعيا فى مجتمعات الغرب ذات الاتجاه الديموقراطى التى مرت بنضال طويل من أجل تقرير حق الاقتراح للرجال ، وأخفت بياناتها عن حقوق النساء فى مصطلحات سياسية فى جوهرها • وكان هـذا جزءا لا يتجزأ من الحركة الاشتراكية من أجل كل من المساواة الاقتصـادية والسياسية •

ان الحركات من أجل حقوق النساء والتى استمدت قيادتها والتأييد الرئيسى لها من صفوف الطبقتين الوسطى والعليا ، كانت بوجه عام تضم مجموعتين : عنصرا نضاليا مثل الانجليزيات المطاليات بحق التصـويت ممن نظمن المظاهرات الجماهيرية وقيدن أنفسهن علنا بالسلاسل لابراز قضيتهن ، وسعين الى أن يعتقلن ، وأضربن عن تناول الطعام أو مارسن أشكالا أخرى من السلوك العدوانى ، وعنصرا أكثر اعتدالا أحس أن امثال هذه الأساليب لن تدفع قضيتهن قدما ، بل ان الأقرب الى الاحتمال أنها تبعد قلوب الرجال الذين كان عليهن أن يعتمدن عليهم من أجل استصدار التشريع • وكانت المجموعة المعتدلة تحث على الصـبر والعقل واظهـار ما تستطيع النساء عمله كعاملات ومواطنات ، بدلا من الالتجاء الى السلوك الذى يلفت الأنظار •

أما الحركات التى ظهرت فيما بعد فى أجزاء العالم الأخرى مطالبة بحقوق النساء ، فقد انهمكت فى نضـال مشابه من أجل التصويت ، وتكونت بالمثـل من أفراد من الطبقتين الوسطى والعليا ، وأظهرت نفس الانقسام • ففى مصر فى الخمسينات ، حيث لم يكن النساء قد حصلن بعد على حق التصويت ، أضربت زعيمة العنصر النضالى عن الأكل وسعت الى أن تعتقل على نحو مافعلت الأختان بانكهيرست فى يومهما فى بريطانيا ، على حين عملت المنظمات النسائية الأكثر اعتدالا على تشجيع دخول النساء فى المهن ، ولفتت الأنظار الى انجازاتها ، وحاولت الظفر بتطبيق مانص عليه القرآن من حقوق ايجابية للنساء • وفى أندونيسيا حيث لم يكن التصويت بمشكلة ، كانت المنظمات النسائية العريضة مكرسة للرفاهية العامة ، على حين ركزت مجموعة صغيرة على تنمية حقوق النساء القانونية •

وسعى بعض النساء الى المنصب السياسى وبرزن كزعيمات سياسيات وحدث هذا فى أوربا ، بصفة رئيسية ، باعتبارهن مرشـحات من قبل الأحزاب الاشتراكية التى كانت الوحيدة تقريبا التى رحبت بالمرشحات من النساء • وفى كل مكان كانت المرشحات أقل احتمالا بأن يقتصرن على أحزاب معينة • بيد أنه نادرا ما نظم النساء أنفسهن ككتلة سياسية تساند مرشحات من نوعهن •

كانت العناصر الأشد تحمسا فى منظمات حقوق النسـاء بالبلاد الغربية ، هى وحدها التى هاجمت القيود القانونية المفروضة على النسـاء المتزوجات ، وبنفس الحماس الذى شنت به النضال من أجل التعليم العالى والاقتراع • وبما أن العجز عن التصرف فى الملكية والدخول فى التعاقدات

وتقرير المسكن أو ممارسة الوصاية على الاطفال ، لم تصبح كلها ذات أهمية الا في وقت وجود صراع أوأزمة في الأسرة ، لهذا بدت هذه المسائل حيوية أساسا بالنسبة الى النساء اللائى كن يقاسين من ذلك بشكل مباشر، وأولئك اللائى عنين بها باعتبارها مسألة مبدأ • ففي الولايات المتحدة سعت مجموعة نضالية الى تحريم كل تفرقة قانونية على أساس النوع ، بادخال تعديل على الدستور الاتحادى ، ولكنها واجهت معارضة قوية من المنظمات النسائية الأخرى التى خشيت أن يقوض هذا الاجراء التشريع الخاص بحماية العمل والذى كانت تعتبره أكثر أهمية من المكاسب في المركز القانونى • لكن بالنسبة الى المسلمات كان الحصول على حقوق أكبر بالنسبة الى الزواج والطلاق والتطبيق العملى لحقوق الملكية والوصاية المنصوص عليها ، ذا أهمية رئيسية •

واذ نشط النساء في حياة المجتمع رحن ينظمن أنفسهن لأغراض أخرى خلال تحسين وضعهن ، وأصبحت المجموعة التى كرست نفسها لحقوق النساء جزءا صغيرا من الكل ، فاحتفظت بتنظيم مستقل أو مثلت مصلحة خاصة داخل المجموعات الأوسع نطاقا •

وفي جميع البلاد بالفعل أنشأ النساء المنظمات لأغراض الرفاهية الاجتماعية • لقد ظلت طوائف الراهبات الدينية زمنا طويلا توفر المستشفيات ودور الأيتام والبيوت لغير المتزوجات وغير ذلك من المؤسسات والى جانب التدريس كانت الرفاهية الاجتماعية من أوائل أنواع النشاط التى مارسها النساء خارج البيت ، وظلت في بعض الأماكن الطريقة الرئيسية التى شارك النساء بها في حياة الجماعة • وأخذت المنظمات الاختيارية بزمام المبادرة في انشاء خدمات الرفاهية ، حيث لم يكن لها وجود ، فأقامت محطات لتقديم اللبن للأطفال الرضع ، والنوادى ، ودور الحضانة ، والملاعب ، والبيوت والمستشفيات للأطفال ، والبيوت للنساء غير المتزوجات ، ومنازل للاقامة ، وحشدا من الخدمات الاخرى • وكون النساء في باكستان منظمة لتوفير المدارس ، والأعمال في الحرف اليدوية وغير ذلك من الخدمات للاجئين ؛ وقامت النساء التركيات بانشاء أول مؤسسة في البلد للأحداث المنحرفين ؛ وقدمت نساء تايلاند الخدمات للعميان ؛ وأقام النساء في كمبوديا المراكز الريفية والعيادات ومدارس رياض الأطفال والمدارس ؛ وساندت المجموعات الاختيارية في الولايات المتحدة المشروعات الرائدة في سلامة الأسنان والمكتبات المتنقلة ومسارح الأطفال • وحيث كانت الخدمات تقدمها الدولة أو وكالات خاصة منظمة

أكملت منظمات النساء الخدمات المهنية بتقديم المتطوعات لمساعدة المرضات بالمستشفيات ، والمساعدات فى أعمال الترفيه للمراكز الريفية وملأن عددا جما من المراكز الأخرى ، فى ضوء التوجيه المهنى ٠

هذه المنظمات الاختيـــارية كانت مكونة بصـــفة رئيسية من نساء الطبقتين الوسطى والعليا ممن توافر لهن الفراغ الذى يخصصنه لمثل هذا النشاط ، وكن فى مركز يسمح لهن بتقديم الهبـــات أو جمع الأموال ٠ وغالبا ما كانت الزعامة تمثلها شخصية بارزة كزوجة رئيس جمهورية أو حاكم أو رئيس وزراء ، أو عضو من الأسرة المالكة أو من الارستقراطية ، أو امرأة ذات ثراء ٠ وغالبا ما كان الاشتراك فى أمثال هذه الأنشطة علامة على المكانة الاجتماعية ٠ وكانت ثمة منظمة رئيســية فى الولايات المتحدة مكونة من نفر من صفوة المجتمع ، لا تسمح بالانضمام اليها الا لمن يكرسن ساعات عدة فى الأسبوع للخدمة الاختيـــارية فى مؤسسات الرفاهيـــة الاجتماعية ٠

ان الأنشطة الاختيارية المتعلقة بالرفاهية الاجتماعية والتى تزعمهـا النساء البارزات ـ كانت صفة تميز بوجه خاص المراحل المبكرة من جهود النساء المنظمة ، برغم أنها ظلت قائمة الى جانب خطوط النشاط الأخرى ٠ وعندما وسع النساء نطاق أنشطتهن ، أنشأن مجموعة منوعة من المنظمات ذات أغراض وقواعد كثيرة للعضوية ؛ فتكونت بعض المنظمات بقصد الترفيه عن الأعضاء أو تحسين ظروفهن أو ممارسة اهتمام مشترك كفلاحة البساتين وكان غيرها قائما على أساس الدين أو الجنسية أو العنصر ، وســـعت الى تنمية مصالح جماعتها فى المجتمع الكلى ، أو ارساء قاعدة يقوم عليها التضامن الاجتماعى ، أو الاشتغال بالنشاط المتعلق بالرفاهية ، أو تأييد الأهداف الاجتماعية العريضة ، تمشيا مع مبادىء الجماعة التى تمثلها المنظمة أو مع مسئولياتهن كنساء ٠ وكانت الهيئات المساعدة لمنظمات الرجال مثـــل المنظمات الأخوية والمجموعات المكونة من أصـــحاب المهن أو العمال تؤيد مصالح أزواجهن ، كما وفرت مجموعة اجتماعية على أساس الحرف التى يمارسها أزواجهن ٠

كذلك تكونت منظمـــات لتوفير وسائل لأنشـــطة النساء والبنات الاجتماعية والتعليمية والترفيهية ، عن طريق منظمات مثل جمعية الشابات المسيحيات والكشافات والمرشدات ، أو النســاء المواطنات بالعالم ٠ كان بعضها واقفا نفسه لقضية اجتماعية معينة مثل العفة أو السلام أو تحديد النسل ٠ وكان بعض آخر عبارة عن الفروع النسائية للأحزاب السياسية،

أو كانت منظمات غير حزبية نذرت نفسها لحسن استخدام التصويت . وأنشأت نساء من خريجات الجامعة منظمات لتشجيع التعليم . وكون النساء فى قطاع الأعمال والمهن الحرة روابط لدعم مركزهن ، وخاصة حيث كن مازلن يناضلن فى سبيل تحطيم الحواجز المهنية .

كل هذه المنظمات كانت تعكس مايساور النســاء من اهتمام وقلق خارج البيت . فبينما كانت الأغلبية الساحقة من أعضائها مستمدة من عناصر تنتمى الى الطبقة الوسطى ، فقد كانت تضم قطاعا اجتماعيا عريضا، وتستخدم مايملك النساء الموظفات وربات البيوت ، على حد سـواء ، من طاقات وتدريب وذكاء ووقت .

وأيا كان أساسها وغرضها ، فقد ابتدع معظمها برامج للدراسة ، وشكلا ما من أشـكال التنظيم الديموقراطى ، ووسائل للتعبير عن أفكار أعضائها بصدد المشاكل العامة . وكانت تؤيد ما يتمشى مـع أهدافها من التشريع والتدابير العامة الأخرى ، وتشترك فى حملات التربية العامة ، وتقنع المشرعين وتكسب الأصوات المؤيدة لها . وكانت تعمل بوجه خاص من أجـل أشـياء من قبيل صحة الأم والطفل ، والقضـاء على الدعارة ، والتحسينات المدنية ، ونشر الخدمات الاجتماعية ، والتفتيش المناسب على الغذاء والعقاقير ، وتوفير مدارس أفضل . وعن طريق هذه المنظمات ازداد توجيه أنشطة النساء صوب رفاهية المجتمع كله ، بدلا من الدفاع المباشر عن حقوق النساء .

وبرغم مواصـلة منظمات النســاء الازدهار حتى منتصـف القرن العشرين فى البلاد التى وجدت فيها طيلة سنوات كثيرة ، وكذلك فى البلاد التى كانت تعبر فيها عن الدور الجديد للنساء بعد خروجهن من عزلتهن ، الا أنه كان هناك اتجاه متزايد نحو ممارسة العمل فى الهيئات المكونة من كل من الرجال والنساء ، بدلا من العمل فى مجموعات مستقلة . فبوصفهن أعضاء فى روابط أصحاب المهن ، والنقابات ، والأحزاب السياسـية أو المجموعات التى تمثل مصـالح خاصة ، وفى اللجان التى تحكم الوكالات المشتركة ، وفى جمعيات أولياء الأمور والمدرسين المكونة من الرجال والنساء وفى مجموعات أخرى لاحصر لها ، وفى هذه جميعا اشترك النساء كأعضاء كاملات بغض النظر عن نوعهن ، واضطلعن بوظائف حددتهـا قدراتهن الفردية . وحيث وجد هذا النوع من المشاركة ، وحيث كان النساء يقبلن حسـب ما يملكن من مزايا بوصـفهن أفرادا ، فقد أحسسن أنهن حققن الهدف الأساسى الذى تخيلته المدافعات الرائدات عن حقوق النساء .

٣ ـ تحقيق الأهداف :

وفى كل من المجالات التى كان النساء يتطلعن فيها إلى تغير وضعهن، فان جهودهن الواعية أو التطورات الاجتماعية والاقتصادية العريضة خلال الفترة قربتهن من أهدافهن ؛ فاللجنة التابعة للأمم المتحدة لبحث موضوع مركز النساء ، وهى تستعرض فى عام ١٩٥٥ التقدم نحو تحقيق المركز الذى وضعه نصب عينيه الاعلان العالمى لحقوق الانسان وجدت امتدادا ملحوظا لحقوق النساء السياسية ، وبعض تغييرات بالنسبة الى المركز القانونى للنساء المتزوجات ، ولكن كان لايزال يتعين ازالة الكثير من القيود، واستمرار عدم كفاية التسهيلات للتعليم الثانوى والعالى بالمقارنة مع التسهيلات المتاحة للأولاد ، ولم تكن هناك سوى بداية نحو تنفيذ مبدأ المساواة فى الأجر اذا تساوى العمل • ولاحظت اللجنة أن حقوق النساء على الورق كانت أكثر بكثير منها فى التطبيق العملى ، وأن مهمة كبيرة لاتزال تنتظر ، وهى مساعدة النساء على أن يصبحن على بينة من حقوقهن وعلى ممارستها •

(أ) الحقوق السياسية :

لم يحصل النساء عند بدء القرن على حق التصويت الا فى نيوزيلند، وفى ولايتين استراليتين وفى أربع ولايات بالولايات المتحدة الأمريكية • وبانتصاف القرن كن قد ظفرن بالتصويت فى جميع البلاد تقريبا • لقد أحرز الدعاة الى الاقتراع نجاحات قليلة قبل الحرب العالمية الأولى ؛ اذ لم يضيفوا سوى النرويج وبقية استراليا وفنلنده وثمانى ولايات أخرى فى الولايات المتحدة الأمريكية زائدا حق التصويت فى الانتخابات البلدية فى بريطانيا وأماكن أخرى قليلة • ولكن ضغط الحرب جاء بأعداد كبيرة من النساء الى ميدان العمل ، وأعطت الحركة من أجل الاقتراع قوة دافعة من أجل تحقيق النصر • وخلال الحرب وبعدها مباشرة استسلم البرلمان البريطانى ومنح التصويت للنساء فوق سن الثلاثين (١٩١٨) ، وعدل دستور الولايات المتحدة ليحرم على أية ولاية انكار حق التصويت على أساس النوع (١٩٢٠) ، وأدرج التصويت للنساء فى الدستور الجديد بالاتحاد السوفييتى ، وفى الدول التى خلفت امبراطورية النمسا والمجر ، وجمهورية ويمار بألمانيا ، ومنح النساء حق الانتخاب فى بقية بلاد اسكنديناوه والأراضى الوطيئة وكندا واتحاد جنوب أفريقية •

وفى البلاد الأخرى بأوربا ، وفى أمريكا اللاتينية أيضا استمرت

المقاومة لمشاركة النساء السياسية ، حتى الحرب العالمية الثانية ، وخاصة حيث كانت الليبرالية الديموقراطية بالغة الضعف وكان الاحساس بتأثير الكنيسة الكاثوليكية بالغ القوة . وكانت اكوادور أول بلد بأمريكا اللاتينية اتخذ اجراء رسـميا لمنح التصويت للنساء (١٩٢٩) ، وأعقبتهـا خلال السنوات الخمس التالية البرازيل وأورجواى وكوبا . وفى الشرق حيث كانت نساء تركيا يطالبن بالتصويت منذ عام ١٩٠٨ ، فانهن حصلن عليه نتيجة لاصلاحات أتاتورك ، ولكن لم يتم ذلك الا فى عام ١٩٣٤ ، أى بعد وصوله الى السلطة بأكثر من عشر سنوات . وخلال الثلاثينات مدت بريطانيا حق التصويت الى النساء فى سـيلان والهند وبورما ، وفعلت الولايات المتحدة الشىء نفسه فى الفلبين . ونجح نسـاء تايلاند فى أدراجهن ضمن الناخبين ، عندما أصبح بلدهن ملكية دستورية فى عام ١٩٣٢ . غير أن اليابانيات فشلن فى الجهود التى بذلتها من أجل ادماج تصويت النساء فى الدستور اليابانى عام ١٩٢٠ .

وساعد تأثير الحرب العالمية الثانية والاعلان فى ميثاق الأمم المتحدة عن « الحقوق المتساوية للرجال والنساء » على منح الحقوق السياسية لنساء معظم الشعوب المستقلة الباقية فى العالم ، وان صـحب ذلك فى حالات قلائل تحفظات أو قيود غير مفروضة على الرجال . ومنحت فرنسا وايطاليا نساءهما حق الاقتراع ، فلم يعد من بين الأوربيات فى عام ١٩٥٥ من لم يحصلن على هذا الحق سوى نساء سويسرا . وفى هذا الموقف كذلك ، كانت جميع بلاد أمريكا اللاتينية فيمـا عدا باراجواى ، قد قررت حق التصويت . وكان للنساء كامل الحق فى التصـويت فى البلاد الحديثة النشأة فى آسيا ، وفى الصين وفى ظل دستور اليابان الصادر بعد الحرب . وكانت ليبيريا أول دولة افريقية أعطت النسـاء حق الانتخاب ، وتلتها أثيوبيا فى عام ١٩٥٥ ، وصوتت الأفريقيات فى الانتخابات التى أدت الى انشاء ساحل الذهب كدولة غانا المستقلة .

وفى الشرق الأوسط كان منح النسـاء حق الانتخاب لايزال فى طريقه فى منتصف القرن ؛ ذلك أن المسلمات ممن باشرن فى العشرينات العمل من أجل الحقوق السياسية ، فضلا عن الاجتماعية بدأن فى ادراك النجاح . فنال النساء المتعلمات حق الانتخاب فى سوريا عام ١٩٤٩ ، وفى لبنان عام ١٩٥٢ . ولكن البلاد الاسلامية الثمانية الباقية فى الاقليم كانت تشكل كتلة الدول التى كان النساء فيها لايزلن فى عام ١٩٥٥ بدون حقوق سياسية . والى جانب سويسرا وباراجواى كانت الدول الوحيدة المماثلة لهما عبارة عن الاقليمين الصغيرين : ليختنشتاين وسان مارينو . غير أنه

عند تطبيق دستور ١٩٥٦ وعد نساء مصر بحق التصويت ، وعندما استقلت تونس في عام ١٩٥٧ نال نساؤها حق التصويت في الانتخابات البلدية ٠

وبرغم سعى النساء وراء حق الانتخاب باعتباره وسيلة للحصول على أشياء أخرى كن يرغبن فيها ، الا أنه ظهر أن اتجاه النساء الى التصويت ككتلة كان ضئيلا ٠ كان مسلكهن السياسى شديد الشبه بمسلك الرجال، ويعبر عن مجموعة مماثلة من الآراء ومن المصالح المحلية أو مصالح المجموعة أو المصالح الطبقية ٠ أما الى أى حد أسهم وجودهن فى صفوف الناخبين فى الاتجاه نحو زيادة حجم التشريعات المتصلة بالرفاهية ، فأمر ليس من السهل تقديره نظرا لأن الاتجاه نحو سن أمثال هذه التشريعات كان قويا فى كل مكان ٠

وظل عدد النساء ممن شغلن مناصب عامة صغيراً بوجه عام ، وحتى بعد سنوات من تمتعهن بحق الانتخاب ، وذلك باستثناء بلاد قلائل أشهرها الاتحاد السوفييتى ، حيث كن يشكلن أكثر من ربع الأعضاء فى المجالس (السوفييتات) المركزية والمحلية ٠ وكان فى إمكان معظم البلاد بما فيها الحديثة العهد بمنح حق الانتخاب ، أن تشير الى أمثلة قلائل عن نساء انتخبن فى الهيئات التشريعية القومية ، أو عملن أعضاء فى الوزارات ، أو شغلن مناصب دبلوماسية ، أو جرى اختيارهن للعمدية فى المدن أو خدمن فى القضاء ٠ وفى حالات قلائل نص على تخصيص عدد معين من المقاعد فى الهيئات التشريعية ، للنساء بقصد ضمان تمثيلهن ، كما حدث أولا فى الهيئات التشريعية الاقليمية فى باكستان ، أو فى نظام التمثيل الجماعى فى مجلس الدايت فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ٠

وكان الأكثر احتمالا أن يعين النساء فى المراكز المسئولة ، وخاصة فى التعليم والرفاهية الاجتماعية والشئون العمالية والثقافية ، لا أن ينتخبن لشغل المناصب ، وغالبا ماحرصت المنظمات النسائية على أن توضع أسماء النساء ذوات المؤهلات أمام من بيدهم أمر التعيين عندما يراد شغل منصب ٠ بيد أن وجود النساء فى المناصب العالية لم يكن انعكاسا دقيقا لمستوى المشاركة العام فى الشئون العامة ، ذلك أن من النساء من عين فى مراكز عامة مسئولة ، حتى فى بلاد لم تكن قد منحتهن بعد حق الانتخاب ٠ وكانت الصفوف المتوسطة من الخدمة المدنية تقدم دلالة أفضل على مثل هذه المشاركة ، وخدمت النساء بأعداد كبيرة فى البلاد التى أدخلتهن على نطاق واسع فى الحياة العامة ٠

(ب) التعليم :

نجح النساء بوجه عام فى الوصـــول الى التعليم العـــالى ؛ ففتحت الجامعات الأوربية الرئيسية أبوابها فى العقد الأول من القرن العشرين ، كما فعلت الشيء نفسه جامعات تركيا والجامعات فى أمريكا اللاتينية بوجه عام . وبحلول الربع الثانى من القرن العشرين لم تعد فرصة الحصول على التعليم العالى مشكلة فى البلاد الغربية ، برغم أن بعض الكليات المهنيـة كانت أبطأ من غيرها فى السماح بالتحاق النساء بها ، وغالبا ما إستمرت أشكال بارعة من التفرقة تشعر النساء بأنهن لسن موضع ترحيب . وفى اليابان حيل بشكل فعال دون التحاق النساء بالجامعات ، وذلك من حيث الواقع ، وان لم يكن من الناحية النظرية ، الا بعد الحرب العالمية الثانية ، ذلك أن المدارس الثانوية التى كان لابد أن يمر بها الطالب فى طريقــه الى الجامعة لم تسمح الا بالتحاق الأولاد ، ولكنهن التحقن بعدد من مؤسسات التعليم العالى للنساء .

كان السـمـاح بالالتحاق بالمعاهد العالية التى تعد طلابهـا للفنون والآداب والمهن الحرة أسهل منه بالنسبة الى المدارس المهنية الفنية التى تقدم التدريب من أجل الحرف التى تتطلب المهارات . ولقد وجد استعراض لبلاد أمريكا اللاتينية فى عام ١٩٥٥ أنه بينما كان مسموحا للنساء فى كل مكان بدخول الجامعات على قدم المساواة مع الرجال كن مستبعدات بشكل فعـــال فى كل بلد الا واحدة ، بحكم العرف أو التعصب أو اللوائح من التدريب المهنى الذى يؤهل للمهام الحاذقة ، وذلك بخلاف الأعمال المتصلة بالتدبير المنزلى والحياكة وغيرها من المهارات النسوية التقليدية .

وفى البلاد التى وفرت التعليم الأساسى لجميع السكان فانه كان يشمل النوعين بالمثل . ولكن حيث ظلت الأمية عالية كان توفير التعليم الأولى للأولاد أكثر منه للبنات .. فقد كان عدد البنات يشكل ١٤٪ من تلاميذ المدارس الابتدائية فى الهند عام ١٩٣٧ ، ٣٤٪ فى مصر ، ٣٥٪ فى تركيا ، وفى عام ١٩٥٠ كانت النسب قد وصلت الى ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٨ على التوالى .

وكان هناك اتجاه عام نحو أخذ النظم المدرسية بالتعليم المشترك ، كمسألة مبدأ ، ولأسباب عملية أيضا ، برغم أن المعارضة من جانب المصادر الاسلامية والكاثوليكية المحافظة ظلت قوية . وكان التعليم المشترك موضع التأييد من جانب معظم المؤلفات فى التربية خلال الفترة ، وصار ضروريا من حيث التطبيق العملى بسبب صعوبة تحقيق التناوب للأولاد والبنات

فى التسهيلات المعقدة والواسعة النطاق بصـــورة متزايدة والتى تطلبها العلم الحديث ٠

(ج) المركز القانونى :

ان القيود المفروضة على النســاء المتزوجات بالنســبة الى الملكية والوصاية والمسكن والشخصية القانونية وحق التعاقد وممارسة النشاط الاقتصادى ، لم يتم القضاء عليها الا بالتدريج وببطء ٠ وحيث جرى تعديلها فغالبا ما كان ذلك نتيجة تدابير أريد بها الحد من حقوق سبق أن تمتع بها الرجال أو لحماية مصالح الأطفال ٠

ففى السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر حصلت النساء المتزوجات فى انجلترا على حق اقتنــاء الملكية بأسمائهن ، والاحتفــاظ بمكاسبهن والاشتراك مع أزواجهن فى الوصاية على أطفالهن ، وان لم تتقرر الوصـــاية الكاملة الا فى عام ١٩٢٥ ٠ وبدأت الولايات الفردية بالولايات المتحدة الأمريكية فى منح بعض هذه الحقوق أو كلها فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبانتصـــاف القرن العشرين لم يحتفظ ببعض القيود على الوصاية والحقوق على الملكية سوى عدد قليل من الولايات ٠ ووضع القانون المدنى الألمانى العام ١٩٠٠ النســـاء غير المتزوجات على قدم المســـاواة مع الرجال ، ولكن بالنسبة الى المتزوجات احتفظ الزوج بسلطان كامل فعلا على الملكية والأطفال والمسكن ٠ وظلت هذه النصـــوص بدون تغيير فى ظل جمهورية ويمار ، ولم تعدل الا بعد أن أعيد النظر فى القانون فى الخمسينات لجعله متمشيا مع القانون الأساسى الصادر فى عام ١٩٤٩ ، والذى قرر المساواة بين الرجال والنساء أمام القانون وحرم التفرقة على أساس النوع ٠

والقانون المدنى الفرنسى الذى لم يعط النساء أى حق فى التصرف فى ممتلكاتهن ، أو فى التعاقد أو رفع القضايا أمام المحاكم دون موافقــة أزواجهن ، هذا القانون ظل بدون تغيير حتى عام ١٩٣٨ ، وهذه النصوص نفسها ، كلها أو بعضها ، كانت لاتزال متضـمنة فى قوانين أغلبية بلاد أمريكا اللاتينية فى عام ١٩٥٥ ٠ غير أن ثمانية من بلاد أمريكا اللاتينية أعادت النظر فى قوانينها بقصد ازالة أو تعديل هذه القيود ؛ وسنت بلاد عدة التشريع ، وكان أصلا لمصلحة الأطفـال ، الذى قيد سـلطة الأب فى التصرف فى ملكية الأسرة وزاد من حقوق الأم على الأطفال ؛ وفى الاتحاد السوفييتى أزال الدستور السوفييتى الأول كافة القيود القانونية ؛ وكذلك نصت دساتير الديموقراطيات الشعبية فى شرق أوربا على المساواة الكاملة فى المركز القانونى ٠

وباستثناء البلاد التى كان فيها القانون يؤيد مبادىء الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كما فى ارلندا وبعض بلاد أمريكا اللاتينية ، فان قوانين الطلاق فى البلاد الغربية تحررت بوجه عام ، وأزيلت الفوارق بين الرجال والنساء فى الشروط اللازمة للطلاق • وكانت وجهة النظر الكامنة وراء الكثير من هذه المراجعات تطابق وجهة نظر قوانين الطلاق فى السويد والنرويج والدنمرك التى سنت فيما بين عامى ١٩١٥ ، ١٩٢٠ بعد دراسة مستفيضة قامت بها لجنة مشتركة • هذه القوانين الاسكنديناويه أريد بها صراحة المحافظة على الطابع الأخلاقى للزواج باعتباره اتحادا مبنيا على العطف والحب والثقة المتبادلة ، وجعلت موافقة الطرفين سببا أساسيا لحل رابطة الزواج ، حيث يوجد خلاف عميق ومستمر •

وفى المناطق الاسلامية ظل مركز النساء القانونى بدون تغيير ، الا فى تركيا حيث حل القانون المدنى الصادر فى عام ١٩٢٥ محل القانون الاسلامى ، ووضع الرجال والنساء على قدم المساواة بما فى ذلك الغاء تعدد الزوجات والتسوية فى شروط الطلاق • وقدمت مقترحات فى أندونيسيا وباكستان بشأن قوانين للزواج فى اطار القرآن الكريم ، تحمى الزوجة بالنص على الشروط التى بمقتضاها يمكن قبول الطلاق أو الزواج الثانى وتتطلب قرارا من المحكمة قبل أن يصبح أى من الأمرين قانونيا ، ولكن لم يسن أى قانون من هذا القبيل فى أى بلد أسلامى حتى عام ١٩٥٦ • وقرر دستور الهند والتشريعات اللاحقة له المساواة القانونية الكاملة للنساء الهندوكيات فى مسائل الملكية ، وحقوق الزواج ، ومسئولية الوالدين وسلطتهما •

(د) الحقوق والفرص الاقتصادية :

كان جوهر مركز النساء المتغير يكمن فى دورهن الاقتصادى ؛ اذ بدون وسائل محتملة للكسب المستقل فان مركزهن فى المجتمع الصناعى لايمكن أن يكون سوى مركز شخص تابع • وكان توظيفهن يشتمل على مشكلات ثلاث : فرصة التدرب على الالتحاق بالمهن التى تطلبت المهارة وأجرها طيب وتحمل معها مكانة وكرامة ، المساواة فى الأجر وانتفاء التفرقة فى التوظف فى جميع المستويات ، وظروف عمل مناسبة ، والتحرر من سوء الاستعمال •

ونجحت نساء رائدات فى دخول مهنة بعد أخرى كانت تعتبر ميدانا خالصا للرجال ، وغالبا ما كان النجاح على حساب الكفاح الشخصى

والتضحية الشخصية • ففى أوربا وأمريكا الشمالية مهدت النساء أولات العزم ، الطريق خلال القرن التاسع عشر وأوائل سنى القرن العشرين • وفى منتصف القرن العشرين كانت نساء ممتازات من الأسيويات رائدات بالمثل فى تمثيل بلادهن دبلوماسيا ، والاضطلاع بالخدمة فى وزارات بلادهن ، ومزاولة الطب أو القانون أو الهندسة • هؤلاء كن شخصيات بارزات تغلبن على العقبات وكسبن رضاء النفس والتقدير الخارجى ، مما يكون من نصيب الرائد •

لكن اذ مرت المرحلة المبدئية ، وزاد عدد من زاول المهن من النساء ، فان مركزهن غالبا ما أصبح غامضا • واستمر التعصب والاتجاهات الاجتماعية السلبية ، ووجد الكثير من النساء أن عليهن مضاعفة الجهد كى يظفرن بالاعتراف الممنوح بسهولة للرجال ، دون أن يتمتعوا بمركز الرواد أو بضروب الرضاء التى يشعرون بها • والمنظمات النسائية التى سبق أن أيدت وهللت للنساء الأول فى كفاحهن من أجل اختراق الحواجز المبدئية، لم تكن تبالى بالصعاب التى استمر النساء يلاقينها فى الحصول على عمل ملائم أو ترقية • ولم ينظر الرجال ولا النساء الى المرأة العدوانية على أنها طراز من الشخصية مستحب •

وأصبحت النساء المشتغلات بالمهن أقل استعدادا من الرائدات للنضال من أجل حياة عمل ، اذا كان ذلك يعنى التضحية بزواج وبيت ، وحاولن بوجه عام الجمع بين الاثنين • وفى أفضل الحالات كانت المرأة التى تزاول مهنة ، ولها بيت وأسرة تحمل عبئا مزدوجا ، وكان لابد لها من قوة استثنائية كى تتمكن من أن تعطى حياتها العملية نفس القدر الكبير من الجهد الذى كان يخصصه زميلها الرجل لعمله • فاذا كان زوجها يعتبر نجاحها تهديدا منافسا لمركزه ، فان حياتها العملية يمكن أن تعرض زواجها للخطر • وغالبا مالم يكن فى امكانها الاعتماد على الخدم لرعاية بيتها وأطفالها كما استطاع أن يفعله بوجه عام النساء الرائدات ؛ ذلك أن الخدمة المنزلية لم تعد وفيرة أو رخيصة • ووجد كثير من النساء ممن حصلن على تدريب يؤهلهن لاحتراف مهنة أن من الضرورى وقف حياتهن العملية عندما يكون أطفالهن صغارا ، ولكنهن يلاقين صعوبة كبيرة فى العودة اليها بعد انقضاء سنوات • وكان أصحاب الأعمال يترددون بدورهم فى عرض أفضل الفرص على الشابات بسبب توقعهم أنهن لن يبقين فى العمل الا لفترة وجيزة • ففى منتصف القرن لم تكن نساء البلاد الغربية قد حلت المشكلة الأساسية ، وهى كيفية الجمع بين حياة عمل ومسئوليات بيت •

وفى الاتحاد السوفييتى حيث كان النساء يشكلن مايقرب من نصف القوة العاملة فى المصالح والمكاتب ، ويشكلن نسبة أكبر من الاخصائيين المدربين ومن المشتغلين فى المهن ، وخاصـــة فى الطب ، خففت مختلف المعونات والخدمات التى وفرتها الدولة من أعباء البيت الواقعة على كاهل النساء الموظفات • فازداد توسيع نطاق نظام المقاصف للتقليل من الحاجة الى العمل المنزلى ، وتوافرت دور الحضانة ورياض الأطفال للأطفال قبـــل بلوغهم سن الالتحاق بالمدرسة • وقلل من المسئوليات المباشرة الواقعة على عاتق الأم العـــاملة ازدياد عـــدد المدارس الداخلية ، فضـــلا عن ترتيبات للاشراف على الدرس واللعب بعد المدرسة • كل هذه التسهيلات جعلت مواجهة مطالب كل من المهنة والبيت أقل صعوبة بالنسبة الى النســـاء السوفييت منها بالنسبة الى النســـاء فى البلاد الأخرى • وفى جمهورية الصين الشعبية سار نظـــام الكوميونات خطوة أبعد نحو التخفيف من مسئوليات النساء المنزلية وتمكينهن من التفرغ للعمل خارج البيت •

وفى جميع البلاد الصناعية عجلت ضروب النقص فى الأيدى العاملة خلال الحرب بالاتجاه الى استخدم نسبة كبيرة ومتزايدة من جميع النساء للعمل خارج البيت ، على الأقل خـــلال فترة ما من حياتهن • فقد فتحت الحرب العالمية الأولى ميادين جديدة لتوظيف النساء على نطاق كبير ، وكان التأثير الناجم من الحـــرب العالميـــة الثانية أشد ظهورا • وأكدت ظروف العمالة الكاملة خلال السنوات العشر التالية للحرب الثانية أنماطا جديدة من العمالة ، ربما كان يجرى التخلى عنها لو أن الحرب أعقبها كساد •

وتنقسم النساء الموظفـــات فى البـــلاد التى لم تأخذ بالتصنيع الى مجموعتين رئيسيتين : عدد صغير من المشتغلات بالمهن خرجن من الصفوة المتعلمة ، ومجموعة كبيرة من عاملات المصانع ، تنتمى الى أفقر العناصر فى السكان وأشدها حاجة • كانت الأولى تضم الرائدات ، وغالبا ما كانت الأخيرات من نتـــاج الاضطراب الاجتماعى : اللاجئات ، الأرامل ، الأمهات غير المتزوجات أو أعضاء جماعة مهضومة الحقوق • ولم يكن يسمح لجمهرة النساء فى البيوت المحترمة أو يتوقع منهن أن يعملن أو يتحركن فى حرية فى المجتمع الأكبر • ولم تظهر علامات عما يقرب من نمط التوظف الذى نشأ فى البلاد التى تصنعت ، الا عندما بدأت هذه المجموعة الأخيرة فى الظهور •

وباستثناء الاتحاد السوفييتى والديموقراطيات الشعبية حيث كانت المساواة فى الأجر اذا تساوى العمل هى السياسة المقررة ، كانت أجور

النساء فى الغالب دون أجور الرجال · فمن جهة كن يزاولن أعمالا جرت التقاليد على اعتبارها ضئيلة الأجر - فى صناعات مثل المنسوجات حيث معدلات الأجور منخفضة نسبيا ، وفى الأعمال التى لاتتطلب المهارات وأجرها ضئيل ، وغالبا ماكن مستبعدات من الحرف التى تتطلب مهارة ، وذلك بحكم قواعد للتلمذة الصناعية تحول بينهن وبين هذه الحرف ، أو بسبب عدم حصولهن على التدريب اللازم ، ونادرا ما كن يرقين الى مراكز الاشراف · وبالاضافة الى هذا فان معدلات الأجور المقررة للعمل الحكومى فى البلاد الأوربية والمتفق عليها فى العقود الجماعية بين أصحاب الأعمال والنقابات ، كانت تحدد فى العادة فوارق على أساس النوع · كانت الفوارق الرسمية فى الأجور نادرة فى الولايات المتحدة ؛ اذ لم يكن لها وجود أبدا فى الخدمة المدنية ، وكانت قليلة الحدوث فى العقود الجماعية مع النقابات، ولكنها كانت شائعة من الناحية العملية · وكان المبرر لهذه الاختلافات الافتراض بأن العمال الذكور يعولون تابعين لهم ، وذلك بخلاف الاناث · الا أن الدراسات عن النساء الموظفات أظهرت باستمرار أن نسبة كبيرة منهن كن يعلن أطفالا ، أو آباء وأمهات ، أو أقارب آخرين ·

وجاء التغيير نحو مزيد من المساواة فى الأجر ، ببطء فى البلاد الأوربية · ففى عام ١٩٢٥ قبلت الخدمة المدنية فى السويد مبدأ تساوى الأجر ، ولكن بعد ذلك بثلاثين عاما كانت لا تزال فى طريقها الى ازالة نواحى التفاوت · وعقود المساومة الجماعية فى البلاد الأوربية ظلت بوجه عام تماما تنص على الفوارق · وفى عام ١٩٥٥ بدأت الحكومة البريطانية خطوات متدرجة لازالة الفوارق فى الأجور فى الخدمة المدنية وبالنسبة الى المدرسين فى عام ١٩٦١ · وفى عام ١٩٥٥ كانت تسعة بلاد قد أقرت الاتفاق المتعلق بتساوى الأجر وهو الاتفاق الذى أعدته منظمة العمل الدولية فى عام ١٩٥١ وسنت التشريع اللازم أربع عشرة ولاية بالولايات المتحدة الأمريكية وثلاث من المقاطعات الكندية · ولكن شكا أصحاب الأعمال الفرنسيون من أن قبول فرنسا للاتفاق الذى أعدته منظمة العمل الدولية وضعهم فى مركز سيىء فى المنافسة مع البلاد الأخرى حيث ظل تفاوت أجور النساء سائدا ·

ومالت البلاد التى بدأ فيها النساء يدخلن سوق العمل بأعداد كبيرة حوالى منتصف القرن الى تقبل مبدأ تساوى الأجر ، ولكنها فى الغالب لم تنفذه عمليا · وكانت التجربة فى أمريكا اللاتينية مؤشرا الى المشكلة · فبرغم أنه كان لدى عدد من بلاد أمريكا اللاتينية قوانين تقضى بتساوى الأجر عند تساوى العمل كانت أجور النساء فى التوظف الصناعى أقل من أجور الرجال بنسبة تتراوح بين ٢٠ ، ٥٠٪ · وعملت القيود المفروضة

على فرص التوظف والتدريب الفنى على الهبوط بالأجور فى الوظائف التى كانت تعتبر من « عمل النساء » بوجه خاص ، كما أسهم فى هذا الموقف عدم كفاية التفتيش ،والافتقار الى نظام سليم لتقييم مايشـــكل « العمل المتساوى » • وكان لعوامل مشابهة أثرها فى أماكن أخرى •

واشتملت معظم تشريعات العمل التى سنت ووسعت خلال هذه الفترة على نصوص أريد بها حماية النساء العاملات ضد العمالة المتقلبة ، وقضى الكثير منها بمنح أجازة فى حالة الوضع • ان الاتفاقات التى أقرتها منظمة العمل الدولية ، وتشمل حماية الأمومة (١٩١٩) ، وتحريم اســتخدام النساء فى التعدين أو غيره من الأعمال تحت سطح الأرض (١٩٣٥) وتحريم العمل الليلى للنساء (١٩٤١ ، وأعيد النظر فيه فى ١٩٤٨) • هــذه الاتفاقات صدقت عليها ١٨ ، ٣٥ ، ١٦ بلدا على التوالى حتى عام ١٩٥٧ •

وكانت أكبر مجموعة متفردة من النساء العاملات تتكون ممن يزاولن الخدمة المنزلية • وجرت التقاليد على اعتبارها الحرفة التى فيها يحصل النساء على أقل أجر ، ويشتغلن أطول وقت ، ويكن أقل تمتعا بالحماية ضد الهوى وسوء الاستغلال من جانب مخدومهن ، وغالبا ماكن مستثنيات من نصوص القوانين العمالية وضمانات الأمن الاجتماعى • وفى البلاد الصناعية أتاح خلق ميادين بديلة للتوظف فرصا جديدة رحرت الكثير من النســـاء من الضرورة التى تقضى عليهن بالعمل فى بيوت الغير ، كما أن سحب أعداد كبيرة الى العمل بالمصانع وغيره حسن مركز المساومة لدى من ظل منهن يزاولن الخدمة المنزلية • وبرغم أن العاملات فى البيوت واصلن عموما الاشتغال ساعات أطول وبغير انتظام ، والحصول على أجور أقل منها فى أنواع العمالة الأخرى ، فان الأجور ارتفعت وقلت ساعات العمل وأصبحت ظروف العمل أكثر انتظاما • وبمرور الوقت مد التشريع الاجتماعى المطبق على العمال الآخرين ، بحيث شمل عاملات المنازل ، بما فى ذلك مزايا الأمن الاجتماعى والحد الأدنى للأجور ، وانضممن الى النقابات •

كان هذا بالنسبة الى نساء الطبقة الوسطى يعنى بوجه عام خسارة الخادمات اللائى يســـاعدنهن فى العمل المنزلى ؛ اذ لم يعد فى وسعهن استخدام أحد بمجرد الاشارة وبمبلغ صغير ، ولم يكن فى وسعهن دفع أجر يتيح عيشة لائقة مقابل يوم عمل منتظم • ولكنه بالنسبة الى ملايين غيرهن من النساء ، كان يعنى فرصة كى يحيين حياتهن ويعنين ببيوتهن • لقد كان القضاء التدريجى على الخادم المنزلى الرخيص من أعظم المؤثرات التى أدت الى الصبغة الديموقراطية فى هذا القرن ، بالنسبة الى نساء البلاد التى تصنعت •

(هـ) صحة الأم :

كان التغيير فى ظروف الحمل ، وفقا للمصطلحات الانسانية أشد التطورات ثورية فى حياة نساء القرن العشرين • لقد ظل الجنس البشرى قرونا يعيش فى ظل الافتراض بأن النساء سوف يحملن ، وبصورة متكررة معرضات للألم وخطر الموت ، وأن نسبة كبيرة من الاطفال الرضع وعددا بالغ القدر من الأمهات سوف يموتون • وحتى خلال القرن التاسع عشر امتلأت المقابر بجثث الرضع ، وغالبا بقبور الأمهات ممن توفاهن الموت عند الوضع •

ان ضروب التقدم فى المعرفة الطبية وانتشار الخدمات الصحية بالنسبة الى الأمهات ، والأطفال أزالت معظم ما تنطوى عليه الولادة من ألم وخطر ، وقللت الى حد كبير من احتمال موت الوليد • وبانتصاف القرن العشرين ، وفى المدن ومعظم المناطق الريفية بالغرب ، وفى أية أماكن بالعالم كانت التسهيلات الصحية الحديثة موجودة فيها ، كان فى امكان النساء الاعتماد على حمل مأمون ، بمنع المرض أو الحوادث من مصادر أخرى ، وأن يضعن أطفالهن فى رحاب المستشفيات التى تكفل الوقاية من العدوى ، والاسعافات الطبية العاجلة لانقاذ حياة الأم والطفل فى حالة وجود مضاعفات • وبذا كن فى مركز يسمح لهن بتحديد الفترة التى تنقضى بين ولادة وأخرى ، وتحديد عدد الاطفال الذين يردن انجابهم وتربيتهم • وفى بعض الأماكن مثل اليابان كان فى امكانهن منع حمل لايرغبن فيه ، وذلك بوسائل مأمونة ، برغم أن القانون فى معظم البلاد كان لايشجع على ممارسة الاجهاض أو يحرمها ، وبذلك جعلها غير مأمونة • وصحب هذه التطورات تغيير فى الاتجاه جعل الولادة فى نطاق السيطرة العملية عليها وأبعد العملية من نطاق عالم القدر •

وترتب على نظام الأسرة الصغيرة وازدياد الاحتمال بأن يبقى الأطفال المولودون على قيد الحياة تأثير مزدوج قلل الى حد كبير عدد السنوات التى كان النساء يقضينها فى الحمل ، وبذلك توفر شطر أكبر من حياتهن لأنشطة أخرى • وهذا جعل فى الامكان توسيع دورهن الاقتصادى ، فضلا عن مشاركتهن فى مجالات أخرى من الحياة الاجتماعية •

(و) المركز الاجتماعى :

كل هذه التغييرات جاءت للنساء بحرية اجتماعية جديدة وطمست الخطوط الفاصلة بين عالمى كل من النساء والرجال فى المجتمع •

وهاجم رواد الحركة النســائية ، الانقســام الحــاد الذى قصر جميع النشاط الاجتماعى خارج البيت على الرجال ، واحتفظ لهم بالمقاهى والحانات والألعاب الرياضية والنوادى ، وسمح لهم بالجرى وراء الاشباع الجنسى خارج البيت ، على حين قصر النساء على العمــل المرتبط بالبيت وألزمهن بقانون جامد للأخلاق الجنسية ٠هوجم هذا الانقسام بوصفهمصدرا للحطة والزراية ولكن الذى أثر فى مركز النساء الاجتماعى لم يكن الهجمات النسائية أو محاكاتهن مظهر الذكور وسلوكهم ، ولكن الأحرى أن الذى أثر كان المدارس والوظائف التى أخرجت النساء من البيت ، والتراخى العام الذى دخل على العادات الرسمية وقواعد السلوك المبنية على المركز وموقفا أكثر تحررا ازاء الجنس ، وتضييقا لنطاق البيت ٠

غير أنه بتحقيق الحرية الاجتماعية والمساواة النسبية فى المركز ، وجد النساء الغربيات أنفسهن فى موقف مبهم ٠ كان مبدأ المســاواة قد رسخ فى اطــار مذهب الفردية الديموقراطية ٠ ووجه النظام المشترك من التعليم البنات والأولاد نحو نفس الفكرة عن تنمية قدراتهن واهتماماتهن الى أكمل حد ، ودعت أبواب التعليم العالى المفتوحة أمام الفتاة الى متابعة هذه التنمية الى الحد الذى تؤدى اليه قدراتها ، وأتاحت فرص التوظف اختيار الحرفة وفرصة كسب عيشها ، وكان المتوقع منها أن تفهم المشكلات العامة، وأن تدلى بصوتها وتشترك فى الحياة العامة كشخص مستقل ، واختلطت بحرية مع الأولاد وكان فى امكانها أن تختار رفيق حياتها ، أو تؤثر عدم الزواج ٠

ولكن كان المتوقع منها أن تتزوج وتكون أسرة ٠ وعملت نظريات علم النفس التى جاء بها فرويد على تقوية الفكرة القائلة بأن المرأة التى تضحى بالزواج من أجل حياة عملية انما تفعل ذلك لعجزها عن أن تحيا حياة عادية، وشددت هذه النظريات على دور الأم وأهمية التجربة المبكرة فى تربيــة الطفل ٠ وكان المتوقع منها أن تهب أطفالها الحب والأمن والتنشئة الذكية التى تعلمت أنها من حقهم ، وكانت أكثر ادراكا من الأجيال التى سبقتهــا للخسارة التى يمكن أن تلحقها بشخصية الطفل اذا لم تحسن القيام بدورها كأم ٠ وكان المتوقع منها أن تكتسب مركزها من مهنة زوجها ومركزه ، وأن تساعد فى المحافظة عليه ، وكان تشجيع تقدمه وارتقائه من مسئولياتها الأولى ٠

وتجلى الصراع الباطنى والقلق بالنسبة الى القيم التى أوجدتها هذه الثنائية أو الازدواج فى شقاق مستمر أو توتر بين المرأة بوصفها عاملة وبينها هى نفسها بوصفها ربة البيت ، فكل منهما تميل الى أن تنظر الى

الأخرى باحتقار ، لكى تعبر عن غيرتها الباطنية ، وكلاهما تشعر بالغيرة من النساء اللائى نجحن فى الجمع بين الدورين · وبالنسبة الى النساء اللائى حافظن على حياتهن العملية وبيتهن كان العبء المزدوج ثقيلا · وكانت فرص العمل بعض الوقت قليلة بوجه عام ، ولم يكن هناك العدد الكافى من مراكز رعاية الأطفال أو المساعدات فى تدبير المنزل ، أو من المطابخ المشتركة أو غير ذلك من الأســـاليب التى يمكن أن تخفف من الجـانب المنزلى من مهمتها ، وغالبا ما كان النقص فى أمثال هذه الخدمات يعكس الفكرة القائلة بأن على الأمهات أن يلزمن بيوتهن · وبرز الصراع والمشكلة بقوة وحدة فى اجتماع لجنة مركز النساء التابعة للأمم المتحدة والمنعقد فى عام ١٩٥٥، حيث أثارت بيانات أدلى بها بعض مستشارى اللجنة غير الحكوميين نقاشا عما اذا كان فى الامكان أن تكون الأمهات العاملات أمهات صالحات ، وجعل أعضاء اللجنة يعملون لاتخاذ تدابير تجعل مواجهة النساء لواجباتهن كأمهات وعاملات فى نفس الوقت الواحد أقل صعوبة ·

وبالنسبة الى النســـاء فى البلاد الشرقية التى تمر بعملية التجديد واقتباس روح العصر ، لم يكن الصراع الباطنى أقل حدة منه بالنسبة الى نساء الغرب ؛ ذلك أن مشكلتهن كانت الى أى حد يأخذن بنمط الســـلوك الاجتماعى الغربى ، والى أى حد يتمشين مع النمط التقليدى السائد فى الشرق · ولقد تعرضن بشكل شخصى بالغ الشدة للغموض الثقافى الذى تشترك فيه المجتمعات التى تجتاز مرحلة الانتقال · وكان فى امكان الرجال فى هذه البلاد أن يأخذوا بالكثير من الاتجاهات والطرق الغربية ، دون أن يدخلوا تعديلا خطيرا على اتجاهاتهم أو مسلكهم ازاء البيت ، أو علاقاتهم بالنساء اللائى ينتمين الى ثقافتهم ، ومفهومهم عن مركز النساء · فكثير من الرجال الذين أخذوا بالحضـــارة الغربية فى الظاهر احتفظوا فى بيوتهم بقيمهم غير الغربية ، فكانوا يتزوجون الفتاة التى يختارها آباؤهم وأمهاتهم، ولايصحبون أبدا زوجاتهم فى الحفلات والاجتماعات ، ولا يمسون النمط التقليدى لسلطة الرجل وانفصال حياة الرجال عن حياة النساء · بيد أنه لم يكن فى امكان النساء اقتباس القيم الغربية دون أن يتورطن فى المشكلة المتعلقة بمركزهن ·

هذه الورطة كانت ظاهرة فى كل بلد شرقى · ففى اليابان بدا لبعض المراقبين أن أقوى أثر للتغييرات التى أدخلت خلال فترة الاحتلال التالية للحرب العالمية الثانية ، قد يكون المركز الجديد للنساء ، الا أنه بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب كان ذلك التغيير لايزال غير مؤكد · وكان ثمـة اضطراب فى العلاقات بين الأولاد والبنات ، ورد فعل بالغ ضـــد حرية

الاختلاط التى كانت موضع التشجيع فى الفترة التالية للحرب مباشرة ٠ وكان التعليم المشترك فى المستويات الثانوية والجامعية لايزال يتحسس طريقه ٠ وكانت النساء ممن حصلن على تعليم عال لايقبلن بسهولة فى المراكز المسئولة ٠ ووجد العمال الاجتماعيون أنفسهم يعالجون مواقف عائلية ، فيها الصراعات الأساسية للقيم والمفاهيم البديلة عن بنيان العائلة والواجبات تكمن وراء الاختلال الذى أصاب العائلة ٠ وكانت أكثر الأفلام وبرامج الراديو والقصص اليابانية الشعبية ، مخصصة لموضوعات من قبيل الصراع بين الحب الرومانسى وواجب الأبناء والبنات ، وحق البنت ازاء أم زوجها ، وحق المرأة فى اتخاذ القرارات الخاصة بها ، فى أن تحيا حياتها الخاصة بها ٠

وبالنسبة الى النساء الهنديات كان هناك صراع مباشر بين الأساليب التقليدية والغربية ٠ وكانت الزيجات التى توضع الترتيبات بشأنها هى القاعدة ، مع مادرج عليه العرف من أن تولى الأسر اعتبارا دقيقا للمركز الطائفى وشهرة الأسرة والمركز الاقتصادى وطوالع الزوجين ، وذلك مع انعدام الاختلاط الوثيق بين الشباب قبل الزواج ٠ والمرأة الهندية التى تتطلع الى مثل استقلال المرأة الغربية الاجتماعى ، والى نمط الزواج المبنى على الحب ، كانت تقف موقف التحدى الشديد من العادات التقليدية ٠ وقدم مهاتما غاندى مساندة قوية بتشجيع الزيجات بين الطوائف ، وتقبل حرية الفرد فى اختيار شريك حياته ٠ وبرغم هذا كان الكثير من النساء المتعلمات يترددن بين التزام الطرق القديمة أو الأخذ بالجديدة ، أو السعى وراء نوع من التوفيق بين نظم متعارضة فى أساسها ٠

وبدا ، فى ظاهر الأمر على الأقل أن أسهل انتقال الى مركز اجتماعى حديث بالنسبة الى النساء ، كان يحدث فى البلاد البوذية بجنوب شرقى آسيا وفى اندونيسيا ، برغم احتفاظ المركز المصون التقليدى بعاطفة الحنين اليه ٠ فما ان حل الربع الثانى من القرن العشرين حتى تمتع نساء تايلاند بالحصول على التعليم العالى ، وحرية الحركة ، وتنوع الأعمال وحرية الاختيار فى الزواج ٠ واضطلعت النساء الزعيمات بمهمة جعل المساواة فى المركز حقيقة واقعة من الناحية العملية ، عن طريق برنامج عريض للتنمية الاجتماعية والثقافية أريد به تمكين النساء من مسايرة أزواجهن ، وتنشيط مشاركتهن فى الأنشطة المتصلة بالرفاهية وغيرها داخل المجتمعات التى يعشن فيها ٠ وشكل الاناث فى المدارس بسيلان نسبة أكبر منها فى البلاد الهندوكية والاسلامية ، وكن أول نساء فى آسيا

يمارسن حق التصويت ، وورثت الأندونيسيات تقاليد المساواة والمشاركة، ودخل من حصل منهن على التعليم فى مجال عمل ، كان عدد المدربين من جميع الأنواع فيه قليلا ، وكان الطلب على خدماتهم كبيرا ·

وفى بعض البلاد الاسلامية ظلت مشكلة مركز النساء الاجتماعى فى منتصف القرن تدور حول مسألة العزلة · ففى باكستان سعت مجموعة من النساء ينتمين الى بيوت متعلمة ، ويتمتعن هن أنفسهن بالحرية الشخصية، هذه المجموعة سعت بالوسائل التدريجية الى السير قدما بانتظام فى العملية التى عن طريقها أخذ النساء يخلعن الحجاب ، وبذا جعلن المسألة مشكلة فى ناحية ، وتفادين المشكلة فى ناحية أخرى · ففى أوائل الخمسينات رفض مدير قسم العمل الاجتماعى الذى أنشىء حديثا في جامعة البنجاب اسدال الستار في وسـط حجرة الدراسة ، وهو الستار الذى كان يفصل بين النوعين فى الأقسام الأخرى من تلك الجامعة ، مفضلا ألا يختار سـوى الطالبات اللائى يستطعن الاختلاط بحرية مع الرجال ، على حين نجد مدير مدرسة جديدة للتدريب فى الاقتصاد المنزلى يأمر ببناء سور حول المبنى، ولولا هذا لما التحق بها البنات ·

وتأرجحت الدول العربية فى منتصف القرن من نمط تأثر بالغرب بقوة فى لبنان الذى كان نصف أهله من المسيحيين والنصف الآخر من المسلمين ، وفيه كانت حرية الانتقال الاجتمـاعى هى القاعدة العامة ، وكانت أعداد كبيرة من النساء قد تعلمن فى المدارس الفرنسية والأمريكية المحلية ، الى العزلة الشديدة التى سادت فى العربية السعودية واليمن · وراحت كثيرات من المصريات المتعلمات يتنقلن بحرية فى مجتمع المـدن الرئيسية خلال السنوات الثلاثين التى أعقبت طرح أول زعيماتهن البارزات الحجاب ، ولكن ظل دعاة الحركة النسائية المصرية يشكون من أن الزعماء السياسيين الذين يتحدثون عن حقوق المصريات ، لم يظهروا فى المجتمع مع زوجاتهم · وكان المتوقع من الأسر أن تعمل الترتيبات المناسبة لزواج بناتها ، وحتى بالنسبة للبنات ممن يتلقين تدريبا مهنيا ، كان الاختيـار مقصورا فى العادة على فرصة قول « لا » أى رفض من يقع عليهم اختيار الوالدين ·

وشهد نساء تركيا تغييرا جذريا فى المركز الاجتماعى نتيجة ثورة من أعلى فى وقت كانت فيه الصفوة المتعلمة التى تأثرت بالغرب مستعدة له · وفى منتصف القرن كانت البقية لاتزال تسعى الى اللحاق بهذا التغيير · كانت التركيات البارزات يشغلن مراكز هامة ، وحققن انجازات جـديرة بالتقدير · ففى عام ١٩٤٨ كان عدد البنات فى الكليات الجامعية بتركيا

أكبر منه فى أى من البلاد التى قدمت هذه المعلومات الى اليونسكو ، باستثناء الولايات المتحدة ، فكانت النسبة ١٥٪ فى تركيا مقابل ٢٤٪ فى الأخيرة ، ٣ ـ ٥٪ فى الجامعات الأوربية . ولكن أخذت التركيات العاقلات يعدن النظر فى معنى « الأسلوب الغربى » الذى أخذن به ، وصممن على أن يكن « غربيات » ، ولكن أردن تجنب المحاكاة فحسب . ورأى بعضهن علامات رد فعل ـ بعث دينى قد يهدد مركزهن ، استئناف لبس الحجاب فى بعض القرى ، امكانية رد فعل سياسى عام . وبالنسبة الى الأخريات بدا كأن الثورة أقل كمالا مما بدت فى ظاهر الأمر ، وأن العملية كانت لا تزال مستمرة .

وكانت نساء الصين من بين الأسيويات اللائى تعرضن لأشد تغيير جذرى ؛ ففى الشطر الأول من القرن وجدت الصينيات ممن تلقين تعليما غربيا أنهن محصورات بين تطلعاتهن الجديدة وقوة نظام الأسرة الصينية بما يترتب عليه من التزامات يفرضها على الأبناء . وزاد الصراع حدة كلما زادت الهجمات على الأسرة الكونفوشيوسية ، بعد حركة « المد الجديد » . وعندما تولى الشيوعيون السلطة جعلوا تحرير النساء الصينيات من طغيان الأسرة هدفا رئيسيا ، وتضمن البرنامج المعلن الاختيار الشخصى فى الزواج ، والاستقلال ، والتعليم والمشاركة القائمة على أساس الزمالة . وبخطوات سريعة لم يحرروا النساء من رضوخهن للأسرة فحسب ، بل ومن كثير من مسئولياتهن العائلية . كانت نساء الكوميونات الصينية تمثل تغييرا جذريا فى المركز شبيها بما تعرضت له أية مجموعة كبيرة من النساء خلال القرن العشرين .

وهكذا بانتصاف القرن كان النساء فى كل مكان قد حققن الكثير من الأهداف التى سبق أن عبرت عنها المدافعات عنهن ، والتى كانت زعيماتهن يسعين اليها . ولكن مركزهن ودورهن وتقويمهن لأنفسهن ؛ كل ذلك كان لايزال يفتقر الى الاستقرار ؛ اذ فى جميع أرجاء العالم كان الكثير من شدائد المجتمع الصناعى وعناصر القلق فيه تفرض نفسها فى غير هوادة على حياتهن .

(د) المجموعات العنصرية والطائفية التى عانت من التفرقة

شمل الاندفاع نحو الحرية الفردية والكرامة الانسانية فى القرن العشرين فى كثير من البلاد مجموعات كانت هدفا للتميز والتفرقة ، بسبب الجنس أو الطائفة أو غير ذلك من ألوان الوهن الاجتماعى ، وهى مجموعات غالبا ما منحت قدرا أقل من الامتيازات الكاملة التى تنطوى عليها

المواطنة • وعلى خلاف الأقليات الأخرى التى رغبت فى الاستقلال الثقافى داخل مجتمعات متعددة الثقافات (*) ، سعى أعضاء هذه المجموعــات الى ازالة الوصمة الاجتماعية والقيود القانونية التى وقفت حائلا دون قبول الفرد والمجموعة وارتقائهما •

ان مواقف تاريخية شتى نتج عنها وجود أمثال هــذه العناصر ، ولدت أنماط العلاقة مع المجموعات السكانية المتسلطة الموجودة فى القرن العشرين : فكان الزنوج فى أمريكا لا يزالون يعـــانون من قيود النتائج الطويلة المدى الناجمة من الغاء الرق •

وفى السباق غير المتكافىء ، مع المستوطنين الاوربيين على الارض ، جرى اخضاع الأفريقيين الوطنيين فى جنوب أفريقية ، وشاركت المجموعات غير الأوربية الأخرى فى ذلك البلد الملونون والهنود ــ فى معاناة عناصر العجز التى فرضها العنصر الأوربى فى جهوده من أجل ابقاء الأفريقيين فى حالة خضوع • وكان المنبوذون فى الهند نتاج تاريخ الهجرة الطويل من جانب الشعوب المحاربة فى شبه القارة الهندية ، مما هيأ لنظام الطوائف الهندى جهازا لاقامة وادامة العلاقات بين العناصر الأرقى والأدنى ، وخصص لهم أبغض أنواع العمل ، وكانت ضروب النقص التى أخضعوا لها وسيلة لضمان أداء المهام اللازمة لحياة القرى • وكان الايتا eta باليابان ، وهم سلالة طبقة من المنبوذين فى الأزمنة الاقطاعية قد اكتسبوا فى عام ١٨٦٨ المركز القانونى لعامة الشـعب ، ولكنهم كانوا هدف التعصـب والتفرقة الاجتماعية • وأبعد هنود أمريكا الشمالية الى معازل فى الولايات المتحدة وكندا فى أثناء توسع الاستيطان الأوربى ، ومنها برز البعض يسعون وراء المركز كمواطنين فرديين ، على حين شدد غيرهم على دعاواهم بوصـــفهم مجموعات قبلية • وعاش اليهـود قرونا ، كغير مسيحيين ، فى مجتمعات منظمة على النمط المسيحى ، وعاشوا كجاليات محصورة داخل حدود معينة فى المناطق الاسلامية ؛ وبرغم أنهم فى أوربا كانوا قد تحرروا بوجه عام من القيـــود القانونية ، فقد واجهوا مواقف واتجـــاهات تولدت فى الأزمان السابقة (**) •

ونحن نعرض هنا أنماط التقدم الذى حققته اثنتان من أمثال هذه المجموعات ، وهما الزنوج فى نصف الكرة الغربى ، والمنبوذون فى الهند،

(*) تحد فى الفصل • دراسة أمثال هذه المجموعات •

(**) انظر الفصل ٦ ، اليهودية ، والفصل ٩ عن اسرائيل •

كمثال يوضح بعض الاشكال الكثيرة التى اتخذها النضال من أجل المواطنة الكاملة الفعالة فى أجزاء شـــتى من العالم . ووقع الاختيـــار على هاتين المجموعتين بسبب حجمهما . وبسبب نواحى الاختلاف والشـبه المحيطة بمركزهما وتغيره ، ولأن اهتمام العالم بمصيرهم كان موضع الاحساس به والتعبير عنه خـــلال هذه الســنوات . وتحت تأثير الاتجاه العالمى نحو المساواة شددت أمثال هذه المجموعات على جهودها من أجل اكتساب مركز من الدرجة الأولى داخل مجتمعاتهم . وباستثناء اليهود الأوربيين ، وهو استثناء مفجع ، والشعوب ذات اللون الداكن فى اتحاد جنوب أفريقية (*) فان هذه المجموعات حققت بوجه عام تقدما له شأنه نحو هذا الهدف خلال النصف الأول من القرن العشرين .

١ ـ الزنوج :

كان الزنوج أكثـر الناس خضـــوعا للتفرقة ، وهم الذين اتخذت أمانيهم فى كل مكان صورة رغبة فى اكتساب مركز على قدم المساواة مع المواطنين الآخرين ـ « المواطنة من الدرجة الأولى » . بالفعل ليس ثمة مكان آخر خارج أفريقية كانوا يطمحون فيه الى الهوية الثقـافية والانعزال على أساس الجنس « فحيث أوجدوا نظما وتعبيرات عن الهوية مستقلة ، كان السبب أنهم اضطروا الى هذا ، أو أنهم فعلوه باعتباره وسيلة للعمل من أجل المساواة الكاملة ، وهذه النظم من قبيل الكنائس أو الصـــحافة أو المنظمات القانونية ومنظمات الرفاهية ، اقتبست الشكل الذى اتخـــذته من النظم المماثلة لها فى المجتمع الأكبر .

وكانت الأغلبية الكبيرة من الزنوج أفريقية ، تعيش فى الأمريكتين ـ أمريكا الشمالية ، جزر الكاريبى وساحل أمريكا الوســطى والجنوبية المطل على البحر الكاريبى ـ حيث جىء بهم فى الأصل كعبيد . وكان مركزهم فى مستهل القرن العشرين يعكس تاريخهم فى كل من هذه المناطق .

(أ) الكاريبى وأمريكا اللاتينية :

كان العبيد الزنوج فى جزر الكاريبى يشكلون جمهور القوة العاملة فى مزارع قصب السكر التى كانت تدار بتوجيه حفنة من أصحاب المزارع ورجال الادارة . وفى القرن العشرين كان الشطر الأعظم من سكان معظم

(*) انظر الفصل ٦ ، جنوب أفريقية .

هذه الجزر من السلالة المباشرة للعبيد الزنوج ومن المولدين الذين جمعوا بين أسلاف زنوج وبيض • وكان هذا يصدق أكثر مايصدق على هايتى التى طردت سادتها الفرنسيين بالقوة فى عام ١٧٩٨ ، ومعهم سـكانها من البيض هنا كانت صفوة من المولدين تواجه الجماهير السـوداء ، وكان البيض الوحيدون بالفعل هم التجار السوريين الذين حصنوا مراكزهم فى اقتصـاد الجزيرة • وفى الجزر الأخرى التى اسـتمرت تخضع للحكم الاستعمارى بقى عنصر أبيض متسلط؛واذ تحركت الجزر نحو الحكم الذاتى، وحصلت عليه انتقلت الزعامة الى ممثلى الأغلبية الزنجية التى كانت لها الغلبة فى جزيرتى كوبا وبورتوريكو اللتين كانتا جزءاً من الامبراطورية الأسبانية • ولم يقتصر العنصر الأبيض على عدد قليل من أصحاب المزارع ، ولكنه هاجر اليهما بأعداد كافية ، بحيث شكل جزءا كبيرا من السكان • ولما لم تكن العزلة العنصرية أبداً من الخصائص المميزة للأسبان ، فقد حدث تزاوج كبير بين العناصر البيضاء والزنجية الى حد أنه عندما أطل القرن العشرون كان لون هؤلاء السكان يتراوح بين السـواد والبياض ، دون وجود مايميز بينهم بدقة • ولأسباب تاريخية مال العنصر القاتم اللون الى أن تكون له الغلبة فى مناطق المزارع بالساحل وفى الصفوف الاقتصادية الدنيا ، على حين كانت العناصر البيضـاء نوعا أوفر عددا فى الداخل ، وسادت بوجه عام فى المستويات الاقتصادية العليا •

وكان الموقف شبيها بذلك فى بلاد أمريكا الوسـطى والجنوبية المطلة على الكاريبى • فمن المكسيك الى البرازيل كانت أغلبية السكان من ذوى اللون الداكن الذين يرجعون بأصولهم الى الرق فى المزارع المحلية أو الذين جاءوا كعمال فى المزارع من جزر الكاريبى فى الفترة التى أعقبت أزمان الرق • وفى بعض المناطق كانت أغلبية السـكان فى الداخل من الأوربيين ، كما فى كوستاريكا ، وكانت الأغلبية فى غيرها من الهنود كما فى جواتيمالا ، وبصورة أعم كانوا مزيجا من الدم الهندى والأوربى كما فى المكسيك ، أو من الدم الأبيض والزنجى كما فى بنما •

ولم يكن فى أى من هـذه المناطق خط دقيق يفصـل بين البيض والملونين • بل كان هناك تدرج فحسـب ، أى أنه ثمة مجموعات ثلاث متميزة المعالم : بيضاء ومولدة وسوداء • كان هناك تحيز للون يعبر عنه بطرق بسـيطة ، وغالبا ما كانت خبيثة بارعة ـ استبعاد ذوى اللون الداكن من النوادى الراقية ، وميل الى تفضيل صاحب البشرة الأقل سواداً اذا تقدم اثنان لنفس الوظيفة ، أو التعليقات الخاصة السافرة أو الهامسة اذا وصل أشخاص من ذوى اللون الداكن الى مراكز بارزة • وأقامت فنزويلا

حاجزا ضد الهجرة من جزر الكاريبى ، وأظهرت البرازيل تفضيلا للمهاجرين الأوربيين • ولكن لم يفرض على الزنوج فى أى من هذه المناطق ذات الخلفية الأسبانية والبرتغالية أشكال معينة من التفرقة ، كما لم يكن سعيهم وراء مركز الدرجة الأولى فى المجتمع قائما على وعى بالذات ، فحيثما وجد الوعى الذاتى العنصرى والثقافى فى هذه البلاد ، كان مرتبطا بالعناصر الهندية الوطنية ، لا الزنجية ، من السكان •

(ب) الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية :

مركز الزنوج الأمريكيين التاريخى : كان الموقف مختلفا جدا فى الولايات المتحدة ، حيث كان ثمة خط لونى واضح يميز الأقلية الزنجية • هنا خلال القرن التاسع عشر شن الزنوج نضالا واعيا فى سبيل المواطنة من الدرجة الأولى • ان اطار هذا النضال هيأته الظروف التاريخية المرتبطة بدخولهم فى الحياة الأمريكية ، والأساس القانونى والأيديولوجى الذى قام عليه المجتمع الأمريكى ، وتأثير التطور الاقتصادى الأمريكى ، وعقيدة عنصرية صيغت فى الأصل للتوفيق بين الرق والديمقراطية مع مابينهما من تناقض ، وهى عقيدة ظلت مبقية على خط لونى تعسفى •

وعلى نقيض الموقف فى جزر الكاريبى لم يشكل العبيد الزنوج الذين جىء بهم الى أمريكا الشمالية مجموعة كبيرة من العمال يتولى أمرهم حفنة من الملاك أو الملاحظين البيض • فاذا استثنينا مناطق محدودة قليلة : جزر صغيرة على مقربة من الساحل الجنوبى الشرقى ، ثم بعد ذلك بعض الأرض الغنية فى دلتا المسيسيبى — كان العبيد الزنوج متناثرين مع المستوطنين البيض • فكانوا يشتغلون فى مزارع مجاورة لأخرى فيها يشتغل عمال بيض ممن جىء بهم بمقتضى تعاقد ، وعندما أتم الأخيرون فترة خدمتهم حصلوا على أرض ، وبمرور الوقت فانهم غالبا ما اقتنوا عبدا أو اثنين • ففى وقت الحرب الأهلية فى عام ١٨٦٠ كان ربع العبيد فقط يعيشون فى مزارع يشتغل فى الواحدة منها خمسون عاملا أو أكثر ، على حين كان مثل هذا العدد يعيش فى مزارع تضم الواحدة منها عشرة من العمال العبيد أو أقل • ومن مجموع سكان الولايات المتحدة فى القرن العشرين كان الزنوج يشكلون ١٠٪ تقريبا ، ولم يشكلوا فى أية ولاية أكثر من ٣٠ — ٤٠٪ من السكان •

وبحكم التفرق على صورة مجموعات صغيرة ، لم يكن لدى العبيد الذين استوردوا الى المستعمرات فى أمريكا الشمالية أى أساس للاحتفاظ

بعلاقات ماضيهم الافريقي أو لغته أو ثقافته ، وجرى العرف بوجه عام في المزارع الكبيرة على أن يحصلوا على العبيد من أقاليم مختلفة ، بحيث لم يكن في الامكان أن يتضامنوا ضد سادتهم على أساس لغة مشتركة أو روابط قديمة ٠ ولم يكن هناك نقل للثقافة الأفريقية على نحو ما حدث بين أهل هايتي الذين كانت أغانيهم وأساليب رقصهم في القرن العشرين ، لاتزال تذكرهم بموطنهم في داهومي ، وان وجد علماء الأجناس البشرية آثارا أفريقية قليلة في حديث بعض المناطق وخرافاتها ٠ وكان الزنوج الأمريكيون من الناحية الثقافية نتاج البيئة الأمريكية ، فاتخذوا أفكارهم وقيمهم وأنماط سلوكهم من سادتهم وجيرانهم البيض ، وكيفوها لتلائم تجربتهم باعتبارهم أقلية يستغلها الآخرون داخل مجتمع ديموقراطي ٠

لم ينظر الزنوج في أمريكا قط الى الرق على أنه جزء من نظام الطبيعة ، أو أنه حالة دائمة ٠ فبرغم أن الأغلبية لم تتمكن طيلة أكثر من ٢٠٠ عام من النجاة من حظهم كعبيد ، وبرغم ما أظهر الكثيرون من ولاء فردي قوي لسادتهم الفرديين ، وبرغم أن الكثير من أنماط التبعية الظاهرية ابتدعت كسلوك واق ، فان ضروب الحطة والاذلال التي ينطوي عليها الرق لم تصبح أبدا جزءا مقبولا من نظرتهم الى الحياة ٠ وكانوا وهم يغنون « أطفال اسرائيل » الذين خرجوا من العبودية في مصر سعيا وراء «الأرض الموعودة » كأنما يغنون عن أنفسهم ٠ وعندما جاءت الحرية بصفة فردية لمن اعتقوا ، أو بصفة جماعية مع التحرير ، تشبثوا بها كحقهم الفطري وسعوا الى جعلها حقيقية تماما ٠

بيد أن العقبات التي واجهوها كانت كثيرة ، وفي مقدمتها العقيدة العنصرية التي نشأت خلال الرق لتبرير وجود ذلك النظام في مجتمع ديموقراطي في أساسه ٠ فلو كان الرق نظاما مرضيا أو مقبولا ، لما كان من الضروري عزو النقص الطبيعي الى من تصادف أن كانوا عبيدا ٠ ولكن في مجتمع أعلن أن « جميع الرجال ولدوا متساوين ووهبهم الخالق حقوقا معينة لاسبيل الى تبديلها » كان من الضروري النظر الى من يرسفون في أغلال الرق على أنهم أقل نوعا ما أو بطريقة ما من « رجال » ٠

وكان للعقيدة ، كما نشأت ، وجهان كبيران : كانت من جهة تعزو التبعية والفقر والجهل وغير ذلك من آثار الظروف المفروضة على الزنجي الى نقص كامن فيه ، وافترضت من جهة أخرى نقاء « الجنس الأبيض » من حيث سلالته ٠

وبرغم عدم تشجيع التزاوج ، كما كان الحال ، في المستعمرات

الأسبانية والبرتغالية ، حدث الكثير من التزاوج الى أن أصبح «الزنجى» الأمريكى ، كطراز طبيعى يتراوح من السواد الى لون يكاد لايمكن تمييزه عن لون الكثيرين ممن يقال لهم « البيض » • ونظرا لأنه خلال الرق اتخذ الأطفال مركز أمهم ، أصبح الزنوج يضمون الكثيرين من أطفال السادة البيض • هؤلاء وغيرهم من ذوى النسب المختلط ، أصبحوا « زنوجا » مهما كانوا قريبى الشبه بالبيض من حيث المظهر ، أو كان الجنس الأبيض هو الغالب على أسلافهم • فعلى نقيض بلاد أمريكا اللاتينية حيث كان المولد يمثل اما جزءا من التدرج من اللون القاتم الى الفاتح ، أو مجموعة وسطا محددة المعالم ، كان هناك فارق لونى واضح بين البيض وجميع من أمكن التعرف على أن من أسلافهم من كانوا من البيض • ان انعدام المنطق فى هذا الخط اللونى جعله واضحا بصورة تبعث على السخرية مما كان يقابله من معاملة من يجرى فى عروقهم الدم الأبيض والهندى ؛ ذلك أنه فى الأخيرين كانت حتى نسبة صغيرة من الأسلاف البيض تجعل فى امكان شخص أن يدعو نفسه « أبيض » •

وبعد التحرير فى عام ١٨٦٣ ، أصبح مذهب النقص العنصرى الزنجى والنقاء العنصرى الأبيض ، وهو المذهب الذى ابتدع لتبرير نظام الرق مبررا لاستمرار التعصب • ان ما له من قيمة سيكولوجية فى تهدئة الضمائر القلقة وفى أجازة السلوك الذى لا يتفق مع المبادىء التى تحكم الجوانب الأخرى من الحياة ، هذه القيمة تضمنت عقيدة النقص العنصرى المتغلغلة فى أعماق العقلية الشعبية ، وهى لم تفسح الطريق الا ببطء أمام الأثر الناتج عن الأدلة المضادة التى أسفر عنها البحث العلمى ، وأمام التجربة اليومية فى مجتمع كانت فيه أعداد متزايدة من الزنوج تضطلع بعملها بكفاية فى مراكز تتطلب مستويات عالية من المسئولية والمهارة، وأمام مفهوم الليبرالية الآخذ فى الاتساع ، وأمام الموقف العالمى المتبدل بما انطوى عليه من تغيير العلاقة بين الأوربيين والشعوب ذات البشرة الداكنة• وحتى فى منتصف القرن كان فى امكان كاتب زنجى أن ينتهى الى أنه (أى هذا المذهب) « لا يزال يشكل مقاومة التقدم الزنجى أكثر مما تشكله جميع صعاب التقدم الاجتماعى العملية مجتمعة » (*) •

غير أن العقبات العملية التى واجهها الأرقاء السابقون كانت حقيقية تماما • ففى الحرب الأهلية التى جاءت الى الزنوج بالتحرير ، سعى

(*) Margaret J. Butcher, The Negro in American Culture (New York, 1957), p. 18.

مجتمع زراعي في جوهره الى مقاومة مجتمع يزداد اتجاها نحو الصناعة . وبين الاقليمين ، الجنوب والشمال نشب الصدام حول الأساس الذى ينبغى ، طبقا له تنمية الأراضى الجديدة الواقعة الى الغرب ، وحول سياسة التعريفات الجمركية الواقية لتشجيع الصناعة ، مقابل حرية التجارة التى تحافظ على الأسواق الخارجية أمام المنتجات الزراعية . وكان انتصار الشمال يعنى انتصار النظام الصناعى . وخرج الجنوب الزراعى من الحرب ، وقد أصابته الهزيمة والفاقة .

ونتيجة لهذا كان الجنوب الذى فيه خرج الزنوج من ربقة العبودية، مجالا غير مواتٍ من الناحيتين الاقتصادية والنفسية لاندماجهم الفعال . وبقيت الغالبية الكبرى من الزنوج فى المزارع بالمناطق التى وجدتهم فيها الحرية ، فكانوا يزرعون الأرض مقابل حصص يقدمونها للملاك الذين كانوا أفقر من أن يدفعوا أجورا نقدية ، وفى مجتمعات أفقر من أن تنفق على انشاء مدارس صالحة ، وبين قوم يتملكهم السخط والحساسية بفعل الهزيمة ، ومصممين على استعادة كرامتهم وتوكيدها من جديد .

ولم تهيىء الصناعات الآخذة فى التوسع بديلا ؛ اذ كان يؤتى بالعمال اللازمين للمصانع من صفوف الفلاحين المهاجرين من أوربا ، لا من صفوف من تحرروا فى الجنوب الريفى فى أمريكا . وأهل الشمال الذين سبق أن حاربوا فى سبيل الغاء الرق كنظام ، لم يأبهوا كثيرا بأولئك الذين جعل منهم الشماليون مواطنين اخوانا لهم . وساند بعض الشماليين الارساليات التى توجهت الى الجنوب لانشاء المدارس للذين تحرروا ولأطفالهم ، ولكن معظمهم كانوا منصرفين الى التصنيع السريع لاقليمهم والى نمو الولايات الغربية السريع ، الى حد أنهم لم يهتموا كثيرا بما كان يحدث لثلاثة ملايين ونصف المليون من الأرقاء السابقين . وبعد محاولة قصيرة الأمد لفرض الظروف الملائمة للزنوج تخلوا عن الجهد من أجل التوفيق السياسى واعادة توحيد البلد المنقسم على نفسه . واذ تركت ولايات الجنوب تعالج الموقف بطرقها الخاصة ، فانها اتخذت ما استطاعت من تدابير من أجل اعادة خلق مركز منحط ومقيد للزنوج من سكانها .

وأدمج الأساس القانونى الذى يقوم عليه مركز الزنجى ، فى دستور الولايات المتحدة الذى قرر حقوق المواطنين فى ضوء المفاهيم الأساسية التى انطوت عليها ليبرالية القرن الثامن عشر . فبعد التحرير اكتسب العبيد السابقون فضلا عمن ولدوا أحرارا المواطنة الكاملة ، وألغت

الحرب الاهلية بيانا أصدرته المحكمة العليا في عام ١٨٥٦ يقضي بأن حقوق المواطنة لم يكن يراد بها أن تسرى على الملونين ، حتى ولو كانوا أحرارا • وحرمت تعديلات اضافية أدخلت على الدستور في السنوات التالية انكار حق التصويت على أسس « الجنس أو اللون أو حالة العبودية السابقة » وحرمت على الولايات حرمان أي مواطن من « الحماية المتساوية من جانب القوانين » •

غير أن بنيان الولايات المتحدة الاتحادى عقد الى حد كبير المشكلة القانونية المتعلقة بضمان حقوق المواطنة الكاملة للزنوج ، ذلك أن السلطة البوليسية العامة ، ومعظم أنواع السلطان على سلوك الأفراد ، والرقابة على التعليم ، وتحديد المؤهلات اللازمة للتصويت ، وتنظيم شروط الاستخدام ، كل هذه كانت داخلة في نطاق اختصاص الولايات • والمحاولات التى بذلها الكونجرس الاتحادى بعد الحرب الاهلية كي يكفل للزنوج حرية استخدام التسهيلات العامة من قبيل الخانات والمطاعم والنقل ، هذه المحاولات اعتبرتها المحكمة العليا خارج نطاق التشريع الاتحادى بقدر ما تطبق على تصرفات الافراد بدلا من تصرفات الهيئات الرسمية •

وفضلا عن هذا ، وحتى في داخل نطاق السلطة الاتحادية كان هناك السؤال الدقيق المحرج عما اذا كان الفصل يتمشى مع المساواة • لقد حدد الدستور كلمة « متساو » ، ولم يحدد كلمة « نفس أى نفسها » • وبرغم المعارضة البليغة من جانب أحد أعضائها أعلنت المحكمة العليا في عام ١٨٩٦ أن المطلب الدستورى بشأن المساواة يمكن تحقيقه بتوفير تسهيلات منفصلة اذا تساوت من حيث الكيف مع ما يقدم منهاللمواطنين الآخرين • وهذا القرار مكن ولايات الجنوب لمدة تقرب من ستين عاما من ممارسة العزل أو الفصل في نظمها التعليمية ، والمتنزهات العامة وتسهيلات الصحة العامة وأمثالها ، ومن المطالبة بتوفير تسهيلات منفصلة في النقل العام والخدمات الأخرى •

وبابتداء القرن العشرين كان ظاهرا أن النضال من أجل المواطنة الكاملة سوف يكون أشد تعقيدا مما بدا في أول الامر • فان ذلكالترتيب المتقن الذى ابتدعه الجنوب لاخضاع الزنوج واجه الزنجى بنمط من سلوك متوقع ومفروض بالقوة يقيم الكثير من العوائق العملية والسيكولوجية في طريق تقدمه • فاتخذ البيض الجنوبيون ازاء جميع الزنوج عادات ومواقف تستخدم مع الاطفال أو الخدم ، فينادونهم دائما وفي غير ما كلفة بأسمائهم الأولى حتى عندما يتحدث أحد مفتشى المدارس

مثلا الى مدرس فى حضور تلاميذه ويتوقعون منهم ويغفرون لهم السلوك الصبيانى أو انعدام المسئولية أو السرقة البسيطة أو المجون ، وأن سخطوا بل وعاقبوا أى مظهر ينم عن احترام النفس مما يمكن تفسيره على أنه تأكيد للمساواة ، ومن أنواع هذا المظهر بيت حسن الطلاء أو سلوك لا يدل على الذلة أو التبعية · ووضعوا مستويات أعلى للوظائف أغلقت معظم الفئة المتوسطة من المهن التى تتطلب المهارة وفى المصانع والمهن الكتابية والمراكز الاشرافية ، وعموما قصروا عمل أصحاب المهن على خدمة غيرهم من الزنوج · وفى ظل النمط من العزل كان على الزنوج أن يجلسوا فى حجرات انتظار ملونة ، وأن يسافروا فى أجزاء ملونة من القطارات ، وأن يستخدموا مصاعد الخدم ، وأن يتمشوا فى متنزهات ملونة ويطالعوا فى مكتبات ملونة ويلتحقوا بمدارس ملونة ·

لم يكن العزل فى الشمال مسألة مبدأ ، ولكن كان المتوقع ، فحسب من الزنوج أن يعيشوا فى أفقر الاحياء وأن يزاولوا أحط الاعمال · وعن طريق تفرقة غير منتظمة ، ولكنها فعالة ، فى الوظائف ، ورفض تأجير أو بيع المساكن ، والابعاد من المطاعم العامة — فرض على الزنوج فى مدن الشمال أن يتكدسوا فيما يشبه « الجيتو » (العازل) وكان عليهم دائما فى الجنوب والشمال أن يستعدوا لمواجهة النمط المألوف عن الشخص الكسول المستهتر وغير المسئول ، ذى العقلية المنحطة ، والذى تعزى معيشته فى الأحياء الحقيرة ، وفقره وافتقاره الى التعليم الى ما يتصف به من « خصائص عنصرية » ولم يتخلص الفرد الزنجى المجد ، والمسئول ، والمهذب والمتعلم أو الغنى — من هذه الصورة المعتادة التى توسم بها المجموعة ·

(ج) النضال من أجل المواطنة الكاملة :

(١) التعليم : بدا أن التعليم يفتح الباب أمام التقدم · وتتفق كافة الادلة على أن الذين تحرروا أظهروا حماسا وظمأ لا يرتوى للتعليم الذى أنكر عليهم كعبيد ، وأنكر عليهم فى بعض الولايات كزنوج تحرروا · فالالوف الذين احتموا وراء خطوط الاتحاد خلال الحرب الاهلية كانوا يرجون أن يتعلموا · وتدفق ألوف أكثر على المدارس التى أنشأتها جمعيات الارساليات · وفى الفترة القصيرة التى أعقبت الحرب مباشرة عندما تمتع الزنوج بالقوة السياسية فى حماية مدافع قوات الاتحاد المظفرة — أنفقوا الاموال العامة على التعليم مما اعتبره سادتهم السابقون اسرافا ماليا يتسم بانعدام المسئولية · وعلى مدى السنوات التالية ظل التعليم عنصرا لا غنى عنه فى النضال من أجل المشاركة الكاملة ، من جانب ملايين الزنوج كأفراد ،

وكذلك فى التعبير المنظم عن تطلعاتهم • وأقيمت مؤسسات التعليم العالى للزنوج بفضل الجهود الخاصة التى بذلتها الارســــاليات ، والكنائس والمواطنون الذين أشربت نفوسهم بالروح العامة ، فى الولايات الجنوبية، وفى عاصمة الأمة بمســـاعدة الحكومة الاتحـــادية • ولعبت دورا رئيسيا لا بتوفير مجموعة من القادة المتعلمين فحسب ، بل وكانت نقاط تجمع لتكوين الرأى ، وتوفير المعونة المتبادلة وقيام طبقـــة وســـطى زنجية •

وفى أوائل سنى القرن العشرين دعا الزعمـــاء الزنوج الى أسلوبين متعارضين • كانت الفكرة التى عبر عنها بوكر ت • وشنطن (Booker) ترى أن على الزنوج أن يركزوا على تنمية مهاراتهم العملية واكتســاب القدرة ، حتى يتسنى لهم أن يزودوا أنفسهم كمجموعة بما يمكنهم من أداء وظائفهم فى مستوى أعلى من أدنى مستوى اقتصادى بالمجتمع الامريكى واذ كان عبدا فى الأصل (أنظر سيرة حياته كما سطرها ، وهى بعنوان : Up from Slavery) ، ١٩٠٠) ــ ذهب الى أن على الزنـــوج ، كتدبير مرسوم أن يتقبلوا مؤقتا نمط العزل الذى شبهه باصبعين من نفس اليد الواحدة • وتمشيا مع فلسفته أنشأ مؤسسة تعليمية وقفها بوجه خاص على التدريب المهنى ، كوسيلة لتحسين أحوال المعيشة ــ الاقتصاد المنزلى الصحة العامة ، التغذية ــ فى صفوف الزنوج فى الجنوب •

وثمة وجهة نظر مضـــادة ، ارتبطت فى أول الأمر باسم ديبـــوا W.E.B. Dubois الذى يرجع الى أصـــل زنجى حر فى الشمال ، كانت ترى أنه لا ينبغى أن يكون هناك قبول ، حتى ولو من قبيـــل التدابير المرسومة لنمط العزل ، ولا تمييز بين الزنجى والتعليم الذى يتلقـــاه البيض ، لأن تأكيد المهارات اليدوية فى تدريب الزنوج لن يفيد سوى الذين يعتبرون الزنجى أقل درجة من الناحية العقلية • وطبقـا لهـــذه الفكرة كانت أهم مهمة هى تحطيم صـــورة الزنجى كمخلوق منحط ، والقضاء على عادات العزل والتفرقة ، وتقرير حقوق الزنجى القانونية• ويجب ألا يسعى الزنوج الى ما يقل عما هو الشىء الافضـــل ، فى مؤسساتهم التعليمية ان دعت الضرورة ، أو الالتحـــاق بمؤسســـات الأغلبية ، ويجب أن يبرزوا كأفراد فى المهن والحرف التى ترفع مكانتهم فى المجتمع وتكسبهم الاحترام • هذا الاسلوب أصبح يشار اليه بأنـه « العشر الموهوب » ــ أى تقدم الجماعة الزنجية عن طريق نجاح أفرادها المتازين • فالتحق أعداد من الأفراد القادرين بالجامعات الرئيســية فى البلد ، وكانوا من المبرزين كطلبة وفى حياتهم المهنية فيما بعـد • وبالاضافة الى هذا جاهدت عدة من مؤسسات التعليم العـــالى الكبرى

للزنوج وبقوة فى توفير مستوى من التعليم الليبرالى يعادل أفضل الموجود منه فى البلاد ، وبذلت كثير من الكليات الاقل استعدادا قصارى جهدها كى تسير على هذا النهج .

وبرغم الدعوة الى كل من هذين الأسلوبين باعتبار أى منهما بديلا عن الآخر ، الا أنهما كانا فى الحقيقة ينتهجان فى نفس الوقت الواحد . وبمرور الوقت فقدت وجهة نظر بوكر وشنطن الكثير مما حظيت به من التأييد ، اذ أصبحت أجيال جديدة من الزنوج ممن تلقوا تعليما أكثر واكتسبوا خبرة أوسع ، يستشعرون الضجر من ضروب المذلة المفروضة عليهم ، وأحسوا أن اتخاذ موقف أكثر نضالية هو ما يتمشى مع العصر . فرفضوا فكرة « الأعمام توم » ، الذين عرفوا كيف يستغلون ذلك النمط البالى من الزنجى الذى يحترم البيض ويخضع لهم حتى يحصل منهم على المساعدة المالية من أجل التعليم والخدمات الصحية ومؤسسات الرفاهية وغير ذلك من الاشياء التى كان المجتمع الزنجى يفتقر اليها . آثر الجيل الشاب أن يحصل على ما هو دون ذلك ، ولكن مع الكرامة وباعتباره مسألة حق ، بدلا من أن يستجدوا بنجاح ، من أجل المزيد .

٢ - **المركز القانونى :** وبينما ظل التعليم أساسيا بالنسبة الى سعى الزنجى وراء المساواة ، كان الجهد الذى بذله للحصول على حقوقه القانونية أشد جوانب النضال عنتا واثارة . فبمجرد تحريره كانت حقوقه كمواطن هى حقوق أى رجل آخر . وحتى مذهب « منفصلون ولكن متساوون » لم تر المحاكم أن الغرض منه وهو التفرقة من حيث المبدأ ، لأنه كان من الناحية النظرية ينطبق بالمثل على البيض . واذ اشتبك المحامون الزنوج ومعاونوهم البيض فى المعركة القانونية ليحققوا من حيث الواقع ما ضمنه الدستور والقانون العام من حيث المبدأ ، كانوا يعرفون أن النصر النهائى سوف يكون فى صفهم طالما عاشت الديموقراطية الامريكية ،ولكن الضرورة القاضية بمكافحة التفرقة نقطة نقطة وولاية ولاية ، وجماعة جماعة فى الغالب ، وحجة حجة ، هذه الضرورة كانت تعنى نضالا طويلا مثبطا للهمم . ولمواجهة هذا الموقف تكونت « الرابطة الوطنية لتقدم الملونين » على أيدى البيض والزنوج معا فى عام ١٩١٠ لحماية الحقوق الزنجية والتوسع فيها . فسعت أولا الى تحقيق الحماية من سوء المعاملة المباشر ، والذى كان أوسع صوره انتشارا - وهو العنف من جانب الدهماء و « الاقتصاص العرفى » - يمر دون عقاب ، ثم حشدت المواهب القانونية وجعلتها متاحة أينما كان المواطنون الزنوج على استعداد لرفع الأمر الى القضاء بسبب انكار حقوقهم القانونية .

وبمرور السنين فان القضايا التي رفعها الزنوج ، وترافع فيها بوجه عام محامون قدمتهم الرابطة الوطنية لتقدم الملونين ـ أدت بالمحكمة العليا الى أن تفسر بالتفصيل معنى النص الدستورى الذى بمقتضاه لا يجوز لأية ولاية أن تنكر على أى مواطن « الحماية المتساوية من جانب القوانين » . فاعتبرت أن من حق الزنجى أن يحاكم أمام هيئة محلفين لا يستبعد منها الزنوج ، وأن محاكم الولايات لا تستطيع أن تفرض تنفيذ اتفاقات خاصة بقصد ابعاد السكان الزنوج من منطقة ما ، لأن مثل هذا الاستبعاد عن طريق عمل مباشر من جانب الولاية ـ يكون غير دستورى . وحرمت الحيل التى حالت بين الزنوج والتصويت ـ معلنة عدم شرعية قوانين الولايات التى تنص على ألا يدرج فى كشوف الانتخاب الا من كان لأجدادهم حق التصويت ، وعدم شرعية مزاعم بعض الولايات فى أن الاحزاب السياسية منظمات خاصة لا تنطوى الانتخابات الأولية التى تجريها لاختيار المرشحين على « التصويت » بالمعنى الذى قصده الدستور .

وسرعان ما أصبح ظاهرا أن عبارة « منفصلون لكن متساوون »تعنى فى الواقع « غير متساوين » . وهكذا قضت المحاكم فى موقف بعد آخر حيث وجدت أن « الحماية المتساوية من جانب القوانين » كان ينكرها تفاوت أجور المدرسين وتفاوت التسهيلات المادية للمدارس ، أو ينكرها ما تنص عليه ولاية ما من تقديم منح دراسية للزنوج ليدرسوا فى ولاية أخرى بدلا من السماح لهم بالالتحاق بمؤسسات التعليم العالى فيها . وأخيرا ، وبعد سلسلة من قرارات اعترفت فيها بأن « المساواة » لها جوانب معنوية (غير ملموسة) عن المادية ، استنتجت المحكمة العليا فى عام ١٩٥٤ أن فرض التفرقة فى التعليم ، يعنى فى ذاته وبذاته انعدام المساواة ، ونقضت القرار الذى سبق أن أرسى دعائم مذهب « منفصلون لكن متساوون » قبل ذلك بثمانية وخمسين عاما . ان النضال القانونى المستمر لم يحقق مكاسب قانونية فحسب ، من حيث أنه حطم أساليب التفرقة ، بل حطم فى النهاية مذهب « منفصلون لكن متساوون » نفسه ، ولكنه جعل الزنوج يدركون أن القانون حليفهم المرتقب .

٣ ـ الفرصة الاقتصادية المتساوية : بينما نشط بعض القادة الزنوج ورفاقهم البيض فى الجبهة القانونية نشاطا ذا طابع عدائى ، وجه غيرهم جهودهم نحو تحقيق الفرصة الاقتصادية المتساوية وتبديل المعوقات الاجتماعية الاقتصادية التى كانت جماهير الزنوج تعيش فى ظلها .

لقد ترتب على الحرب العالمية الاولى أن تضخم العدد القليـــل من الزنوج الذين كانوا ينتقلون من الجنوب الريفى الى مدن الشمال ، حتى أصبح سيلا • بتوقف الامداد بالعمال من جانب المهاجرين ، وبتوســيع الصناعة كى تلبى حاجات الحزب تحول الى الجنوب وكلاء المصانع المكلفين بتجنيد الأيدى العاملة ، وراحوا يدفعون هجرة جماعية الى مجتمعـــات الشمال الصناعية ، وهى هجرة استمرت فى العقود التالية • ولكن حين دخل الزنوج فى الصناعة الشمالية واجهوا اتجاهات ســلبية قوامهــا التفرقة من جانب كل من أصحاب الاعمال وزملائهم العمال ، وهى اتجاهات تراكمت خلال السنوات التى كانت فيها أبواب معظم الاعمال فى المصانع موصدة فى وجوههم ، ولم يعتبر « وظائف زنجية » بالمعنى الصـــحيح سوى المهام التى لا تتطلب مهارة ، والمهام الشاقة أو الحقيرة •

وفى محاولة لمواجهة بعض المشكلات التى تعرض لها قوم مجردون من الخبرة وتتملكهم الحيرة ، وفدوا من مناطق الجنوب الريفية المتأخـرة وانتقلوا الى أسوأ الاحياء الحقيرة ، وأعطوا أقل الاعمال أجرا ، وأخضعوا لما يسود مدن الشمال من جو التنافس والاتجاهات القائمة على التفرقة — اتحد قادة من الزنوج ومواطنون من البيض ، وكونوا منظمات للرفاهية نذرت جهودها لتشجيع تكافؤ الفرص • وعملت أمثال هذه المنظمات التى ما ان حلت الخمسينيات حتى كانت قد تكونت فى نحو ستين مدينة ، ثم اتحدت عام ١٩١١ فى رابطة قومية عـرفت باسم « العصبة الحضريـــة الوطنية » نقول : ان هذه المنظمات عملت على تغيير عادات التفرقة التى كانت سائدة فى مجتمعاتها ، فبذلت الجهود فى صبر من أجل تعـــديل أنماط التوظف ، وتحسس الابواب عن طريق التفاوض ، وايجاد عمـــال قادرين للمراكز الجديدة ، ودفع المدارس والوالدين كى يشجعوا الاطفال على تلقى التدريب الذى يؤهل لحرف لم تكن قد أتيحت لهم بعد ، ومكافحة الظروف المثبطة للهمم وضروب الاخفاق مما كان يميل الى تقويض احساس الزنجى بنفسه وتحطيم طموحه • وقبل الحرب العالمية الثانية لم تســفر هذه الجهود الا عن منافذ محدودة فى مستويات التوظف العليا ، وتم ذلك على العموم بدرجة أبطأ بكثير مما كان الناس على استعداد لشغلها •

وكان من أثر النقص الشديد فى الايدى العاملة فى الحرب العالميـة الثانية ، ان اضطر أصحاب الاعمال الى أن يطرحوا جانبا ما فى نفوسهم من ضروب التفضيل والتحيز ، وأن يستخدموا أى عمـــال يستطيعون الحصول عليهم — العمال المسنين ، النساء ، ذوى العاهات ، فضلا عن الزنوج • وحتى فى هذا الوقت تطلب الأمر ضغطا من جانب الحكومة التى

انتهجت خلال الحرب سياسة لا تقوم على التفرقة ، حتى يتسنى استخدام القوة البشرية استخداما فعالا ، وتسهيل فتح أبواب الوظائف الحاذقة والفنية والكتابية على أى نطاق كبير • وبانتهاء الحرب كان نمط التوظف قد تغير بصورة جذرية • وبرغم أن حرفا كثيرة ظل من الصعب فى بعض المجتمعات التحاق الزنوج بها ، أو كانت مغلقة بالفعل فى وجوههم ــ كان الزنوج فى مجتمعات أخرى غير مستعدين ولا مدربين كى يستفيدوا من الفرص الجديدة بالسرعة التى سنحت بها هذه الأخيرة • وفى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية حول الذين كانوا يعملون من أجل الفرصة الاقتصادية المتساوية ، جهودهم نحو اتجاهين : أولهما القضاء على التفرقة فى الوظائف عن طريق سن قوانين فى الولايات والبلديات تجعل مثل هذه التفرقة غير قانونية ، وثانيهما تنشيط جماهير الاطفال والشباب من الزنوج على رفع مستوياتهم الحرفية بمثل ما فعل قبل ذلك بوقت طويل رفاقهم الاكثر قدرة وتصميما •

وفى نطاق العلاقات مع العمال المنتظمين فى السلك النقابى ، وجد الزنوج أنفسهم فى أول الأمر خارج التنظيم ، ومستبعدين من معظم النقابات الحرفية ، يأتى بهم الى المناجم أو المصانع من وقت لآخر خصوم العمال من أصحاب الأعمال ، وذلك بقصد تحطيم الاضرابات • وحين زاد عددهم فى الصناعة الشمالية أصبح ظاهرا لبعض القادة الزنوج أن مصير الاغلبية الكبيرة من الزنوج كعمال وثيق الارتباط بمصير العمال ككل • وكانت هناك نقابات من الزنوج ، وخاصة فى الحرف التى جرت التقاليد بأن يزاولوها ، وخاصة الخدم فى عربات النوم وحمالى الحقائب ، وراح زعماء هذه النقابات يحثون النقابات فى الميادين الاخرى على ضم الأعضاء الزنوج ، وساعدوا على خلق اتجاه ملائم من تكوين النقابات فى صفوف العمال الزنوج •

هذه العملية سهلها تغيير طرأ على الحركة النقابية العمالية الأمريكية • كانت قوة نقابات الحرف والتى سيطرت على الحركة العمالية الأمريكية حتى الثلاثينات تكمن فى احتكارها لمهارة معينة ، ولذلك كانت القيود على الانضمام الى العضوية جزءا من استرآتيجية النقابات • ولكن عندما امتد التنظيم النقابى الى صناعات الانتاج الكبير ، تعين على النقابات التى تكونت على أساس صناعى أن تنتهج بالفعل سياسة تقوم على توسيع نطاق العضوية ، نظرا لأن قوتها كانت تعتمد على التنظيم الكامل فى داخل الصناعة ، بدلا من احتكار مهارة محدودة • واذ دخل الزنوج فى هذه

الصناعات أصبحوا أعضاء فى النقابات الجامعة . وكانت بعض النقابات الحرفية المحلية لاتزال ترفض تخفيض الحواجز التى أقامتها ، واستثار أصحاب الأعمال المعادون للنقابات فى الجنوب مافى نفوس عمالهم من مشاعر التحيز العنصرى ، واستغلوها بنجاح فى محاولتهم منع التنظيم النقابى . ولكن على العموم أسهمت الحركة العمـــالية فى الأربعينات والخمسينات فى تقدم الزنوج الاقتصادى . فقد أصرت الاتحادات على المساواة فى الأجر اذا تساوى العمل ، وأتاحت فرصة أمام الكثيرين من الزنوج ليعملوا كأعضاء مسئولين فى التنظيم ، دون قصر نشاط قادتهم على جماعتهم العنصرية ، وكان فى الامكان بوجه عام الاعتماد على الحركة العمالية لمساندة الجهود التى بذلها الزنوج من أجل مد حقوقهم الى ميادين أخرى .

ان الأثر الخالص الناتج من القوى الاقتصادية العريضـــة ، ونمو التنظيم العمالى ، والجهود الخاصـــة من أجل توسع فرص التوظف أمام الزنوج ، هذا الأثر تميز بارتفاع فى مستوى الزنوج الاقتصادى بالنسبة الى البيض . وبرغم أن الزنوج ظلوا فى منتصف القرن يشكلون الأغلبية الكبرى فى الصفوف الاقتصادية الدنيا ، فقد زاد متوسط أجر العمال الزنوج من ٣٨٪ من متوســـط أجـر البيض فى عام ١٩٣٩ الى ٦١٪ فى عام ١٩٥٨ ، وهى فترة كانت فيها دخول البيض الحقيقية آخـــذة فى الارتفاع بسرعة .

(٤) **الاسكان** : ظل التمييز فى الاسكان من أعنف العقبات أمام الاندماج الكامل فى المجتمع الأمريكى . فاذ نزح الزنوج بأعداد متزايدة باستمرار الى المدن الصناعية ، انتقلوا الى الأحياء الحقيرة التى كان يهجرها من وسعهم الحصول على بيوت أفضل . ولكن عندما حصلوا بدورهم على الوسائل التى تمكنهم من الخروج من « الجيتو » (المعازل) فى أحيائهم الحقيرة ، أسوة بأسلافهم ، وجدوا الطريق وقد سده حشد من أساليب التقييد : عزوف البنائين ، سماسرة العقارات ومؤسسات التسليف من أجل البناء أو البيع أو التمويل ، الا فى المناطق التى كان أغلب أهلها من غير البيض ، والاتفاقات التى عقدها الجيران البيض فيما بينهم بألا يبيعوا الى غير البيض . وكان من العسير بوجه خاص دخول منـــاطق الضواحى التى كانت المدن تمتد اليها .

وكانت النتيجة المترتبة على هذه القيود هى بوجه عام حقـــازة

المسكن ، والازدحام ، وأداء ايجارات ، وأداء أيجارات أعلى مما يدفع البيض لقاء المسكن المماثل . وكان أخطر مافى الأمر أن هذه القيود تعنى العزلة عن المجتمع الأعرض ، ذلك أن تقييد الاسكان أدى فى الواقع الى التفرقة فى التسهيلات القائمة فى المنطقة ، مثل المدارس أو المتنزهات . واذ سار الزنوج قدما فى جهودهم من أجل تحطيم التفرقة فى ميادين أخرى أصبح الحق فى السكنى حيثما تسمح لهم وسائلهم وأذواقهم مشكلة رئيسية بصورة متزايدة فى النضال من أجل المساواة . وبمرور الوقت بدأوا يحرزون بعض ضروب النجاح فى هذا الميدان الصعب .

وفى عام ١٩١٧ حرمت المحكمة العليا للولايات المتحدة القوانين البلدية التى استهدفت تحديد المناطق السكنية على أساس الجنس ، باعتبارها غير دستورية . وفى عام ١٩٤٨ رأت المحكمة أن الاتفاقات التى يعقدها الجيران البيض والمشتملة على قيود لايجوز تنفيذها قانونا اذا اختار أحد الأطراف المتعاقدة أن يبيع الى زنجى . وفى الخمسينات نبذت أساليب الأسكان التى كانت تمشى عليها الوكالات التابعة للحكومة الاتحادية ، وهى أساليب كانت تميل الى أن تعكس أنماط التقييد ، وحلت محلها سياسة قوامها فتح أبواب السكنى أمام الجميع . وبدأت الولايات والبلديات ، واحدة تلو الأخرى — تسن القوانين التى تحرم بشكل مباشر مختلف أشكال التفرقة فى الاسكان ، وبحلول عام ١٩٥٧ كانت ست عشرة ولاية وخمس عشرة مدينة قد اتخذت بعض اجراءات رسمية . لكن حتى مع هذه التدابير — كان الطريق الى المساواة فى الاسكان طويلا وشاقا ، ورفعت لجنة لتقصى الحقائق «عن الجنس والاسكان» تقريرا عما كشفت عنه ، واتخذت له عنوانا بارعا هو «أين سنعيش» ؟ .

(٥) النفوذ السياسى : كانت القوة السياسية سلاحا للتقدم الزنجى خلال فترة قصيرة بعد الحرب الأهلية مباشرة ، عندما منح الزنوج بالقوة فى الجنوب حق الانتخاب . ولكن اذ راحت حيلة بعد أخرى تعمل بشكل فعال على استبعاد أغلبية الزنوج الجنوبيين من صناديق الاقتراع — لم يعد العمل السياسى طريقا يسلكونه . فبرغم الجهود القانونية الناجحة من أجل تحريم الكثير من هذه الأساليب ، وبرغم تحقيق مكاسب جوهرية فى عدد الزنوج المسجلين فى قوائم الانتخاب وفى الذين أدلوا بأصواتهم فى الولايات الجنوبية — تجمعت كثير من العقبات وأحدثت أثرا كان شأنه أن ظل الزنوج فى الجنوب حتى منتصف القرن ضعافا من الناحية السياسية . غير أن اعدادا كبيرة من الزنوج توجهوا الى صناديق الانتخاب

فى المدن الشمالية • ولم يصل الى الكونجرس الاتحادى سوى حفنة من الزنوج ، ووصل عدد محدود الى الهيئات التشريعية في الولايات ، ولكن جرى انتخاب أعداد متزايدة من الزنوج فى مجالس المدن ، وكان الكثيرون ممن انتخبوا فى الهيئات الاتحادية أو بالولايات أو الهيئات المحلية ممن لم يكونوا هم أنفسهم من الزنوج ، نقول : ان هؤلاء كانوا على وعى تام بأصوات الناخبين الزنوج •

لم يكن من سياسة الزعامة الزنجية أبدا أن تحاول تنشيط أو تنظيم التصويت من جانب الزنوج باعتبارهم كتلة قائمة بذاتها ، اذ لو فعلت هذا لكان معناه أن الزنوج يشكلون مجتمعا منفصلا • لقد ظل معظم الزنوج سنوات كثيرة يربطون أنفسهم بحزب أبراهام لنكولن ــ الحزب الجمهورى ، اذ كان العنصر الأبيض المسيطر فى الجنوب مناصرا بشدة ، تقريبا ، للحزب المعارض ــ الديموقراطى • وفى المدن الشمالية وجدوا أن معظم جيرانهم من الديموقراطيين ، وفى عهد فرانكلين روزفلت انضمت نسبة كبيرة منهم الى حزبه ، أى الديموقراطى ، بسبب السياسات الليبرالية التى انتهجتها ادارته بالنســبة الى مسائل العمل والرفاهية ، وفى السنوات التالية أدرك كلا الحزبين أن أصوات الزنوج يمكن ان تكون حاسمة فى كثير من الانتخابات التى تتقارب فيها فرص الفريقين ، وبذا وقعا تحت الضغط ، كى يربطا أنفسهما بخطى التقـــدم الزنجى التى تتزايد سرعتها ، بدلا من الارتباط بماتبديه المعارضة التى تتسم بعدم الاكتراث أو بالتعصب •

وباستثناء فترة وجيزة واحدة ، فان النعرة الوطنية الزنجية لم تهيىء حتى منتصف القرن أساسا يقوم عليه شكل سياسى أو غيره من أشكال التنظيم • ففى نهاية الحرب العالمية الأولى شن زنجى من أهل جزر الهند الغربية ، وهو ماركوس جارفى حركة أعلنت أنه لا أمل للزنجى فى بلد الرجل الأبيض ، وطالبت بالعودة الى الوطن الأفريقى • وكان يمجد كل شىء أسود ، ونادى « باله » أســـود « ومسيح » أســـود ، وقاد المظاهرات الجماهيرية ، وأقام المتاجر والمطاعم ومحـــال الغسيل التعاونية • وغير ذلك من المشروعات لشعب زنجى ذى حياة منفصلة ، وكون فرقا لها زى خاص من ممرضات الصليب الأسود والوحـــدات العسكرية ، وتبنى تنظيم خط ملاحى الى أفريقية باسم النجمة السوداء• واذ راح يوجه دعوته الى الجماهير السوداء ، ويدين الزعامة الزنجية التى تشكل طبقة وسطا ، بنفس العنف الذى استنكرته به ــ جمع مبالغ كبيرة

من النقود وجند أعدادا كبيرة من الأتباع ــ رغم أنهم ستة ملايين على حين أصر خصومه على أن العدد أقل من مليون واحد · ولكن انهارت الحركة بعد حياة لم تدم الا ثلاث سنوات ، وذلك بسبب فشل مشروعاتهـــا ، والاشكالات القانونية ، وانفضاض الأعضاء عنها · وكان اسهامها الرئيسى أنها أظهرت القلق فى صفوف الجماهير الزنجية واستعدادها للاستجـــابة الى الزعامة القوية التى تقدم لها أساسا يقوم عليه احترام الذات ، حتى ولو شابه شىء من اليأس ·

وخلال الثلاثينات سعى الحزب الشيوعى بقوة الى ضم الزنوج اليه ، وكان بعضهم ، وخاصة فى صفوف المثقفين الشـــبان يجتذبهم دفاعـــه الحماسى عن حقوق الزنوج ، برغم أن اقتراحه بشأن « تقرير المصير » أو دولة منفصلة للمنطقة التى يزدحم فيها الزنوج ، لم يلق سوى استجابة قليلة · غير أن الكثيرين من الزنوج تبددت أوهامهم عند ما تغير الخط الذى كان الحزب يسير فيه · فبعد أن غزا هتلر روسيا أصبحت الحرب « الامبريالية » حربا صليبية « ضد الفاشـــية » وحثهم الحزب على أن ينسوا مظالمهم خلال الحرب · وفى هذه الأثناء أبلغه الزعماء الزنوج الأكثر محافظة أن يستغلوا الميزة التى أتاحتها فترة الحرب ، وفى الوقت نفســه يساندون المجهود الحربى · وبعد الحرب استأنف الحزب الشـــيوعى تأييده لنضال الزنوج ضد التفرقة ، ولكنه لعب دورا غير ذى شأن فى استراتيجية التقدم العنصرى ·

وقلما استخدمت قوة التأثير السياسى الزنجى الكاملة للضغط على الحكومة الوطنية ، ولكن النتيجة المرتقبه تبينت فى أثناء الحرب العالمية الثانية · فحين بدا للزعمـــاء الزنـــوج من جميع الأنـــواع : العماليين ، القانونيين ، رجال الدين ، المربين ، أصحاب المهن ــ أن الحكومة لا تتخذ خطوات كافية لادماج الزنوج فى المجهود الحربى ــ نظموا ما كان ليصبح « مسيرة على وشنطن » على نطاق الأمة ، ليقنع الحكومة بما كان للشعور الزنجى من اجماع وقوة · وفى ظل التهديد بمثل هذه المسيرة أصـــدر رئيس الجمهورية أمرا تنفيذيا بتحريم التفرقة فى صنــاعات الحــرب والوكالات الحكومية ، وأنشـــأ وكالة خاصة لتراقب تنفيذ الأمر · وبعد الحرب استمرت سياسة عدم التفرقة فى الوظائف الحكومية ، ومدت الى القوات المسـلحة والى الصناعات الخاصـــة التى تقـــوم بالعمل للحكومة الاتحادية بناء على عقود ·

(٦) الأدب والفنون والرياضة ·

وفى الجبهة الأدبية والفنية ، وخاصة منذ العشرينات شنت المعركة ضد ذلك الطراز التقليدى من الزنجي المنحط المكانة · ففى عام ١٩٢٥ نشر آلين ل · لوك Alain, L. Locke من خريجى جامعة هارفارد ، وأول زنجي يحصل على منحة رودس الدراسية فى أكسفورد ـ كتابا تضمن كتابات بأقلام مؤلفين زنوج ، واتخذ له اسم « الزنجي الجديد » · وفى العقود التالية اطلع القراء من البيض والزنوج على مواهب متعددة فى صفوف المؤلفين الزنوج ، وعلى كتب وضعها مؤلفون من الزنوج والبيض تجلت فيها شخصيات زنجية بصورة عميقة وواضحة · وهذه الكتب ساعدت على جعل الزنوج الأمريكيين كأفراد جزءا لا يتجزأ من الصورة الأمريكية الوطنية ، بمثل ما فعلت الكتب الأخرى بالنسبة الى الأمريكيين الآخرين ـ الرواد فى برارى الغرب ، صغار الفلاحين فى الأرض الجبلية التى تفتت تربتها ، أو أطفال المهاجرين فى المدينة الشديدة الازدحام ·

واذ لم تكن الفنون وثيقة الارتباط بمكانة الحياة الأمريكية وبنيانها الاقتصادى ، فانها كانت أقل تعرضا للتميز والتفرقة من معظم الطرق الأخرى المؤدية الى النجاح · وفى فنون الترفيه بوجه خاص أظهر كثير من الزنوج موهبة كبيرة ونالوا الاعتراف والتقدير ، برغم أن الأمر تطلب جهودا متصلة من جانب القادة الزنوج والأحرار البيض من أجل التغلب على عزوف صناعة السينما عن تقديم الزنوج فى غير الأدوار التى تبدو ملائمة بالنسبة الى النظارة من أهل الجنوب ·

كذلك كانت أبواب الرياضة مفتوحة نسبيا ، واعتاد الأمريكيون الهتاف لنجوم الرياضة الزنوج ، وأن يمثلهم دوليا الزنوج فى مباريات العدو والقفز وبطولات الملاكمة العالمية · وكانت لعبة البيسبول الاحترافية بطيئة فى تخفيف حواجزها ، ولكن بمجرد أن بدأ استئجار اللاعبين الزنوج فى هذه الرياضة الشعبية التى تشتد فيها المنافسة ، راحوا يكافحون ويشقون طريقهم الى الامتياز والتفوق · واذ راح الزنوج يفرضون طابعهم على وسائل الترفيه والفنون والرياضة ، استغلوا نفس الطريق التى غالبا ما وجدت فيها المجموعات المحرومة ، مثل أطفال المهاجرين الفقراء ـ الطريق الى القمة ·

وفى هذه الأثناء راح التعبير الشعبى الزنجي يصبح جزءا من التقليد الأدبى والفنى الأمريكي ، وذلك الى جانب قصص العناصر الشعبية الأخرى مثل أبطال الجبال ورعاة البقر · واطلعت جماهير النظارة فى جميع أرجاء البلاد ، ولأول مرة على الروحانيات ـ الأغانى الدينية التى ألفت فى

الرق ـ على أيدى مغنين من الكليات الزنجية ممن كانوا يطوفون البلاد يجمعون المال لمساعدة مدارسهم ، والأغانى التى كانت ترتل فى أثناء العمل ، والدعابات ، وسير حياة العبيد ، هذه كلها جمعت خلال الثلاثينات حينما أخذ الكتاب والموسيقيون العاطلون يجمعون المواد الفولكلورية والشعبية الأمريكية من جميع المصادر • ولم تصبح موسيقى الجاز والرقص على أنغامها أساس الموسيقى الشعبية الأمريكية فحسب ، وخاصة ابتداء من العشرينات ، ولكنهما اكتسبا شعبية فى أجزاء أخرى كبيرة من العالم •

٧ ـ نمط الحياة الزنجية :

وخلال نضال الزنوج من أجل شغل مكان كريم فى الحياة الأمريكية على امتدادها الكامل ، ابتدعوا سلسلة من النظم واتخذوا مجموعة من الاتجاهات ، كانت من نتاج نضالهم من ناحية ، ومن أدواته من ناحية أخرى • وبرغم أن هدفهم هو أن يتمكنوا من الاضطلاع بوظائفهم كمواطنين عاديين ، أدت ظروف التفرقة الى نشوء نظم منفصلة تسير موازية لنظم المجتمع الأكبر ، لا فى الجنوب فحسب ، حيث يمارس العزل رسميا ، ولكن فى الشمال أيضا بوجه عام •

ومن أقدم هذه المؤسسات وأهمها الكنائس الزنجية التى ظهرت الى عالم الوجود بسبب استبعادهم من كنائس البيض فى الجنوب بعد الحرب الأهلية من جهة ، ولأن الكنيسة من جهة أخرى وبوصفها مؤسسة معترفا بها ـ أتاحت للزنوج فرصة ممارسة شعائرهم دون اثارة خوف البيض ودفعهم الى التدخل • وكانت الكنيسة تهيىء مكان لقاء ، وميدان تدريب ، ومركزا للمعونة المتبادلة والاتصال الاجتماعى ، ومن صفوف القساوسة الزنوج الكثيرون من القادة فى المجتمعات المحلية •

وفى اطار الانفصال أصبحت المدرسة الزنجية مؤسسة هامة من مؤسسات الجماعة ، حتى ولو كانت تحت اشراف ادارة المدارس البيضاء، ويعرقلها بوجه عام الفقر فى المعدات ، فضلا عن العزلة الناتجة من الانفصال • وكان المدرسون يشكلون أكبر مجموعة فى صفوف أصحاب المهن فى المجتمعات الزنجية بالجنوب ، ومن ثم تكون منهم لب الصفوة الزنجية • ولقد فعلوا الكثير من أجل عزل الأطفال الزنوج عن الآثار المثبطة للهمم والمترتبة على بيئتهم ، من أجل الابقاء على طموحهم وقوة عزيمتهم فى وجه الظروف القاسية المضادة •

واضطلعت الصحافة الزنجية بوظيفتين : فكانت جهاز احتجاج ، وكانت خدمة اخبارية تزود المجتمع الزنجى بأخبار أعضائه وبالأحداث ذات الأهمية بالنسبة اليه ، والتى لا تجد سبيلها الى صفحات الصحافة العامة • وباعتبار الصحافة الوكالة الوحيدة التى تجاوزت حدود الكنيسة أو المدرسة المحلية وحملت الأنباء من جميع أجزاء البلاد ، لهـذا حملت احساسا بالمجتمع الزنجى الوطنى كله ، وأتاحت صورة يستطيع الزنوج على ضوئها أن يروا أنفسهم •

وبالاضافة الى هذه المؤسسات الكبرى كون الزنوج هيئات تمثـل الهيئات الكثيرة التى كانوا مبعدين عنها : جمعيات الأطباء أو المحامين أو رجال الأعمال فى تلك المجتمعات التى حرمت فيها الجمعيـات الطبيـة أو نقابات المحامين أو الغرف التجارية المحلية ، على أن ينضم اليها الزنوج الذين يمارسون هذه المهن • كذلك نظموا حشدا من المجموعات الاجتماعية والمجموعات الممثلة لمصالح خاصة وجماعات الاخوان ، على غرار ما فعلت عناصر أخرى من السكان فى المجتمعات الأمريكية المتعددة العناصر •

وكان من أثر الخط اللونى المرسوم بشدة ، أن زاد تضامن المجموعة الزنجية بالرغم منها ، وأرغم أعضاءها المتقدمين على أن يربطوا أنفسهم بالجماهير الزنجية ، ويصبحوا قادة لها بدلا من مجرد محاولة التنعم بالنجاح الشخصى ، وأن يربطوا بين الأسود والأبيض بدلا من تقدير عنصر مختلط ممتاز • وخلق الافتراض فى داخل المجموعة وفى خارجها أيضا بان على كل فرد أن يهتم بمصير الجنس ، فيجب أن يدرس صحة الزنوج اذا كان طبيبا ، أو يدرس دخولهم اذا كان اقتصـاديا ، وأن يتحـدث بلسانهم اذا وجد نفسه وسط مجموعة مختلطة وأن يعتبر أينما ذهب رمزا أى اختبارا وممثلا لجنسه ، وهو اذ نزع الطابع الشخصى من حياة الزنجى أجبر الجميع على المشاركة فى النضال المشترك من أجل المساواة فى المكانة ومن أجـل الحق فى العمل كأمريكيين لا تحـدهم قيـود أو تحفظات •

وأنتج التقـدم المطرد فى التعليم والمركز الاقتصـادى طبقة وسطى زنجية تسير فى طريق النمو ، وصلت الى أبعاد كبيرة فى منتصف القرن • ففيما بين عامى ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ زادت نسبة الرجال الزنوج المشـتغلين بالمهن أو بالأعمال الكتابية والادارية والحاذقة أو الاشرافية من ١٠ الى ١٣٪ • وبينما كانت هذه النسب لا تزال دون نسب البيض الذين كان أكثر من نصفهم يمارسون هذه الحرف ، الا انها كانت تعكس توسـعا كبيرا فى مجموعة الطبقة الوسطى •

كانت الطبقة الوسطى الزنجية في الأصل مستمدة بصفة رئيسية من أولئك الذين كانوا يتمتعون بمزايا متفوقة في وقت التحرير ، ومن ثم كانت لهم أسبقية على زملائهم في عملية الاندماج في الحياة الأمريكية . وكان هؤلاء من سلالة الزنوج الأحرار الذين كانوا يشكلون ثمن مجموع الزنوج في عام ١٨٦٣ ، ومن أطفال السادة البيض والعبيد الزنوج الذين حرص آباؤهم على أن يوفروا لهم تدريبا خاصا ، ليكونوا من رجال الحرف ، أو خصصوا لأعمال ممتازة ، أو منحوا أرضا من حين لآخر ، ومن غيرهم من الأتباع الشخصيين وعبيد المنازل ممن جعلهم مركزهم فئة منفصلة عن العمال الزراعيين العاديين . وخلال الحرب العالمية الثانية وبعدها اتسع الأساس الى حد كبير بفعل كل من أجور زمن الحرب والمزايا الناجمة من المكاسب العمالية ، مما جعل في امكان مزيد من العائلات إلحاق أطفالها بالمدارس ، وبفعل المزايا التعليمية لمن أبلوا بلاء حسنا في الحرب ، وهذه مكنت أعدادا كبيرة من أبطال الحرب الزنوج من الالتحاق بالجامعات والمدارس الفنية على نفقة الحكومة .

وبرغم أن الطبقة الوسطى الزنجية شغلت مركزا ممتازا الى حد كبير بالقياس الى الجماهير الزنجية ، الا انها كانت خاضعة على نحو ما لشدائد نفسية أكبر . فبسبب مركزها المعرض للتهديد أحسست بالحاجة الى التزام مستويات سلوك الطبقة الوسطى وأخلاقياتها وأنماط استهلاكها ، وبصورة أشد مما التزم به أفراد الطبقة الوسطى الأمريكية الآخرون . كانت واقعة تحت ضغط كبير يدفعها الى ادراك النجاح ، ولم يكن في امكانها ، كما هو الشأن بالنسبة الى الطبقة الدنيا أن تتقبل الهزيمة منذ البداية في المعركة غير المتكافئة . واذ كان أفراد الطبقة الوسطى غير متأكدين من أنهم موضع القبول في المجتمع الأوسع ، لهذا كانوا غامضين في اتجاهاتهم . واذ راحوا يناضلون في استماتة من أجل أن يمحوا الصورة « الزنجية » العتيقة من أذهان البيض ممن كان على الزنوج التعامل معهم — وقعوا تحت الضغط الذى يدفعهم الى الاتصال عن الجماهير التى كان فقرها والمظاهر المصاحبة له يؤكد هذه الصورة التقليدية ، والى الدفاع عن هذه الجماهير ومساعدتها اذ لم يكن في امكانهم أن يهربوا أبدا وبصورة كاملة من انتمائهم الى المجموعة الزنجية .

وكان للخط اللونى ضحاياه السيكولوجية بطرق أخرى . وفى مجتمع كان « اللون الأبيض » يحمل معه المكانة ، وانعكس التحيز للون فى داخل المجموعة الزنجية ، فان الطفل ذا البشرة الأقل سوادا سرعان ما تعلم بطرق بارعة كثيرة أن ثمة احتمالا أكبر بأن يلقى زملاؤه الأقل

دكنة معاملة أفضل - كأن يمثل دور البطل فى مسرحية مدرسية ، وأن يكون موضع ميل وحب أكبر ان كان فتاة ، أو يجد المدرس الذى يتوقع منه انجازا أفضل ويكون أوفر استعدادا للاعتراف بهذا الانجاز . وكانت التذكرة المستمرة بأن الآخرين لا يقـدرونه حق قدره ، تؤرق احساس الزنجى باحترام النفس . وأظهرت الدراسات التى أجريت خلال الربع الثانى من القرن العشرين عمق الكراهية للذات ، وهى الكراهيـة التى أدت بالكثيرين من الزنوج الى أن ينقلبوا على أنفسهم نتيجة الخيبة بالاضافة الى التقويم السلبى من جانب المجتمع . وبدأت دراسات نفسية أخرى تلفت النظر الى ما للتحيز اللونى من تأثير مدمر بالمثل على شخصية الفرد الأبيض ، بالاضافة الى العبء الذى أثقل به كاهل الزنجى بانتقال احساس الرجل الأبيض بالذنب اليه .

٨ - الاسراع بمعدل التغيير فى المركز :

بانتصـاف الخمسينات كان المجرى التحتى المتجه نحـو المشاركة الكاملة - قد أصبح عريضا وعميقا . فمع كل سـنة تمر أصبح الذين يقاومون تقبل الزنوج التام كمواطنين زملاء ، وعمال وجيران ، أقل قدرة على الاعتقاد بأنهم ليسوا مستعدين للمشاركة الكاملة ، وأنهم يفضلون أن يظلوا بمعزل ، أو أن المحرضين انما يثيرون قوما كانوا قانعين بوجه عام . فعندما حدث فى عام ١٩٥٥ أن اعتقلت خياطة متعبة وفى طريق عودتها الى بيتها فى مدينة مونتجمرى الجنوبية بولاية الباما ، لأنها رفضت أن تتخلى عن مقعدها فى الأوتوبيس لراكب أبيض ، وتنتقل الى مؤخرة الأوتوبيس المزدحمة - قاطع جميع سكان البلدة من الزنوج والأوتوبيسات شهورا الى أن صدر أمر من المحكمة بوقف تخصيص مقاعد منفصلة لـكل من البيض والزنوج ؛ فتحت قيادة قس شاب ، وبالاجتماع فى الكنائس حيث يبدأون الاجتماع بصلاة ، نظموا مقاومة سلبية منتظمة متصلة .

قبل مظاهرة مونتجمرى لم تستخدم فكرة المقاومة السلبية كسلاح فى النضال من أجل المساواة العنصرية ، الا من جانب مجموعات صـغيرة مختلطة من الناحية العنصرية ، جلسوا فى صبر فى المطاعم التى رفضت أن تقدم خدماتها لهم ، ولم يستخدم الضغط الاقتصادى الا من حين لآخر ، كما فى الحملات التى شنت تحت شعار « لا تشـتروا حيث لا يمكنكم العمل » لفرض استخدام الزنوج فى المتاجر . وبقى لهذه الحادثة أن تثبت بما لا يقبل الشك أن جماهير الناس فى الجنوب كما فى الشمال قرروا أن وقت الصـبر فى وجه التفرقة قـد انتهى ، وأنهم قادرون على التعبير المنظم التلقائى بطرق يمكن أن تلفت النظر بشـكل بارز الى

قضيتهم ، وأن يكون لها تأثير كبير على المصالح الاقتصادية للمجتمعات التى كانوا جزءا منها • وفى السنوات التالية زاد اســتخدام المقاومة السلبية والمقـاطعة لا للتغلب على معارضة المتعصبين ممن سعوا الى وقف تنفيذ قرار المحكمة العليا بوقف العزل فى المدارس فحسب ، ولكن لفتح أبواب جميع أنواع التسهيلات وتمزيق كيان العزل والتفرقة أينما بقى •

فى هذه الأثناء كان الزنوج ومعاونوهم فى الشمال يســتخدمون القوة السياســية للحصــول على التشريع الذى يجعل التفرقة على أسس الجنس أو الدين أو الجنســـية أمرا غير مشروع قانونا ، فى التوظف والتسهيلات العامة والتعليم والاسكان • وبحلول عام ١٩٥٧ كانت خمس عشرة ولاية قد حرمت صراحة التفرقة فى التوظف ، ومدت ست ولايات نطـاق التــحريم الى كل اســكان يحصل على معونة من الاموال العامة ، وكذلك طبقته مدينة نيويورك على الاسكان الخاص البحت • وفى الوقت نفسه جاهد أفراد من الزنوج فى جميع مجالات الحياة ، وخاصة أولئك الذين كانوا يشغلون أنواعا من الوظائف أو المسئوليات التى لم تتح الا للقليل من بنى جنسهم من قبل ، نقول : ان هؤلاء الزنوج جاهدوا فرادى من أجل أن يظهروا بكفايتهم قدرة الزنوج على النهوض بأية مهام أعدهم لها ما حصــلوا عليه من تدريب ، وما ملكوا من قدرات • ومهمــا كانت نظرتهم متواضعة ، ومهما رغبوا فى أن يحيوا حياة بعيدة عن مظاهر الشهرة والأبهة ، فانهم كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون الفرار من عبء كونهم رموزا لجنسهم ومدافعين عنه •

فى ظل المناخ المتغير فى المجتمع الأمريكى والموقف العالمى المتغير ، جرى التعجيل الى حد كبير بمعدل التغيير فى مركز الزنجى الأمريكى • أن تحول أفريقية من الموطن المظلم لقوم بدائيين الى موطن شعوب مستقلة كان ممثلوها يجلسون جنبا الى جنب مع الدول الكبرى فى الأمم المتحدة ، هذا التحول كان له ردود فعله بالنسبة الى وضع الزنوج فى جميع أرجاء العالم • فالكثيرون من الزنوج الامريكيين الذين كانوا قد قطعوا صلتهم بماضيهم الأفريقى البعيد ، وجدوا فى الدول الأفريقية الجديدة مصدرا للكبرياء والاحترام الذاتى العنصريين على حين زاد باطراد عدد البيض الذين أدركوا أن معاملة الأقلية الزنجية فى الولايات المتحدة ليست مسألة داخلية بحتة ، ولكنها مسألة ذات تأثير كبير على سياسة البلد الخارجية ومكان الأمة فى الشئون العالمية •

ان سرعة التغيير ذاتها وازدياد الأدلة على انتهاء اليوم الذى كان من الميسور فيه « ابقاء الزنجى فى مكانه » ، كل هذا أثار عاصفة من المقاومة

الشديدة ومن العنف المضاد للثورة من جانب العنصر المهزوم ، ولكنه المتعصب ، في الجنوب • واذ أمسك المتطرفون بزمام المبادرة في رد الفعل ضد قرار المحكمة العليا في عام ١٩٥٤ بشأن الاندماج في المدارس ــ ظهر أن سرعة سير التغيير قد وقفت مؤقتـا في الولايات الجنوبية • ولكن المتعصبين هم وحدهم الذين اعتبروا النكسة أكثر من شيء مؤقت • وازاء تجدد مظاهر الازدراء والاذلال احتفظ الزنوج بضبط النفس ، وواصلت الأغلبية الساحقة النضال في سبيل مجتمع متكامل ، تمشـيا مع المبادىء الأمريكية والمذهب المسيحي ، ولكن أظهر نمو منظمة معادية بمرارة للبيض باسم « المسلمون السود » أن العناد الأبيض يمكن أن يثير اسـتجابة تماثله •

وبرغم رد الفعل العنيف زادت عمليـة التكامل والاندماج قـوة واندفاعا • ففي الخمسينات كان امام خريجي مدارس الهندسـة الزنوج فرصة اختيار وظائف في الشركات الصناعية الكبرى ، كانت قبل ذلك بعشر سنوات ترفض من يتقدم اليها من الزنوج • وكان هناك اندماج كامل في القوات المسلحة التي كان يسودها العزل تماما عند بدء الحرب العالمية الثانية ، وكذلك في الفروع المدنية من الحكومة ، وخدم الزنوج بأعداد متزايدة في السلك الدبلوماسي ، حيث شـغلوا مناصب مسئولة مثل منصب الملحق الثقافي في روما أو رانجون ، وكانوا يعينون أساتذة في كليات الجامعات الامريكية الكبرى ، وكان لهم نشاطهم كأفراد عاديين وفي كثير من المراكز القيادية ، في الحركة العمالية وغيرها من المنظمات القائمة على التطوع ، وكانت الأماني التي ساورت الأولاد والبنات التسع اللاتي التحقن بالمدرسة الثانوية في ليتل‌روك بولاية أركنساس عام١٩٥٧، وفي ظل حماية القوات الاتحادية ، وهي الأماني المتعلقة بالوظائف التي يطمحون فيها ، تمثل الأماني التي يمكن أن تساور أية مجموعة من طلبة المدارس الثانوية : مهندس ، عالم ذرى ، مصمم أزياء ، محام ، مدرس ، وراقصة باليه •

وأهم من هذا كله أن أعدادا أكثر فأكثر من الأمريكيين ممن تصادف أن كانوا زنوجا ، استطاعوا أن يعملوا كأفراد خارج نطاق مهام التقاليد على اعتبارها من مهـام الزنوج ، وفعلوا هذا على أسـاس اهتمامهم وتدريبهم ، دون أن يضطروا الى أن يشغلوا أنفسهم بالمشاكل الزنجية وحدها ، أو أن يقتصروا على خدمة أفراد الجماعة التي ينتمون اليها ، أو أن يقفوا دائما باعتبارهم المتحدث باسم جنسهم أو الرمز الذى يدل عليه •

وخلال السنوات لم يكن النضال من أجل ادماج الأمريكيين الزنوج كمواطنين وشركاء بالمعنى الكامل فى الحياة الامريكية ، نضال زنوج فحسب ، ولكنه كان نضال أهل الولايات المتحدة ، اذ كان جزءا من المجهود الأمريكى الشامل فى سبيل تحقيق معنى الديموقراطية . وطبقا لعبارة احدى الزعيمات الزنجيات ذوات النشاط والفاعلية . فى الخمسينات ، وهى تصف « الانجاز البطولى » الذى حققه الزنجى فى الولايات المتحدة منذ عام ١٨٦٣ : « ان انتقال الزنجى من سقط المتاع الى رجل حر ، والى المواطنة القانونية ، والمساواة المتزايدة فى الحقوق والفرص ، والى قبوله جارا ومواطنا من أبناء بلد واحد ، كل هذا يمثل دليلا مثيرا على طابع الديموقراطية الايجابى والفعال » . وحيث يوجد التناقض غير الديموقراطى « فان مصالح الأغلبية فى فضه المتدرج كبيرة ، شأنها شأن مصالح الأقلية » (*) . ان « الحلم الأمريكى » عن الحرية والمساواة ، وحقوق كل فرد كمواطن ، وقيمته وكرامته كشخص ، وحقه فى أن تتاح له فرصة متساوية كى يسعى وراء ما فيه خيره وتطوره ، كل هذا ظل أساسيا بالنسبة الى الحياة والفكر الأمريكيين ، مهما انتهكت هذه المبادىء من الناحية العملية . وكما استخلص العالم الاجتماعى السويدى جونار ميردال ، بعد دراسة مستفيضة لمركز الزنجى الأمريكى فى الأربعينات : « يملك البيض القوة كلها ، ولكن الشقاق يسود شخصيتهم الأخلاقية . ان الجانب المشرق أو الأفضل من نفوسهم يقف فى صف المتمردين ، وليس الزنوج بحاجة الى حلفاء آخرين » (*) .

(و) المنبوذين :

من بين أكبر المجموعات الخاضعة لأقصى أشكال التفرقة تطرفا ، كان المنبوذون بالهند ، الذين بلغت عدتهم خمسين مليونا حسب احصاء عام ١٩٣١ . كانت هذه الطبقات معزولة ، ومحرومة من الحقوق المدنية الأولية ، ومقصورة على الحرف التى تعتبر غير نظيفة ، مثل كنس الشوارع والطرقات وجمع القمامات . وكانوا موجودين فى جميع أجزاء الهند ، اذ اعتمدت عليهم كل قرية وبلدة فى القيام بالمهام اللازمة التى لا يؤديها أى هندوكى آخر ، وكانوا بدورهم فى حالة تبعية كاملة ، اذ لم يكن فى مقدورهم أن يسحبوا الماء من بئر القرية ، وعليهم الانتظار الى أن يملأ لهم غيرهم جرارهم بالماء .

(*) Butcher, The Negro in American Culture, op. cit., p. 22.
(*) Gunnar Myrdal, An American Dilemma, (New York, 1944), p. 1004.

وترجع « المنبوذية » أو فكرة النبذ الى أزمان موغلة فى القـــدم ـ كانت موجودة فى زمن بوذا لأنه هاجمها ـ وكانت راسخة فى العرف الاجتماعى • ورأى الكثيرون أن الدين يؤيد هذه الفكرة ، اذ كان ثمة اعتقاد واسع الانتشار بأن المنبوذ وصل الى وضعه الراهن نتيجة خطاياه أو حالات فشله فى حياة سابقة • واعتنق الكثيرون من المنبوذين هذه الفكرة عن أنفسهم ، ومن ثم وجدوا أنفسهم وقد هبطت بمنزلتهم عقوبات قوية ، عملية ودينية وسيكولوجية •

ان التغيير الثـورى فى مركزهم الى الحد الذى عنـده أصـبحت المنبوذية جريمة يعاقب عليها القانون ، هذا التغيير أحدثته أصلا القوى التى حررت البلد ، وراحت تصلح البنيان العريض للمجتمع الهندى • ولم تلعب جهود المنبوذين أنفسهم الا دوراً صغيراً فى تغيير مركزهم من مركز شخص مطرود الى مواطن له حقوق قانونية كاملة •

وبنهاية القرن التاسع عشر تعرض نظام المنبوذين للهجوم من قبل الحركات الرامية الى اصلاح المجتمع الهندوكى • فاستنكره جملة وتفصيلا سوامى فيفيكاناندا Swami Vivekananda، وهو من الشخصيات الكبرى فى مجال الاصلاح الهندوكى • وبدأ عدد من البراهمة وغيرهم من أبناء الطوائف العليا يعملون بصفاتهم الفردية فى صفوف المنبوذين • وخطا عـدد قليل من المهراجات خطوات فى داخل أقاليمهم ، فحـاول مهراجا بارودا الغاء النظام فى ولايته ، ولكنه لم يتمكن من مواصلة الســعى لتحقيق بغيته ، وعين مهراجا ترافانكور منبوذين كقضاة وفى مناصب عامة أخرى • بيد أن هذه كانت هجمات متفرقة ، وتمثل بالرغم من تزايد عددها اهتماما خاصا من جانب أفراد ، بدلا من أن تمثل حركة عريضة • وبرغم هذا ، وبالاضافة الى الجوانب الأخرى من حركات الاصلاح فى ذلك الوقت ، بدأت هذه الهجمات تقوض الموقف الشعبى الذى أخذ كقضـية مسلمة أن المنبوذية نظام دائم لا يتغير •

وأسهمت بعض الضغوط الخارجية بشىء من الحفز على اجراء تغيير فى معاملة المنبوذين ، أشهرها الخطر من التحول الواســع النطاق الى المسيحية أو الاسلام • فقد وجهت الارساليات المسيحية فى القرن التاسع عشر دعوتها فى أول الأمر الى البراهما بصفة رئيسية ، واجتذبت عددا من الأشـــخاص المتعلمين وخاصة فى البنغال ، حيث تركزت المصالح البريطانية ، وكانت الأساليب الغربية تكتسب مكانة وسمعة • ولكن مع حركة اصلاح المجتمع الهندوكى من الداخل فقدت المسيحية الكثير مما كانت تستهوى به أولئك الذين كانت صرامة الأعراف الاجتماعية فى

العقيدة الهندوكية هى التى حملتهم على التحول عنهـا • بعد ذلك غيرت كثير من الارساليات المسـيحية أسـلوبها واتجهت بدعوتها الى المنبوذين الذين هيأت لهم فرصة تكافؤ المركز فى داخـل المجتمع المسيحى • وفى أقاليم معينة وبوجه خاص فجحت الارساليات فى اجتذاب أعداد كبيرة من المنبوذين ، ورأى الزعماء الهندوكيون ما يهدد بأن يصبح ردة واسـعة النطاق اذا لم يمكن تحسين حظوظ المنبوذين فى داخل المجتمع الهندوكى • وبالاضافة الى هذا كانت الجاذبية الموجودة دائما من جانب الاسلام الذى لا يعرف نظام الطائفية ولا يقره •

لكن كان مهاتما غاندى هو الذى جعل الغاء نظام المنبوذين مشكلة وطنية حيوية • فعندما عاد الى الهند من جنوب أفريقية فى عام ١٩١٥ زار أسرات المنبوذين الذين كانوا السند الرئيسى لمقاومته السلبية فى جنوب أفريقية ، ورحب بالمنبوذين للاقامة معه فى نفس البيت ، الامر الذى أثار فزع أصدقائه الذين زودوه بمكان يقيم فيه • واعتبارا من ذلك الوقت جعل من الواضح أن القضاء على هذا النظام هو من رسالاته الأصلية •

وفى ظل زعامة غاندى التزمت الحركة الوطنية بالغـاء المنبوذية ، باعتباره هدفا رئيسيا ، فأصدر المؤتمر الوطنى الهندى فى دور انعقاده عام ١٩٢٠ قرارا أعلن فيه أن ازالة المنبوذية لازمة لبلوغ الحرية ، ومنذ ذلك الحين لم يتحول المؤتمر عن هذا الموقف • وفى عام ١٩٢٩ كون لجنة معادية للمنبوذية عملت على فتح أبواب المعـابد والمدارس والآبار أمام المنبوذين • وحيث سيطر حزب المؤتمر على الحكومات الاقليمية فى ظل دستور ١٩٣٥ عمل على سن القوانين لصالح المنبوذين ، مثل حرية التعليم ابتداء من المدرسة الأولية حتى الجامعة فى بيهار ، أو فتح بعض المعـابد فى بومباى •

ولم يدع غاندى نفسه فرصة لتذكير الجمهور « بالأثم والخطيئة فى نظام المنبوذين » ، فأصر على أن يتوجه العاملون من حزب المؤتمر الى القرى، وأن يمارسوا فعلا المساواة مع الذين ظلوا طويلا يعتبرون منبوذين • وفى الرحلات التى قام بها فى جميع أرجاء الهند كان يقيم مع المنبوذين فىالأحياء المخصصة لهم • وبالنسبة الى المنبوذين أنفسهم سعى الى جعلهم يشعرون بالكرامة واحترام النفس • واذ كان يعتبر اسم « منبوذ » بغيضا ويحتمل أن يؤكد احساسا بالنقص أطلق عليهم اسم الهاريجان **Harijans** أى أطفال الله ، وشجعهم على العمل من أجل رفع شأنهم وتحسين أحوالهم ، وأن يأخذوا بالمسلك الذى يكسبهم الاحترام مثل عدم تعاطى المسكرات ،

وأن يشاركوا بنشاط فى حزب المؤتمر • ومن أجل مساعدتهم فى جهودهم التى يبذلونها لتحسين وضعهم أسس ورأس جمعية لخدمة الهاريجان ، تعيش على أموال وأفراد خصصوا للتعليم وخدمات الرفاهية •

ونشط مجتمع الهاريجان نفسه فى العمل على ما فيه خيرة فى بعض الأماكن ، وأخرج بعض زعماء بارزين أشهرهم الدكتور بهيم راو أمبدكار Bhim Rao Ambedkar وهو محام وعالم اجتماعى تلقى علومه فى لندن • واذ بدأت الحركة الوطنية تستخدم سلاح المقاومة السلبية ضد الاثارة البريطانية اتخذ الهاريجان الأسلوب نفسه لتحقيق غاياتهم هم • ففى ترافانكور مثلا أدت حركة من المقاومة السلبية الى صدور اعلان فى عام ١٩٣٢ يسمح للهاريجان بدخول المعابد الهندوكية • وكانت حركات الهاريجان من أجل تحسين أحوالهم محلية ، وتركز معظمها فى المجتمعات الحضرية ، فيما عدا حركة على نطاق ولاية ترافانكور سعت الى رفع شأن المجتمع بكليته • وعن طريق المساعدة من جانب الوحدات المحلية التابعة لحزب المؤتمر تكرر بذل جهود محلية من أجل ازالة القيود المحلية ، ولكن هذه الجهود اصطدمت فى الهند البريطانية مع المحاكم التى ساندت العرف المحلى فى مسائل من قبيل استخدام آبار القرية • وحتى حيث لم يحدث تغيير قانونى تحطم العرف الى حد ما فى عدد من الأماكن •

غير أن هذه الجهود المتقطعة المتفرقة بدت غير كافية تماما فى نظر الدكتور أمبدكار الذى لم ير مستقبلا للطبقات المهضومة الحقوق ، فى داخل النطاق الهندوكى • ولذلك بدأ ينظم حركة سياسية بغرض نيل الاعتراف بالمنبوذين بوصفهم كيانا منفصلا عن الهندوكيين ، له الحق فى حقوق سياسية منفصلة وتمثيل منفصل ، كما كان الشأن بالنسبة الى الجاليات غير الهندوكية ، وأشهرها المسلمون • وظفرت الحركة بالاعتراف من جانب الحكومة البريطانية التى كانت سياستها تقوم على تشجيع الاتجاهات الانفصالية والتفرقة فى صفوف الجماعات فى شبه القارة الهندية ، ودعى أمبدكار لحضور مؤتمر المائدة المستديرة بلندن فى عام ١٩٣١ ليمثل المنبوذين • ولكن غاندى قاوم الحركة الرامية الى أن تجعل من المنبوذين مجتمعا منفصلا عن سواه ، وقاومها بعنف أشد ما يكون العنف ، وأعلن « صياما حتى الموت » عندما اقترح البريطانيون وضع مشروع لاقامة مجتمع منفصل فى عام ١٩٣٢ : وأسفر صيامه عن حل وسط ينص على مقاعد خاصة للهاريجان ولكن يجرى الانتخاب لها من دوائر مشتركة •

ولقيت جهود أمبدكار تأييدا جماهيريا قليلا من الهاريجان ، اذ كانت أغلبيتهم هندوكيين أتقياء من الناحية الدينية ، ولم تستجب لدعوته المعادية

للهندوس . أما الذين كانوا على استعداد للخروج على الهندوكية فقد كان الأكثر احتمالا أن ينحازوا الى الجالية المسيحية أو الاسلامية ، بدلا من الانحياز الى مجتمع من المنبوذين كانت هويتهم فيه محددة وفق مصطلحات هندوكية • وأهم من هذا أنه لما كان ما يرغب فيه الهاريجـــان هو أن يتمتعوا بحقوق المواطنين الكاملة ، لهذا كان هدفهم هو الاندماج فى كتلة المجتمع وازالة الحواجز ، بدلا من اقامة شخصية منفصلة دائمة •

وفى الوقت الذى تحقق فيه الاستقلال كان الجمهور الهندوكى قد أصبح يعتبر المنبوذية شرا ، ويتقبل ضرورة اجتثاثها من جذورها • ان أكثر من خمس وعشرين سنة من دعاية غاندى ، والتزام حزب المؤتمر ، واليقظة بين الهاريجان أنفسهم ، كل هذا مهد الأرض لحل جذرى •

كان الموقف القانونى واضحا فى الهند المستقلة • فطبقا للدستور : تلغى ((**المنبوذية**)) وتحرم ممارستها بأى شكل كان • ولسوف يكون تطبيق أى قيد ناشىء عن **المنبوذية** جريمة يعاقب عليها طبقا للقانون • وحدد قانون (جرائم) المنبوذية الصادر فى عام ١٩٥٥ بالتفصيل أنواع التفرقة وفرض العقوبات • وبالاضافة الى هذا اعترفت الحكومة الهندية أن قرون العجز وضعت الهاريجان فى موقف تنافسى ليس فى صالحهم ، حتى حيث لم تكن هناك حواجز فى وجههم ، بحيث كان من الضرورى وضع نصوص خاصة تكفل لهم فرصة الحصول على التعليم والمشاركة فى الحياة العامة • ومن ثم خصصت منح دراسية خاصة للطلاب الهاريجـــان ، واحتفظ بنسبة من الوظائف الشاغرة فى التعيينات الحكومية للمتقدمين اليها من الهاريجان • وفى هذه الأثناء ولى القادرون منهم مناصب الوزارة فى الحكومة الاتحادية والولايات المتعددة •

ان العادات والاتجاهات التى نمت خلال قرون لم تختف بين يوم وليلة ، فى أكثر من مليون ونصف المليون من القرى والبنادر الهندية ، ولم تصبح الحقوق القانونية أسلوبا اجتماعيا على الفور • ولكن العمليات الديموقراطية كانت تجعل الغاء المنبوذية فعالا • فمنح البـــالغين حق التصويت جاء بالطبقات المنبوذة السابقة الى مراكز السلطة فى الحكومات المحلية والاقليمية وفى الحكومة المركزية ، وساعد تجنيد الهاريجان فى فروع الخدمة العامة على اضفاء طابع واقعى على التغيير الثورى فى مركز هذا القطاع من المجتمع الهندى ، وهو القطاع الذى كان قبلا فى أسوأ وضع •

تعليقات على الفصل الحادى عشر

(١) يرى لودفيك سفوبودا العضو المراسل بأكاديميـــة العـــلوم (تشيكوسلوفاكيا) أن القسم المخصص لحركة العمال لا يتضمن عرضا دقيقا وشاملا للمشكلة . انه يعدد حقائق فحسب ، دون أن يبرز الظـــواهر الجوهرية القاطعة .. والسبب الرئيسى فى هذا هو أن المؤلفين لا يدركون الحقائق الاقتصادية الكامنة وراء المشكلات .. ان ما يميـــز المؤلفين أنهم لا يعطفون الا على نضال الطبقة العاملة فى المجال الاقتصادى ويرفضـــون النضـال السياسى والايديولوجى . ومن قراءة النص يمكن الاســتنتاج بأن المؤلفين لا يعتبرون الاضراب وسيلة لا يسمح بها لمواصلة النضال ، الا عندما لا يتجاوز حدود المطالب الاقتصـــادية ، وانهم يستنكرون الاضراب الســياسى . ففى رأى المؤلفين أن النضـــال الايديولوجى شىء أدخل من الخارج على حركة العمال ، وكان ذلك أســـاسا على أيدى المثقفين . وعلى ذلك فمما يبعث على الدهشة أن موقف الطبقة العاملة فى أوربا الغربية يبدو فى نظر المؤلفين داعيا الى الرضا تماما . ووجهة النظر هذه يؤيدها الدكتـــور جانـــوس جمنيــــك Janos Jemnic (هنغاريا) الذى يلاحظ أن المؤلفين يولون الاهتمام بصفة رئيسية الى أمانى العمال الموجهة نحو تحسين موقف الطبقة العاملة داخل اطار النظام الاجتماعى القائم . مثـــــل هذا التضييق لميدان البحث نتج عنه عرض حركة العمال ككل بطريقة مشوهة : فيخلق الانطباع الباطل بأن رفاهيـــة الجماهير الشعبية يمكن ضمانها بحركة اصـــلاحية داخـــل اطار النظام الاجتمـــاعى القائم . وفى موضعين من النص يشير المؤلفون بايجاز الى الحركة الثـــورية التى قامت بها الطبقات العاملة فى الغرب ، دون أن يوفوها حقها .

(٢) يود المؤلفون أن يلفتوا نظـــر القارىء الى عبارة النص ، وبخاصة ما تعـــلق بمناقشة الحركة العمالية الشيوعية ، ص ٢٢٧ — ٢٣٠ ، والنقابية الثورية فى أوربا الغربية ، ص ٢٦٣ .

(٣) يشدد الدكتور جانوس جمنيك ، ك . باجنيان على أن توسع مصادر القـــوة الكهربية ، واستخدام الالات والتنظيم العاقل للصناعة وارتفاع انتاجية العمـــل فى ظل سيادة الملكية الخاصة ، كل هذا لا يؤدى الى رفع مستويات المعيشة للعمال ، ولكنهم يستغلون بصفة رئيسية لخدمة مصالح أصحاب الاعمال ، انظر :

Lewis Mumford : Art and Technics (New york , 1952) ,
In the Name of Sanity (New York, 1954) 0

وغيرهما من المؤلفات . ان العامل لا يكسب شيئا الا اذا ظفر بامتيازات عن طريق النضال (مثال ذلك الاضرابات فى صناعة الحديد والصلب فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٩٥٩) .

(٤) يلاحظ الدكتور باجنيان أن تمكن العمـال الالمان من استخدام الشرعيـــة الدستورية المحدودة جدا لاقامة المؤسسات الخاصة بهم . الاتحـــادات العمـــالية التعاونيات والحزب الـــ[illegible] بالانجاز البسيط . وكان للأخير تأثير كبير على نشـــاط

الاتحادات الى أن اتخذ قرار فى دور انعقاد الحزب فى مانهايم عام ١٩٠٦ ، نص على مبدأ «المساواة فى الحقوق» بين الاتحادات والحزب ، وبذا توض مركز الجناح الثورى فى الاتحادات . انظر :

Farwing : Der Kampf um die Gewerhschaften, p. 219.

(٥) يشدد الدكتور باجنيان على أن « المركزية الديموقراطية » لا تعنى النظام الدقيق فحسب ، ولكنها تعنى أيضا منح حقوق ديموقراطية واسعة النطاق لجميع المنظمات المحلية ولكل عضو بالحزب ، وممارسة الرقابة من جانب كل جمهور الحزب على الاجهزة المنتخبة . وها هنا النصوص التى تقررت بهذا الصدد فى لوائح الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى ، كما تأكدت فى دور انعقاده الثانى والعشرين فى عام ١٩٦١ :

المبدأ الموجه للبنيان التنظيمى للحزب هو المركزية الديموقراطية التى تعنى :

(أ) الطابع الانتخابى لجميع أجهزة الحزب المسيطرة من أدناها الى أعلاها .

(ب) تقديم أجهزة الحزب الحساب من وقت لآخر الى منظماتها الحزبية ، والى التنظيمات التى تعلوها .

(ج) نظاما حزبيا دقيقا وخضوع الاقلية للاغلبية

(د) القوة التفويضية غير المشروطة للقرارات التى تصدرها الاجهزة الاعلى الى الاجهزة الادنى . انظر :

Ustav KPSS)Statutes of the Communist Party of the Soviet Union), Moscow, 1961, p. 12.

(٦) كتب الدكتوران جانوس جمنيك ، ك . باجنيان : «حصلت اتحادات العمال فى روسيا السوفييتية والبلاد الاشتراكية الاخرى على حقوق واسعة جدا . ان مصالحها تتمشي تماما مع مصالح الحكومة . ولايطلب من الاتحادات أن تدافع عن مصالح العمال نحسب ، ولكن أعطتها وظيفة ادارة أموال التأمين الاجتماعى ، وهى مسئولة عن الصحة المهنية والامن فى المصانع وحماية العمل . وفى ظل هذه الظروف أصبحت الاتفاقيات الجماعية التزامات ثنائية ملزمة لكل من الادارة والاتحادات ، ويراد بها تنمية الاهداف المشتركة ، انظر مثلا : Ustav Professionalnykh soyuzov, SSSR. (لوائح النقابات فى الاتحاد السوفييتى) كما تأكدت فى الدورة الثانية عشرة المنعقدة فى ٢٧ مارس ١٩٥٩ (موسكو ، ١٩٥٩) .

(٧) يؤكد أ . بوفين مرشح العلوم القانونية أنه من الوجهة العضوية لايمكن أن تقع الاضرابات فى الاتحاد السوفييتى وفى الديموقراطيات الشعبية ، اذ حين تكون السلطة فى أيدى الطبقة العاملة يفقد كل عمل من أعمال الاضراب كل معنى . إن الاحداث التى وقعت عام ١٩٥٦ فى بولندا وفى جمهورية المانيا الديموقراطية وهنغاريا لا علاقة لها على الاطلاق بنضال العمال من أجل حقوقهم . لقد كانت محاولات لاحداث حركات تمرد معادية للثورة وموجهة نحو قلب البنيان الاشتراكى فى تلك البلاد ، ونظمتها

القوى الداخلية المعادية للثورة ، بتأييد من الامبريالية الدولية . وبسرعة فائقة صفت الطبقة العاملة فى ولندا وجمهورية المانيا الديموقراطية ومنغاريا هـذه التغيرات عن العداء للاشتراكية ، اذ لم تكن لها أدنى جذور فى الجماهير العاملة . انظر الملاحظة رقم ١٢ المرفقة بالفصل الثانى .

(٨) يقول الدكتور باجنيان : « فى معظم البلاد الحديثة العهد بالتصنيع تكون للنضال من أجل الحرية والاستقلال ضد التدخل الاجنبى أهمية حيوية . وعلى ذلك، فبالمقارنة مع المشاكل السياسية تتراجع مشكلات العمال اليومية الى الخلف بصورة مؤقتة أحيانا .

(٩) يشدد الدكتور باجنيان على أن زعماء الاتحاد الدولى للنقابات الحرة اتخذوا موقفا منشقا ، ورفضوا التعاون مع الاتحاد العالمى للنقابات فى النضال من اجل السلام . انظر مثلا :

W.Z. Foster, Outline History of the World Trade Union Movement (New York, 1956).

وانظر أيضا

Labour Research Association, Labour Fact Book 12, (New York, 1955).

(١٠) يلاحظ الدكتور جانوس جيمنيك أن قانون المنازعات الحرفية والنقابات لعام ١٩٢٧ شل النشاط النقابى فى المملكة المتحدة سنوات كثيرة .

(١١) يسترعى ف.ب. تيخوميروف V. P. Tikhomirov الانتباه الى حقيقة أن طبقة الفلاحين فى حد ذاتها لاتمثل مجموعة متجانسة ، وبذلك يختلف مركز مختلف فئات المزارعين والفلاحين فى المجتمع الطبقى .

(١٢) يكتب الاستاذ أ.ن. ون هولاندر : يظل الفارق بين فلاح ومزارع كما يبينه المؤلفون الامريكيون غير واضح المعالم فى هذا المخطوط ، شأنه فى أى مطبوع آخر قرأته . فبرغم أن المؤلفين المحررين يستخدمون كلمة Farmer للدلالة على الطراز الرأسمالى أساسا من المزارع فى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندا ، ويستخدمون كلمة Peasant للدلالة على المزارع الذى ينتج وسائل عيشه أو المستأجر فى أوربا الشرقية وآسيا ، فان تحليلا آخر للمعايير قد يكون ذا فائدة . ان الفارق بين الاثنين ثقافى ، وتنشأ صعوبة تعريف كل من الطرازين من حقيقة أنه فى الازمنة الحديثة ، وخاصة خلال القرن الحالى ــ تصبح المراحل الانتقالية بين الواحد والآخر من الكثرة بحيث تطمس معالم كل منهما .

ان مفهوم فلاح Peasant على الاقل كما يفهم فى الغرب مستمد من المجتمع الطائفى الذى كان قائما فى العصر الاقطاعى واستمراره فى نظام الحكم القديم، حين كان هذا الشخص بوصفه مشتغلا بالزراعة فى حالة ركود . كان يفلح الارض فى اقتصاد يكاد يقوم على الاكتفاء الذاتى ، ولم ير أو يفكر ــ باستثناء الدين ــ مايتجاوز حدود المنطقة التى يعيش فيها ، وكان عضوا بأسرة باعتبارها الوحدة العائلة الاولية وعضوا فى قرية باعتبارها مجموعة متماسكة وتعاونية . وبالنسبة الى هـذا النوع من

وجوده وجد في التعليم قيمة قليلة ، حتى من حيث معرفة القـــراءة والكتابة ، والتـــزم تواجد سلوك شخص تعود على فلاحة التربة والاختلاط بالماشية بمثل ما يختلط بالبشر . وسواء ملك الارض التي يفلحها أو كان في مركز القن ، فان هذا لم يؤثر في خصـــائص الطراز الثقافي الاساسية ، اذ كان في أي من الحالتين فلاحا Peasant

وسواء والى أي حد استمرت هذه الخصائص حتى الفترة القريبة العهد ، فقد كان هذا يتوقف الى حد كبير على توافر البديلات عن هذه الطريقة للحياة بالنسبة الى افـــراد جمـــاعة Peasantry . واصبحت البديلات ممكنة لاول مرة على نطاق له شأنه ، مع قيام المجتمع الصناعي وانتشاره ذلك الذي غير علاقات الســـوق بالنسبة الى المشتغلين بالزراعة ، وبذلك أحدث تحولا في موقف المزارعين نحو التغير والوقت ، ونحو أسرع الوسائل للتلاؤم مع الفرص الجديدة ، وهي فرص التعليم . وانطوت عملية التكيف مع المجتمع الصناعي على تعلم شيء عن الزراعة التجـــارية والعلمية وحساب التكاليف ، وهذه الاهتمامات جرت في أذيالها إتخاذ الكثير من عادات واهتمامات أهل الحضر الاجتماعيـــة والسياسية ، وتنوع معدل ومدى التكيف وفقـــا للظروف ، وغالبا ماتنوعا في نفس الاقليم الواحد طبقا للصفات الشخصية ، ولكن اذ تكيف الافراد مع المجتمع الجديد ، اكتسبوا خصائص مختلفة جدا عن خصائص المزارعين وبدلا من اصطلاح أفضل للاشارة الى الطراز الجديد من المشتغلين بالزراعة ــ ويمكن استخدام الكلمة التي نشأت في الولايات المتحدة ، حيث ترتب على عدم وجود طائفـــة تقليدية أو طبقة ثانية قانونا أو بنيان للمراكز ــ ان ساد الطراز الجديد وفرض المعيار وأشير الى الطراز الجديد على أنه «مزارع» أي شخص له خصائص الطبقة الوسطى لم تكن حرفته وهي مشروع رأسمالي الصناعة أو التجارة ، ولكنها كانت الزراعة . واذ ازداد استخدام الآلات في هذه الحرفة ، وخضعت للنظام العلمي ، زاد ميل المشتغل بالزراعة الى أن يشارك في عادات عمل وفكر الفني الصناعي ، وتضاءل بسرعة الفارق بين المجتمع الريفي والحضري . عند هذه النقطة لم تعد فلاحة الارض مرادفة لطريقة حياة المزارعين ، واصبحت وسيلة لكسب العيش تمكن الذين يزاولونها من أن يكونوا مثل أعضاء المجتمع الحضري كلما سمحت بذلك حرفة الزراعة . وفي هذه العملية ضربت اوربا الكثير من الامثال ــ ويفكر المرء في الدنمرك من بين بلاد أخرى ــ في الطراز «فلاح» ولكن ينفي معظم أهل الزراعة في مراحل شتى في الانتقال من حالة المزارع الى حـــالة الفلاح .

من الكتابات الهامة في هذا الموضوع متعال .. Farmer الذي نشره الاستاذ رودلف هيبـــرل في Handvorterbuch der Sozialwissenschaften المجـــلد الثالث الطبعة ١٩٦١) ، ٤٧٨ وما بعدها . (المقال وثبت المصـــادر التي ذكرها الأستاذ هيبرل كلهـــا بالالمـــانية) . وبوجـــه خاص نوصي بقراءة التقرير الذي أعدته ندوة من العلماء الفرنسيين في ميادين شتى ، وهي ندوة عقدت بباريس في مارس ١٩٥١ لبحث موضوع «المـدن والاريان» ، الحضـارة المدنية والحضـــارة الريفية في فرنسا . وهذا التقرير الذي تولى تحريره الاستاذ جورج فريدمان ، نشرته مدرسة الدراسات العليا بجامعة باريس على يد مكتبة ارمان كمولان (بدون تاريخ) .

(١٣) يلاحظ ف.ب. تيخو ميروف أن المؤلفين يقدمون فكرة مشـــوهة عن السياسة

التى انتهجها الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى بشأن مسألة الفلاحين وتطبيق نظام المزارع الجماعية الذى نفذ فى الاتحاد السوفييتى ففى أواخر العشرينـات كانت الزراعة فى الاتحـاد السوفييتى متخلفة تخلفا كبيرا جدا عن نمو الصـناعة الاشـتراكية . كانت الصناعة قائمة على أساس المركزية وتعمل على نطاق كبير . وظلت الزراعة على نطاق صغير وفى قطع صغيرة متناثرة . وكانت الصناعة مبنية على الملكية الجماعية ـ أى الاشتراكية ـ لوسائل الانتاج ، على حين كانت الملكية الصغيرة لوسائل الانتاج هى القاعدة فى المزارع الصغيرة . وأخضعت الصناعة الاشتراكية لمبدأ التخطيط . وكانت ملكية المزارع الصغيرة تحت رحمة تقلبات السوق . وكان فى امكان الصناعة الاشتراكية الكبيرة أن تعتمد دائما على أحدث ضروب التقدم الفنى ، وكانت تنمو وتتطور بمعدل سريع استجابة لمبدأ تجدد الانتاج على نظام موسع . ولم تكن لملكية المزارع الصغيرة امكانية استخدام الآلات الحديثة، وكانت تتطور ببطء وغالبا ببطء لم يكن يضمن حتى تجدد الانتاج البسيط .

ولم يحل عام ١٩٢٧ حتى كانت الملكيات الصغيرة المتناثرة قد استنفدت بصـفة أساسية احتمالاتها من ناحية تحقيق زيادة جديدة فى الانتاجية . وكانت عملية تجـزئة الملكيات مستمرة فى الريف ، ولم تكن هذه لتغل الا أقل حد من المنتج القابل للتسويق، وبخاصة الغلال . فبينما المنتج الاجمالى للزراعة فى ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ تجاوز مسـتوى ماقبل الحرب ، لم يبلغ الانتاج الاجمالى من القمح وهو المحصول الاساسى فى تلك السنة سوى ٩٥٪ من الانتاج الاجمالى لعام ١٩١٣ ، وكان الجزء القابل للتسويق ١٣٫٣٪ مقابل ٢٦٪ فى فترة ماقبل الحرب .

فى ظل تلك الظروف لم يتمكن محصول القمح من اشباع مطالب البلد من الخبز، وهى مطالب كانت تتزايد بنسبة الزيادة فى سكان الحضر والطبقة العاملة . وكان تأخر الزراعة يشكل «فرملة» على البناء الاشتراكى كله .

ولصالح بناء الاشتراكية كان من الضرورات الملحة تصفية تأخر الزراعة واحداث انتقال من الملكية الخاصة الصغيرة الى المزرعة الاشتراكية الكبيرة . فمن أجل بناء الاشتراكية تعين نقل الأرض كلها الى الملكية العامة ، اذ يمكن بناء الاشتراكية بنجاح اذا استمر شكلان من الاقتصاد : الاقتصاد الاشتراكى فى المجال الحضرى ، واقتصاد السلع الصغيرة فى المجال الريفى ـ يعيشان جنبا الى جنب .

وتقوم اعادة البناء الاشتراكى للزراعة على خطة لينين التعاونية . كان لينين قد أوضح أن التعاون هو أسهل طريق للوصول الى اعادة البناء الاشتراكى للزراعة ، وأن فى ظروف دكتاتورية البروليتاريا يكون مجرد نمو التعـاون متماثلا ومتمشيا مع نمو الاشتراكية ، وأنه حين تكون هناك ملكية الدولة لجميع وسـائل الانتـاج الكبرى ، وتحالف للبروليتاريا مع جماهير الفلاحين الكادحين ، وحين تلعب البروليتاريا الدور الموجه فى هذا الاتحاد ـ تتحقق جميع الشروط اللازمة لاستخدام التعاون كوسـيلة لبناء المجتمع الاشتراكى . وتعلمنا اللينينية أن الفلاحين يجب أن يتعاونوا على أساس اختيارى بحت ، وأنه يجب اقناعهم بالتدريج عن طريق الأمثلة التوضيحية العملية . أولا فى مجالات التعاون التى تتصل بالعرض والبيع ، ثم فى مجال الانتاج الزراعى . وخلق قاعدة صناعية صلبة هو المقدمة الضرورية الجوهرية لاستخدام الآلات فى الزراعة، تسهم فى اعادة البناء الاشتراكى للريف .

وبوضع الزراعة على أساس تعاونى حلت على الفور ثلاث مشكلات هامة :

(أ) حولت وحدات الانتاج الزراعى من ملكيات صغيرة ومتناثرة الى مزارع جماعية كبيرة الحجم ، (ب) صفيت آخر طبقة مستغلة وهى الكولاك (المزارعون الاغنياء) (ج) خلقت الظروف اللازمة لارتفاع حاسم فى الانتاج الزراعى .

فى السنوات الاولى من الحكم السوفييتى اقتنع المزارعون الروس عن طريق التجربة الشخصية أنه لو أرسيت الزراعة على أساس تعاونى لامكن أن تكون هناك امكانية رفع مستوى الفلاحين ككل وتصفية الاستغلال فى الريف . وهذا هو السبب الذى من أجله تمسكت الاغلبية الساحقة من المزارعين الفقراء والمتوسطين ، وبمحض اختيارهم بتطبيق الزراعة الجماعية .

فبدلا من خمس وعشرين مليون ملكية صغيرة فى الاتحاد السوفييتى توجد الآن سبعون ألف مزرعة جماعية . وأصبح فلاحو الاتحاد السوفييتى طبقة متجانسة فى المجتمع الاشتراكى . انظر أيضا الملاحظة ١١ فى ختام الفصل (٢) .

(١٤) يحيل المؤلفون القارىء الى الفصل المعقود عن الزراعة (الفصل ١٤) والى المراجع الواردة فى الملاحظة المرفقة بذلك الفصل .

(١٥) يظن الاكاديمى د. كوسيف أن التأكيد على أن أحزاب الفلاحين فى بلاد أوربا الشرقية نظمتها الاحزاب الشيوعية ، يتعارض مع الحقائق التاريخية . فمثل هذه الاحزاب كانت موجودة حتى قبل الحرب العالمية الثانية . وخلال الحرب ضد الفاشية كان قد بدأ تقارب بين أحزاب الفلاحين والاحزاب الشيوعية تحول فيما بعد الى تحالف من أجل القتال .

(١٦) يظن الدكتور جانوس جيمنيك أن الافكار المعبر عنها بصدد تطور بلاد شرق أوربا منذ الحرب ، تصدر عن مفهوم خاطىء . فالمظهر المميز لا يكمن فى الاختلافات بين أحزاب الفلاحين والاحزاب الشيوعية ، بل على العكس لعبت الاحزاب الشيوعية فى كل مكان دورا كبيرا فى تنفيذ الاصلاح الزراعى ، ودافعت عن ملكيات الفلاحين ضد كبار ملاك الاراضى (ليس ثمة ذكر لهذا) .

ويتفق معه ف.ب. تيخو ميروف ويلاحظ أن المؤلفين يعطون فكرة خاطئة عن عملية انشاء المزارع الجماعية فى الديموقراطيات الشعبية بأوربا . فقد أقيم تحالف صلب بين الطبقة العاملة والفلاحين تحت قيادة الاحزاب الشيوعية وأحزاب العمال ، بينما كانت الحرب لاتزال مشتعلة من أجل التحرر من الرجعية الخارجية والداخلية، خلال الحرب العالمية الثانية . وبعد انهيار ألمانيا النازية فى نهاية الحرب أقيمت الديموقراطيات الشعبية التى كانت هى التعبير عن نظام قائم على تحالف العمال والفلاحين . واستطاعت الاحزاب الشيوعية وأحزاب العمال ضبط علاقاتها حتى تتلاءم مع أحزاب الفلاحين . وبالنسبة الى أحزاب الفلاحين الجماهيرية والتى وقعت قيادتها بقوة فى أول الأمر تحت نفوذ البورجوازية الريفية ، بدأ الشيوعيون ينتهجون سياسة كشف الغطاء عن الزعماء الرجعيين وعزلهم عن الجماهير .

فأيدوا الجناح اليسارى من حركة الفلاحين ، وساعدوا على تحقيق تقـدم الممثلين الصادقين للفلاحين . وطردت أحزاب الفلاحين العناصر البـورجوازية من قيادتها، واعترفت بدور التوجيه الذى تضطلع به الطبقة العاملة .

وفى جميع الديموقراطيات الشعبية الاوربية نفذت فيما بين عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٧ الاصلاحات الزراعية الديموقراطية التى قضت على طبقة كبار الملاك .

ففى بولندا وهنغاريا كان نصف جميع الارض المنزرعة ملكا لكبار الملاك ، وكان ثلثها كذلك فى تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ، وكان الاغلبية فى ألبانيا . وكانت بلغاريا هى البلد الوحيد الذى اتسم فيه الاصلاح الزراعى منذ البداية بطابع مضاد للراسمالية وذلك لأنه فى وقت الحرب الروسية ــ التركية فى ١٨٧٧ ــ ٧٨ هرب سادة الارض ــ وكانوا جميعا من الجنسية التركية ــ من البلد ولم يخلفوا صناعات كبيرة فى أيـدى أصحابها . وفى الديموقراطيات الشعبية لم يؤمم سوى جزء صغير من الارض الزراعية اذ أراد جمهور الفلاحين الحصول على ضياع كبار الملاك لتكون ملكية خاصـة لهم ، وهذه قسمت أولا بين الفلاحين الذين كانوا يملكون القليل من الارض أو لايملكون منهـا شيئا .

واشتركت جماهير الفلاحين أنفسهم فى الاستيلاء على ممتلكات ملاك الارض وتوزيعها، وساعدتهم الطبقة العاملة فى الاستيلاء عليها . وعندما بدأت حكومة الجنرال راديسكو برومانيا تخريب الاصلاح الزراعى فى عام ١٩٤٥ ، دعا العمال الفلاحين أنفسهم الى تقسيم الارض وأخذ بنصيحتهم . وفى نهاية ١٩٤٤ أرسل حـزب العمال البولندى مبعوثين (قوميسيرات) الى القرى لتوزيع الضياع ، وساعدهم فى مهمتهم فرق من عمـال المصانع .

ودعم تقسيم الضياع الكبيرة اتحاد العمال والفلاحين . وتحسنت نوعا الاحـوال المادية فى الريف ، ولم تمض سنوات قلائل حتى رفع معظم الفلاحين الفقراء ملكياتهم الى مستوى الفلاحين المتوسطين الاقتصادى . بيد أن هذا لم يكن حلا جذريا للمشـكلة الفلاحية . وبمرور الوقت اقتنع الفلاحون عن طريق التجربة الشخصية أن ثمـة احتمالا قليلا جدا بحدوث تحسين كبير فى المجموعة الكبرى من ملكيات الفلاحين ، ومن ثم يجب انشاء المزارع الجماعية .

وبابتداء عام ١٩٦٢ كان جميع الفلاحين تقريبا بالديموقراطية الشعبية الاوربية . بما فيهم الكولاك السابقون ، قد انضموا طواعيـة الى التعاونيات الزراعية الانتاجية وتوزع دخول تعاونيات الانتاج فى البلاد الاشتراكية الاوربية ، وبصفة أساسية بنسبة العمل الذى يؤدى وكذلك بنسبة الارض .

(١٧) يلاحظ ف . ب تيخو ميروف أن حكومة كارديناس (١٩٣٤ ــ ٤٠) هى الوحيدة بالفعل التى بدأت تنفيذ الاصلاح الزراعى فى المكسيك ، ولكن هذا الاصلاح لم ينفذ حتى نهايته . ولا يزال نضال الفلاحين من أجل الارض قائما فى المكسيك . ولهذا أثار الفلاحون اضطرابات فى عام ١٩٥٨ فى الجزء الشمالى الغربى من البـلد .

(١٨) يلاحظ ف . ب . تيخو ميروف أن الاصـــلاح الزراعى فى كوبا لم يكن مجرد « بند فى برنامج الزعيم الثورى » . ففى ١٧ مارس ١٩٥٩ سن قانون للاصـلاح الزراعى فى كوبا ، وعندما بدأ تنفيذه فى عام ١٩٦٠ أسفر عن القضـاء الـكامل على المزارع الكبيرة التى كانت تمثل العقبة الرئيسـية دون اتمام الثورة الكوبية . وطبقا لمـا نص عليـه التشريع الزراعى أعطيت قطع من الارض الى حوالى ١٢٥٫٠٠٠ من أسر الفلاحين جرى انتقاؤهم بصفة رئيسية ممن سبق أن كانوا من المستأجرين عند كبـــار الملاك . وثمة مظهر خاص من التحول الزراعى ، ذلك هـــو حدوث حركة شاملة لانشـــاء التعاونيات (تعاونيات الانتاج مع الزراعة المشتركة للارض) التى خصص لها أكثر من نصف مساحة الارض الصالحة للزراعة . وخطت التعاونيات وبصـــفة رئيسية فى أماكن ضياع كبار الملاك التى كانت قد منحت الى العمال الزراعيين والفـلاحين الذين كانوا من قبل يملكون القليل من الارض أو لا يملكون منها شيئا .

(١٩) يلاحظ مرشح العلوم الاقتصـــادية ز . م باشتكينا أن دســتور الاتحـــاد السوفييتى يقرر على وجه التحديد أن للنساء حقا متساويا فى التعليم ، ومما يتصل بهذا هو التدريب المهنى للنساء . ففى عام ١٩٦٠ ـ ٦١ كان النساء يشكلن ٤٧٪ من مجموع تلاميذ المدارس المهنية المتوسطة . وفى الفصل الدراسى لعام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ كن يشكلن ٤٣٪ من الطلاب فى المؤسسات التعليمية العليا ، ٦٣٪ من الطلاب فى المعاهد العليا لتخريج المعلمين ، وكن يشكلن ٥٦٪ من الطلاب فى معاهد تدريب الموظفين للخدمات الصحية العامة وادارات الرياضة والثقافة .

Narodnoye Khozyaiaistvo SSSR v 1960 g. Statistichesky sbornik.

(الكتاب السنوى الاحصائى عن الاقتصاد القومى للاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٠ ، موسكو ١٩٦١ ، ص ٧٧٩) .

محتويات الكتاب

الموضوع الصفحة

الفصل الحادى عشر :

الموضوع **الصفحة**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٨٢/١٩٧٢



الثمن ٥٠ قرشا